الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

لغة المستقبل



لغة المستقبل

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

لغة المستقبل

اعتنى به

يمان بن عبد الرحمن الباشا



عنوان الكتاب : لغة المستقبل
المؤلف : الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا
اعتنى به : يمان بن عبد الرحمن الباشا
الغلاف والخطوط : منير الشعراني
الإعداد الفني والتنضيض الضوئي : دار الأدب الإسلامي

الطبعة الأولى : 17 / 12 / 2005م
الإصدار الثالث : 20 / 5 / 2015م
رقم الإيداع : 3371 / 2005
I.S.B.N : 978-977-5827-09-4



ILH
Islamic
Literature House
For Pub. & Distr.

ص. ب. : 81 - بريد بانوراما 11811 القاهرة
جمهورية مصر العربية
هاتف وناسوخ : 25147626 (2) 20+
خلوي : 05105577 (10) 20+

P.O. Box : 81 - Panorama 11811
Cairo - Egypt
Tel. & Fax : +20 (2) 25147626
Mob. : +20 (10) 05105577
E. Mail : ilhonline@gmail.com
Face Book : http://fb.com/ILH4Pub
Website : www.ilh4pub.co.nf

تصدير

الحمد للّه ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام علىٰ أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين ، وبعد ...

فممّا لا ريب فيه أنّ العربيّة قد وسعت كتاب اللّه لفظًا وغايةً ، بعد أن كانت لغة الصّحراء والفيافي والقفار ... وممّا لا ريب فيه أيضًا أنّ العربيّة قد اتسعت لفلسفة اليونان ، وحكمة الهنود ، وأدب الفرس ، وغيرها وغيرها ... ولولاها لضاع الكثير ممّا حفل به التّراث الإنسانيّ عبر القرون ؛ من علوم ومعارف وفنون .

ولم يقتصر دور العربيّة علىٰ ذلك فحسب ؛ بل احتضنت كلّ مستجدات النّهضة في شتىٰ الميادين العلميّة ... فلقد كان ناطقوها أوّل من سنّ الدّساتير الطّبية ودوّن كتب الصّيدلة ، وفهم الانعكاس والانكسار ، كما ابتكروا علم الجبر ... وكلّ تلك العلوم وغيرها احتاجت إلىٰ مصطلحاتٍ ؛ وكلّها وجدت مصطلحاتها الدّقيقة المعبرة في لغتنا المتسعة الزّاخرة .

ومع تلك الحقائق الثّابتة الدّامغة ؛ نجد في عصرنا الحاضر من يرىٰ : أنّها لغة عقيمة متحجرة ؛ لا تصلح لعصر الآلة والذّرة .

إلّا أنّ هناك آراء مخالفة مغايرة ترىٰ في أنّ هٰذه اللّغة ليست خالدة علىٰ فناء الزّمان فحسب ؛ ولكنها لغة المستقبل[1]...

ومن الحقائق التّاريخية الثّابتة ما عبر عنه أحد المستشرقين : بأنّ اللّغة العربيّة لم تتقهقر قطّ فيما مضىٰ أمام أيّ لغة من اللّغات الّتي احتكت بها ، وذلك أنّ لها لينًا ومرونة يمكنانها من

---

(١) انظر ص ١٦ من هذا الكتاب .

التّكيف وفقًا لمقتضيات العصر[١].

ولا غرو ؛ فللعربيّة من مكامن الحياة ، وعجائب الأسرار ، وعبقرية الأداء ؛ ما جعل حافظ إبراهيم ـ رحمه الله ـ يصفها بالبحر ؛ حيث قال :

أنا البحر في أحشائه الدّر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

وعلىٰ الرّغم من وجود ذلك الوعي الفائق بلغة القرآن لدىٰ خاصّة المختصين ؛ إلّا أنّه مغيّب لدىٰ العامّة من أبناء أمتنا ... وهٰذا ما حدا بالمؤلف ـ رحمه الله ـ لأن يخاطب العامّة قبل الخاصّة في جلسات عقدها بين والد وولده ... وها نحن أولاء نقدّمها للقرّاء الكرام مطبوعة ؛ بعد أن قدمتها إذاعة الرّياض مسموعة عام ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م .

وقد اجتهدت في وضع عنوان لكلّ جلسة من جلساتها ، مع مطابقة ومراجعة دقيقة علىٰ أكثر من أصل مخطوط ، وشرح لما غمض من مفردات علىٰ القارئ العادي ...

واجتهدت أيضًا في وضع « **لغة المستقبل** » عنوانًا لهٰذا الكتاب ؛ مع فهارس له ، كما حرصت علىٰ أن ألحق بهٰذا التّصدير ؛ تعريفًا موجزًا بصاحب الكتاب .

ولم يكن اختيار عنوان الكتاب من قبيل العبث ؛ بل هو نتيجة حتميّة لما أورده المؤلف ـ رحمه الله ـ من حقائق وبراهين ؛ تُفضي إلىٰ أنّ اللّغة العربيّة لها من القدرة العجيبة علىٰ احتواء جميع اللّغات ؛ في حين يتعذّر علىٰ أي لغة أخرىٰ الإحاطة بأبجديتها .

وبعد... فإنّ واجب عرفان الجميل يقتضي أن أتقدم بجزيل الشّكر وخالص الدّعاء إلىٰ كلّ من أعانني علىٰ تقديم هٰذا العمل بأفضل صورة ممكنة ، وأخص بالذكر الأخ الفاضل الأستاذ عبد السلام عبد المالك حباب الذي لم يألوا جهدًا في دعمه المعنوي والمادي .

راجين الله عز وجل أن ينفعنا بهٰذا الكتاب ، وأن يجعلنا أكثر إدراكًا لما للغة القرآن من أثر في حفظ كيان أمتنا ... لنكون أكثر حرصًا علىٰ صون جواهرها من العبث والضّياع ...

ولنكون أكثر وعيًا للذّود عن لغة المستقبل .

يمان بن عبد الرّحمٰن الباشا

---

(١) انظر مجلة اللسان العربي عدد سنة ١٩٧٦م موضوع « اللغة العربية وتحديات العصر » للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله .

نبذة عن المؤلّف

● ولد الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا عام ١٩٢٠م في بلدة « أريحا » شمال « سوريّة » ، وتلقىٰ دراسته الابتدائيّة فيها ، ثمّ تخرج في المدرسة « الخسرويّة » بحلب ؛ وهي أقدم مدرسة شرعيّة رسميّة في « سوريّة » ... أمّا دراسته الجامعيّة ؛ فتلقاها في « القاهرة » ؛ حيث نال الشّهادة العاليّة لكليّة أصول الدّين في الأزهر المعمور ، وشهادة اللّيسانس أيضًا في الأدب العربيّ من كليّة الآداب بجامعة فؤاد الأوّل ، ثمّ درجتي الماجستير والدّكتوراه من هٰذه الجامعة الّتي أُطْلِقَ عليها فيما بعد اسم جامعة القاهرة .

● اشتغل ـ رحمه اللّٰه ـ مدرسًا فمفتشًا ، ثمّ كبيرًا لمفتشي اللّغة العربيّة في « سوريّة » ، ثمّ مديرًا لدار الكتب الظّاهريّة المنبثقة عن المجمع العلميّ العربيّ في « دمشق » ، وأستاذًا محاضرًا في كليّة الآداب في جامعة دمشق .

● ثمّ انتقل إلىٰ « المملكة العربيّة السّعوديّة » للتّدريس في كليّة اللّغة العربيّة بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة [الرّئاسة العامّة للكليّات والمعاهد العلميّة سابقًا] سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ؛ وقد شغل منصب رئيس قسم البلاغة والنّقد ومنهج الأدب الإسلاميّ ، وكان عضوًا في المجلس العلميّ في الجامعة منذ أن وُجِدَ ، وعُهِدَ إليه بلجنة البحث والنّشر في الجامعة ذاتها ، ولقد أسهم ـ رحمه اللّٰه ـ إسهامًا كبيرًا في تطوير مناهج الدّراسة ، وإقرار مادّة البحوث في كليّة اللّغة العربيّة ؛ الّتي امتدّ عمله بها إلىٰ أكثر من عشرين عامًا .

* * *

لقد أمضىٰ الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا حياته العلميّة والعمليّة منذ بدايتها مكافحًا ومنافحًا عن لغة القرآن ... داعيًا إلىٰ فنّ أدبيّ لا يكتفي بجمال التّعبير و إبداع التّصوير ؛ و إنّما يُشترط فيه أن يكون ممتعًا هادفًا نافعًا في وقتٍ معًا ... فنّ أدبي إسلاميّ يلتزم أمام إلٰه متّصف بصفات الكمال كلّها ، منزّه عن صفات النّقص جميعها ...

ويكون بسماته هٰذه مغايرًا للتّيارات الأدبيّة الأخرىٰ الّتي تلتزم أمام النّفوس البشريّة الأمّارة بالسّوء .

ومع أنّه - رحمه اللّٰه - لم يكن هو أوّل من دعا إلىٰ إيجاد هٰذا الأدب ، فقد سبقه إلىٰ ذلك كثير من المفكرين ، وهو - رحمه اللّٰه - يعترف بذلك ويقر بالفضل لأهله ...

لٰكنّه استطاع أن يجعل أماني أولئك العلماء حقيقة واقعة ...

فقد سعىٰ - رحمه اللّٰه - لإيجاد عمل موسوعي يخدم الأدب الإسلاميّ ويكون له بمثابة الخلفيّة التّاريخيّة ، والقاعدة الصّلبة الّتي ينهض عليها بناؤه ؛ ليساعد الدّارسين في معرفة هٰذا الأدب ودراسة خصائصه ورصد موضوعاته ... ومن هنا ظهرت فكرة « **موسوعة أدب الدّعوة الإسلاميّة** » الّتي تبنتها كليّة اللّغة العربيّة بالرّياض ، والّتي تمّت تحت إشرافه وتوجيهه - رحمه اللّٰه - حيث كانت نتاج مادة البحث لطلبة السّنة النّهائيّة بكليّة اللّغة العربيّة ، وصدر منها ستة أسفار :

١ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين » .

إعداد عبد اللّٰه حامد الحامد . « ١٣٩١هـ - ١٩٧١م » .

٢ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر الأمويّ » .

إعداد عبد العزيز محمّد الزّير ، ومحمّد بن عبد اللّٰه الأطرم . « ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م » .

٣ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر العباسيّ الأوّل » .

إعداد عبد اللّٰه عبد الرّحمٰن الجعيثن . « ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م » .

٤ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر العباسيّ الثّاني » .

إعداد عائض بنية الرّداديّ . « ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م » .

٥ - شعر الدّعوة الإسلاميّة « في العصر العباسيّ الثّالث » .

إعداد محمّد بن عليّ الصّامل ، وعبد اللّٰه بن صالح العرينيّ . « ١٤٠١هـ - ١٩٨١م » .

هٰذا في مجال الشّعر ، أمّا في مجال النّثر ، فقد صدرت « القَصص الإسلاميّة في

عهد النّبوة والخلفاء الرّاشدين » في مجلّدين اثنين كبيرين ؛ أربىٰ عدد صفحاتهما علىٰ الألف ... إعداد أحمد بن حافظ الحكميّ . « ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م » .

وقد كان لصدور هٰذه الأسفار من الموسوعة ؛ أثر ملموس في تغيير بعض المُسَلَّمَات الأدبيّة الخاطئة عن الشّعر الإسلاميّ ، ولا سيما في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين ... فلقد كتبت الدّكتورة عائشة عبد الرّحمٰن « بنت الشّاطئ » مقالًا نُشر بالأهرام في عدد يوم الجمعة الواقع في ١١/٧/١٩٧٥م بعنوان : « الإسلام والشّعر والمستوىٰ الفني لشعر الصّحابة » ، وذلك بمناسبة الرّسالة الّتي أعدّها تحت إشرافها الأستاذ محمّد الرّاوندي ؛ المحاضر بدار الحديث الحسنيّة بالرّباط بعنوان : « الصّحابة الشّعراء » ، حيث نقلت فيها فِقَرًا من مقدّمة الجزء الأوّل من موسوعة أدب الدّعوة الإسلاميّة في عصر النّبوة والخلفاء الرّاشدين ، وقررت أنّ الجهود الجديّة قلبت المُسَلَّمَات الأدبيّة السّابقة قلبًا ؛ إذ كان الدّارسون - وهي منهم - يقيمون أحكامهم علىٰ حصر شعراء الدّعوة بما لا يزيد عن أصابع اليدين عددًا .

كما كان لهٰذه الأسفار أيضًا أثر كبير في إعداد الدّراسات الجامعيّة حول هٰذا الأدب ؛ حيث سُجّلت في جامعات الأزهر ، والقاهرة ، وبغداد ، والرّباط طائفة مِنَ البحوث حول هٰذا الأدب ؛ لنيل درجتي الماجستير والدّكتوراه .

* * *

هٰذا ، وقد عمل الدّكتور الباشا - رحمه اللّٰه - علىٰ توسيع نطاق التّعريف بهٰذا الأدب اليتيم - كما كان يُطْلِق عليه في بعض المناسبات - وذلك من خلال برنامج إذاعيّ سُجّلت حلقته الأولىٰ في شهر ربيع الآخر عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م وبثّته إذاعة « الرّياض » ، وقد أربىٰ عدد حلقاته علىٰ (٢٤٠) تحت اسم :

« مع أدب الدّعوة الإسلاميّة » .

* * *

وقد قام وحده - رحمه اللّٰه - برسم منهج إسلاميّ في الأدب والنّقد ، وعمل علىٰ إرساء قواعده ، وتبنّت جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة هٰذه الفكرة الرّائدة ، وأوسعت لها في المحاضرات الجامعيّة ... حتىٰ قُيّض لمادّة منهج الأدب الإسلاميّ أن تقف علىٰ أرض صُلبة قويّة ، وأُنشئ علىٰ أثرها أوّل قسم خاص بها في العالم

الإسلاميّ ... وقد عبّر عن ذلك سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي في التّقديم الّذي كتبه لكتاب «نحو مذهب إسلاميّ في الأدب والنّقد» حيث قال:

«كان الدّكتور عبد الرّحمٰن ممّن يتّصف بالعمل والتّطبيق، فلم يستجب لهٰذه الفكرة استجابة فكريّة فحسب، بل سَبَق إلىٰ تنفيذها وتجسيدها خلال تدريسه بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، و إشرافه علىٰ البحوث الأدبيّة، ثمّ تطوّرت آماله إلىٰ تأسيس رابطة تُعْنَىٰ بهٰذا الموضوع، وعَقَدَ ندوات حول الموضوع، والتفَّ حوله أساتذة وكتّاب كان بينهم وبينه انسجام فكري، وتحوّلت هٰذه الفكرة إلىٰ منظّمة عالميّة».

لقد مرّ إنشاء هٰذه المنظّمة الّتي دعيت برابطة الأدب الإسلاميّ العالميّة بمراحل عديدة؛ كان أهمّها ذلك الاجتماع الّذي عُقد في منزل الدّكتور الباشا في مدينة «الرّياض» عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م والّذي ضم لفيفًا من العلماء؛ في طليعتهم سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي، وفي هٰذا الاجتماع وُضعت الخطوط العريضة لعقد ندوة عالميّة؛ تَلُم شَعْث الأدباء في مشرق العالم الإسلاميّ ومغربه ... وهو موضوع شغل بال الدّكتور الباشا - رحمه اللّٰه - منذ أمد طويل.

ثمّ كانت النّدوة العالميّة للأدب الإسلاميّ في «لِكْنُو» في شهر جمادى الآخرة عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، حيث دُعي إلىٰ هٰذه النّدوة عدد كبير من رجالات العالم الإسلاميّ المهتمين بالأدب، وقد انتخب سماحة الشّيخ أبو الحسن النّدوي رئيسًا للرّابطة؛ كما انتخب الدّكتور الباشا نائبًا لرئيسها، وعضوًا في مجلس الأمناء، ورئيسًا لمكتب البلاد العربيّة ...

كما شارك - الدّكتور الباشا - أيضًا في العديد من النّدوات والمؤتمرات، وناقش وأشرف علىٰ عدد من رسائل الماجستير والدّكتوراه.

* * *

تُوُفّي - رحمه اللّٰه - في يوم الجمعة ١٤٠٦/١١/١٢هـ الموافق ١٩٨٦/٧/١٨م إثر مرض عضال في مدينة «اسطنبول» بتركيا، وسُجّي جثمانه بمقبرة «الفاتح» هناك؛ حيث يرقد كثير من الصّحابة والتّابعين الّذين أحبهم في حياته وجاورهم في مدفنه.

سائلين العليّ القدير أن يصحبهم في جنّات الخلد أيضًا.

يمان بن عبد الرّحمٰن الباشا

الْجَلْسَةُ الأُولَىٰ

قِيمَةُ اللُّغَةِ فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ

◆ أَبَتِ ، طَابَ يَوْمُكَ ، يَا أَبَتِ .

◇ يَوْمُكَ أَطْيَبُ يَا بُنَيَّ .

◆ أَبَتِ ، هَلْ لِيَ أَنْ أَسْأَلَ ؟ .

◇ سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ .

◆ مَا هُوَ بِأَمْرٍ بَدَا لِي[1]، وَإِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ سَمِعْتُهَا .

◇ وَمَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ؟ .

◆ إِنَّهَا قَوْلُ الْقَائِلِ : الْيَدُ وَاللِّسَانُ تِلْكَ هِيَ الإِنْسَانِيَّةُ .

◇ أَفِي هَذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ يُسْتَغْلَقُ[2] عَلَىٰ فَهْمِكَ ، وَأَنْتَ اللَّبِيبُ الأَرِيبُ ؟ ... أَلَمْ يَقُلْ طَرَفَةُ :

لِسَانُ الْفَتَىٰ نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

(١) بدا لي : ظهر لي .
(٢) يستغلق : يصعب فهمه ويعسر .

◆ وَلَكِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعْتُهَا مَا تَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ إِيضَاحٍ ، فَهِيَ تَقُولُ : الْيَدُ وَاللِّسَانُ تِلْكَ هِيَ الْإِنْسَانِيَّةُ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، الْيَدُ وَاللِّسَانُ هُمَا قِوَامُ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ أَلَيْسَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ بِتَارِيخِهَا الْحَافِلِ ، وَمُنْجَزَاتِهَا الْعَظِيمَةِ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ مَجْمُوعَةً كَبِيرَةً مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَفْكَارِ ؟ ... وَالْأَعْمَالُ أَدَاتُهَا الْيَدُ ، وَالْأَفْكَارُ أَدَاتُهَا اللِّسَانُ أَوِ اللُّغَةُ .

◆ أَلِلُّغَةِ هَذِهِ الْأَهَمِّيَّةُ الْكُبْرَىٰ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ ، يَا أَبَتِ ؟! .

◇ لِتَعْرِفَ قِيمَةَ اللُّغَةِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَتَصَوَّرَ الْمُجْتَمَعَ الْبَشَرِيَّ مِنْ غَيْرِ لُغَةٍ ؛ مَاذَا يَكُونُ شَأْنُهُ ؟ .

◆ لَا يَكُونُ لَهُ أَيُّ شَأْنٍ .

◇ بَلْ يَكُونُ كَالْقُطْعَانِ السَّارِبَةِ فِي الْفَلَوَاتِ(١)، تَعِيشُ لِتَأْكُلَ ، ثُمَّ يَطْوِيهَا الْفَنَاءُ قَطِيعًا إِثْرَ قَطِيعٍ ، دُونَ أَنْ تَبْنِيَ حَضَارَةً ، أَوْ تُخَلِّفَ تُرَاثًا ...
وَمِنْ هُنَا قَالُوا : اللُّغَةُ ظَاهِرَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ .

◆ بِأَيِّ مَعْنًى يَا أَبَتِ ؟ .

◇ بِمَعْنَىٰ أَنَّ اللُّغَةَ خَاصَّةٌ مِنْ خَصَائِصِ الْإِنْسَانِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا أَيُّ مَخْلُوقٍ آخَرَ ؛ فَقَدْ كَرَّمَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بِاللُّغَةِ كَمَا كَرَّمَهُ بِالْعَقْلِ .

◆ أَلِهَذَا دُعِيَ الْإِنْسَانُ حَيَوَانًا نَاطِقًا ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَالنُّطْقُ بِمَعْنَىٰ التَّكَلُّمِ ، وَالنُّطْقُ بِمَعْنَىٰ التَّعَقُّلِ ؛ هُمَا أَخَصُّ خَصَائِصِ الْإِنْسَانِ وَأَبْرَزُ مَزَايَاهُ ...

---

(١) الساربة في الفلوات : الماضية في الأراضي الواسعة المقفرة .

ثُمَّ إِنَّ اللُّغَةَ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ أَيْضًا .

◆ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ !! .

◇ نَعَمْ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ ؛ وَلِتَتَمَثَّلَ ذَلِكَ أَكْمَلَ تَمَثُّلٍ مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَتَصَوَّرَ إِنْسَانًا حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ ، وَهُوَ يَجْهَلُ لُغَتَهُمْ ؛ كَيْفَ يَبْقَىٰ مَعْزُولًا عَنْهُمْ مَحْرُومًا مِنَ الْإِفَادَةِ مِنْهُمْ ، عَاجِزًا عَنْ تَبَادُلِ الْمَنَافِعِ مَعَهُمْ ...

◆ بَلْ رُبَّمَا أَوْقَعَهُ جَهْلُهُ بِلُغَتِهِمْ فِي وَرْطَةٍ .

◇ لَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ كَثِيرًا ، وَلَعَلَّ مِنْ أَطْرَفِ مَا رُوِيَ فِي هَذَا الصَّدَدِ : أَنَّ زَيْدَ بْنَ دَارِمٍ الْحِجَازِيَّ دَخَلَ عَلَىٰ مَلِكِ « حِمْيَرٍ » فِي مَدِينَةِ « ظَفَارَ » ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ نَشَزٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ ؛ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : ثِبْ [أَيْ : اجْلِسْ فِي لِسَانِ حِمْيَرٍ] .

فَقَفَزَ الدَّارِمِيُّ مِنْ فَوْقِ الْمَكَانِ الْعَالِي طَاعَةً لِلْمَلِكِ وَوَلَاءً لَهُ ، فَانْدَقَّتْ رِجْلَاهُ ؛ فَلَمَّا سَأَلَ الْمَلِكُ عَنْ شَأْنِهِ ؛ قِيلَ لَهُ :

إِنَّ ثِبْ فِي لُغَةِ أَهْلِ الْحِجَازِ تَعْنِي : اقْفِزْ ، وَقَدِ اسْتَجَابَ الدَّارِمِيُّ لِأَمْرِكَ .

◆ وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ حَاوَلَ ذَلِكَ بَعْضُ مُفَكِّرِي الْغَرْبِ ، فَقَدْ رَأَىٰ الْفَيْلَسُوفُ الْفَرَنْسِيُّ « دِيكَارْت » وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ أَنَّ تَعَدُّدَ لُغَاتِ الْبَشَرِ أَدَّىٰ إِلَىٰ صُعُوبَةِ التَّفَاهُمِ بَيْنَ الشُّعُوبِ ، وَعَاقَ سَيْرَ الْحَضَارَةِ ، فَاقْتَرَحُوا وَضْعَ لُغَةٍ جَدِيدَةٍ مُوَحَّدَةٍ تَكُونُ لُغَةَ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا .

◆ وَهَلْ لَقِيَ هَذَا الِاقْتِرَاحُ أُذُنًا صَاغِيَةً مِنْ أَحَدٍ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ قَامَ طَبِيبٌ بُولُونِيٌّ يُدْعَىٰ « لُودْفِيجْ زَامِنْهُوفْ » فَوَضَعَ اللُّغَةَ

الْمُسَمَّاةَ « الْإِسْبِيرَانْتُو » .

- ◆ وَمِمَّ تَتَأَلَّفُ هَذِهِ اللُّغَةُ يَا أَبَتِ ؟ .

- ◇ تَتَأَلَّفُ مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ حَرْفًا بِعَدَدِ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمِنْ سِتَّ عَشْرَةَ قَاعِدَةً ، وَمِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ تُعَدُّ بِالْمِئَاتِ .

- ◆ وَمِنْ أَيْنَ اخْتِيرَتْ كَلِمَاتُ هَذِهِ اللُّغَةِ ؟ .

- ◇ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ اللُّغَاتِ ، وَلَكِنَّ مُعْظَمَ أَلْفَاظِهَا أُخِذَ مِنَ اللُّغَتَيْنِ « الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » وَ« الرُّومَانِيَّةِ » .

- ◆ وَهَلْ لَقِيَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ رَوَاجًا يَا أَبَتِ ؟ .

- ◇ لَقَدْ نَشِطَ الدَّاعُونَ إِلَىٰ هَذِهِ اللُّغَةِ نَشَاطًا كَبِيرًا ، فَقَامَتْ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَصْقَاعِ الْمَعْمُورَةِ جَمْعِيَّاتٌ تَدْعُو إِلَىٰ هَذِهِ اللُّغَةِ ، حَتَّىٰ قُدِّرَتْ هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتُ بِسِتٍّ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ .

- ◆ أَلْفٌ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسِتٌّ وَسَبْعُونَ جَمْعِيَّةً !! .

- ◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَلِهَذِهِ الْجَمْعِيَّاتِ مَرْكَزَانِ رَئِيسِيَّانِ أَحَدُهُمَا فِي « جِنِيفَ » وَالْآخَرُ فِي « بَارِيسَ » ، وَقَدْ صَدَرَتْ بِهَذِهِ اللُّغَةِ صُحُفٌ فِي كُلٍّ مِنَ « الصِّينِ » وَ« الْيَابَانِ » وَ« أَمْرِيكَا » .

- ◆ عَلَىٰ هَذَا فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُتَكَلِّمُونَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ كَثِيرًا فِي الْعَالَمِ ؟! .

- ◇ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا خُيِّلَ إِلَيْكَ يَا بُنَيَّ ، فَعَدَدُ الْمُتَكَلِّمِينَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ أَقَلُّ مِنْ رُبْعِ مِلْيُونٍ .

- ◆ أَقَلُّ مِنْ رُبْعِ مِلْيُونٍ فِي أَنْحَاءِ الْمَعْمُورَةِ كُلِّهَا !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، هَذَا مَا تَقُولُهُ دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ « الْأَلْمَانِيَّةُ » .

◆ وَبِمَ تُعَلِّلُ عَدَمَ الْإِقْبَالِ عَلَىٰ هَذِهِ اللُّغَةِ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ سُهُولَتِهَا وَمَا يُمْكِنُ أَنْ تُحَقِّقَهُ لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ مَنَافِعَ ؟ .

◇ إِنَّ الْأُمَمَ تُحِلُّ لُغَاتِهَا مِنْ نُفُوسِهَا مَحَلَّ الرُّوحِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَتَضَعُهَا مَوْضِعَ النُّورِ مِنَ الْعُيُونِ ، وَتَرَىٰ فِي التَّفْرِيطِ بِهَا زَوَالًا لِشَخْصِيَّتِهَا ، وَمَحْوًا لِوُجُودِهَا ، وَقَضَاءً عَلَىٰ حَضَارَتِهَا وَتُرَاثِهَا .

◆ أَيُخْشَىٰ عَلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ اللُّغَةِ ؟ .

◇ الْعَرَبِيَّةُ - يَا بُنَيَّ - مَصُونَةٌ بِحِفْظِ اللَّهِ ، بَاقِيَةٌ عَلَىٰ وَجْهِ الدَّهْرِ .

◆ وَمَا سِرُّ بَقَائِهَا ؟ .

◇ صَلَاحُهَا ، عَبْقَرِيَّتُهَا ، مَنْطِقِيَّتُهَا .

◆ أَهَذَا رَأْيُنَا نَحْنُ فِيهَا أَمْ هُوَ رَأْيُ الْآخَرِينَ أَيْضًا ؟ .

◇ رَأْيُنَا ، وَرَأْيُ الْآخَرِينَ ... لِلَّهِ أَنْتُمْ مَعْشَرَ الشَّبَابِ ، إِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ لَنَا دَائِمًا وَأَبَدًا شَهَادَةً مِنَ الْآخَرِينَ .

◆ مَعْذِرَةً يَا أَبَتِ .

◇ إِذَا كُنْتَ لَا تَرْتَاحُ إِلَّا لِشَهَادَةِ الْآخَرِينَ ؛ فَإِلَيْكَ الشَّهَادَةَ :
كَتَبَ الرِّوَائِيُّ الْفَرَنْسِيُّ « جُولْ فِرْن » قِصَّةً خَيَالِيَّةً ، وَجَعَلَ أَبْطَالَهَا مِنَ الرُّوَّادِ الْمُغَامِرِينَ الَّذِينَ عَزَمُوا عَلَىٰ اخْتِرَاقِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ طَبَقَةً إِثْرَ طَبَقَةٍ بُغْيَةَ الْوُصُولِ إِلَىٰ جَوْفِهَا ، وَالْكَشْفِ عَمَّا فِي وَسَطِهَا .

◆ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ الْإِنْسَانُ فِي اخْتِرَاقِ طَبَقَاتِ الْجَوِّ ؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَقَدْ تَخَيَّلَ « جُولْ فِرْن » أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّوَّادَ قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ وَسَطِ الْأَرْضِ ، وَحَقَّقُوا آمَالَهُمْ ؛ فَلَمَّا أَرَادُوا الْعَوْدَةَ إِلَىٰ سَطْحِهَا بَدَا لَهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا فِي جَوْفِ الْأَرْضِ أَثَرًا يَدُلُّ عَلَىٰ الْعَمَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْجَزُوهُ ، وَالْكَشْفِ الْكَبِيرِ الَّذِي حَقَّقُوهُ .

◆ فَمَاذَا فَعَلُوا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ نَقَشُوا عَلَىٰ الصَّخْرِ ذِكْرَىٰ رِحْلَتِهِمْ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ هَكَذَا يَقُولُ كَاتِبُ الْقِصَّةِ « جُولْ فِرْن » ؟!! .

◇ نَعَمْ هَذَا مَا قَالَهُ .

◆ وَمَا السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَهُ يَخْتَارُ الْعَرَبِيَّةَ دُونَ لُغَتِهِ أَوْ سِوَاهَا مِنْ لُغَاتِ الْأَرْضِ ؟ .

◇ لَقَدْ طَرَحَ النُّقَّادُ عَلَىٰ « جُولْ فِرْن » هَذَا السُّؤَالَ نَفْسَهُ .

◆ فَبِمَ أَجَابَهُمْ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ قَالَ لَهُمْ : إِنَّمَا اخْتَرْتُ الْعَرَبِيَّةَ لِأَنَّهَا لُغَةُ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّهُ سَيَمُوتُ غَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ وَتَبْقَىٰ هِيَ حَيَّةً حَتَّىٰ يُرْفَعَ الْقُرْآنُ .

◆ رَائِعٌ حَقًّا رَائِعٌ ...

◇ أَمَا قُلْتُ لَكَ : إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الشَّبَابِ لَا تَطْرَبُونَ إِلَّا لِشَهَادَةِ الْآخَرِينَ فِينَا .

◆ وَمَا فِي ذَلِكَ - يَا أَبَتِ - ، أَلَيْسَ الْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ ؟! .

◇ أَرَانَا اسْتَطْرَدْنَا[١] كَثِيرًا - يَا بُنَيَّ - فَقَدْ كُنْتُ مُزْمِعًا أَنْ أَحْصُرَ الْحَدِيثَ فِي

---

(١) استطردنا : انتقلنا في الحديث من موضوع إلى آخر .

أَهَمِّيَّةِ اللُّغَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ لُغَةٌ ، فَجَرَرْتَنِي بِأَسْئِلَتِكَ إِلَىٰ الْحَدِيثِ عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ لَوْ لَمْ تَعْدِلْ بِكَ أَسْئِلَتِي إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَعَطَفَكَ[١] نَحْوَهَا حُبُّكَ إِيَّاهَا ، وَعَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ ؛ فَمَا زَالَ فِي الْوَقْتِ مُتَّسَعٌ لِإِتْمَامِ مَا بَدَأْنَاهُ .

◇ لَكِنَّنِي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْحَدِيثِ قَدْ أَنْسَاكَ أَوَّلَهُ .

◆ لَمْ أَنْسَ شَيْئًا - يَا أَبَتِ - ، لَقَدْ قُلْتَ : إِنَّ اللُّغَةَ ظَاهِرَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ اخْتُصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ ، وَ إِنَّهَا ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهَا السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِلتَّفَاهُمِ وَالتَّعَاوُنِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ .

◇ وَأُضِيفُ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ اللُّغَةَ ظَاهِرَةٌ قَوْمِيَّةٌ أَيْضًا .

◆ بِأَيِّ مَعْنًى يَا أَبَتِ ؟ .

◇ بِمَعْنَىٰ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الْعَامِلُ الْأَوَّلُ فِي تَكْوِينِ الْأَقْوَامِ ، وَحِفْظِ كِيَانِ الشُّعُوبِ ؛ فَنَحْنُ إِذَا اسْتَعْرَضْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ بَعْدَ انْحِلَالٍ ، وَتَوَحَّدَتْ بَعْدَ فُرْقَةٍ ؛ وَجَدْنَا أَثَرَ اللُّغَةِ فِي وُجُودِهَا وَوَحْدَتِهَا جَلِيًّا ظَاهِرًا .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَنْ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ « أَلْمَانْيَا » .

◆ « أَلْمَانْيَا » ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَأَلْمَانْيَا بَقِيَتْ إِلَىٰ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ مُقَاطَعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً مُتَنَافِرَةً ، لِكُلِّ مُقَاطَعَةٍ أَمِيرٌ ، وَلِكُلِّ أَمِيرٍ نِظَامٌ ، وَلِكُلِّ نِظَامٍ حُكُومَةٌ .

---

(١) لعطفك نحوها : أي أمالك إليها .

◆ وَمَا الَّذِي جَمَعَهَا مِنْ شَتَاتٍ ؟ .

◇ اللُّغَةُ - يَا بُنَيَّ - ؛ فَقَدْ شَعَرَ قَادَةُ « أَلْمَانْيَا » بِقُدْرَةِ اللُّغَةِ عَلَىٰ جَمْعِ الأَشْتَاتِ إِلَىٰ الأَشْتَاتِ ، فَهَبَّ « هِرْدِرْ » فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ يُنَادِي بِأَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الأَسَاسُ الَّذِي تُرْسَىٰ عَلَيْهِ دَعَائِمُ الْوَحْدَةِ ، وَالنَّوَاةُ الَّتِي تَتَجَمَّعُ حَوْلَهَا الشُّعُوبُ .

◆ وَكَيْفَ كَانَ صَدَىٰ دَعْوَتِهِ[1] فِي قَوْمِهِ ؟ .

◇ لَقَدِ اسْتَجَابَ أُدَبَاءُ « أَلْمَانْيَا » لِدَعْوَةِ « هِرْدِرْ » فَعَكَفُوا عَلَىٰ تُرَاثِهِمُ الْقَدِيمِ يُحْيُونَهُ ، وَاتَّخَذُوا مِنْ مَآثِرِ أَسْلَافِهِمْ مَادَّةً خِصْبَةً لِأَدَبِهِمْ ، وَمِنْ بُطُولَاتِ رِجَالَاتِهِمْ مَوْضُوعَاتٍ مُثِيرَةً لِشِعْرِهِمْ ، وَنَسَجُوا حَوْلَ ذَلِكَ قَصَصًا رَائِعَةً ، وَقَصَائِدَ بَارِعَةً .

◆ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ ذَلِكَ قَدْ لَقِيَ هَوًى فِي نُفُوسِ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ الأَلْمَانِيِّ .

◇ وَخَاصَّةً الشَّبَابَ ، - بُورِكَ فِي الشَّبَابِ - ، فَقَدِ امْتَلَأَتْ نُفُوسُهُمْ عِزَّةً بِمَآثِرِ آبَائِهِمْ وَمَفَاخِرِ أَجْدَادِهِمْ ، وَالْتَهَبَتْ أَفْئِدَتُهُمْ بِحُبِّ أُمَّتِهِمْ ، وَتَجَمَّعَتْ عَوَاطِفُهُمْ عَلَىٰ الْوَلَاءِ لِلْوَطَنِ الْكَبِيرِ ، وَجَعَلُوا يَتَطَلَّعُونَ إِلَىٰ الِانْضِوَاءِ[2] تَحْتَ لِوَاءٍ وَاحِدٍ .

◆ وَكَيْفَ تَمَّتْ وَحْدَتُهُمْ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ تَمَّتْ وَحْدَتُهُمُ السِّيَاسِيَّةُ عَلَىٰ يَدِ « بِسْمَارْك » ، وَمَا كَانَ لَهَا أَنْ تَتِمَّ ؛ لَوْلَا أَنَّهُ وَجَدَ الطَّرِيقَ مُمَهَّدَةً أَمَامَهُ .

◆ أَهُنَاكَ مَثَلٌ آخَرُ لِأَثَرِ اللُّغَةِ فِي إِحْيَاءِ الأُمَمِ ، وَحِفْظِهَا مِنَ التَّمَزُّقِ وَالضَّيَاعِ ؟ .

---

(١) صدىٰ دعوته : مدىٰ سماع الناس لدعوته.   (٢) الانضواء : التجمع تحت راية واحدة.

◇ هُنَاكَ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، وَلَعَلَّ أَبْرَزَهَا « إِيرْلَنْدَا » .

◆ هَذِهِ الَّتِي يَدْعُونَهَا « إِيرْلَنْدَا » الْحُرَّةَ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَقَدْ رَزَحَتْ « إِيرْلَنْدَا » هَذِهِ تَحْتَ وَطْأَةِ الاحْتِلَالِ الْإِنْكِلِيزِيِّ مُنْذُ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّانِيَ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ ، وَذَاقَتْ مِنْ وَيْلَاتِهِ مَا لَمْ يَذُقْهُ شَعْبٌ مُحْتَلٌّ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ مَا لَقِيَهُ الْإِيرْلَنْدِيُّونَ مُحَاوَلَةُ مَحْوِ شَخْصِيَّتِهِمْ .

◆ وَهَلْ تُمْحَىٰ شَخْصِيَّاتُ الشُّعُوبِ ؟!! .

◇ إِذَا مُحِيَتْ لُغَاتُهَا يَا بُنَيَّ .

◆ وَكَيْفَ حَاوَلَ الْمُحْتَلُّونَ مَحْوَ شَخْصِيَّةِ الشَّعْبِ الْإِيرْلَنْدِيِّ ؟ .

◇ حَاوَلُوا ذَلِكَ بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ ؛ فَأَعْمَلَ « كْرُومْوِيلْ » السَّيْفَ فِي رِقَابِ الْإِيرْلَنْدِيِّينَ ، وَجَمَعَ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنْ شَبَابِهِمْ وَبَاعَهُمْ عَبِيدًا فِي « أَمْرِيكَا » ، وَنَفَىٰ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ رِجَالِهِمْ خَارِجَ الْبِلَادِ ، ثُمَّ فَعَلَ مَا هُوَ أَنْكَىٰ(١) مِنْ ذَلِكَ .

◆ وَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ مَا هُوَ أَنْكَىٰ ؟!! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَقَدْ سَعَىٰ « كْرُومْوِيلْ » وَمَنْ تَلَاهُ لِمَحْوِ شَخْصِيَّةِ « إِيرْلَنْدَا » بِالْقَضَاءِ عَلَىٰ لُغَتِهَا حَتَّىٰ انْدَثَرَتِ اللُّغَةُ الْإِيرْلَنْدِيَّةُ ، وَغَدَتْ عِلْمًا أَثَرِيًّا(٢) لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا حَفْنَةٌ مِنَ الرِّجَالِ ، وَأُدْمِجَتْ « إِيرْلَنْدَةُ » فِي الْكِيَانِ الْبِرِيطَانِيِّ .

◆ وَكَيْفَ اسْتَعَادَتْ شَخْصِيَّتَهَا وَظَفِرَتْ بِحُرِّيَّتِهَا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ .

◇ بِاللُّغَةِ ، بِاللُّغَةِ يَا بُنَيَّ .

---

(١) أنكىٰ من ذلك : أكثر إيلامًا وقوة .
(٢) علمًا أثريًا : أي أثرًا من آثار التاريخ .

◆ وَكَيْفَ تَمَّ ذَلِكَ الْأَمْرُ الْمُسْتَحِيلُ ؟! .

◇ لَقَدْ تَنَبَّهَ الشُّعُورُ الْوَطَنِيُّ لَدَىٰ بَعْضِ رِجَالَاتِ « إِيرْلَنْدَا » ، فَعَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَىٰ إِحْيَاءِ أُمَّتِهِمْ مِنْ جَدِيدٍ ، وَفَصْلِهَا عَنِ التَّاجِ « الْبِرِيطَانِيِّ » .

◆ فَمَاذَا فَعَلُوا ؟ .

◇ عَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يُعَلِّمُوا أُمَّتَهُمْ لُغَتَهَا ، وَلَقَدْ أَسْعَفَهُمُ الْقَدَرُ بِمُعَلِّمٍ يُتْقِنُ لُغَةَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، فَوَضَعَ الْكُتُبَ السَّهْلَةَ الَّتِي تُيَسِّرُ لِمُوَاطِنِيهِ تَعَلُّمَ لُغَتِهِمْ ، وَجَنَّدَ لِهَذِهِ الْغَايَةِ الْجَلِيلَةِ مَنِ اسْتَطَاعَ تَجْنِيدَهُ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِهِ ، وَمَا زَالَ يَعْمَلُ فِي دَأْبٍ لَا يَعْرِفُ الْمَلَلَ ، وَجِدٍّ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْكَلَلُ ، حَتَّىٰ أَحْيَا اللُّغَةَ الْإِيرْلَنْدِيَّةَ ، فَأَحْيَا الشَّعْبَ الْإِيرْلَنْدِيَّ ، وَدَفَعَهُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ شَخْصِيَّتِهِ ، وَبُلُوغِ حُرِّيَّتِهِ .

◆ وَمَنْ هَذَا الْمُعَلِّمُ الْعَظِيمُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ إِنَّهُ : « دِيڤَالِيرَا » .

◆ وَهَلْ كَافَأَهُ شَعْبُهُ عَلَىٰ هَذِهِ الْيَدِ ؟ .

◇ أَعْظَمَ مُكَافَأَةٍ ، فَلَقَدِ اخْتَارَ الشَّعْبُ الْإِيرْلَنْدِيُّ مُعَلِّمَهُ الْعَظِيمَ لِيَكُونَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِجُمْهُورِيَّةِ « إِيرْلَنْدَا » الْحُرَّةِ .

◆ فِي أَخْبَارِ الْأُمَمِ ـ يَا أَبَتِ ـ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ .

◇ ذَلِكَ لِمَنْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ[1]، وَأَفَادَ مِنْ تَجَارِبِ الْآخَرِينَ .

◆ أَبَتِ ، تِلْكَ هِيَ قِيمَةُ اللُّغَةِ ـ مِنْ حَيْثُ هِيَ لُغَةٌ ؛ فَمَا مَنْزِلَةُ لُغَتِنَا بَيْنَ اللُّغَاتِ ؟ .

---

(١) ألقىٰ السّمع : أنصت جيدًا وفهم ما يسمع .

◇ لَنْ أُجِيبَكَ أَنَا عَنْ سُؤَالِكَ هَذَا .

◆ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُجِيبُنِي ؟! .

◇ سَأَتْرُكُ الْمَجَالَ لِلْمُسْتَشْرِقِ الْفَرَنْسِيِّ « أَرْنِسْت رِينَانْ » ، فَهُوَ الَّذِي سَيَتَوَلَّىٰ الْإِجَابَةَ عَنِّي ، وَهُوَ عَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ أَكْثَرُ إِقْنَاعًا لَكَ مِنِّي .

◆ مَعَاذَ اللَّهِ ! وَلَكِنْ مَاذَا يَقُولُ « رِينَانْ » يَا أَبَتِ ؟ .

◇ إِنَّهُ يَقُولُ : مِنْ أَعْظَمِ الْمُدْهِشَاتِ أَنْ تَنْبُتَ تِلْكَ اللُّغَةُ الْقَوِيَّةُ وَسَطَ الصَّحَارِي عِنْدَ أُمَّةٍ مِنَ الْبَدْوِ الرُّحَّلِ ، وَأَنْ تَصِلَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْكَمَالِ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ تِلْكَ اللُّغَةُ الَّتِي فَاقَتْ غَيْرَهَا بِكَثْرَةِ مُفْرَدَاتِهَا ، وَدِقَّةِ مَعَانِيهَا ، وَحُسْنِ نِظَامِ مَبَانِيهَا ... لَقَدْ كَانَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَجْهُولَةً عِنْدَ الْأُمَمِ ، وَيَوْمَ عَرَفْنَاهَا بَدَتْ لَنَا وَهِيَ تَخْتَالُ(١) فِي حُلَلِ الْكَمَالِ .

◆ عَظِيمٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَالْأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ لَمْ تَتَغَيَّرْ تَغَيُّرًا يُذْكَرُ ، فَلَمْ يُعْرَفْ لَهَا فِي جَمِيعِ أَطْوَارِ حَيَاتِهَا طُفُولَةٌ أَوْ شَيْخُوخَةٌ .

◆ حَسَنٌ حَسَنٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ إِنَّنَا لَا نَكَادُ نَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهَا إِلَّا انْتِصَارَاتِهَا الَّتِي لَا تُجَارَىٰ(٢) وَفُتُوحَاتِهَا الَّتِي لَا تُبَارَىٰ ...

---

(١) تختال : تتباهىٰ .
(٢) لا تُجارىٰ : لا تُسبق في الميدان .

ثُمَّ يَخْتُمُ « رِينَانْ » كَلِمَتَهُ بِقَوْلِهِ : إِنَّنَا لَا نَعْرِفُ شَبِيهًا لِهَٰذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ لِلْبَاحِثِينَ كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ تَدَرُّجٍ ، وَبَقِيَتْ حَافِظَةً لِكِيَانِهَا مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

◆ وَأَيْنَ ذَكَرَ « رِينَانْ » هَذَا الْكَلَامَ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ أَوْرَدَهُ فِي كِتَابِهِ : « تَارِيخُ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ » .

◆ الْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .

◇ بَلِ الْفَضْلُ مَا شَهِدَ بِهِ الْبَاحِثُونَ الْعُلَمَاءُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنَّ الَّذِي يَقِفُ عَلَىٰ مَا أَوْرَدْتَهُ آنِفًا لَنْ يُفَرِّطَ بِلُغَتِهِ قَطُّ .

◇ أَرَاكَ أَحَدَ الْمُفَرِّطِينَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ .

◆ أَنَا يَا أَبَتِ !! مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَفْعَلَ ! وَهِيَ تِلَادِي[1] ، وَتُرَاثُ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، وَلُغَةُ قُرْآنِي .

◇ أَلَيْسَ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي اللُّغَةِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ أَلْفَاظَهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ؟ .

◆ وَهَلْ بَدَرَ مِنِّي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَأَنْتَ قُلْتَ : إِنَّ الَّذِي يَقِفُ عَلَىٰ مَا أَوْرَدْتَهُ آنِفًا لَنْ يُفَرِّطَ بِلُغَتِهِ قَطُّ .

◆ وَمَا فِي ذَلِكَ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ فِيهِ أَنَّكَ اسْتَعْمَلْتَ قَطُّ مَعَ الْمُضَارِعِ ، وَالْعَرَبُ لَا تَسْتَعْمِلُهَا إِلَّا مَعَ الْمَاضِي ؛

(١) التلاد : الثروة ـ أيًا كان نوعها ـ الموروثة عن الآباء والأجداد ، أي المجد القديم .

فَتَقُولُ : مَا كَلَّمْتُهُ قَطُّ ، وَمَا فَعَلْتُهُ قَطُّ .

◆ وَ إِذَا أَرَادُوا نَفْيَ الْمُضَارِعِ ؛ فَمَاذَا يَقُولُونَ ؟ .

◇ يَسْتَعْمِلُونَ كَلِمَةَ أَبَدًا ؛ فَيَقُولُونَ : مَا أُكَلِّمُهُ أَبَدًا ؛ وَمَا أَفْعَلُهُ أَبَدًا .

◆ إِذَنْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ : لَنْ يُفَرِّطَ بِلُغَتِهِ أَبَدًا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا السَّبَبُ فِي امْتِنَاعِ اسْتِعْمَالِ قَطُّ مَعَ الْمُضَارِعِ ، وَجَوَازِهِ مَعَ الْمَاضِي .

◇ تَحَاشِي الْوُقُوعِ فِي التَّنَاقُضِ .

◆ وَمَا وَجْهُ التَّنَاقُضِ فِي اسْتِعْمَالِهَا مَعَ الْمُضَارِعِ ؟ .

◇ وَجْهُ التَّنَاقُضِ - يَا بُنَيَّ - هُوَ أَنَّ قَطُّ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَطَطْتُ الشَّيْءَ أَيْ قَطَعْتُهُ ، وَأَنَّ مَعْنَىٰ قَوْلِكَ : مَا كَلَّمْتُ فُلَانًا قَطُّ أَيْ مَا كَلَّمْتُهُ فِيمَا انْقَطَعَ مِنْ عُمْرِي ؛ فَإِذَا اسْتَعْمَلْتَهَا مَعَ الْمُضَارِعِ وَقُلْتَ : مَا أُكَلِّمُ فُلَانًا قَطُّ يَكُونُ الْمَعْنَىٰ : مَا أُكَلِّمُ فُلَانًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فِيمَا مَضَىٰ مِنْ عُمْرِي ، وَفِي ذَلِكَ تَنَاقُضٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ .

◆ أَبَتِ ، أَتَأْذَنُ لِي بِأَنْ أُثْبِتَ ذَلِكَ فِي بَابِ : « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَثْبِتْهُ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ .

◇ اكْتُبْ يَا بُنَيَّ : لَا يُقَالُ : مَا أُكَلِّمُهُ قَطُّ ، وَمَا كَلَّمْتُهُ أَبَدًا ، وَ إِنَّمَا يُقَالُ :

مَا كَلَّمْتُهُ قَطُّ وَلَا أُكَلِّمُهُ أَبَدًا ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَسْتَعْمِلُ لَفْظَةَ قَطُّ فِيمَا مَضَىٰ مِنَ الزَّمَانِ ، وَلَفْظَةَ أَبَدًا فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ .

◆ لُقِّيتَ الْخَيْرَ وَالْبِرَّ يَا أَبَتِ جَزَاءَ مَا سَدَّدْتَ وَأَرْشَدْتَ .

◇ وَوُقِّيتَ الْخَطَأَ يَا بُنَيَّ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، جَاءَ فِي الْأَثَرِ : إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً ، فَهَلَّا أَخَذْتَ بِيَدِنَا إِلَىٰ رِيَاضِ الشِّعْرِ ؟ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَتُلِمُّ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ حَاتِمٌ الطَّائِيُّ .

◆ حَاتِمٌ الَّذِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِجُودِهِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَهُوَ أَحَدُ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ انْتَهَىٰ إِلَيْهِمُ الْجُودُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

◆ وَمَنْ هُمْ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ حَاتِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الطَّائِيُّ ، وَهَرِمُ بْنُ سِنَانٍ الْمُرِّيُّ ، وَكَعْبُ بْنُ مَامَةَ الْإِيَادِيُّ ، وَلَٰكِنَّ الْمَضْرُوبَ بِهِ الْمَثَلُ ، هُوَ حَاتِمٌ وَحْدَهُ .

◆ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ حَاتِمًا شَاعِرٌ ! .

◇ هُوَ شَاعِرٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَٰكِنَّ جُودَهُ طَغَىٰ عَلَىٰ شِعْرِهِ .

◆ وَمَا الَّذِي اخْتَرْتَهُ مِنْ شِعْرِهِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ شِعْرُ حَاتِمٍ - يَا بُنَيَّ - يَصِحُّ فِيهِ قَوْلُ الْأَعْرَابِيَّةِ حِينَ سُئِلَتْ عَنْ أَيِّ أَبْنَائِهَا أَحْسَنُ ؟ .

◆ فَبِمَاذَا أَجَابَتْ ؟ .

◇ قَالَتْ : إِنَّهُمْ كَالْحَلْقَةِ الْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَىٰ أَيْنَ طَرَفَاهَا .

◆ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الِاخْتِيَارِ .

◇ إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الِاخْتِيَارِ ؛ فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي يُخَاطِبُ فِيهَا ابْنَتَهُ :

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَابْنَةَ مَالِكٍ
وَيَا ابْنَةَ ذِي الْبُرْدَيْنِ[1] ، وَالْفَرَسِ الْوَرْدِ[2]

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ
أَكِيلًا[3] ، فَإِنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدِي

أَخًا طَارِقًا ، أَوْ جَارَ بَيْتٍ ؛ فَإِنَّنِي
أَخَافُ مَذَمَّاتِ[4] الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا[5] ،
وَمَا فِيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِيمَةِ[6] الْعَبْدِ

◆ زِدْنِي - يَا أَبَتِ - مِنْ شِعْرِهِ زِدْنِي .

◇ إِنَّهُ شِعْرٌ يُسْتَزَادُ مِنْهُ - يَا بُنَيَّ - ؛ فَإِلَيْكَ هَذِهِ النُّتْفَةَ .

---

(١) ذي البُردين : صاحب البردين ، والبرد هو كساء مخطط يلتحف به .
(٢) الفرس الورد : هو الفرس الأحمر الذي يضرب لونه إلىٰ الصفرة .
(٣) الأكيل : هو المشارك في الأكل .
(٤) مذمات الأحاديث : الحديث الذي يذكرني بالسوء ويذمني من بعد موتي .
(٥) ما دام ثاويًا : مقيمًا لم يبرح المكان . (٦) الشيمة : هي الخصلة والخلق .

◆ نُتْفَةٌ - يَا أَبَتِ - !! .

◇ إِنَّ نُتْفَةً مِنْ هَذَا الشِّعْرِ أَغْلَىٰ مِنْ قَصِيدَةٍ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِي هَذِهِ النُّتْفَةِ ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ أَرْوِيَ لَكَ الْمَقْطُوعَةَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ حَيَاةِ الْعَرَبِ ، وَشِيمَةٍ مِنْ شِيَمِهِمْ .

◆ وَمَا هِيَ ؟ .

◇ كَانَ مِنْ عَادَاتِ الْعَرَبِ إِذَا مَا جَنَّ اللَّيْلُ وَدَجَا(١) ؛ أَنْ يُضْرِمَ ذَوُو الْيَسَارِ النِّيرَانَ فَوْقَ الْمُرْتَفَعَاتِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَنَازِلِهِمْ طَوَالَ اللَّيْلِ .

◆ وَلِمَاذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لِيَهْتَدِيَ بِنُورِهَا مَنْ ضَلَّ الطَّرِيقَ ؛ فَيَتَّجِهَ نَحْوَ مَنَازِلِهِمْ ، وَيَنَالَ لَدَيْهِمْ كَرَمَ الْوِفَادَةِ(٢) وَحُسْنَ الْقِرَىٰ(٣) .

◆ حَقًّا إِنَّهَا لَصُورَةٌ رَائِعَةٌ مِنْ صُوَرِ حَيَاةِ الْعَرَبِ .

◇ وَفِي الصُّورَةِ مَغْزًى كَرِيمٌ نَبِيلٌ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ حَاتِمٌ فِي ذَلِكَ ؟ .

◇ إِنَّهُ يُخَاطِبُ عَبْدَهُ الْمُوَكَّلَ بِإِيقَادِ النِّيرَانِ ؛ فَيَقُولُ :

أَوْقِدْ ؛ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ(٤)

---

(١) جن الليل ودجا : أقبل وأرخىٰ أستاره .

(٢) كرم الوفادة : الاستقبال الحسن للوافدين القاصدين تلك المنازل .

(٣) القرىٰ : هو الطعام الذي يعد للضيف .

(٤) ليل قرّ : شديد البرد .

وَالــرِّيــحُ - يَــا غُــلَامُ - رِيــحٌ صِــرُّ

عَــسَــىٰ يَــرَاهَــا الْــبَــائِــسُ الْــمُــعْــتَــرُّ[١]

إِنْ جَــلَــبَــتْ ضَــيْــفًــا ؛ فَــأَنْــتَ حُــرُّ

◆ مَا مُكَافَأَتِي إِذَا أَنَا أَنْشَدْتُكَهَا ؟ فَأَنَا قَدْ حَفِظْتُهَا مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ .

◇ مُكَافَأَتُكَ أَنْ أَجْعَلَ لِكُلِّ جَلْسَةٍ طُرْفَةً .

◆ قَبِلْتُ ؛ إِذَا كَانَ لِكُلِّ جَلْسَةٍ طُرْفَةٌ .

◇ أَنْشِدْنِيهَا - بُورِكَ فِيكَ - فَالشِّعْرُ يَطِيبُ بِإِنْشَادِكَ .

◆ أَوْقِــدْ ؛ فَــإِنَّ الــلَّــيْــلَ لَــيْــلٌ قَــرُّ

وَالــرِّيــحُ - يَــا غُــلَامُ - رِيــحٌ صِــرُّ

عَــسَــىٰ يَــرَاهَــا الْــبَــائِــسُ الْــمُــعْــتَــرُّ

إِنْ جَــلَــبَــتْ ضَــيْــفًــا ؛ فَــأَنْــتَ حُــرُّ

* * *

◆ أَبَتِ ، وَصَفَ حَاتِمٌ الرِّيحَ بِأَنَّهَا صِرٌّ ؛ فَمَا الرِّيحُ الصِّرُّ ؟ .

◇ فَصَّلَ الْعَرَبُ الْقَوْلَ فِي الرِّيَاحِ وَنُعُوتِهَا ؛ تَفْصِيلًا يَشْهَدُ لِهَذِهِ اللُّغَةِ بِغِنَىٰ مُفْرَدَاتِهَا ، وَدِقَّةِ أَدَائِهَا .

◆ فَمَاذَا قَالُوا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ قَالُوا :

---

(١) البائس المعتر : الشديد الفقر .

إِذَا وَقَعَتِ الرِّيحُ بَيْنَ الرِّيحَيْنِ ، فَهْيَ : ***النَّكْبَاءُ*** .
فَإِذَا هَبَّتْ مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَهْيَ : ***الْمُتَنَاوِحَةُ*** .
فَإِذَا كَانَتْ لَيِّنَةً ، فَهْيَ : ***الرَّيْدَانَةُ*** .
فَإِذَا جَاءَتْ بِنَفَسٍ ضَعِيفٍ وَرَوْحٍ ، فَهْيَ : ***النَّسِيمُ*** .
فَإِذَا كَانَ لَهَا حَنِينٌ كَحَنِينِ الإِبِلِ ، فَهْيَ : ***الْحَنُونُ*** .
فَإِذَا ابْتَدَأَتْ بِشِدَّةٍ ، فَهْيَ : ***النَّافِجَةُ*** .
فَإِذَا كَانَتْ شَدِيدَةً ، فَهْيَ : ***الْعَاصِفُ*** .
فَإِذَا كَانَتْ شَدِيدَةً وَلَهَا زَفْزَفَةٌ[١] ، فَهْيَ : ***الزَّفْزَافَةُ*** .
فَإِذَا اشْتَدَّتْ حَتَّىٰ تَقْلَعَ الْخِيَامَ ، فَهْيَ : ***الْهَجُومُ*** .
فَإِذَا حَرَّكَتِ الْأَغْصَانَ تَحْرِيكًا شَدِيدًا وَقَلَعَتِ الْأَشْجَارَ ، فَهْيَ : ***الزَّعْزَعُ*** .
فَإِذَا جَاءَتْ بِالْحَصْبَاءِ[٢] ، فَهْيَ : ***الْحَاصِبَةُ*** .
فَإِذَا دَرَجَتْ حَتَّىٰ تَرَىٰ لَهَا ذَيْلًا كَالرَّسَنِ[٣] فِي الرَّمْلِ ، فَهْيَ : ***الدَّرُوجُ*** .
فَإِذَا كَانَتْ سَرِيعَةً ، فَهْيَ : ***الْمُجْفِلُ*** ، وَ ***الْجَافِلَةُ*** .
فَإِذَا هَبَّتْ مِنَ الْأَرْضِ نَحْوَ السَّمَاءِ كَالْعَمُودِ ، فَهْيَ : ***الْإِعْصَارُ*** ، وَ ***الزَّوْبَعَةُ*** .
فَإِذَا هَبَّتْ بِالْغَبْرَةِ ، فَهْيَ : ***الْهَبْوَةُ*** .
فَإِذَا حَمَلَتِ التُّرَابَ وَجَرَّتِ الذَّيْلَ ، فَهْيَ : ***الْهَوْجَاءُ*** .
فَإِذَا كَانَتْ بَارِدَةً ، فَهْيَ : ***الصَّرْصَرُ*** ، وَ ***الصِّرُّ*** .

◆ هَذَا هُوَ جَوَابُ سُؤَالِي .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَإِذَا كَانَ مَعَ بَرْدِ الرِّيحِ نَدًى ، فَهْيَ : ***الْبَلِيلُ*** .
فَإِذَا كَانَتْ حَارَّةً ، فَهْيَ : ***الْحَرُورُ*** ، وَ ***السَّمُومُ*** .

---

(١) الزفزفة : صوت الريح بين الشجر .
(٢) الحصباء : صغار الحجارة .
(٣) الرسن : الحبل تقاد به الدابة ، ويثبت في أنفها .

فَإِذَا لَمْ تُلْقِحْ شَجَرًا وَلَمْ تَحْمِلْ مَطَرًا ، فَهْيَ : ***الْعَقِيمُ*** ، وَقَدْ نَطَقَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ[١] .

◆ مَا هَذَا يَا أَبَتِ ؟! مَا هَذَا ؟! .

◇ هَذِهِ لُغَةُ الْقُرْآنِ ؛ الَّتِي وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً .

◆ أَبَتِ عَفْوَكَ ... وَكَيْفَ يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الثَّرْوَةِ اللُّغَوِيَّةِ ؟ .

◇ فِي هَذَا الَّذِي أَوْرَدْتُهُ لَكَ ثَرْوَةٌ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ لِعُلَمَاءِ الْجُغْرَافِيَا وَعُلَمَاءِ الْأَنْوَاءِ[٢] ، وَفِيهِ ذَخِيرَةٌ لِلشُّعَرَاءِ وَالْكَاتِبِينَ وَالْقَصَّاصِينَ ؛ الَّذِينَ يُرِيدُونَ إِتْقَانَ الْوَصْفِ ، وَ إِحْكَامَ الْقَوْلِ .

◆ لَا تَثْرِيبَ[٣] بَعْدَ الْيَوْمِ عَلَىٰ مَنْ يَفْخَرُ بِهَذِهِ اللُّغَةِ مَهْمَا بَالَغَ فِي فَخْرِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، الْوَفَاءَ بِالْوَعْدِ الْوَفَاءَ .

◇ وَأَيَّ وَعْدٍ تَعْنِي ؟ .

◆ وَعَدْتَ بِأَنْ تَجْعَلَ لِكُلِّ جَلْسَةٍ طُرْفَةً .

◇ وَأَنَا مَا زِلْتُ عِنْدَ وَعْدِي .

◆ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَعَجِّلْ بِطُرْفَةِ الْيَوْمِ مَشْكُورًا غَيْرَ مُذَمَّمٍ .

◇ جَاءَ فِي مُعْجَمِ الْأُدَبَاءِ لِيَاقُوتَ الْحَمَوِيِّ أَنَّ أَبَا عُثْمَانَ الْمَازِنِيَّ قَالَ :

---

(١) ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ الذاريات الآية ٤١ .

(٢) الأنواء : أوقات الأمطار وهياج البحر ، وهي النجوم أيضًا .

(٣) لا تثريب : لا عتاب ولا عيب .

مَرَرْتُ بِبَنِي عَقِيلٍ ؛ فَإِذَا رَجُلٌ أَسْوَدُ ، قَصِيرٌ ، أَعْوَرُ ، أَبْرَصُ ، أَكْشَفُ[1] ، قَائِمٌ عَلَىٰ تَلِّ سَمَادٍ وَهُوَ يَمْلَأُ جَوَالِيقَ[2] مِنْ ذَلِكَ السَّمَادِ ، وَهُوَ يُغَنِّي بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ :

فَإِنْ تَصْرِمِي[3] حَبْلِي وَتَسْتَكْرِهِي وَصْلِي
فَمِثْلُكِ مَوْجُودٌ وَلَنْ تَجِدِي مِثْلِي

فَقُلْتُ لَهُ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ ، وَمَتَىٰ تَجِدُ - وَيْحَكْ[4] - مِثْلَكَ ؟! .
فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَاسْمَعْ خَيْرًا مِنْهُ ... ثُمَّ انْدَفَعَ يُنْشِدُ :

يَا رَبَّةَ الْمُطْرَفِ[5] وَالْخَلْخَالِ[6]
مَا أَنْتِ مِنْ هَمِّي وَلَا أَشْغَالِي
مِثْلُكِ مَوْجُودٌ وَمِثْلِي غَالِي

* * *

(١) أَكْشَفُ : أي مَحْسُور شَعْر مقدَّم الرَّأس .
(٢) جَوَالِيقَ : أي أكياسًا .
(٣) تصرمي : تهجريني وتقطعي مودتي .
(٤) ويحك : هي بمعنى الويل ، ولكنها وضعت للترحم والتوجع .
(٥) المطرف : رداء أو ثوب من الحرير مربع ذو أعلام .
(٦) والخلخال : حلية تزين بها النساء أسفل الساق كالأسورة في الذراع .

الْجَلْسَةُ الثَّانِيَةُ

أُمُّ جَمِيعِ اللُّغَاتِ

◆ أَبَتِ ، طَابَ يَوْمُكَ ، يَا أَبَتِ .

◇ هَلَّا حَيَّيْتَ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ - يَا بُنَيَّ - فَقُلْتَ : سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ ؛ إِنَّكَ حِينَ تَتَوَجَّهُ إِلَىٰ مُخَاطَبِكَ بِهَذِهِ التَّحِيَّةِ ، إِنَّمَا تَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُسْبِغَ[1] عَلَيْهِ سَلَامَهُ ، وَأَنْ يَحْفَظَهُ مِنَ الْآفَاتِ فِي الدِّينِ ، وَالْعَقْلِ ، وَالْجِسْمِ ، وَالْمَالِ ، وَالْوَلَدِ ... ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ التَّحِيَّةَ هِيَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

◆ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، أَمَا وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ** ﴾ ؟[2].

◆ جُزِيتَ خَيْرًا - يَا أَبَتِ - فَقَدْ دَعَوْتَ إِلَىٰ سَدَادٍ ، وَحَضَضْتَ عَلَىٰ رَشَادٍ ، وَالْآنَ هَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَ ؟ .

◇ وَهَلِ اجْتَمَعْنَا إِلَّا لِتَسْأَلَ وَأُجِيبَ ؟ .

---

(١) يسبغ عليه سلامه : يلقي عليه السلام الوافر .
(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٣.

◆ أَبَتِ ، يُكْثِرُ اللُّغَوِيُّونَ الْبَحْثَ عَنْ أَقْدَمِ اللُّغَاتِ ، فَمَا الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ ؟ .

◇ غَرَضُ اللُّغَوِيِّينَ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ - يَا بُنَيَّ - الِاهْتِدَاءُ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْأُمِّ الَّتِي هِيَ لُغَةُ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ كُلِّهِ ، يَوْمَ كَانَ لِهَذَا الْجِنْسِ مَوْطِنٌ وَاحِدٌ فِي قَارَّةٍ وَاحِدَةٍ .

◆ وَهَلْ يَرَىٰ اللُّغَوِيُّونَ أَنَّ لِلْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ كُلِّهِ لُغَةً أُمًّا ؟ .

◇ وَيَرَوْنَ أَيْضًا أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ الْأُمَّ قَدْ تَفَرَّعَتْ بَعْدَ انْفِصَالِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَانْقِطَاعِ الصِّلَةِ بَيْنَهُمْ إِلَىٰ لُغَاتٍ كَثِيرَةٍ .

◆ أَهَدَاهُمُ الْبَحْثُ إِلَىٰ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَنْشُدُونَ ؟ .

◇ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ شَيْءٍ يَقِينِيٍّ - يَا بُنَيَّ - وَلَكِنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ لُغَاتِ الْبَشَرِ الْمَوْجُودَةَ الْيَوْمَ ؛ تَنْتَمِي إِلَىٰ ثَلَاثِ أُسَرٍ لُغَوِيَّةٍ كُبْرَىٰ .

◆ وَمَا هَذِهِ الْأُسَرُ ، يَا أَبَتِ ؟ .

◇ هِيَ الْأُسْرَةُ الْهِنْدِيَّةُ الْجِرْمَانِيَّةُ ، وَالْأُسْرَةُ الْمَغُولِيَّةُ وَلُغَاتُ الْقَبَائِلِ الْأَمْرِيكِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ ، وَالْأُسْرَةُ السَّامِيَّةُ .

◆ وَهَلْ وَجَدُوا بَيْنَ هَذِهِ الْأُسَرِ جَامِعَةً تُؤَلِّفُ بَيْنَهَا ؟ .

◇ لَقَدْ وَقَفُوا عَلَىٰ طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ هَذِهِ اللُّغَاتِ تُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهَا تَنْتَمِي إِلَىٰ أَصْلٍ وَاحِدٍ .

◆ طَائِفَةٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ !! مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ الْكَلِمَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْقَطْعِ ، فَلَفْظَةُ : « قَطَّ » فِي الْعَرَبِيَّةِ تُفِيدُ مَعْنَىٰ الْقَطْعِ وَ« كَاتْ » "Cut" الْإِنْكِلِيزِيَّةُ تُفِيدُ مَعْنَىٰ الْقَطْعِ أَيْضًا ،

وَ« كُوتَ » " Cout" الْفَرَنْسِيَّةُ وَكَذَلِكَ « كُوبَ » " Coup" تُفِيدَانِ مَعْنَىٰ الْقَطْعِ .

◆ بَحْثٌ طَرِيفٌ يَا أَبَتِ ، وَأَيُّ هَذِهِ الْأُسَرِ اللُّغَوِيَّةِ أَقْدَمُ ؟ .

◇ كَانَ الْبَاحِثُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْغَرْبِ يُرَجِّحُونَ أَنَّ أَقْدَمَ هَذِهِ الْأُسَرِ هِيَ الْأُسْرَةُ الْهِنْدِيَّةُ الْجِرْمَانِيَّةُ ؛ وَلَا سِيَّمَا السَّنْسَكْرِيتِيَّةُ ، وَالْجِرْمَانِيَّةُ .

◆ تَقُولُ - يَا أَبَتِ - كَانُوا يُرَجِّحُونَ ، وَهَلْ جَدَّ فِي الْأَمْرِ جَدِيدٌ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَقَدْ لَقِيَ هَذَا الرَّأْيُ مُعَارَضَةً مِنْ أَبْنَاءِ « الْهِنْدِ » أَنْفُسِهِمْ .

◆ مِنْ أَبْنَاءِ « الْهِنْدِ » !! .

◇ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ : الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَبْنَاءِ « الْهِنْدِ » ، فَهَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ الْهُنُودُ الْمُسْلِمُونَ ، اجْتَمَعَتْ لَهُمُ الْمَعْرِفَةُ بِاللُّغَةِ « الْهِنْدِيَّةِ » لُغَةِ بِلَادِهِمْ ، وَباللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةِ قُرْآنِهِمْ ، وَباللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةِ بِحُكْمِ ثَقَافَتِهِمْ ؛ فَاسْتَطَاعُوا تَصْحِيحَ خَطَإِ الْغَرْبِ الشَّائِعِ ، وَقَرَّرُوا أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أُمُّ جَمِيعِ اللُّغَاتِ وَأَصْلُهَا .

◆ هَذَا شَيْءٌ رَائِعٌ - يَا أَبَتِ - ، وَهَلْ نُشِرَتْ هَذِهِ الْبُحُوثُ ؟ ...
وَمَنِ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ نَهَضُوا بِهَا ؟ .

◇ إِنَّ أَبْرَزَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ قَامُوا بِهَذِهِ الْبُحُوثِ هُوَ الْعَلَّامَةُ اللُّغَوِيُّ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ مَظْهَر ، وَقَدْ نَشَرَ سِلْسِلَةً مِنَ الْبُحُوثِ الْمُسْتَفِيضَةِ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي مَجَلَّةِ الْأَدْيَانِ ؛ الَّتِي تَصْدُرُ فِي « بَاكِسْتَانَ » تَحْتَ عُنْوَانِ « الْعَرَبِيَّةُ أُمُّ جَمِيعِ اللُّغَاتِ » .

◆ وَهَلْ وَصَلَ فِي بَحْثِهِ إِلَىٰ مَا يُقْنِعُ ؟ .

◇ إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ - يَا بُنَيَّ - أَكْثَرُ إِقْنَاعًا مِمَّا أَتَىٰ بِهِ أَيُّ بَاحِثٍ يُنَاهِضُ رَأْيَهُ .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّ لُغَتَنَا الْعَرَبِيَّةَ أَقْدَمُ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ ، وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ الْيَوْمَ ؟ .

◇ هَذَا أَمْرٌ لَا مِرَاءَ فِيهِ وَلَا جِدَالَ ، فَالْعَرَبِيَّةُ أَقْدَمُ اللُّغَاتِ الْمَحْكِيَّةِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ ، فَلَا الْفَرَنْسِيَّةُ وَلَا الْإِنْكِلِيزِيَّةُ وَلَا غَيْرُهُمَا مِنْ لُغَاتِ الْأَرْضِ الْمَعْرُوفَةِ الْيَوْمَ تَدْنُو[1] مِنَ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْقِدَمِ ، أَوْ تَسْمُو إِلَيْهَا فِي الْعَرَاقَةِ .

◆ إِلَىٰ أَيِّ تَارِيخٍ يَرْجِعُ اكْتِمَالُ لُغَتِنَا ، يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لَيْسَ فِي وُسْعِ أَحَدٍ أَنْ يُجِيبَكَ عَلَىٰ سُؤَالِكَ هَذَا ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ هُوَ أَنَّ عَنْتَرَةَ بْنَ شَدَّادٍ خَاطَبَ عَبْلَةَ بِنْتَ عَمِّهِ مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا[2] بِقَوْلِهِ :

هَلَّا سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ ... إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ[3] أَنَّنِي ... أَغْشَىٰ الْوَغَىٰ ، وَأَعِفُّ[4] عِنْدَ الْمَغْنَمِ

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ[5] ... مِنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ[6] تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

وَقَدْ جَرَىٰ هَذَا الشِّعْرُ - كَمَا تَرَىٰ يَا بُنَيَّ - فِي أَلْفَاظٍ وَتَرَاكِيبَ وَتَشْبِيهَاتٍ وَاسْتِعَارَاتٍ كَتِلْكَ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا الْيَوْمَ ، فَكَمْ تُقَدِّرُ مِنْ مِئَاتِ السِّنِينَ قَدِ انْصَرَمَتْ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ هَذِهِ اللُّغَةُ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ مِنَ الْكَمَالِ ؟ .

◆ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ .

---

(١) تدنو : تقارب .
(٢) كتبت سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م .
(٣) الوقيعة : الموقعة الحربية .
(٤) أعف : أترك شهوة الطمع في الغنيمة .
(٥) نواهل مني : عاملات في جسدي كأنها تشرب منه .
(٦) بيض الهند : السيوف الهندية المصقولة البيضاء الحد .

◇ مَنطِقُ الْأَشْيَاءِ ، وَسُنَنُ الْحَيَاةِ - يَا بُنَيَّ - تَقْضِي بِأَنْ تَكُونَ هَذِهِ اللُّغَةُ مُوغِلَةً فِي الْقِدَمِ ؛ حَتَّىٰ أَمْكَنَ لِعَنْتَرَةَ وَغَيْرِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ أَنْ يَقْرِضُوا هَذَا الشِّعْرَ الْمُحْكَمَ بِأَوْزَانِهِ ، وَقَوَافِيهِ ، وَقَوَاعِدِهِ ، وَنِظَامِهِ فِي ذَلِكَ الْأُسْلُوبِ الْبَدِيعِ .

◆ وَلَكِنْ يَا أَبَتِ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ ...

◆ وَلَكِنْ سُؤَالِي مَا يَزَال يَنْتَظِرُ الْجَوَابَ .

◇ أَيُّ سُؤَالٍ ؟ فَأَسْئِلَتُكَ كَثِيرَةٌ بِحَمْدِ اللَّهِ .

◆ سُؤَالِي عَنْ قِدَمِ الْعَرَبِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْفَرَنْسِيَّةِ مَثَلًا .

◇ وَمَا الَّذِي جَعَلَكَ تَخْتَارُ الْفَرَنْسِيَّةَ دُونَ سِوَاهَا ؟ .

◆ لِأَنَّ الْفَرَنْسِيَّةَ - كَمَا هُوَ شَائِعٌ - مِنْ أَكْثَرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ عَرَاقَةً ، وَأَغْنَاهَا مَادَّةً ، وَأَضْبَطِهَا نِظَامًا .

◇ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي يُقَالُ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ حَقٌّ ، فَإِنَّهُ لَا مَجَالَ لِلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الْعَرَاقَةُ وَالْقِدَمُ ، وَلَوْ وُضِعَتِ الْعَرَبِيَّةُ فِي كِفَّةٍ وَالْفَرَنْسِيَّةُ فِي كِفَّةٍ أُخْرَىٰ ؛ لَشَالَتْ(١) كِفَّةُ الْفَرَنْسِيَّةِ وَرَجَحَتْ كِفَّةُ الْعَرَبِيَّةِ رُجْحَانًا كَبِيرًا .

◆ عَجِيبٌ !!! ...

◇ وَمَا وَجْهُ الْعَجَبِ يَا بُنَيَّ ؟ .

---

(١) لشالت : خف وزن ما فيها فارتفعت كما ترتفع كفة الميزان الخفيفة .

◆ وَجْهُ الْعَجَبِ - يَا أَبَتِ - أَنَّ الْعَالَمَ يَضَعُ اللُّغَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ فِي رَأْسِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ، وَيَضِنُّ[1] عَلَىٰ لُغَتِنَا بِهَذَا اللَّقَبِ .

◇ أَيُّ عَالَمٍ هَذَا ؟... أَهَذَا الْعَالَمُ الْحَاقِدُ عَلَيْنَا ، الظَّالِمُ لَنَا ، تُسْمَعُ شَهَادَتُهُ فِينَا وَفِي لُغَتِنَا ؟!... لَيْتَ هَذَا الْعَالَمَ الَّذِي تَعْنِيهِ - يَا بُنَيَّ - يَتَذَكَّرُ أَنَّ « فَرَنْسَا » كَانَتْ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ بِلَا لُغَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ .

◆ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ كَانَتْ « فَرَنْسَا » مِنْ غَيْرِ فَرَنْسِيَّةٍ ؟!! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ ؛ حَيْثُ كَانَتْ دَوَاوِينُ الشُّعَرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ قَدْ صُنِعَتْ ، وَرَوَائِعُ الْجَاحِظِ قَدْ كُتِبَتْ ، وَأَشْعَارُ بَشَّارٍ وَأَبِي تَمَّامٍ وَالْبُحْتُرِيِّ قَدْ نُظِمَتْ ، وَآلَافُ الْكُتُبِ الْيُونَانِيَّةِ وَغَيْرِ الْيُونَانِيَّةِ قَدْ تُرْجِمَتْ ، فِي هَذَا الْقَرْنِ - يَا بُنَيَّ - كَانَتْ « فَرَنْسَا » بِلَا لُغَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ .

◆ كَلَامٌ لَا يَكَادُ ...

◇ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ : لَا يَكَادُ يُصَدَّقُ ، نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - لَا يَكَادُ يُصَدَّقُ ، لَوْلَا أَنَّ التَّارِيخَ يَقُولُ لَنَا : إِنَّهُ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ لِلْمِيلَادِ ؛ الْمُوَافِقِ لِعَامِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ لِلْهِجْرَةِ كَانَ الْفَرَنْسِيُّونَ يَتَكَلَّمُونَ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ لَهْجَةً ، وَلُغَةً ، وَلُغَيَّةً .

◆ عِشْرُونَ لَهْجَةً !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَفِي هَذَا الْعَامِ تَغَلَّبَ « شَارْل » وَ« لُوَيْس » ابْنَا « شَارْلَمَانْ » عَلَىٰ أَخِيهِمَا ، فَلَمَّا أَرَادَا أَخْذَ الْعَهْدِ[2] عَلَىٰ جُنْدِهِمَا بِالْوَلَاءِ لَهُمَا ، لَمْ يَسْتَطِيعَا مُخَاطَبَتَهُمْ بِلُغَةٍ مَفْهُومَةٍ لَدَىٰ الْجَمِيعِ .

---

(١) يضن : يبخل.

(٢) أخذ العهد : المبايعة والتعهد بالولاء والانتماء.

◆ فَمَاذَا صَنَعَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ سَدَّدَا وَقَارَبَا[1]، وَاسْتَعْمَلَا مُخْتَلِفَ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ ؛ حَتَّىٰ أَفْهَمَا جُنْدَهُمَا مَا يُرِيدَانِهِ ... وَلَكِنَّ الْجُنُودَ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الرَّدَّ عَلَيْهِمَا بِلُغَةٍ يَفْهَمَانِهَا .

◆ إِذَنْ ، مَتَىٰ نَشَأَتِ الْفَرَنْسِيَّةُ ؛ فَأَصْبَحَ يُقَالُ فِيهَا شِعْرٌ كَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَسْلَافُنَا قَبْلَ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا ؟ .

◇ يَبْدُو أَنَّنَا اسْتَطْرَدْنَا كَثِيرًا - يَا بُنَيَّ - فَجَلْسَتُنَا مُخَصَّصَةٌ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ لَا عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ .

◆ أَرْجُوكَ ، يَا أَبَتِ ، أَرْجُوكَ ، أَرْجُو أَنْ أَعْرِفَ مَتَىٰ اكْتَمَلَتِ الْفَرَنْسِيَّةُ كَمَا اكْتَمَلَتْ لُغَتُنَا ، وَمَتَىٰ ثَبَتَتْ عَلَىٰ لَهْجَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا ثَبَتَتْ فُصْحَانَا ؟ .

◇ لَمْ تَثْبُتِ الْفَرَنْسِيَّةُ عَلَىٰ لَهْجَةِ أَهْلِ « بَارِيسَ »[2] إِلَّا فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهِجْرِيِّ .

◆ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهِجْرِيِّ !! أَيْ مُنْذُ خَمْسَةِ قُرُونٍ فَقَطْ .

◇ نَعَمْ مُنْذُ خَمْسَةِ قُرُونٍ فَقَطْ ؛ فَفِي سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَلْفٍ لِلْمِيلَادِ أَصْدَرَ الْمَلِكُ « شَارْل » التَّاسِعُ أَمْرًا جَاءَ فِيهِ : يَجِبُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي بَلَاطِنَا بَعْدَ الْيَوْمِ وَفِي الرَّسَائِلِ الْمُوَجَّهَةِ إِلَيْنَا اللُّغَةُ الْفَرَنْسَوَازِيَّةُ .

◆ الْفَرَنْسَوَازِيَّةُ ، أَمِ الْفَرَنْسِيَّةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ بَلِ الْفَرَنْسَوَازِيَّةُ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْفَرَنْسِيَّةَ لَمْ تَسْتَقِرَّ عَلَىٰ اسْمِهَا الْمَعْرُوفِ هَذَا إِلَّا بَعْدَ ذَلِكَ التَّارِيخِ .

---

(١) سددا وقاربا : حاولا أن يكون قولهما سديدًا قريبًا من الصواب مفهومًا .

(٢) باريس : العاصمة الفرنسية .

◆ إِنَّهُ لَأَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ ، وَلَكِنْ ...

◇ مَا أَكْثَرَ اسْتِدْرَاكَاتِكَ ! وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَكِنْ ، مَا قِيمَةُ قِدَمِ اللُّغَةِ ، وَمَا الصِّلَةُ بَيْنَ قِدَمِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ وَبَيْنَ قُوَّتِهَا وَحَيَاتِهَا ؟ .

◇ إِنَّ قِدَمَ اللُّغَةِ يَا بُنَيَّ ، عَرَاقَةٌ[1] تُحْسَبُ لَهَا كَمَا تُحْسَبُ لِأَيِّ كَائِنٍ حَيٍّ عَرِيقٍ ، وَإِنَّ طُولَ بَقَاءِ اللُّغَةِ يُؤَدِّي إِلَىٰ النَّمَاءِ ، وَالِاصْطِفَاءِ ، وَالنُّضْجِ ، وَالِاسْتِقْرَارِ .

◆ إِذَنْ قِدَمُ اللُّغَةِ ، وَبَقَاؤُهَا آيَتَانِ[2] عَلَىٰ غِنَاهَا وَصَلَاحِهَا ؟ .

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - فَاللُّغَةُ - أَيَّةُ لُغَةٍ - تَكُونُ فِي نَشْأَتِهَا الْأُولَىٰ قَلِيلَةَ الْكَلِمَاتِ ، نَاقِصَةَ الدَّلَالَةِ ، مَحْدُودَةَ الْأَسَالِيبِ ، ثُمَّ يَعْمَلُ فِيهَا الْفِكْرُ عَمَلَهُ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ ؛ فَتَغْنَىٰ وَتَنْضَجُ وَتَسْتَقِرُّ .

◆ الْفِكْرُ !! وَهَلْ مِنْ عَلَاقَةٍ بَيْنَ الْفِكْرِ وَاللُّغَةِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ أَعْظَمُ عَلَاقَةٍ ، فَلَوْلَا الْفِكْرُ لَفَقَدَتِ اللُّغَةُ قِيمَتَهَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِوُجُودِهَا مَعْنًى ... إِنَّ الْفِكْرَ - يَا بُنَيَّ - يَعْمِدُ إِلَىٰ الْأَصْوَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الْفَارِغَةِ فَيَرْبِطُهَا بِالْمَعَانِي ، وَيَجْعَلُهَا كَالْأَصْدَافِ الَّتِي تَحْمِلُ مِنَ الدُّرِّ مَا يَبْهَرُ الْعَقْلَ ، أَوْ كَالْأَغْصَانِ الَّتِي تَحْمِلُ مِنَ الثِّمَارِ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ .

◆ تَشْبِيهٌ جَمِيلٌ يَا أَبَتِ .

◇ جَمَّلَ اللَّهُ حَيَاتَكَ بِالْعِلْمِ ، وَزَانَ شَبَابَكَ بِالتُّقَىٰ وَالْحِلْمِ ...

---

(١) العراقة : امتداد في التاريخ والقدم.

(٢) آيتان : علامتان ودليلان .

ثُمَّ إِنَّ الْفِكْرَ - يَا بُنَيَّ - هُوَ الَّذِي يُوَسِّعُ طَاقَاتِ اللُّغَةِ ، وَيَمُدُّهَا بِالْكَلِمَاتِ الْجَدِيدَةِ ، وَيَبْتَدِعُ فِيهَا الْأَسَالِيبَ الْبَارِعَةَ وَالصُّوَرَ الرَّائِعَةَ ، وَيَضَعُ لَهَا الْقَوَاعِدَ الَّتِي تُحْكِمُ نِظَامَهَا ، وَتَضْبِطُ أَحْكَامَهَا ، وَقَدْ عَمِلَ الْفِكْرُ الْإِسْلَامِيُّ فِي لُغَتِنَا مَا لَمْ تَعْمَلْهُ الْأَفْكَارُ الْأُخْرَىٰ فِي لُغَاتِهَا عَلَىٰ مَدَىٰ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا .

◆ مَا أَعْظَمَ هَذَا الْإِسْلَامَ - يَا أَبَتِ - فَقَدْ أَكْرَمَنَا بِالْعَقِيدَةِ الصَّافِيَةِ ، وَالشَّرِيعَةِ الْوَافِيَةِ ، وَاللُّغَةِ الْمُكْتَمِلَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ .

* * *

◆ مِنَ الْمُؤْسِفِ - حَقًّا - يَا أَبَتِ أَنَّ الْكُلَّ يَظْلِمُ لُغَتَنَا الْعَرَبِيَّةَ ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ وَالْأَعْدَاءِ .

◇ قُلْتَ : الْكُلُ يَظْلِمُ هَذِهِ اللُّغَةَ ؟ .

◆ نَعَمْ يَا أَبَتِ ، الْكُلُّ يَظْلِمُهَا وَيَعْدُو[1] عَلَيْهَا .

◇ لَعَلَّكَ أَحَدُ ظَالِمِيهَا .

◆ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَظْلِمَهَا ، وَأَنَا عَالِمٌ بِمَا أَفْعَلُ .

◇ أَلَيْسَ مِنْ ظُلْمِ اللُّغَةِ - يَا بُنَيَّ - أَنْ تَعْدُوَ عَلَىٰ نِظَامِهَا ، وَتَجُورَ عَلَىٰ أَحْكَامِهَا ، وَتَلْحَنَ فِي أَلْفَاظِهَا .

◆ أَفَعَلْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ يَا أَبَتِ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ قُلْتَ : الْكُلُ يَظْلِمُ هَذِهِ اللُّغَةَ ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُقَالُ .

◆ وَأَيْنَ مَوْضِعُ اللَّحْنِ فِي هَذَا يَا أَبَتِ ؟ .

---

(١) يعدو عليها : يتعدىٰ عليها ، فيحدث فيها التحريف والغلط .

◇ لَقَدْ أَدْخَلْتَ «أَلْ» التَّعْرِيفِ عَلَىٰ لَفْظَةِ كُلّ، وَهَـٰذَا أَمْرٌ خَارِجٌ عَلَىٰ سَنَنِ الْفَصَاحَةِ.

◆ وَلَكِنَّ هَذَا كَثِيرٌ شَائِعٌ يَا أَبَتِ.

◇ شُيُوعُ الْخَطَإِ - يَا بُنَيَّ - لَا يَجْعَلُهُ صَوَابًا، وَكَذَلِكَ شُيُوعُ الرَّذِيلَةِ لَا يَجْعَلُهَا فَضِيلَةً.

◆ أَجَاءَ عَنِ الْعَرَبِ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ، يَا أَبَتِ؟.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ: الْعَوَامُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ يَقُولُونَ: الْكُلُّ وَالْبَعْضُ، وَإِنَّمَا هُمَا كُلّ وَبَعْضٌ لَا تَدْخُلُهُمَا الْأَلِفُ وَاللَّامُ؛ لِأَنَّهُمَا مُعَرَّفَتَانِ بِنِيَّةِ الْإِضَافَةِ، وَبِذَلِكَ نَزَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

◆ طَيِّبٌ.

◇ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قَرَأْتُ آدَابَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ؛ فَلَمْ أَرَ فِيهَا لَحْنًا إِلَّا قَوْلَهُ: الْعِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِالْكُلِّ مِنْهُ فَاحْفَظُوا الْبَعْضَ.

◆ أَتَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُثْبِتَ ذَلِكَ فِي بَابِ «مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ» مِنْ مُذَكِّرَاتِي؟.

◇ أَثْبِتْهُ وَأَضِفْ إِلَيْهِ شَيْئًا آخَرَ مِنْ بَابِهِ.

◆ وَمَا هُوَ - يَا أَبَتِ -؟ جُزِيتَ الْخَيْرَ.

◇ أَضِفْ إِلَيْهِ أَنَّ «أَلْ» التَّعْرِيفِ لَا تَدْخُلُ عَلَىٰ غَيْرٍ، وَكَافَّةٍ، وَقَاطِبَةٍ.

◆ إِذَنْ لَا يُقَالُ: الْغَيْرُ، وَالْكَافَّةُ، وَالْقَاطِبَةُ.

◇ نَعَمْ، كَمَا لَا يُقَالُ: الْكُلُّ، وَالْبَعْضُ.

◆ جُزِيتَ خَيْرًا - يَا أَبَتِ - كِفَاءَ[1] مَا نَصَحْتَ وَنَفَعْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنَّ فِي النَّفْسِ شَوْقًا إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ ، فَأَيْنَ جَنَاهَا ؟ .

◇ هُوَ مِنْكَ دَانٍ قَرِيبٌ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ أُسَامَةُ بْنُ مُنْقِذٍ .

◆ وَمَنْ أُسَامَةُ هَذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ هُوَ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ ، عَاشَ شَهْمًا فَارِسًا ، وَزَهَا مُجَاهِدًا مُقَاتِلًا ، وَلَمَعَ أَدِيبًا وَشَاعِرًا .

◆ وَأَيْنَ نَشَأَ وَعَاشَ ؟ .

◇ نَشَأَ عَلَىٰ ضِفَافِ الْعَاصِي بِجِوَارِ « حَمَاةَ » مِنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَصَرَفَ مُعْظَمَ شَبَابِهِ فِي بَلَاطِ نُورِ الدِّينِ زَنْكِيٍّ فِي « دِمَشْقَ » ، وَفِي قَصْرِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ بِالْقَاهِرَةِ ، وَقَضَىٰ شَيْخُوخَتَهُ فِي ظِلِّ صَدِيقِهِ صَلَاحِ الدِّينِ بَطَلِ الْإِسْلَامِ وَقَاهِرِ الصَّلِيبِيِّينَ .

◆ عَلَىٰ هَذَا فَقَدْ شَهِدَ الْحُرُوبَ الصَّلِيبِيَّةَ .

◇ شَهِدَهَا يَا بُنَيَّ وَأَبْلَىٰ[2] فِيهَا هُوَ وَأَبُوهُ أَمِيرُ « شِيزَرَ » أَعْظَمَ الْبَلَاءِ ... وَكَانَ بِحَقٍّ مَثَلًا رَائِعًا لِلْفُرُوسِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

◆ وَمَا الَّذِي جَنَيْتَهُ مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

---

(١) كِفاء : جزاء ومثل.

(٢) أبلىٰ فيها : فعل فيها أفعالا بطولية رائعة.

◇ قِطْعَةً قَالَهَا وَقَدْ كَبِرَتْ سِنُّهُ ، وَوَهَنَ عَظْمُهُ ، وَغَيَّبَ الْمَوْتُ أَحْبَابَهُ ، وَطَوَىٰ الثَّرَىٰ أَتْرَابَهُ(١) .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ يَقُولُ :

أَحْبَابَنَا ، كَمْ ذَا يُشَتِّتُ شَمْلَنَا الْبَيْنُ الطَّرُوحْ(٢)
وَلِمَ التَّفَرُّقُ ؟ آنَ أَنْ تَدْنُو الدِّيَارُ وَأَنْ تَرُوحُوا
مَاذَا يُجِنُّ(٣) مِنَ الْحَنِينِ إِلَيْكُمُ الْقَلْبُ الْقَرِيحُ ؟
أَنَا بَعْدَكُمْ كَالْوُرْقِ(٤) فِي أَغْصَانِهَا أَبَدًا تَنُوحُ
لَكِنَّهَا غَاضَتْ(٥) مَدَامِعُهَا وَلِي دَمْعٌ سَفُوحُ
لَمْ يَبْقَ مِنْ لِدَتِي(٦) وَأَتْرَابِ الصِّبَا خِلٌّ نَصُوحُ
غَالَتْهُمُ(٧) الدُّنْيَا ، وَصَدَّعَ شَمْلَهُمْ زَمَنٌ نَطُوحُ(٨)
أَنَا بَعْدَهُمْ مَيْتٌ ، وَلِي مِنْ جِسْمِيَ الْبَالِي ضَرِيحُ

◆ مَا أَجْمَلَ الصُّورَةَ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْبَيْتُ الْأَخِيرُ يَا أَبَتِ !! .

◇ بَلْ مَا أَرْهَفَ حِسَّكَ الَّذِي لَفَتَكَ إِلَىٰ جَمَالِ الصُّورَةِ !! .

* * *

(١) الترب : المماثل في السن .
(٢) البين الطروح : البعد الذي يقذف بالناس كل واحد في مكان بعيد عن أهله .
(٣) يجن : يستر ويخفي .
(٤) الورق : أنواع من الحمام .
(٥) غاضت مدامعها : جفت مدامعها ، وكأن عيونها بئر لم يعد فيه ماء .
(٦) اللِّدة : الأصدقاء المقاربون في العمر الذين وُلدوا في زمن واحد .
(٧) غالتهم الدنيا : اغتالتهم الدنيا فماتوا .
(٨) نطوح : شديد النطاح كأنه الثور الذي يناطح البشر حتىٰ يهزمهم .

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ : إِنَّ أُسَامَةَ بْنَ مُنْقِذٍ قَالَ قَصِيدَتَهُ بَعْدَ أَنْ كَبِرَتْ سِنُّهُ وَشَاخَ ، فَفِي أَيَّةِ سِنٍّ يُطْلَقُ عَلَىٰ الرَّجُلِ اسْمُ شَيْخٍ ؟ ... وَهَلْ جَعَلَ الْعَرَبُ لِكُلِّ سِنٍّ لَفْظًا خَاصًّا بِهَا ؟ .

◇ لَقَدْ تَتَبَّعَ الْعَرَبُ يَا بُنَيَّ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ أَوَّلِ حَيَاتِهِ إِلَىٰ حِينِ وَفَاتِهِ ، وَوَضَعُوا لِكُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ عُمُرِهِ اسْمًا خَاصًّا بِهَا .

◆ فَمَاذَا قَالُوا ؟ .

◇ قَالُوا : إِنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ فِي الرَّحِمِ فَهُوَ : ***جَنِينٌ*** .
فَإِذَا وُلِدَ ، فَهُوَ : ***وَلِيدٌ*** .
وَمَا دَامَ لَمْ يَسْتَتِمَّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ، فَهُوَ : ***صَدِيغٌ*** ؛ لِأَنَّهُ لَا يَشْتَدُّ صُدْغُهُ[1] إِلَّا فِي تَمَامِ السَّبْعَةِ .
فَإِذَا قُطِعَ عَنِ اللَّبَنِ ، فَهُوَ : ***فَطِيمٌ*** .
فَإِذَا هُوَ دَبَّ وَنَمَا سُمِّيَ : ***دَارِجًا*** .
فَإِذَا سَقَطَتْ رَوَاضِعُهُ[2] ، فَهُوَ : ***مَثْغُورٌ*** .
فَإِذَا نَبَتَتْ أَسْنَانُهُ بَعْدَ السُّقُوطِ ، فَهُوَ : ***مُتَّغِرٌ*** ، وَ ***مُثَّغِرٌ*** ، بِالتَّاءِ وَالثَّاءِ .
فَإِذَا كَادَ يُجَاوِزُ الْعَشْرَ السِّنِينَ ، فَهُوَ : ***مُتَرَعْرِعٌ*** ، وَ ***نَاشِئٌ*** .
فَإِذَا كَادَ يَبْلُغُ الْحُلُمَ أَوْ بَلَغَهُ ، فَهُوَ : ***يَافِعٌ*** ، وَ ***مُرَاهِقٌ*** ، وَيُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ السَّابِقَةِ اسْمُ : ***غُلَامٍ*** .
فَإِذَا اخْضَرَّ[3] شَارِبُهُ وَسَالَ عِذَارُهُ[4] قِيلَ : ***بَقَلَ وَجْهُهُ*** .
فَإِذَا صَارَ ذَا فَتَاءٍ ، فَهُوَ : ***فَتًى*** ، وَ ***شَارِخٌ*** .

---

(١) الصدغ : جانب الوجه من العين إلىٰ الأذن .
(٢) الرواضع : الأسنان الأمامية للطفل التي يمكنه بها أن تمتص الثدي عند الرضاع .
(٣) اخضر شاربه : نبت شاربه .
(٤) سال عذاره : استرسل شعره النابت علىٰ جانبي وجنتيه .

فَإِذَا اجْتَمَعَتْ لِحْيَتُهُ وَبَلَغَ شَبَابُهُ ، فَهُوَ : **مُجْتَمِعٌ** .
ثُمَّ مَا دَامَ بَيْنَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ ، فَهُوَ : **شَابٌّ** .
ثُمَّ مَا دَامَ بَيْنَ الْأَرْبَعِينَ وَالسِّتِّينَ ، فَهُوَ : **كَهْلٌ** .
ثُمَّ إِذَا جَاوَزَ السِّتِّينَ ، فَهُوَ : **شَيْخٌ** .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، فَقَدْ شَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنَّ النُّفُوسَ تَتُوقُ إِلَىٰ كُلِّ طَرِيفٍ ؛ فَهَلَّا أَمْتَعْتَنَا بِطُرْفَةٍ مِنْ مَرْوِيَّاتِكَ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً :
جَاءَ فِي كِتَابِ الْهَفَوَاتِ النَّادِرَةِ : أَنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ الثَّقَفِيَّ انْفَرَدَ يَوْمًا مِنْ عَسْكَرِهِ فِي سَوَادِ[1] « وَاسِطَ » فَمَرَّ بِبُسْتَانِيٍّ يَسْقِي أَرْضَهُ ؛ فَوَقَفَ مَعَهُ وَقَالَ : يَا بُسْتَانِيُّ ، كَيْفَ حَالُكُمْ مَعَ الْحَجَّاجِ ؟ .
فَقَالَ : أَخْزَاهُ اللَّهُ ؛ إِنَّهُ الْمُبِيدُ الْمُبِيرُ[2] ، وِعَاءُ النِّقْمَةِ وَمُزِيلُ النِّعْمَةِ ، سَافِكُ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حِلِّهَا ، الْمُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَبِيبَةِ وَخِلِّهَا ... عَجَّلَ اللَّهُ مِنْهُ بِالِانْتِقَامِ ، وَصَرَفَ مَعَرَّتَهُ[3] وَمَضَرَّتَهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ .
فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : أَتَعْرِفُنِي ؟ .
قَالَ : لَا .
قَالَ : فَأَنَا الْحَجَّاجُ .
فَرَأَىٰ الْبُسْتَانِيُّ الْمَوْتَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَرَفَعَ عَصًا كَانَتْ بِيَدِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَقَالَ : أَتَعْرِفُنِي ؟ ... أَنَا أَبُو ثَوْرٍ الْمَجْنُونُ ، وَهَذَا يَوْمُ صَرْعِي .
ثُمَّ أَزْبَدَ ، وَأَرْغَىٰ ، وَهَاجَ ، وَعَدَا ، وَأَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ رَأْسَهُ بِالْعَصَا ...
فَضَحِكَ الْحَجَّاجُ مِنْهُ ، وَمَضَىٰ .

* * *

---

(١) السواد : ما حول المدينة من القرىٰ والحقول .   (٢) المبير : المُهلك .   (٣) معرته : عاره وقبحه .

الْجَلْسَةُ الثَّالِثَةُ

الِافْتِرَاءَاتِ عَلَىٰ اللُّغَةِ وَمِنْ أَيْنَ تَأْتِي

◆ سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا أَبَتِ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، يُكْثِرُ النَّاسُ الْحَدِيثَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَنِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ، فَيَخْلَعُونَ هَذَا اللَّقَبَ عَلَىٰ بَعْضِ اللُّغَاتِ ، وَيَنْزِعُونَهُ عَنْ بَعْضِهَا الْآخَرِ... فَمَا الْمُرَادُ بِاللُّغَةِ الْحَيَّةِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ اللُّغَةُ الْحَيَّةُ - يَا بُنَيَّ - هِيَ اللُّغَةُ الْعَالَمِيَّةُ الصَّالِحَةُ لِأَدَاءِ رِسَالَةِ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ فِي هَذَا الْقَرْنِ ، قَرْنِ الْكَهْرَبَاءِ وَالذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ .

◆ وَهَلْ عَجَزَتْ لُغَتُنَا عَنْ أَدَاءِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ ؛ حَتَّىٰ تُحْرَمَ مِنْ هَذَا اللَّقَبِ ؟ .

◇ لَيْسَ الْعَجْزُ فِي لُغَتِنَا - يَا بُنَيَّ - وَإِنَّمَا هُوَ فِينَا نَحْنُ ، وَلَيْسَ الذَّنْبُ ذَنْبَهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ ذَنْبُنَا .

◆ ذَنْبُنَا نَحْنُ ؟!! .

◇ نَعَمْ ، ذَنْبُنَا نَحْنُ ؛ فَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ أَصَاخَ[1] بِسَمْعِهِ إِلَىٰ افْتِرَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَىٰ هَذِهِ اللُّغَةِ ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنِ اقْتَنَعَ بِعَجْزِهَا عَنْ أَدَاءِ رِسَالَةِ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ ... لَقَدِ اقْتَنَعْنَا بِذَلِكَ ثُمَّ رُحْنَا نُقْنِعُ الْآخَرِينَ .

◆ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الْفِرْيَةُ[2] الَّتِي أُلْصِقَتْ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مِنْ مَصَادِرَ كَثِيرَةٍ ، وَلَعَلَّكَ تَدْهَشُ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ أَبْنَائِنَا كَانَتْ مَصْدَرًا مِنْ هَذِهِ الْمَصَادِرِ .

◆ طَائِفَةٌ مِنْ أَبْنَائِنَا !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ إِنَّ طَائِفَةً مِنْ أَوَائِلِ الْمُتَرْجِمِينَ الَّذِينَ نَدَبُوا أَنْفُسَهُمْ لِتَرْجَمَةِ عُلُومِ أُورُبَّا فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْمَاضِي[3] وَأَوَائِلِ هَذَا الْقَرْنِ[4] قَدْ أَسْهَمُوا إِسْهَامًا كَبِيرًا فِي إِصْدَارِ هَذَا الْحُكْمِ الْجَائِرِ عَلَىٰ اللُّغَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ .

◆ وَمَا الَّذِي دَفَعَهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ ؟! .

◇ عَجْزُهُمْ ، عَجْزُهُمْ - يَا بُنَيَّ - فَالْمُتَرْجِمُ لَا يَسْتَطِيعُ النُّهُوضَ بِعِبْءِ التَّرْجَمَةِ الثَّقِيلِ إِلَّا إِذَا تَوَافَرَتْ لَهُ شُرُوطٌ أَرْبَعَةٌ .

◆ وَمَا هِيَ ؟ .

◇ أَوَّلُهَا : أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ فَقِيهًا بِاللُّغَةِ الَّتِي يُتَرْجِمُ مِنْهَا ، وَاقِفًا عَلَىٰ أَسْرَارِهَا .

◆ وَثَانِيهَا ؟ .

◇ وَثَانِيهَا : أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا أَيْضًا بِاللُّغَةِ الَّتِي يُتَرْجِمُ إِلَيْهَا ، مُتَمَكِّنًا مِنْ دَقَائِقِهَا .

---

(١) أصاخ بسمعه : أنصت باهتمام .
(٢) الفرية : الكذبة .
(٣) القرن التاسع عشر الميلادي .
(٤) القرن العشرون الميلادي .

◆ وَثَالِثُهَا ؟ .

◇ وَثَالِثُهَا : أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالْفَنِّ الَّذِي يُتَرْجِمُهُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ تَرْجَمَةَ كِتَابٍ فِي الطِّبِّ إِلَّا طَبِيبٌ ، وَلَا تَرْجَمَةَ كِتَابٍ فِي الْفَلَكِ إِلَّا فَلَكِيٌّ ، وَلَا تَرْجَمَةَ كِتَابٍ فِي الذَّرَّةِ إِلَّا عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ الذَّرَّةِ .

◆ وَرَابِعُ هَذِهِ الشُّرُوطِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ رَابِعُهَا : أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ ذَا مُشَارَكَةٍ وَافِيَةٍ بِالثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ السَّائِدَةِ فِي عَصْرِهِ .

◆ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهَا صِلَةٌ بِالْمَوْضُوعِ الْمُتَرْجَمِ ! .

◇ نَعَمْ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعِيدَةَ الصِّلَةِ بِالْمَوْضُوعِ الْمُتَرْجَمِ .

◆ وَلَكِنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ صَعْبَةٌ - يَا أَبَتِ - وَهِيَ لَا تَجْتَمِعُ إِلَّا لِلْقَلِيلِ الْقَلِيلِ مِنَ النَّاسِ ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهَا لَمْ تَتَوَافَرْ لِأَوَائِلِ الْمُتَرْجِمِينَ .

◇ لَا تَقُلْ : أَغْلَبُ الظَّنِّ ؛ فَالَّذِينَ نَدَبُوا أَنْفُسَهُمْ لِلتَّرْجَمَةِ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُتْقِنُ اللُّغَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ الَّتِي يُتَرْجِمُ مِنْهَا بِحُكْمِ دِرَاسَتِهِ فِي أُورُبَّا ، وَلَكِنَّهُ لَا يُجِيدُ الْعَرَبِيَّةَ وَلَا يَعْرِفُ أَسْرَارَهَا ... ★
وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يُتْقِنُ الْعَرَبِيَّةَ ؛ لَكِنَّ حَظَّهُ مِنَ اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ قَلِيلٌ .
وَإِذَا وُجِدَ فِيهِمْ مَنْ يُتْقِنُ اللُّغَتَيْنِ ، فَإِنَّ حَظَّهُ مِنَ الِاخْتِصَاصِ بِالْعِلْمِ الْمُتَرْجَمِ قَلِيلٌ أَوْ مَعْدُومٌ .

◆ إِذَنْ هَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ كَوَاهِلَ هَؤُلَاءِ تَنُوءُ[1] بِهَذَا الْعِبْءِ ؟ .

---

(١) تنوء : تعجز عن حمل هذا العبء .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ - يَا بُنَيَّ - وَلَكِنَّهُمْ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَلْتَمِسُوا النَّقْصَ فِي أَنْفُسِهِمْ الْتَمَسُوهُ فِي لُغَتِهِمْ؛ فَأَوْسَعُوهَا لَوْمًا وَذَمًّا، وَقَالُوا فِيهَا مَا لَمْ يَقُلْهُ مَالِكٌ فِي الْخَمْرِ.

◆ لَعَلَّ حَافِظًا[1] كَانَ يَعْنِي هَؤُلَاءِ حِينَ قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي
عَقُمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عُدَاتِي

وَسِعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً
وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ

فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ؟

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - إِنَّ حَافِظًا مَا كَانَ يَعْنِي إِلَّا هَؤُلَاءِ وَأَشْيَاعَهُمْ[2]؛ فَهُمُ الَّذِينَ رَمَوْا لُغَةَ الْقُرْآنِ بِالْعُقْمِ، وَمَا الْعُقْمُ إِلَّا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ وَصَمُوهَا بِالْعَجْزِ، وَمَا الْعَجْزُ إِلَّا فِي ذَوَاتِهِمْ.

◆ أَبَتِ - مَعْذِرَةً -، كُنْتَ حَدَّثْتَنِي عَنْ تَجْرِبَةٍ قَاسِيَةٍ عَانَيْتَهَا فِي هَذَا الشَّأْنِ.

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - فَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَادَتْ تَزِلُّ بِهِمُ الْقَدَمُ.

◆ لَا سَمَحَ اللَّهُ وَلَا قَدَّرَ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ].

◇ كُنْتُ أَشْرَعُ فِي كِتَابَةِ رِوَايَةٍ تَارِيخِيَّةٍ[3]، وَقَدْ عَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَىٰ أَنْ أَمْضِيَ فِي

(١) حافظًا: أي حافظ إبراهيم.
(٢) وأشياعهم: الذين يشايعونهم ويؤيدون رأيهم.
(٣) هي كتاب «أرض البطولات»، الناشر دار الأدب الإسلامي.

كِتَابَتِهَا عَلَىٰ سَنَنِ الْفُصْحَىٰ ، وَأَنْ أُجَنِّبَهَا اللَّحْنَ[١] ، وَأَصُونَهَا مِنَ الْعُجْمَةِ[٢] .

◆ كَأَنَّكَ كُنْتَ تَنْوِي أَنْ تَرُدَّ بِصُورَةٍ عَمَلِيَّةٍ عَلَىٰ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ بِأَنَّ الْفُصْحَىٰ تُفْسِدُ الْعَمَلَ الرِّوَائِيَّ وَتَنَالُ مِنْ فَنِّيَّتِهِ ؟! .

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - وَلَكِنَّنِي مَا إِنْ قَطَعْتُ فِي كِتَابَتِهَا بَعْضَ الطَّرِيقِ ، حَتَّىٰ بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِأَنَّ الْفُصْحَىٰ عَاجِزَةٌ عَنْ أَدَاءِ كُلِّ مَا أُرِيدُ أَدَاءَهُ .

◆ إِنَّهَا لَمِحْنَةٌ بِالنِّسْبَةِ لَكَ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ نَعَمْ هِيَ مِحْنَةٌ - يَا بُنَيَّ - وَقَدْ كَانَ يَشْتَدُّ هَذَا الشُّعُورُ لَدَيَّ وَيَقْوَىٰ عِنْدَمَا أَصِيرُ إِلَىٰ مَوْقِفٍ مِنْ مَوَاقِفِ الْوَصْفِ .

◆ وَبَعْدَ ذَلِكَ ؟ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَبَلَغَ هَذَا الشُّعُورُ ذِرْوَتَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ ؛ فَأَلْقَيْتُ الْقَلَمَ ، وَبَدَأَتْ تُسَاوِرُنِي[٣] الشُّكُوكُ .

◆ الشُّكُوكُ ... فِي مَاذَا يَا أَبَتِ ؟!! .

◇ الشُّكُوكُ فِيمَا كُنْتُ أَعْتَقِدُهُ مِنْ قُدْرَةِ الْفُصْحَىٰ عَلَىٰ التَّعْبِيرِ .

◆ إِنَّهَا لَفَجِيعَةٌ كُبْرَىٰ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ .

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - إِنَّهَا لَخَيْبَةٌ عُظْمَىٰ جَعَلَتْنِي أُعِيدُ النَّظَرَ فِيمَا كُنْتُ أَسْتَنْكِرُ مِنْ إِرْجَافِ الْمُرْجِفِينَ[٤] بِهَذِهِ اللُّغَةِ وَتَعْرِيضِ الْمُعَرِّضِينَ[٥] بِهَا .

---

(١) اللّحن : الخطأ في قواعد النحو .
(٢) العجمة : الكلام الذي لا يفهم له معنىً .
(٣) تساورني الشكوك : تدور في خاطري الظنون والشكوك .
(٤) إرجاف المرجفين : حديث الكاذبين الذين يشيعون غير الحقيقة .
(٥) تعريض المعرضين : كلامهم الذي يخفي السوء فيهمزون ويلمزون .

◆ وَمَا الَّذِي حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ يَا أَبَتِ ؟.

◇ كَانَ أَمَامِي سَبِيلَانِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا - يَا بُنَيَّ - ... فَإِمَّا أَنْ أَتَرَخَّصَ فِي اللُّغَةِ، وَأَسْمَحَ لِلْعُجْمَةِ بِأَنْ تَأْخُذَ طَرِيقَهَا إِلَىٰ أُسْلُوبِي؛ وَبِذَلِكَ أَعْتَرِفُ بِعَجْزِ الْفُصْحَىٰ عَنِ الأَدَاءِ.

◆ وَ إِمَّا ؟ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ].

◇ وَ إِمَّا أَنْ أَطْوِيَ الصُّحُفَ، وَأَرْفَعَ الْقَلَمَ.

◆ ثُمَّ مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِكَ - يَا أَبَتِ - ؟؟.

◇ خَيْرًا - يَا بُنَيَّ -، فَفِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ يَقَظَةِ الضَّمِيرِ؛ طَرَحْتُ عَلَىٰ نَفْسِي سُؤَالًا كَانَ فِي جَوَابِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ.

◆ وَمَا هَذَا السُّؤَالُ يَا أَبَتِ ؟.

◇ سَأَلْتُ نَفْسِي، فَقُلْتُ: مَا الَّذِي يَجْعَلُنِي أُقَرِّرُ أَنَّ النَّقْصَ فِي اللُّغَةِ وَلَيْسَ فِيَّ أَنَا ؟ ...
عَلَامَ أَسْتَبْعِدُ نَفْسِي، وَأَسْتَهْدِفُ اللُّغَةَ ؟!.
وَكَانَ هَذَا السُّؤَالُ مُنْطَلَقًا إِلَىٰ خَيْرٍ كَبِيرٍ.

◆ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟.

◇ رَجَعْتُ إِلَىٰ أُمَّهَاتِ كُتُبِ اللُّغَةِ رَجْعَةَ مَنْ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ وَلَا يَتَّهِمُ لُغَتَهُ؛ فَوَجَدْتُ فِي مُعْجَمَاتِ الْمَعَانِي؛ وَعَلَىٰ رَأْسِهَا كِتَابُ «الْمُخَصَّصُ» لِابْنِ سِيدَهْ، وَ«تَهْذِيبُ الأَلْفَاظِ» لِابْنِ السِّكِّيتِ، وَ«نِظَامُ الْغَرِيبِ» لِلرَّبَعِيِّ.
وَفِي كُتُبِ الْمُصْطَلَحَاتِ؛ وَفِي مُقَدِّمَتِهَا «مُصْطَلَحَاتُ الْعُلُومِ» لِلتَّهَانَوِيِّ،

وَ« الْكُلِّيَّاتُ » لِأَبِي الْبَقَاءِ ، وَ« التَّعْرِيفَاتُ » لِلْجُرْجَانِيِّ .
وَفِي كُتُبِ فِقْهِ اللُّغَةِ ، وَفِي طَلِيعَتِهَا كِتَابُ « فِقْهُ اللُّغَةِ » لِلثَّعَالِبِي ، وَ« الصَّاحِبِيُّ فِي فِقْهِ اللُّغَةِ » لِابْنِ فَارِسٍ ، وَفِي غَيْرِهَا وَغَيْرِهَا مِنْ عَشَرَاتِ الْكُتُبِ بَلْ مِئَاتِهَا ...

◆ مَاذَا وَجَدْتَ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ وَجَدْتُ فِيهَا جَمِيعَ مَا كُنْتُ أَبْتَغِيهِ ، وَأَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ أَرْجُوهُ وَأَطْمَحُ إِلَيْهِ .

◆ وَمَاذَا صَنَعْتَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ .

◇ اسْتَأْنَفْتُ الْكِتَابَةَ عَلَىٰ اسْمِ اللَّهِ وَبَرَكَتِهِ ، وَمَضَيْتُ فِي طَرِيقِي لَا أَتَعَثَّرُ ، وَلَا أَتَأَخَّرُ ، وَوَجَدْتُ فِي غِنَىٰ الْفُصْحَىٰ مَا يُغْنِينِي وَيُغْنِي الْكَاتِبِينَ فِي كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ .

* * *

◆ أَبَتِ ، يَبْدُو لِي أَنَّكَ خَصَصْتَ بِاللَّوْمِ أَوَائِلَ الْمُعَرِّبِينَ .

◇ أَنَا أَوَّلًا لَمْ أَخُصَّ أَوَائِلَ الْمُعَرِّبِينَ بِاللَّوْمِ كَمَا بَدَا لَكَ ، وَأَنَا ثَانِيًا - وَهُوَ الْأَهَمُّ - لَمْ أَقُلْ : أَوَائِلَ الْمُعَرِّبِينَ ، وَ إِنَّمَا قُلْتُ : أَوَائِلَ الْمُتَرْجِمِينَ .

◆ يَا رَعَاكَ اللَّهُ ! وَهَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ الْمُعَرِّبِينَ وَالْمُتَرْجِمِينَ ؟! .

◇ فَرْقٌ كَبِيرٌ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا هُوَ؟ طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ التَّعْرِيبُ - يَا بُنَيَّ - نَقْلُ الْكَلِمَةِ بِلَفْظِهَا مِنْ إِحْدَىٰ اللُّغَاتِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ وَالتَّرْجَمَةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ التَّرْجَمَةُ - يَا بُنَيَّ - نَقْلُ مَعْنَىٰ الْكَلِمَةِ ...

◆ مَعْنَىٰ الْكَلِمَةِ ؟! [بِصَوْتٍ خَافِتٍ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَشْعِرَ الْفَرْقَ بَيْنَ نَقْلِ الْكَلِمَةِ بِلَفْظِهَا وَنَقْلِهَا بِمَعْنَاهَا] .

◇ نَعَمْ ، التَّرْجَمَةُ نَقْلُ مَعْنَىٰ الْكَلِمَةِ أَوِ الْجُمْلَةِ مِنَ اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، أَمَا مِنْ مِثَالٍ ؟ .

◇ بَلْ أَكْثَرُ مِنْ مِثَالٍ ؛ فَأَنْتَ إِذَا أَخَذْتَ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ مَثَلًا لَفْظَةَ « تِلِفُونْ » وَ« رَادِيُو » وَ« أُتُومُوبِيلْ » وَ« مُوتُورْ » وَاسْتَعْمَلْتَهَا كَمَا جَاءَتْ فِي لُغَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ أَوْ مَعَ شَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ التَّعْدِيلِ فَذَلِكَ تَعْرِيبٌ .
أَمَّا إِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ مَدْلُولَاتِ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ وَبَحَثْتَ لَهَا عَنْ لَفْظٍ عَرَبِيٍّ يُؤَدِّي مَعْنَاهَا ؛ فَقُلْتَ : هَاتِفٌ بَدَلًا مِنْ تِلِفُونْ ، وَمِذْيَاعٌ بَدَلًا مِنْ رَادِيُو ، وَسَيَّارَةٌ بَدَلًا مِنْ أُتُومُوبِيلْ ، وَمُحَرِّكٌ بَدَلًا مِنْ مُوتُورْ فَهَذِهِ هِيَ التَّرْجَمَةُ .

◆ أَتَأْذَنُ لِي بِأَنْ أَكْتُبَ ذَلِكَ فِي بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ اكْتُبْهُ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ ؟ .

◇ اكْتُبْ : لَا يُقَالُ : عَرَّبَ الْكِتَابَ ، وَالْكِتَابُ مِنْ تَعْرِيبِ فُلَانٍ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : تَرْجَمَ الْكِتَابَ ، وَالْكِتَابُ مِنْ تَرْجَمَةِ فُلَانٍ ، ذَلِكَ لِأَنَّ التَّعْرِيبَ : إِنَّمَا هُوَ نَقْلُ الْكَلِمَةِ بِلَفْظِهَا مِنَ اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَمَّا التَّرْجَمَةُ : فَهِيَ نَقْلُ الْكَلِمَةِ أَوِ الْجُمْلَةِ بِمَعْنَاهَا مِنْ لُغَةٍ إِلَىٰ لُغَةٍ أُخْرَىٰ .

◆ لُقِّيتَ الْخَيْرَ يَا أَبَتِ جَزَاءَ مَا سَدَّدْتَ وَصَوَّبْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَيْنَ قِطَافُهَا الْيَوْمَ ؟ .

◇ إِنَّهُ مِنْكَ قَرِيبٌ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي وَقَفْتَ عَلَىٰ رَوْضِهِ ؟ .

◇ الشَّمَرْدَلُ بْنُ شَرِيكٍ الْيَرْبُوعِيُّ .

◆ الشَّمَرْدَلُ !! ... مَا هَذَا الِاسْمُ يَا أَبَتِ ؟!! .

◇ الشَّمَرْدَلُ فِي اللُّغَةِ يَا بُنَيَّ : هُوَ الْقَوِيُّ الْفَتِيُّ الْحَسَنُ الْخَلْقِ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا ، وَقَدْ جُعِلَ عَلَمًا عَلَىٰ بَعْضِ الرِّجَالِ ، وَدَخَلَتْ فِيهِ « أَلْ » التَّعْرِيفِ كَمَا دَخَلَتْ فِي الْحَسَنِ وَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِمَا .

◆ الشَّمَرْدَلُ هَذَا ، أَجَاهِلِيٌّ هُوَ ، أَمْ إِسْلَامِيٌّ ؟ .

◇ بَلْ إِسْلَامِيٌّ ، مِنْ شُعَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ .

◆ وَأَيْنَ عَاشَ وَكَيْفَ نَشَأَ ؟ .

◇ نَشَأَ الشَّمَرْدَلُ يَا بُنَيَّ ، نَشْأَةً بَدَوِيَّةً خَالِصَةً ، وَعَاشَ فِي تِلْكَ الْمَفَاوِزِ(١) الَّتِي تَمْتَدُّ مِنَ « الْبَصْرَةِ » فِي أَرْضِ « الْعِرَاقِ » إِلَىٰ « الْيَمَامَةِ » فِي أَعَالِي « نَجْدٍ » .

◆ وَمَا الَّذِي جَنَيْتَهُ مِنْ رَوْضِ هَذَا الشَّاعِرِ النَّجْدِيِّ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ مِنْ عُيُونِ الْمَرَاثِي(٢) .

---

(١) المفاوز : جمع مفازة وهي الصحراء.

(٢) الرثاء : ذكر محاسن الميت ومناقبه بشعر وغيره.

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟.

◇ قَبْلَ أَنْ أُنْشِدَكَ الْقَصِيدَةَ يَحْسُنُ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ الْمَأْسَاةِ الَّتِي أَوْحَتْ بِهَا.

◆ وَمَا قِصَّةُ هَذِهِ الْمَأْسَاةِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟.

◇ كَانَ لِلشَّمَرْدَلِ إِخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ هُمْ : حَكَمٌ ، وَوَائِلٌ ، وَقُدَامَةُ ... وَكَانَ الشَّمَرْدَلُ أَكْبرَ إِخْوَتِهِ سِنًّا وَأَعْلَاهُمْ مَكَانَةً ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ الْأَبِ إِلَىٰ أَبْنَائِهِ ، وَقَدْ عَزَمَ الْإِخْوَةُ الْأَرْبَعَةُ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَبْدِلُوا بِخُشُونَةِ الْبَادِيَةِ لِينَ الْحَاضِرَةِ ، وَبِإِقْتَارِ[1] الرِّزْقِ السَّعَةَ وَالْوَفْرَ.

◆ فَمَاذَا فَعَلُوا ؟.

◇ اتَّجَهُوا إِلَىٰ « خُرَاسَانَ » وَاتَّخَذُوهَا دَارَ إِقَامَةٍ لَهُمْ ، وَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ تُشَرِّقُ آنَذَاكَ فِي الْآفَاقِ وَتُغَرِّبُ ، وَكَانَتْ رَايَاتُ الْإِسْلَامِ لَا تَكَادُ تَسْتَقِرُّ فِي بَلَدٍ حَتَّىٰ تَطْمَحَ إِلَىٰ بَلَدٍ آخَرَ.

◆ لِلَّهِ تِلْكَ الْأَيَّامُ ! مَا أَعَزَّهَا وَمَا أَعْلَاهَا.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَقَدْ أَنْفَذَ[2] أَمِيرُ « خُرَاسَانَ » إِخْوَةَ الشَّاعِرِ فِي ثَلَاثَةِ بُعُوثٍ ، فَوَجَّهَ حَكَمًا فِي بَعْثٍ إِلَىٰ « سِجِسْتَانَ » ، وَوَائِلًا فِي بَعْثٍ لِحَرْبِ « التُّرْكِ » ، وَقُدَامَةَ فِي بَعْثٍ إِلَىٰ « فَارِسَ ».

◆ يَاللَّهِ لِلشَّمْلِ الْجَمِيعِ كَيْفَ تَشَتَّتَ ؟!!.

◇ لَوْ أَنَّ الْأَمْرَ اقْتَصَرَ عَلَىٰ تَشْتِيتِ الشَّمْلِ لَهَانَتِ الْمُصِيبَةُ عَلَىٰ الشَّاعِرِ ، وَلَكِنَّ الْأَخْبَارَ مَا لَبِثَتْ أَنْ حَمَلَتْ إِلَيْهِ نَعْيَ[3] أَخِيهِ قُدَامَةَ مِنْ « فَارِسَ » ، ثُمَّ تَلَاهُ

---

(١) الإقتار : الضيق. (٢) أنفذ : بعث. (٣) نعي أخيه : خبر وفاته.

نَعْيُ أَخِيهِ وَائِلٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ نُعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ حَكَمٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ . وَكَانَ قَدْ رَأَىٰ فِيمَا يَرَاهُ النَّائِمُ أَنَّ سِنَانَ رُمْحِهِ قَدْ سَقَطَ عَنْ قَنَاتِهِ ؛ فَأَفْزَعَهُ ذَلِكَ وَأَجْزَعَهُ ، وَأَقَضَّ مَضْجَعَهُ .

◆ وَكَيْفَ كَانَ وَقْعُ الْكَارِثَةِ عَلَىٰ الشَّاعِرِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ وَقْعِهَا عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا سَأَتْرُكُ لَهُ الْحَدِيثَ ... فَهُوَ أَصْدَقُ حِسًّا وَأَدَقُّ تَعْبِيرًا .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ ؟ :

◇ يَقُولُ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ حَكَمٍ :

يَقُولُونَ احْتَسِبْ حَكَمًا وَرَاحُوا ... بِأَبْيَضَ[١] لَا أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي *

وَقَبْلَ فِرَاقِهِ أَيْقَنْتُ أَنِّي ... وَكُلَّ ابْنَيْ أَبٍ مُتَفَارِقَانِ

أَخٌ لِي ، لَوْ دَعَوْتُ أَجَابَ صَوْتِي ... وَكُنْتُ مُجِيبَهُ أَنَّىٰ دَعَانِي

فَقَدْ أَفْنَىٰ الْبُكَاءُ عَلَيْهِ دَمْعِي ... وَلَوْ أَنِّي الْفَقِيدُ - إِذَنْ - بَكَانِي

مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ لَمْ يُعْطِ ضَيْمًا[٢] ... وَلَمْ تَرْهَبْ غَوَائِلَهُ[٣] الْأَدَانِي

ثُمَّ يُخَاطِبُ أَخَاهُ ؛ فَيَقُولُ :

وَكُنْتَ سِنَانَ رُمْحِي مِنْ قَنَاتِي ... وَلَيْسَ الرُّمْحُ إِلَّا بِالسِّنَانِ

وَكُنْتَ بَنَانَ كَفِّي مِنْ يَمِينِي ... وَكَيْفَ صَلَاحُهَا بَعْدَ الْبَنَانِ ؟

وَكَانَ يَهَابُكَ الْأَعْدَاءُ فِينَا ... وَلَا أَخْشَىٰ وَرَاءَكَ مَنْ رَمَانِي

فِدَاكَ أَخٌ نَبَا عَنْهُ غِنَاهُ[٤] ... وَمَوْلًى لَا تَصُولُ لَهُ يَدَانِ[٥]

---

(١) بأبيض : يقصد أخاه المقتول ، ولعل وصفه بالأبيض يعني نقاء عرضه ، أو حسن بدنه وجمال وجهه .

(٢) ضيمًا : ظلمًا .

(٣) غوائله : بوادره وفتكاته .

(٤) نبا عنه غناه : بعد عنه الغنىٰ ، إذ فارقه بالموت .

(٥) أي لم تعد يداه تملكان ما تفعلانه .

◆ مَا هَذَا بِشِعْرٍ يَا أَبَتِ ، وَإِنَّمَا هِيَ دُمُوعٌ نُظِمَتْ فِي أَسْلَاكِ الْوَجْدِ[1] ثُمَّ دُعِيَتْ شِعْرًا .
وَلَكِنْ أَمَا قَالَ فِي أَخَوَيْهِ الْآخَرَيْنِ شَيْئًا ؟ .

◇ بَلْ قَالَ فِي كُلٍّ مِنْهُمْ عَلَىٰ انْفِرَادٍ ، وَقَالَ فِيهِمْ جَمِيعًا ، وَلَعَلَّ مِنْ أَجْوَدِ مَرَاثِيهِ مَا قَالَهُ فِي أَخِيهِ وَائِلٍ .

◆ وَمَا الَّذِي قَالَهُ فِيهِ ؟ .

◇ قَالَ :

لَعَمْرِي لَئِنْ غَالَتْ[2] أَخِي دَارُ فُرْقَةٍ ... وَآبَ[3] إِلَيْنَا سَيْفُهُ وَرَوَاحِلُهْ
وَحَلَّتْ بِهِ أَثْقَالَهَا الْأَرْضُ وَانْتَهَىٰ ... بِمَثْوَاهُ مِنْهَا ، وَهْوَ عَفٌّ مَآكِلُهْ[4]
لَقَدْ ضُمِّنَتْ جَلْدَ الْقُوَىٰ كَانَ يُتَّقَىٰ ... بِهِ جَانِبُ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ زَلَازِلُهْ
مَحَلٌّ لِأَضْيَافِ الشِّتَاءِ كَأَنَّمَا ... هُمُ عِنْدَهُ أَيْتَامُهُ وَأَرَامِلُهْ
أَبَىٰ الصَّبْرُ أَنَّ الْعَيْنَ بَعْدَكَ لَمْ تَزَلْ ... يُخَالِطُ جَفْنَيْهَا قَذًى لَا يُزَايِلُهْ
وَكُنْتُ أُعِيرُ الدَّمْعَ بَعْدَكَ مَنْ بَكَىٰ ... فَأَنْتَ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاغِلُهْ
إِلَىٰ اللَّهِ أَشْكُو لَا إِلَىٰ النَّاسِ فَقْدَهُ ... وَلَوْعَةَ حُزْنٍ أَوْجَعَ الْقَلْبَ دَاخِلُهْ
وَتَحْقِيقَ رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ رَأَيْتُهَا ... فَكَانَ أَخِي رُمْحًا تَرَمَّصَ عَامِلُهْ[5]
وَكُنْتُ بِهِ أَغْشَىٰ الْقِتَالَ فَعَزَّنِي ... عَلَيْهِ مِنَ الْمِقْدَارِ مَا لَا أُقَاتِلُهْ

* * *

◆ أَبَتِ ، مَا الَّذِي أَرَادَهُ الشَّمَرْدَلُ بِقَوْلِهِ : وَلَيْسَ الرُّمْحُ إِلَّا بِالسِّنَانِ ؟ .

---

(١) الوجد : الحزن .
(٢) غالت : اغتالت .
(٣) آب إلينا : رجع إلينا .
(٤) عف مآكله : عفيفًا طيب الكسب طعامه حلال .
(٥) ترمص عامله : أي تكسر سنانه .

وَهَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ الرُّمْحِ ، وَالسِّنَانِ ؟ .

◇ يَتَكَوَّنُ الرُّمْحُ يَا بُنَيَّ مِنْ جُزْأَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ : هُمَا الْقَنَاةُ ، وَالسِّنَانُ .

◆ وَمَا الْقَنَاةُ ؟ .

◇ ***الْقَنَاةُ*** : هِيَ الْقَصَبَةُ أَوِ الْعَصَا الطَّوِيلَةُ الَّتِي يُمْسِكُ بِهَا الْفَارِسُ ، وَيُثَبَّتُ فِي رَأْسِهَا السِّنَانُ .

◆ وَمَا السِّنَانُ ؟ .

◇ ***السِّنَانُ*** : هُوَ الْحَدِيدَةُ الْمَسْنُونَةُ الْمُدَبَّبَةُ الَّتِي تُثَبَّتُ فِي نِهَايَةِ الْقَنَاةِ ، وَيُطْعَنُ بِهَا .
وَلَا يُقَالُ لِلرُّمْحِ ***رُمْحٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَيْهِ سِنَانٌ ، وَإِلَّا فَهُوَ : ***قَنَاةٌ*** .

◆ أَتَأْذَنُ لِي بِأَنْ أُضِيفَ هَذَا إِلَىٰ بَابِ الثَّرْوَةِ اللُّغَوِيَّةِ مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَضِفْهُ عَلَىٰ تَوْفِيقِ اللَّهِ ، وَأَضِفْ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ بَابِهِ .

◆ وَمَا هُوَ ؟ جُزِيتَ الْخَيْرَ .

◇ هُوَ أَنَّهُ :
لَا يُقَالُ ***كَأْسٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا شَرَابٌ ، وَإِلَّا فَهِيَ : ***زُجَاجَةٌ*** .
وَلَا يُقَالُ ***مَائِدَةٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَيْهَا طَعَامٌ ، وَإِلَّا فَهِيَ : ***خِوَانٌ*** .
وَلَا يُقَالُ ***كُوزٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَهُ عُرْوَةٌ ، وَإِلَّا فَهُوَ : ***كُوبٌ*** .
وَلَا يُقَالُ ***فَرْوٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَيْهِ صُوفٌ ، وَإِلَّا فَهُوَ : ***جِلْدٌ*** .
وَلَا يُقَالُ ***خِدْرٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ مُشْتَمِلًا عَلَىٰ امْرَأَةٍ ، وَإِلَّا فَهُوَ : ***سِتْرٌ*** .
وَلَا يُقَالُ ***رَكِيَّةٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ ، وَإِلَّا فَهِيَ : ***بِئْرٌ*** .
وَلَا يُقَالُ ***وَقُودٌ*** ؛ إِلَّا إِذَا اتَّقَدَتْ بِهِ النَّارُ ، وَإِلَّا فَهُوَ : ***حَطَبٌ*** .

وَلَا يُقَالُ **عَوِيلٌ** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَهُ رَفْعُ صَوْتٍ ، وَإِلَّا فَهُوَ : **بُكَاءٌ** .
وَلَا يُقَالُ **ثَرًى** ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ نَدِيًّا ، وَإِلَّا فَهُوَ : **تُرَابٌ** .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ يَا أَبَتِ ، وَلُقِّيتَ الْبِرَّ .

* * *

◆ وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ يَا أَبَتِ ، أَيْنَ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ؟ .

◇ إِلَيْكَ مَا طَلَبْتَ :
قَالَ صَاحِبُ الْعِقْدِ الْفَرِيدِ : أَجْوَادُ[1] الْحِجَازِ ثَلَاثَةٌ فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ : عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْعَبَّاسِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ؛ فَمِنْ جُودِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ وَهُوَ بِفِنَاءِ دَارِهِ ، فَقَالَ :
يَا ابْنَ الْعَبَّاسِ ، إِنَّ لِي عِنْدَكَ يَدًا[2]، وَقَدِ احْتَجْتُ إِلَيْهَا ...
فَصَعَّدَ بَصَرَهُ فِيهِ وَصَوَّبَهُ ؛ فَلَمْ يَعْرِفْهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَمَا يَدُكَ عِنْدِي ؟ .
قَالَ الرَّجُلُ : رَأَيْتُكَ وَاقِفًا بِزَمْزَمَ ، وَعَبْدُكَ يَمْتَحُ[3] لَكَ مِنْ مَائِهَا ، وَالشَّمْسُ قَدْ صَهَرَتْكَ فَظَلَّلْتُكَ بِطَرَفِ كِسَائِي حَتَّىٰ شَرِبْتَ .
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ : إِنِّي لَأَذْكُرُ ذَلِكَ ، وَإِنَّهُ يَتَرَدَّدُ فِي خَاطِرِي وَفِكْرِي ،
ثُمَّ قَالَ لِقَيِّمِهِ :
مَا عِنْدَكَ ؟ .
قَالَ : مِئَتَا دِينَارٍ وَعَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ .
قَالَ : ادْفَعْهَا إِلَيْهِ ، وَمَا أَرَاهَا تَفِي بِحَقِّ يَدِهِ عِنْدَنَا .
فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِإِسْمَاعِيلَ وَلَدٌ غَيْرُكَ لَكَانَ فِيهِ مَا كَفَاهُ ، فَكَيْفَ وَقَدْ وَلَدَ سَيِّدَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ شَفَعَهُ بِكَ وَبِأَبِيكَ . *

* * *

---

(١) أجواد الحجاز : كرماء الحجاز ، مفرده جواد .
(٢) لي عندك يدًا : أنت مدين لي بنعمة أسديتها إليك يومًا ما . (٣) يمتح : أي يغترف لك من بئر زمزم .

الْجَلْسَةُ الرَّابِعَةُ

حَيَاةُ اللُّغَةِ وَانْتِشَارُهَا

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، مَعْذِرَةً ؛ فَإِنَّهُ مَا يَزَالُ فِي النَّفْسِ[١] شَيْءٌ مِنْ قَضِيَّةِ لُغَتِنَا وَمَنْزِلَتِهَا بَيْنَ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ وَغَيْرِ الْحَيَّةِ .

◇ فِي نُفُوسِكُمْ ـ مَعْشَرَ الشَّبَابِ ـ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ تَحْتَاجُ إِلَىٰ عِلَاجٍ .

◆ لِلَّهِ أَنْتَ يَا أَبَتِ ! كَمْ تَعْتِبُ عَلَىٰ الشَّبَابِ ، وَكَمْ تَغْمِزُهُمْ[٢]... حَتَّىٰ لَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ شَابًّا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ .

◇ بَلْ كُنْتُ شَابًّا ، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ لَدَيَّ كُلُّ هَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ ، وَالْآنَ دَعْنَا مِنْ هَذَا وَهَاتِ مَا فِي نَفْسِكَ .

◆ قَبْلَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَمَّا فِي نَفْسِي ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ آخُذَ الْأَمَانَ .

◇ الْأَمَانُ مِنْ مَاذَا ؟ .

---

(١) في النفس شيء : هناك شيء لم أفهمه بعد .
(٢) تغمزهم : تعتب عليهم وتلومهم .

◆ الْأَمَانُ مِنْ أَلَّا تَضِيقَ بِصَرَاحَتِي ذَرْعًا .

◇ لَكَ الْأَمَانُ ؛ فَافْتَحْ قَلْبَكَ ، وَحَدِّثْ عَمَّا فِي نَفْسِكَ .

◆ اللُّغَاتُ الْحَيَّةُ - يَا أَبَتِ - كَمَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ هِيَ : اللُّغَاتُ الْعَالَمِيَّةُ الَّتِي تَتَكَلَّمُ بِهَا جَمْهَرَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشُّعُوبِ ، وَتَعْتَمِدُهَا الْهَيْئَاتُ الدُّوَلِيَّةُ فِي مَحَافِلِهَا[1] ، وَيَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَتَّخِذَهَا أَدَاةً لِلتَّفَاهُمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ...
وَلُغَتُنَا - يَا أَبَتِ - لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، فَهِيَ لُغَةُ قَوْمٍ ، وَلَيْسَتْ لُغَةَ عَالَمٍ .
وَلَوْ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا انْطَلَقَ يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ سِوَاهَا مِنَ اللُّغَاتِ ؛ لَمَا وَجَدَ إِنْسَانًا وَاحِدًا يَسْتَطِيعُ التَّفَاهُمَ مَعَهُ .

◇ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا خُيِّلَ إِلَيْكَ - يَا بُنَيَّ - ؛ فَانْتِشَارُ اللُّغَاتِ وَانْحِسَارُهَا شَيْءٌ ، وَحَيَاةُ اللُّغَاتِ وَمَوْتُهَا شَيْءٌ آخَرُ ... فَكَمْ مِنْ لُغَةٍ عَالِيَةٍ تَعِيشُ فِي رُكْنٍ مَعْزُولٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَكَمْ مِنْ لُغَةٍ أَدْنَىٰ مِنْهَا تُشَرِّقُ فِي الْأَرْضِ وَتُغَرِّبُ ، وَتَحْدُو[2] بِهَا الرُّكْبَانُ .

◆ وَمَا السَّبَبُ فِي ذَلِكَ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ يَا بُنَيَّ يَكْمُنُ فِي مَدَىٰ نُفُوذِ الْأُمَّةِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ ، وَمَبْلَغِ سُلْطَانِهَا ، فَانْتِشَارُ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ يَسِيرُ فِي خَطٍّ مُتَوَازٍ مَعَ سُلْطَانِ أَصْحَابِهَا السِّيَاسِيِّ ، وَنُفُوذِهِمُ الْعَالَمِيِّ .

◆ الْمِثَالَ الْمِثَالَ يَا أَبَتِ ؛ فَالْمِثَالُ يُوَضِّحُ الْقَاعِدَةَ كَمَا يَقُولُونَ .

◇ خُذِ الْمِثَالَ مِنَ اللُّغَةِ الرُّوسِيَّةِ - يَا بُنَيَّ - فَاللُّغَةُ الرُّوسِيَّةُ كَانَتْ مُنْذُ رُبْعِ قَرْنٍ فَقَطْ مَحْصُورَةً فِي وَطَنِهَا مَقْصُورَةً عَلَىٰ أَهْلِهَا ، فَلَمَّا بَسَطَتْ « رُوسْيَا » سُلْطَانَهَا عَلَىٰ

---

(١) في محافلها : في مجتمعات أدبائها وعلمائها ونواديهم .
(٢) تحدو بها الركبان : يتحدث بها الناس في كل مكان .

دُوَلِ «أُورُبَّا» الشَّرْقِيَّةِ ، وَأَصْبَحَ لَهَا مَكَانٌ مَرْمُوقٌ فِي الْمَحَافِلِ الدَّوْلِيَّةِ ؛ خَرَجَتِ اللُّغَةُ الرُّوسِيَّةُ مِنْ عُزْلَتِهَا ، وَزَاحَمَتْ لُغَاتِ «أُورُبَّا» الشَّرْقِيَّةِ فِي دِيَارِهَا ، وَأَصْبَحَتْ تَتَقَدَّمُ عَلَىٰ الْفَرَنْسِيَّةِ ، وَتَجْلِسُ مَعَ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ جَنْبًا إِلَىٰ جَنْبٍ .

◆ مَعْقُولٌ مَعْقُولٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَلَوْ قُدِّرَ لِرُوسْيَا أَنْ تَفْقِدَ سُلْطَانَهَا ؛ لَانْحَسَرَتْ[1] لُغَتُهَا عَنِ الْبِقَاعِ الَّتِي احْتَلَّتْهَا ، وَعَادَتْ إِلَىٰ عُزْلَتِهَا السَّابِقَةِ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَمَا يُقَالُ عَنِ اللُّغَةِ الرُّوسِيَّةِ - يَا بُنَيَّ - يُقَالُ عَنِ اللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَالْفَرَنْسِيَّةِ ، وَالْعَرَبِيَّةِ ، وَغَيْرِهَا .

◆ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ - يَا أَبَتِ - أَنَّ انْتِشَارَ اللُّغَةِ أَوِ انْحِسَارَهَا ؛ لَا يَنْهَضَانِ دَلِيلًا عَلَىٰ حَيَاتِهَا أَوْ مَوْتِهَا ؟ .

◇ بُورِكَ فِيكَ ، ذَٰلِكَ مَا أَرَدْتُ قَوْلَهُ .

◆ إِذَنْ أَيْنَ تَكْمُنُ حَيَاةُ اللُّغَةِ وَمَوْتُهَا ؟ .

◇ تَكْمُنُ فِي ذَاتِهَا ، فِي جَوْهَرِهَا ، فِي قُدْرَتِهَا عَلَىٰ التَّعْبِيرِ عَنِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، وَتَصْوِيرِ الْمَشَاعِرِ وَخَلَجَاتِ النُّفُوسِ ؛ لَا فِي أَمْرٍ خَارِجٍ عَنْهَا طَارِئٍ عَلَيْهَا .

◆ حَسَنٌ ، حَسَنٌ ، [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ الْكَشْفَ عَنْ جَوْهَرِ اللُّغَاتِ ، وَيَقْدِرُ عَلَىٰ تَقْوِيمِهَا ، وَإِصْدَارِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهَا ؟ .

---

(١) انحسرت : انطوت صفحتها ونسيت .

◇ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ الْمُتَخَصِّصُونَ ، وَعِلْمُ اللُّغَاتِ ذُو الْمَقَايِيسِ الدَّقِيقَةِ .

◆ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ ، وَعِلْمُ اللُّغَاتِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَمِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ الدِّرَاسَاتِ اللُّغَوِيَّةَ الْحَدِيثَةَ الَّتِي يَقُومُ بِهَا عُلَمَاءُ الْغَرْبِ ؛ قَدْ وَضَعَتْ لُغَتَنَا فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بَيْنَ لُغَاتِ الْأَرْضِ .

◆ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ يَا أَبَتِ ؟! .

◇ نَعَمْ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ يَا بُنَيَّ ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَكْثَرُ عُلَمَاءِ « أُورُبَّا » إِنْصَافًا لَنَا وَأَقَلُّهُمْ تَعَصُّبًا عَلَيْنَا لَا يَجُودُ عَلَىٰ لُغَتِنَا بِأَكْثَرَ مِنْ نَعْتِهَا بِأَنَّهَا لُغَةٌ جَمِيلَةٌ ؛ أَخَذَ فَرِيقٌ كَبِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَقِفُ مِنْهَا مَوْقِفًا يُفْرِحُ الصَّدِيقَ ، وَيُتْرِحُ[1] الْعَدُوَّ .

◆ وَمَا هَذَا الْمَوْقِفُ - يَا أَبَتِ ؟ .

◇ إِنَّ الدِّرَاسَاتِ اللُّغَوِيَّةَ أَقْنَعَتِ الْعُلَمَاءَ بِأَنَّ لُغَتَنَا لُغَةٌ عَالِيَةٌ ، لَهَا فِي طَبَقَاتِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ أَرْفَعُ مَكَانٍ ، وَأَعْلَىٰ مَنْزِلَةٍ .

◆ وَمَاذَا تَقُولُ هَذِهِ الدِّرَاسَاتُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ تَقُولُ هَذِهِ الدِّرَاسَاتُ يَا بُنَيَّ : إِنَّ اللُّغَاتِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا الْبَشَرِيَّةُ تَنْتَمِي إِلَىٰ ثَلَاثِ أُسَرٍ كَبِيرَةٍ .

◆ وَمَا هِيَ ؟ .

◇ هِيَ أُسْرَةُ لُغَاتِ النَّحْتِ ، وَأُسْرَةُ لُغَاتِ التَّجْمِيعِ ، وَأُسْرَةُ لُغَاتِ الِاشْتِقَاقِ .

◆ لُغَاتُ النَّحْتِ ، وَلُغَاتُ التَّجْمِيعِ ، وَلُغَاتُ الِاشْتِقَاقِ ؟ .

---

(١) يترح العدو : يصيب العدو بالغم والكرب .

◇ نَعَمْ لُغَاتُ : النَّحْتِ ، وَالتَّجْمِيعِ ، وَالِاشْتِقَاقِ .

◆ أَعْذُرْنِي يَا أَبَتِ إِذَا قُلْتُ لَكَ بِأَنِّي لَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتَ ، فَمَا الْمُرَادُ بِلُغَاتِ النَّحْتِ أَوَّلًا ؟ .

◇ لُغَاتُ النَّحْتِ : هِيَ تِلْكَ اللُّغَاتُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ فِيهَا الْأَسْمَاءُ وَالْأَفْعَالُ وَالصِّفَاتُ بِإِلْحَاقِ مَقَاطِعَ صَغِيرَةٍ بِالْكَلِمَاتِ ؛ تَدْخُلُ عَلَىٰ أَوَّلِهَا أَوْ عَلَىٰ آخِرِهَا لِتُؤَدِّيَ الْمَعَانِيَ الْمَطْلُوبَةَ ، وَيَشِيعُ النَّحْتُ فِي اللُّغَاتِ الْهِنْدِيَّةِ الْجِرْمَانِيَّةِ .

◆ هَذِهِ لُغَاتُ النَّحْتِ ، فَمَا لُغَاتُ التَّجْمِيعِ ؟ .

◇ لُغَاتُ التَّجْمِيعِ - يَا بُنَيَّ - : هِيَ الَّتِي تَقُومُ عَلَىٰ اللَّصْقِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي لُغَاتِ النَّحْتِ ، وَلَكِنَّهَا تَعْتَمِدُ مَعَ ذَلِكَ عَلَىٰ التَّنْغِيمِ الصَّوْتِيِّ لِتَنْوِيعِ الْمَدْلُولَاتِ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَالظُّرُوفِ وَنَحْوِهَا ، وَيَشِيعُ التَّجْمِيعُ فِي لُغَاتِ الْقَبَائِلِ « الْمَغُولِيَّةِ » ، وَلُغَاتِ الْقَبَائِلِ « الْأَمْرِيكِيَّةِ » الْأَصْلِيَّةِ .

◆ هَذِهِ لُغَاتُ النَّحْتِ وَالتَّجْمِيعِ ؛ فَمَا لُغَاتُ الِاشْتِقَاقِ ؟ .

◇ لُغَاتُ الِاشْتِقَاقِ - يَا بُنَيَّ - : هِيَ تِلْكَ الَّتِي يُتَّخَذُ فِيهَا الْفِعْلُ الثُّلَاثِيُّ أَسَاسًا لِكُلِّ مَادَّةٍ مِنْ مَوَادِّهَا ، ثُمَّ تَجْرِي قَوَاعِدُ التَّصْرِيفِ فِيهَا عَلَىٰ تَنْوِيعِ الصِّيَغِ وَالْأَوْزَانِ لِأَدَاءِ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ .

◆ وَأَيْنَ يَشِيعُ الِاشْتِقَاقُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ فِي أُسْرَةِ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ ، وَالْعَرَبِيَّةُ أَكْمَلُ بَنَاتِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ وَأَكْثَرُهَا تَعْمِيمًا لِلِاشْتِقَاقِ وَاطِّرَادًا[1] فِي قَوَاعِدِهِ ، وَشُيُوعُ الْقَوَاعِدِ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ دَلِيلٌ لَا يُدْحَضُ[2] عَلَىٰ عَرَاقَتِهَا ، وَاكْتِمَالِهَا ، وَصَلَاحِهَا .

(١) اطرادًا : استرسالًا وتفريعًا.

(٢) لا يدحض : لا يسقط ولا يرد .

◆ أَأَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ لُغَةَ الْقُرْآنِ امْتَازَتْ عَلَىٰ سِوَاهَا بِمَا أُوتِيَتْ مِنْ خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ وَاطِّرَادِهِ ؟ .

◇ ذَلِكَ مَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهُ ، وَذَلِكَ مَا اهْتَدَىٰ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ اللُّغَاتِ .

◆ وَلَكِنَّ هَذَا الْكَلَامَ عَلَىٰ وُضُوحِهِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مِثَالٍ ... فَالْمِثَالُ ؛ كَمَا يَقُولُونَ يُزِيلُ كُلَّ إِشْكَالٍ .

◇ إِلَيْكَ الْمِثَالَ - يَا بُنَيَّ - ، خُذْ مَادَّةَ الْكِتَابَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ثُمَّ أَعْمِلْ فِيهَا يَدَ التَّصْرِيفِ وَالِاشْتِقَاقِ ؛ فَسَتُعْطِيكَ فَوْقَ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ كُلًّا مِنْ : كَاتِبٍ ، وَمَكْتُوبٍ ، وَمَكْتَبٍ ، وَمَكْتَبَةٍ ، وَكِتَابٍ ، وَنَحْوِهَا .

وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ جَمِيعُهَا تَشْتَرِكُ فِي مَعْنَىٰ الْكِتَابَةِ ، كَمَا تَشْتَرِكُ فِي الْحُرُوفِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْكَافُ ، وَالتَّاءُ ، وَالْبَاءُ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ ثُمَّ انْتَقِلْ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ الَّتِي تَعْرِفُهَا يَا بُنَيَّ ؛ فَسَتَجِدُ أَنَّ " Write" كَتَبَ وَ " Book" كِتَابٌ وَ " Disk" مَكْتَبٌ وَ " Library" مَكْتَبَةٌ ؛ وَهِيَ كَلِمَاتٌ لَا عَلَاقَةَ بَيْنَهَا فِي الِاشْتِقَاقِ مُطْلَقًا ؛ مِمَّا يَجْعَلُ حِفْظَهَا صَعْبًا وَالرَّبْطَ بَيْنَهَا مُسْتَحِيلًا .

◆ حَقًّا إِنَّ لُغَةَ الْقُرْآنِ لُغَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ يَا أَبَتِ .

◇ هُدِيتَ إِلَىٰ الْخَيْرِ ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ التَّعْبِيرَ بِإِيجَازٍ عَنْ أَخَصِّ خَصَائِصِ عَبْقَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ حِينَ نَعَتَّهَا بِأَنَّهَا لُغَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ .

◆ شُكْرًا [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ حَقًّا إِنَّهَا مَنْطِقِيَّةٌ فِي بِنَائِهَا ، مَنْطِقِيَّةٌ فِي طَرِيقَةِ اشْتِقَاقِهَا ، مَنْطِقِيَّةٌ فِي هَنْدَسَةِ جُمَلِهَا ... وَمَا كَانَ مَنْطِقِيًّا ؛ فَهُوَ أَعْلَىٰ طَبَقَةً مِمَّا لَا يَجْرِي عَلَىٰ مَنْطِقٍ ، وَلَا يَسِيرُ عَلَىٰ سَنَنٍ .

◆ وَعَلَىٰ هَذَا ؛ فَالْعَرَبِيَّةُ أَعْلَىٰ طَبَقَةً مِنْ تِلْكَ اللُّغَاتِ الَّتِي يَدْعُونَهَا حَيَّةً .

◇ وُفِّقْتَ إِلَىٰ الْخَيْرِ ، فَذَلِكَ مَا أَثْبَتَهُ عِلْمُ اللُّغَاتِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، هَذِهِ اللُّغَةُ الْعَبْقَرِيَّةُ الْمَنْطِقِيَّةُ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَصُونَهَا مِنْ عَبَثِ الْعَابِثِينَ ، وَكَيْدِ الْكَائِدِينَ .

◇ تَقُولُ : يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَصُونَ هَذِهِ اللُّغَةَ ؟!! .

◆ نَعَمْ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَصُونَهَا وَأَلَّا نُفَرِّطَ بِهَا .

◇ وَلَكِنِّي أَرَاكَ أَحَدَ الْمُفَرِّطِينَ .

◆ أَنَا يَا أَبَتِ ؟!! .

◇ نَعَمْ ، أَنْتَ يَا بُنَيَّ .

◆ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ .

◇ كَانَ ذَلِكَ حِينَ وَضَعْتَ كَلِمَاتِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ، وَاسْتَعْمَلْتَ أَلْفَاظَهَا فِي غَيْرِ مَعَانِيهَا .

◆ وَهَلْ بَدَرَ مِنِّي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ .

◇ نَعَمْ ، وَأَنْتَ لَا تَدْرِي .

◆ وَأَيْنَ الْخَطَأُ الَّذِي وَقَعْتُ فِيهِ ؟ .

◇ فِي قَوْلِكَ : يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَصُونَ لُغَتَنَا .

◆ وَمَا فِي ذَلِكَ ؟ .

◇ فِي ذَلِكَ أَنَّكَ اسْتَعْمَلْتَ : يَنْبَغِي عَلَيْنَا بِمَعْنَىٰ يَجِبُ عَلَيْنَا ، وَهُوَ خَطَأٌ دَرَجَ عَلَيْهِ الْعَوَامُّ ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ بَعْضُ الْخَوَاصِّ .

◆ وَمَا وَجْهُ الْخَطَإِ فِي ذَلِكَ الِاسْتِعْمَالِ ؟ .

◇ وَجْهُ الْخَطَإِ : أَنَّ مَعْنَىٰ بَغَىٰ طَلَبَ ، وَمَعْنَىٰ انْبَغَىٰ تَيَسَّرَ وَجَازَ ، وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ مَعْنَىٰ قَوْلِكَ : يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَيْ يَتَيَسَّرُ لَنَا وَيَجُوزُ ، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ : يَجِبُ عَلَيْنَا ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا تَرَىٰ .
وَشَيْءٌ آخَرُ ...

◆ أَخْجَلْتَنِي يَا أَبَتِ ، وَهَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَأَنْتَ قَدْ عَدَّيْتَ[1] يَنْبَغِي بِعَلَىٰ فَقُلْتَ : يَنْبَغِي عَلَيْنَا ، وَالْعَرَبُ لَمْ تَسْتَعْمِلْهَا إِلَّا مَعَ اللَّامِ فَقَالَتْ : يَنْبَغِي لَنَا ، وَمَا يَنْبَغِي لَنَا .

◆ وَهَلْ وَرَدَتْ هَذِهِ الصِّيغَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ : ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾[2] أَيْ لَا الشَّمْسُ يَجُوزُ لَهَا وَيَتَيَسَّرُ إِدْرَاكُ الْقَمَرِ وَلَا اللَّيْلُ يَسْبِقُ النَّهَارَ .

---

(١) الفعل المتعدي : هو الذي يطلب مفعولاً به ، وقد يتعدىٰ بأحد حروف الجر كما ورد في المتن.
(٢) سورة يس الآية ٤٠.

◇ وَجَاءَ أَيْضًا فِي نَعْتِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[1] أَيْ مَا يَتَيَسَّرُ لَهُ وَمَا يَجُوزُ .

◆ شُكْرًا يَا أَبَتِ ... أَتَأْذَنُ لِي بِأَنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَضِفْهُ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ ؟ .

◇ اكْتُبْ : لَا يُقَالُ يَنْبَغِي عَلَيَّ بِمَعْنَىٰ : يَجِبُ عَلَيَّ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ لَا يَنْبَغِي لِي بِمَعْنَىٰ : لَا يَتَيَسَّرُ وَلَا يَجُوزُ .
وَإِنَّ الْعَرَبَ لَا تُعَدِّي هَذَا الْفِعْلَ إِلَّا بِاللَّامِ ، وَهِيَ لَا تَكَادُ تَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ حَتَّىٰ عُدَّ مِنَ الْأَفْعَالِ غَيْرِ الْمُتَصَرِّفَةِ[2] .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ يَا أَبَتِ وَفَاءَ مَا قَوَّمْتَ مِنَ اعْوِجَاجِ اللِّسَانِ ، وَإِصْلَاحِ الْبَيَانِ .

◇ وَوُقِّيتَ الْخَطَأَ وَاللَّحْنَ يَا بُنَيَّ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ .

* * *

◆ وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ يَا أَبَتِ ، إِنِّي لَفِي شَوْقٍ إِلَىٰ طِيبِ أَرِيجِهَا .

◇ إِنَّهَا مُفَتَّحَةُ الْأَبْوَابِ أَمَامَكَ ، فَادْخُلْهَا بِسَلَامٍ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنُلِمُّ بِرَوْضِهِ ؟ .

---

(١) سورة يس الآية ٦٩.

(٢) الفعل المتصرف : هو الذي تجيء منه صيغ الماضي والمضارع والأمر ، ويمكن الاشتقاق منه علىٰ وجوه كثيرة ، مثل : أكل ، يأكل ، كُل ، وغير المتصرف : هو الجامد الذي يأتي بصيغة واحدة ولا يشتق منه صيغ أخرىٰ مثل الفعل « عسىٰ » فهو لم يرد إلا في صيغة الماضي .

◇ عَبْدُ الْمُحْسِنِ الْكَاظِمِيُّ.

◆ هُوَ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ[1] كَمَا يَبْدُو؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ؛ فَقَدْ وُلِدَ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الْمَاضِي، وَتُوُفِّيَ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ.

◆ أَيْنَ وُلِدَ، وَكَيْفَ نَشَأَ؟.

◇ وُلِدَ فِي «بَغْدَادَ»، وَنَشَأَ فِي كَنَفِ أُسْرَةٍ تَعْمَلُ فِي التِّجَارَةِ... لَكِنَّ وَلَعَهُ بِالْعِلْمِ وَحُبَّهُ لِلْأَدَبِ؛ جَعَلَاهُ يُقْبِلُ عَلَىٰ دِرَاسَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَيُكْثِرُ فِي حِفْظِ شِعْرِهَا وَنَثْرِهَا... حَتَّىٰ نَبَغَ فِي قَوْلِ الشِّعْرِ، وَلُقِّبَ بِشَاعِرِ الْعَرَبِ.

◆ وَمَا الزَّهَرَاتُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ؟.

◇ قَصِيدَةٌ قَالَهَا مُنْذُ نِصْفِ قَرْنٍ تَمَامًا، لَكِنَّكَ إِذَا سَمِعْتَهَا خُيِّلَ إِلَيْكَ أَنَّهَا بِنْتُ وَقْتِهَا[2] وَوَحْيُ السَّاعَةِ.

◆ وَمَا مَوْضُوعُهَا يَا أَبَتِ؟.

◇ دَعْوَةٌ إِلَىٰ اسْتِنْقَاذِ الْوَطَنِ الْمَسْلُوبِ، وَاسْتِرْدَادِ الْحَقِّ الْمَغْصُوبِ.

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا؟.

◇ يَقُولُ:

سِيـرُوا بِنَـا عَنَـقًا وَشَـدًّا سِيرُوا بِنَا مَمْسَى وَمَغْدَىٰ[3]

---

(١) شاعر معاصر: من شعراء العصر الحديث.

(٢) بنت وقتها: أي كأنها نظمت اليوم.

(٣) مَمْسىٰ ومَغْدىٰ: في المساء والغداة، يعني أول النهار وآخره.

سِـيـرُوا فُـرَادَىٰ أَوْ ثُـنًـى وَالـجَـمْـعُ لِـلْـغَـايَـاتِ أَجْـدَىٰ

سِيرُوا إِلَىٰ الْوَطَنِ الْـمُوَقَّىٰ بِـالـنَّـقَـائِـبِ وَالْـمُـفَـدَّىٰ

يَا حبَّذَا وَطَنٌ أَعَادَ الْفَضْـ (م) ـلَ فِي الدُّنْيَا، وَأَبْدَىٰ

يَـا حَـبَّـذَا وَطَـنٌ يُـغَـنَّـىٰ بِاسْـمِـهِ أَبَدًا، وَيُحْدَىٰ[1]

وَطَـنٌ تَـقَـادَمَ ذِكْـرُهُ عِـنْـدَ الْـمَـكَـارِمِ وَاسْـتَـجَـدَّا

هُـوَ مَـوْطِـنُ الْـقَـوْمِ الْأُلَـىٰ فَـضَـلُـوا الْأَنَـامَ أَبًـا وَجَـدًّا

عَبَثَتْ بِهِ أَيْدِي الضَّنَا[2] وَتَـرَكْـنَـهُ عَـظْـمًـا وَجِـلْـدَا

وَبِـرَغْـمِ كُـلِّ هِـدَايَـةٍ أَضْفَىٰ الضَّلَالُ عَلَيْهِ بُرْدَا

☆ ☆ ☆

سِيرُوا نَذُبَّ[3] عَنِ الْحِمَىٰ وَنَـرُدَّ عَـنْـهُ الْـمُـسْـتَـبِـدَّا

نَـحْـمِـي حِـمَـىٰ أَوْطَـانِـنَـا وَنَـصُـونُـهَـا غَـوْرًا وَنَـجْـدَا

وَنَـرُدُّ عَـنْـهَـا مَـنْ عَـدَا ظُـلْـمًـا عَـلَـيْـهَـا أَوْ تَـعَـدَّىٰ

☆ ☆ ☆

إِنْ كَـانَ حَـرْبٌ فَـابْـتَـنُوا لِي فِي بُطُونِ الطَّيْرِ لَحْدَا

أَوْ كَـانَ سِـلْـمٌ فَـاجْـعَـلُـوا ذَاكَ الـثَّـرَىٰ عَـيْنًا وَخَـدَّا

تَاللَّـهِ لَا أَرْضَىٰ الْحَيَـ (م) ـاةَ أَرَىٰ لَدَيْهَا الْخَسْفَ وِرْدَا[4]

أَيَـرُوقُ لِـي عَـيْـشٌ أَرَىٰ فِيهِ الْكَرِيمَ الْحُرَّ عَبْدَا؟!

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَىٰ الْهَـوَا (م) نِ رَأَيْتُ طَعْمَ الْمَوْتِ شَهْدَا

---

(١) الحداء: هو الغناء للإبل كي تسرع السير، وهو هنا التغني باسم الوطن.

(٢) الضنا: التعب والمشقة؛ حتىٰ صار هزيلًا.

(٣) نذب عنه: ندفع عنه الأعداء.

(٤) الخَسْف: هو الضيم، والوِرْد: هو الورود إلىٰ الماء للسقيا.

إِنْ لَمْ تَكُنْ تُجْدِي الْحَيَـــ(م) ـــــاةُ بِعِزِّهَا ، فَالْمَوْتُ أَجْدَىٰ

☆ ☆ ☆

أَوْطَـانُـنَـا أَرْوَاحُـنَـا بَلْ إِنَّـهَا بِالـرُّوحِ تُـفْـدَىٰ

هِـيَ نُـورُ أَعْـيُـنِـنَا الَّـتِـي أَبَـدًا نُـرَاحُ بِـهَـا وَنُـغْـدَىٰ

أَبَـدًا نُـجَـاهِـدُ دُونَـهَـا وَنُـكَـافِـحُ الْـخَـصْـمَ الْأَلَـدَّا

وَنَـصُـدُّ عَـنْـهَـا مَـنْ نَـوَىٰ أَوْ هَـمَّ يَـوْمًا أَوْ تَـصَـدَّىٰ

☆ ☆ ☆

يَـا أَيُّـهَـا الْـوَطَـنُ الَّـذِي نَـادَىٰ بَـنِـيـهِ وَاسْـتَـعَـدَّا

وَأَسَـرَّ نَـارًا[1] كُـلَّـمَـا قِـيـلَ: اخْـمَـدِي تَـزْدَادُ وَقْـدَا

لَكَ مِنْ بَنِيكَ النُّجُـــ(م) ـــبِ كُلُّ غَضَنْفَرٍ[2] وَقَّىٰ وَفَدَّىٰ

سَتَرَاهُمْ كَالْأُسْدِ وَاثِـــ(م) ـــبَـةً تَرُدُّ الْخَطْبَ رَدَّا

قَـوْمٌ كَـآسَـادِ الـشَّـرَىٰ[3] سَـمَّـيْـتَـهُـمْ فِـي الرَّوْعِ جُـنْـدَا

* * *

◆ أَبَتِ ، قَالَ الشَّاعِرُ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ : سِيرُوا بِنَا عَنَقًا وَشَدًّا فَمَا الْعَنَقُ ، وَالشَّدُّ - يَا أَبَتِ - ؟ .

◇ *الْعَنَقُ* : السَّيْرُ السَّرِيعُ - يَا بُنَيَّ - ، وَ*الشَّدُّ* : أَعْلَىٰ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ سَيْرِ الْإِنْسَانِ وَعَدْوِهِ .

◆ وَهَلْ جَعَلَ الْعَرَبُ لِلسَّيْرِ مَرَاتِبَ ، وَوَضَعُوا لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ اسْمًا خَاصًّا بِهَا ؟! .

---

(١) وأسر نارًا : احتفظ بنار الغضب في سريرته .
(٢) الغضنفر : من أسماء الأسد .
(٣) الشّرىٰ : هو موطن الأسد في الصحراء .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ...

◆ فَمَاذَا قَالُوا ؟ .

◇ قَالُوا : أَوَّلُ مَرَاتِبِ الْمَشْيِ : ***الدَّبِيبُ*** ، ثُمَّ ***الْمَشْيُ*** ، ثُمَّ ***السَّعْيُ*** ، ثُمَّ ***الْإِيفَاضُ*** ، ثُمَّ ***الْهَرْوَلَةُ*** ، ثُمَّ ***الْعَدْوُ*** ، ثُمَّ ***الشَّدُّ*** .

◆ رَائِعَةٌ لُغَةُ الْقُرْآنِ هَذِهِ يَا أَبَتِ رَائِعَةٌ .

◇ وَهِيَ تَجْمَعُ إِلَىٰ الرَّوْعَةِ الْغِنَىٰ ؛ فَلَمْ يَكْتَفِ الْعَرَبُ بِتَدْرِيجِ مَرَاتِبِ سَيْرِ الْإِنْسَانِ ؛ وَإِنَّمَا فَصَّلُوا الْقَوْلَ فِي ضُرُوبِ[1] مَشْيِهِ وَعَدْوِهِ ؛ تَفْصِيلًا لَا تَجِدُ لَهُ نَظِيرًا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ .

◆ فَمَاذَا قَالُوا ؟ يَا أَبَتِ .

◇ قَالُوا :

دَرَجَ : لِلصَّبِيِّ الصَّغِيرِ إِذَا مَشَىٰ .
وَ ***حَبَا*** : لِلرَّضِيعِ إِذَا مَشَىٰ عَلَىٰ مُؤَخَّرَتِهِ .
وَ ***خَطَرَ*** : لِلشَّابِّ إِذَا مَشَىٰ بِاهْتِزَازٍ وَنَشَاطٍ .
وَ ***دَلَفَ*** : لِلشَّيْخِ إِذَا قَارَبَ خَطْوَهُ وَمَشَىٰ رُوَيْدًا رُوَيْدًا .
وَ ***هَدَجَ*** : لِمَنْ مَشَىٰ مِشْيَةَ الْمُثْقَلِ[2] .
وَ ***رَسَفَ*** : لِمَنْ مَشَىٰ فِي قُيُودِهِ .
وَ ***اخْتَالَ*** ، وَ ***تَبَخْتَرَ*** ، وَ ***تَبَهْنَسَ*** : لِلرَّجُلِ إِذَا مَشَىٰ مِشْيَةَ الْمُتَكَبِّرِ ، وَلِلْمَرْأَةِ الْمُعْجَبَةِ بِجَمَالِهَا .

◆ مَا هَذَا يَا أَبَتِ ، مَا هَذَا ؟!! [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

---

(١) في ضروب مشيه : أنواع مشيه .
(٢) مشية المثقل : كمشي الضعيف ، أو الكسول ، أو الذي يحمل حملًا ثقيلًا .

◇ وَ **تَقَهْقَرَ** : لِمَنْ مَشَىٰ رَاجِعًا إِلَىٰ الْخَلْفِ .
وَ **تَخَلَّعَ** : لِلْمَجْنُونِ وَالسَّكْرَانِ إِذَا تَمَايَلَا فِي مَشْيِهِمَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً .
وَ **أَهْطَعَ** : لِمَنْ مَشَىٰ مِشْيَةَ الْخَائِفِ الْمُسْرِعِ ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **مُهْطِعِينَ إِلَىٰ الدَّاعِ ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ** ﴾[1] .

◆ وَقَانَا اللَّهُ مِنْهُ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ آمِينَ ... وَ **هَرْوَلَ** : لِمَنْ مَشَىٰ مِشْيَةً بَيْنَ الْمَشْيِ وَالْعَدْوِ .
وَ **تَهَادَىٰ** : لِلشَّيْخِ الضَّعِيفِ ، وَالصَّبِيِّ الصَّغِيرِ ، وَالرَّجُلِ الْمَرِيضِ ، وَالْمَرْأَةِ السَّمِينَةِ .
وَ **رَفَلَ** : لِمَنْ مَشَىٰ يَجُرُّ ذُيُولَهُ .
وَ **قَطَا** : لِمَنْ جَعَلَ يُقَارِبُ خَطْوَهُ فِي نَشَاطٍ .
وَ **أَتَلَ** : لِمَنْ جَعَلَ يُقَارِبُ خَطْوَهُ فِي غَضَبٍ .
وَ **أَحْصَبَ** : لِمَنْ أَثَارَ الْحَصْبَاءَ عِنْدَ عَدْوِهِ ... وَلَوْ رُحْتُ أَسْتَقْصِي مَا قَالُوهُ فِي هَذَا الْبَابِ ؛ لَطَالَ بِيَ الْمَقَالُ وَلَضِقْتَ بِهِ ذَرْعًا .

◆ مَعَاذَ اللَّهِ يَا أَبَتِ أَنْ أَضِيقَ بِهِ ذَرْعًا مَعَاذَ اللَّهِ ! .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ أَرْجُو أَلَّا يَضِيعَ حَقِّي فِيهَا .

◇ لَا يَضِيعُ حَقٌّ وَرَاءَهُ مُطَالِبٌ . فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمُطَالِبُ أَنْتَ ؟ .

◆ إِذَنْ هَاتِهَا مَشْكُورًا غَيْرَ مَوْزُورٍ .

◇ لِمُتَنَبِّئِي الْعَرَبِ طَرَائِفُ كَثِيرَةٌ ؛ مِنْهَا أَنَّ رَجُلًا ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ فِي زَمَنِ الْمَأْمُونِ ، فَلَمَّا أُتِيَ لَهُ بِهِ قَالَ : تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيٌّ ؟! .

---

(١) سورة القمر الآية ٢٨.

قَالَ : نَعَمْ ...
قَالَ : وَمَا مُعْجِزَتُكَ ؟ .
قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .
قَالَ : وَيْحَكَ وَمَا فِي نَفْسِي ؟! .
قَالَ : فِي نَفْسِكَ أَنِّي كَذَّابٌ .

وَادَّعَىٰ رَجُلٌ النُّبُوَّةَ أَيَّامَ الْمَهْدِيِّ ؛ فَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ : إِلَىٰ مَنْ بُعِثْتَ ؟ .
فَقَالَ : مَا تَرَكْتُمُونِي أَذْهَبُ إِلَىٰ مَنْ بُعِثْتُ إِلَيْهِمْ ... فَإِنِّي بُعِثْتُ بِالْغَدَاةِ ، وَحَبَسْتُمُونِي بِالْعَشِيِّ .

* * *

الْجَلْسَةُ الْخَامِسَةُ

أَبْجَدِيَّةُ اللُّغَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ يُكْثِرُ عُلَمَاؤُنَا وَأُدَبَاؤُنَا - يَا أَبَتِ - الْفَخْرَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ .

◇ وَمَا فِي ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ؟ .

◆ لَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ ...

◇ تَقُولُ مَاذَا ؟ .

◆ أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ - بَعْدَ اسْتِئْذَانِكَ - أَهَذَا الْفَخْرُ مِنْ بَابِ الْعِزَّةِ الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي تُشْبِهُ اعْتِدَادَ[1] الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ، وَإِيثَارَهُ لِصِفَاتِهِ ؟... أَمْ إِنَّهُ فَخْرٌ لَهُ دَلِيلٌ يُؤَيِّدُهُ ، وَحُجَّةٌ تَشْهَدُ لَهُ ؟ .

◇ إِنَّ تَفَاخُرَ الْأُمَمِ بِمَنَاقِبِهَا - وَمِنْهَا اللُّغَةُ - أَمْرٌ شَائِعٌ - يَا بُنَيَّ - يَدْعُو إِلَيْهِ إِيثَارُ الذَّاتِ ، وَيَتَّسِقُ مَعَ طَبِيعَةِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ .

---

(١) اعتداد المرء بنفسه : ثقته بنفسه واعتزازه .

◆ وَهَلْ تَبْنِي الْأُمَمُ دَعَاوَىٰ فَخْرِهَا عَلَىٰ دَلِيلٍ؟.

◇ رُبَّمَا تَقْنَعُ بِأَيْسَرِ دَلِيلٍ.

◆ بَلْ رُبَّمَا لَا تُكَلِّفُ نَفْسَهَا مَشَقَّةَ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ.

◇ نَعَمْ، رُبَّمَا لَا تُكَلِّفُ نَفْسَهَا مَشَقَّةَ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ، وَلَكِنَّ الْفَخْرَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا يُشْبِهُ هَذِهِ الْمَفَاخِرَ.

◆ وَلِمَاذَا يَا أَبَتِ؟!.

◇ لِأَنَّ دَلِيلَهُ الْعِلْمِيَّ حَاضِرٌ لَا يُعْيِي[1] الْعُلَمَاءَ، وَلَا تَتَعَسَّرُ مَعْرِفَتُهُ عَلَىٰ الْبَاحِثِينَ.

◆ وَمَا مَجَالَاتُ الْفَخْرِ بِاللُّغَاتِ عِنْدَ الْأُمَمِ؟ يَا أَبَتِ.

◇ مَجَالَاتُهَا كَثِيرَةٌ؛ فَأُمَمٌ تَفْخَرُ بِوُضُوحِ أَدَائِهَا، وَعُذُوبَةِ جَرْسِهَا.
وَأُمَمٌ تَفْخَرُ بِغِنَىٰ مُعْجَمَاتِهَا وَوَفْرَةِ ثَرْوَتِهَا مِنَ الْأَفْعَالِ، وَالْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْأَدَوَاتِ... وَأُمَمٌ تَفْخَرُ بِكُنُوزِهَا الْأَدَبِيَّةِ الثَّمِينَةِ، وَذَخَائِرِهَا الْفَنِّيَّةِ الْأَصِيلَةِ.
وَأُمَمٌ تَزْعُمُ أَنَّ أَبْنَاءَهَا هُمُ الْفُصَحَاءُ الْمُبِينُونَ، وَأَنَّهُ لَا يُشَارِكُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَزِيَّةِ أَحَدٌ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ.

◆ وَنَحْنُ يَا أَبَتِ، بِمَ نَفْخَرُ حِينَ نَفْخَرُ بِلُغَتِنَا؟.

◇ نَفْخَرُ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

◆ نَفْخَرُ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ!! أَوَ بَعْدَ ذَلِكَ فَخْرٌ بِلُغَةٍ؟!!.

---

(١) لا يُعيي: لا يُعجز العلماء.

◇ نَعَمْ ، فَنَحْنُ نَفْخَرُ بِعَبْقَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَتَجْمَعُ مَعَهُ أَمْثَالَهُ .

◆ وَأَيْنَ تَتَجَلَّىٰ[1] عَبْقَرِيَّةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ تَتَجَلَّىٰ فِي حَرْفِهَا الَّذِي تُبْنَىٰ مِنْهُ الأَلْفَاظُ ، وَفِي أَلْفَاظِهَا الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْجُمَلُ ، وَفِي جُمَلِهَا الَّتِي تُصَاغُ مِنْهَا الْعِبَارَاتُ ، وَتَتَجَلَّىٰ أَيْضًا ...

◆ أَوَرَاءَ ذَلِكَ مَجَالٌ تَتَجَلَّىٰ فِيهِ عَبْقَرِيَّةُ لُغَةٍ ؟! .

◇ نَعَمْ ، تَتَجَلَّىٰ عَبْقَرِيَّةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا فِي إِعْرَابِهَا الْمُحْكَمِ ، وَمَجَازِهَا الْمُصَوِّرِ الْمُعَبِّرِ ، وَمُوسِيقَاهَا الْمُوحِيَةِ ، وَأَوْزَانِ شِعْرِهَا الْفَرِيدَةِ ، ثُمَّ فِي مَنْطِقِيَّتِهَا الَّتِي تَجْعَلُ مِنْهَا لُغَةً ذَاتَ مَنْهَجٍ وَقَوَاعِدَ .

◆ قُلْتَ ـ يَا أَبَتِ ـ إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَلَّىٰ فِي حَرْفِهَا !! .

◇ أَوَّلُ مَا تَتَجَلَّىٰ فِيهِ عَبْقَرِيَّةُ هَذِهِ اللُّغَةِ هُوَ حَرْفُهَا .

◆ أَفِي الْحُرُوفِ ، وَهِيَ أَصْوَاتٌ مُبْهَمَةٌ لَا دَلَالَةَ لَهَا ، مَجَالٌ لِعَبْقَرِيَّةِ لُغَةٍ ؟!! .

◇ الْحُرُوفُ ـ يَا بُنَيَّ ـ أَوْ أَبْجَدِيَّةُ اللُّغَةِ ـ أَيَّةِ لُغَةٍ ـ هِيَ اللَّبِنَاتُ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْبِنَاءُ اللُّغَوِيُّ ، وَبِمِقْدَارِ مَا تَكُونُ اللَّبِنَاتُ مُحْكَمَةَ الصُّنْعِ سَلِيمَةَ الْمَادَّةِ ؛ يَكُونُ الْبِنَاءُ أَكْمَلَ وَأَجْمَلَ ، وَأَكْثَرَ تَحْقِيقًا لِلْغَايَةِ الْمُتَوَخَّاةِ[2] .

◆ وَمَا أَبْرَزُ مَزَايَا الأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ أَوَّلُ مَزَايَا الأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ـ لَا أَبْرَزُهَا ـ أَنَّهَا اسْتَخْدَمَتْ جِهَازَ النُّطْقِ الإِنْسَانِيِّ

---

(١) تتجلىٰ : تظهر وتتضح بجلاء .

(٢) المتوخاة : المطلوبة المرغوب في تحقيقها .

أَوْ جِهَازَ الصَّوْتِ أَدَقَّ اسْتِخْدَامٍ وَأَوْفَاهُ[1].

◆ لَمْ أَفْهَمْ مَا عَنَيْتَهُ بِدِقَّةِ اسْتِخْدَامِ جِهَازِ النُّطْقِ الْإِنْسَانِيِّ.

◇ جِهَازُ النُّطْقِ الْإِنْسَانِيِّ - يَا بُنَيَّ - يَتَأَلَّفُ مِنَ الْحَلْقِ وَالْحَنَكِ[2]، وَاللِّسَانِ، وَاللِّثَةِ، وَالشَّفَتَيْنِ؛ وَقَدِ اسْتَخْدَمَتِ الْأَبْجَدِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ هَذَا الْجِهَازَ كُلَّهُ، وَاسْتَخْدَمَتْهُ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَلَمْ تُغْفِلْ وَظِيفَةً وَاحِدَةً مِنْ وَظَائِفِهِ.

◆ وَهَلْ قَصَّرَتِ اللُّغَاتُ الْأُخْرَىٰ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَجَالِ اسْتِخْدَامِ هَذَا الْجِهَازِ؟.

◇ كَثِيرًا يَا بُنَيَّ... فَالْحَلْقُ، وَهُوَ أَعْمَقُ مَا فِي هَذَا الْجِهَازِ وَأَبْرَعُ مَا فِيهِ؛ مُهْمَلٌ فِي أَكْثَرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ.

◆ الْحَلْقُ!! وَمَا الْحُرُوفُ الَّتِي تَصْدُرُ عَنِ الْحَلْقِ يَا أَبَتِ؟.

◇ لَوْ أَنَّكَ أَوْلَيْتَ[3] عِلْمَ التَّجْوِيدِ[4] أَوْ عِلْمَ الْأَصْوَاتِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِنَايَةٍ فِي دِرَاسَتِكَ السَّابِقَةِ لَعَرَفْتَ حُرُوفَ الْحَلْقِ.

◆ وَهَلْ مِنْ عَلَاقَةٍ بَيْنَ التَّجْوِيدِ وَعِلْمِ الْأَصْوَاتِ؟.

◇ عِلْمُ التَّجْوِيدِ يَا بُنَيَّ - هُوَ أَبْرَعُ وَأَقْدَمُ مَا كُتِبَ فِي عِلْمِ الْأَصْوَاتِ، وَالْمُسْلِمُونَ - لَا الْغَرْبِيُّونَ - هُمُ الَّذِينَ وَضَعُوا هَذَا الْعِلْمَ وَقَعَّدُوا[5] قَوَاعِدَهُ.

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ، تَذَكَّرْتُ... تَذَكَّرْتُ حُرُوفَ الْحَلْقِ، أَلَيْسَتْ هِيَ: الْهَمْزَةُ، وَالْهَاءُ، وَالْعَيْنُ، وَالْحَاءُ، وَالْغَيْنُ، وَالْخَاءُ؟.

---

(١) أوفاه: أكثره وفاء بالمطلوب.
(٢) الحنك: باطن أعلىٰ الفم من الداخل.
(٣) أوليت: أعطيت.
(٤) علم التجويد: أحد علوم القرآن، يبحث في قواعد تلاوته، من مد وغنة إلخ... ويدرس أول ما يدرس مخارج الحروف.
(٥) قعّدوا قواعده: أسسوا قواعده.

◇ نَعَمْ هَذِهِ هِيَ حُرُوفُ الْحَلْقِ، وَهِيَ حُرُوفٌ حُرِمَتْ مِنْهَا اللُّغَاتُ الْأُخْرَىٰ؛ فَحُرِمَتْ مِنْ أَدَوَاتٍ صَوْتِيَّةٍ عَزَّ أَنْ يَجِدَ الْمَرْءُ لَهَا نظيرًا.

◆ أَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَقُولُ الْأُورُبِّيُّونَ: "Mouhammad" «مُوهَامَادْ»، بَدَلًا مِنْ مُحَمَّدٍ؟.

◇ نَعَمْ وَيَقُولُونَ: «كَالِيدْ» بَدَلًا مِنْ خَالِدٍ، وَيَقُولُونَ: «آبدُ اللَّهِ» بَدَلًا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: «كَادَا» بَدَلًا مِنْ غَادَةَ؛ لِأَنَّ أَبْجَدِيَّتَهُمْ لَا تَمْلِكُ هَذِهِ الْحُرُوفَ.

◆ إِذَا كَانَ لِحُرُوفِ الْحَلْقِ هَذِهِ الْأَهَمِّيَّةُ كُلُّهَا؛ فَلِمَ لَا تُدْعَىٰ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةَ الْحَلْقِ؛ بَدَلًا مِنْ لُغَةِ الضَّادِ؟.

◇ ذَلِكَ لِأَنَّ الضَّادَ لَا وُجُودَ لَهُ فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ الْمَنْطُوقَةِ الْيَوْمَ؛ أَمَّا حُرُوفُ الْحَلْقِ فَيَتَوَافَرُ بَعْضُهَا لِبَعْضِ اللُّغَاتِ.

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا يَا أَبَتِ؟.

◇ مِنْ مِثْلِ الْخَاءِ فَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْأَلْمَانِيَّةِ، وَالْهَمْزَةِ الْمُخَفَّفَةِ فَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ ... وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَهُنَاكَ مَنْ عَنَّتْ[1] لَهُ الْفِكْرَةُ الَّتِي عَنَّتْ لَكَ؛ فَاقْتَرَحَ أَنْ تُسَمَّىٰ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةَ الْحَاءِ بَدَلًا مِنْ لُغَةِ الضَّادِ.

◆ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَدَا لَهُ مِثْلُ الَّذِي بَدَا لِي يَا أَبَتِ؟.

◇ إِنَّهُ الشَّاعِرُ الْقَرَوِيُّ[2]، فَقَدِ اقْتَرَحَ ذَلِكَ فِي رِسَالَةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَىٰ الْمَرْحُومِ

---

(١) عَنَّت له: ظهرت له.

(٢) هو: رشيد سليم الخوري: «١٨٨٧ - ١٩٨٤» شاعر لبناني مهجري، هاجر إلى البرازيل، وله أكثر من ديوان شعر.

الْأُسْتَاذِ عَبَّاسِ مَحْمُودِ الْعَقَّادِ .

◆ وَهَلْ هُنَاكَ حُرُوفٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ حُرُوفِ الْحَلْقِ تَخْتَصُّ بِهَا الْعَرَبِيَّةُ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، هُنَاكَ : الطَّاءُ ، وَالظَّاءُ ، وَالْقَافُ أَيْضًا .

◆ لَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي عَنَيْتَهُ بِقَوْلِكَ : إِنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ قَدِ اسْتَخْدَمَتْ جِهَازَ النُّطْقِ الْإِنْسَانِيِّ كُلَّهُ ؛ وَعَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ ؟ .

◇ ذَلِكَ مَا عَنَيْتُهُ يَا بُنَيَّ ، وَهُوَ مَزِيَّةٌ امْتَازَتْ بِهَا هَذِهِ اللُّغَةُ عَلَىٰ سِوَاهَا مِنْ لُغَاتِ الْأَرْضِ ، وَسِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ عَبْقَرِيَّةِ أَبْجَدِيَّتِهَا الْكَامِلَةِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنَّ الَّذِي يُصِيخُ[1] إِلَىٰ مَا تُدْلِي بِهِ مِنْ حُجَجٍ فِي نُصْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَرْضَخَ لَكَ .

◇ يَرْضَخُ لِي !! يَرْضَخُ لِي مَاذَا ؟ أَيَرْضَخُ لِي نَوَاةً[2] أَمْ حَصَاةً أَمْ مَاذَا ؟ .

◆ لَا أَفْهَمُ شَيْئًا مِمَّا تَقُولُ يَا أَبَتِ ، أَتُرَانِي وَقَعْتُ فِي خَطَإٍ ؟! .

◇ وَأَيَّ خَطَإٍ .

◆ مَا هَذَا يَا أَبَتِ ؟ لَقَدْ سَدَدْتَ عَلَيَّ الْمَسَالِكَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ ؛ فَأَنَا لَا أَكَادُ أَخْرُجُ مِنْ وَرْطَةٍ حَتَّىٰ أَقَعَ فِي أُخْرَىٰ .

◇ بَلْ لَوْ أَنْصَفْتَ لَقُلْتَ : أَنَا لَا أَكَادُ أَظْفَرُ بِفَائِدَةٍ حَتَّىٰ يُهَيِّئَ اللَّهُ لِي أُخْرَىٰ .

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ ، فَالَّذِي يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّنِي لَمْ أُجَانِبِ الصَّوَابَ[3] فِيمَا قُلْتُهُ ، فَأَنَا

---

(١) يصيخ : يستمع .
(٢) النواة : نواة البلح .
(٣) لم أجانب الصواب : لم أبتعد عن الصواب ولم أنحرف عنه .

قُلْتُ : إِنَّ الَّذِي يَسْتَمِعُ إِلَىٰ حُجَجِكَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَرْضَخَ لَكَ . أَفِي هَذَا شَيْءٌ تُنْكِرُهُ اللُّغَةُ ؟ .

◇ لَنْ أُجِيبَكَ أَنَا عَلَىٰ سُؤَالِكَ هَذَا ؟ .

◆ إِذَنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُجِيبُنِي إِنْ لَمْ تُجِبْنِي أَنْتَ ، دَامَ عِزُّكَ ؟ .

◇ الْمُعْجَمُ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُ أَمَامَكَ ، افْتَحْهُ وَاسْتَخْرِجْ مَادَّةَ رَضَخ وَاقْرَأْ مَا كُتِبَ فِيهَا .

◆ هَذَا هُوَ الْمُعْجَمُ ... وَهَذِهِ مَادَّةُ رَضَخَ .

◇ اقْرَأْ مَا كُتِبَ فِيهَا ، اقْرَأْهُ كُلَّهُ .

◆ الرَّضْخُ : الْكَسْرُ ، يُقَالُ : رَضَخَ رَأْسَ الْحَيَّةِ بِالْحِجَارَةِ ، وَرَضَخَ النَّوَىٰ وَالْعَظْمَ ، وَغَيْرَهَا يَرْضَخُهُ رَضْخًا أَيْ كَسَرَهُ ، وَالتَّرَاضُخُ : تَرَامِي الْقَوْمِ بِالنُّشَّابِ[1] ، وَالرَّضْخُ أَيْضًا : الْعَطَاءُ الْقَلِيلُ ... وَالرَّضْخُ : خَبَرٌ تَسْمَعُهُ وَلَا تَسْتَيْقِنُهُ فِي النِّطَاحِ[2] ، وَفُلَانٌ يَرْتَضِخُ لُكْنَةً عَجَمِيَّةً : إِذَا نَشَأَ مَعَ الْعَجَمِ ثُمَّ صَارَ إِلَىٰ الْعَرَبِ .

◇ أَهَذَا كُلُّ مَا جَاءَ فِي مَادَّةِ رَضَخَ ؟ .

◆ نَعَمْ يَا أَبَتِ ، هَذَا كُلُّ مَا جَاءَ فِي مَعَانِيهَا ، وَلَكِنِّي ...

◇ وَلَكِنَّكَ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَكِنِّي أُرِيدُ بِكَلِمَةِ رَضَخَ : أَذْعَنَ .

◇ أَنْتَ تُرِيدُ وَلَكِنَّ الْمُعْجَمَاتِ لَا تُرِيدُ ؛ فَلِلرَّضْخِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَعَانِي غَيْرَ أَنَّهُ

---

(١) النشاب : النبل ، واحدتها : نشابة . (٢) النطاح والمناطحة : هي المقاومة والمدافعة .

لَيْسَ فِيهَا وَاحِدٌ يُشِيرُ إِلَىٰ مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ أَوْ يَقْتَرِبُ مِنْهُ .

◆ أَبَتِ ، وَلَكِنِّي قَرَأْتُ فِي « الْمُنْجِدِ » مَا يُفِيدُ بِأَنَّ مَعْنَىٰ رَضَخَ : أَذْعَنَ .

◇ « الْمُنْجِدُ » ، دَعْكَ مِنَ « الْمُنْجِدِ » - يَا بُنَيَّ - فَمَا هُوَ بِالْكِتَابِ الَّذِي يُرْكَنُ إِلَيْهِ(١) . دَعْهُ وَاعْتَمِدْ عَلَىٰ الْمَوْثُوقِ مِنَ الْمُعْجَمَاتِ(٢) .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ « الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ » ، وَ« الصِّحَاحِ » ، وَ« لِسَانِ الْعَرَبِ » ، وَ« تَاجِ الْعَرُوسِ » وَنَحْوِهَا ؛ فَهِيَ الْمَصَادِرُ الَّتِي إِلَيْهَا نَرْجِعُ ، وَالْمَوَارِدُ الَّتِي مِنْهَا نَنْهَلُ .

◆ عَلَىٰ هَذَا لَا يُقَالُ رَضَخَ فُلَانٌ لِأَمْرِ فُلَانٍ بِمَعْنَىٰ أَذْعَنَ لَهُ ؟ .

◇ نَعَمْ لَا يُقَالُ ذَلِكَ أَبَدًا ، وَهُوَ خَطَأٌ لَا وَجْهَ لَهُ وَلَا مُبَرِّرَ .

◆ أَتَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُثْبِتَ ذَلِكَ فِي بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَثْبِتْهُ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ جُزِيتَ الْخَيْرَ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً . اكْتُبْ لَا يُقَالُ : رَضَخَ فُلَانٌ لِحُكْمِ فُلَانٍ ؛ أَيْ أَذْعَنَ لِحُكْمِهِ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي هَذَا الْمَقَامِ : أَذْعَنَ فُلَانٌ لِحُكْمِ فُلَانٍ ، وَدَانَ لِحُكْمِ فُلَانٍ ، وَانْقَادَ لِحُكْمِ فُلَانٍ ، وَعَنَا لِحُكْمِ فُلَانٍ .

* * *

◆ رَوْضَةُ الشِّعْرِ يَا أَبَتِ ، أَيْنَ رَوْضَةُ الشِّعْرِ ؟ .

---

(١) ركن إليه : اعتمد عليه وصدق ما فيه .
(٢) انظر كتاب « عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام » لإبراهيم القطان ، الناشر دار القرآن الكريم .

◇ إِنَّهَا مِنْكَ قَرِيبٌ .

◆ وَمَا الطَّاقَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا الْيَوْمَ ، طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ قِطْعَةٌ مِنَ الشِّعْرِ الْفَرَنْسِيِّ ، عُنْوَانُهَا: نَوْحُ الْعَنْدَلِيبِ[1] تَرْجَمَهَا إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ شَاعِرُ الشَّامِ شَفِيقُ جَبْرِيّ .

◆ قِطْعَةٌ مِنَ الشِّعْرِ الْفَرَنْسِيِّ !! عُنْوَانُهَا نَوْحُ الْعَنْدَلِيبِ !! هَاتِهَا يَا أَبَتِ هَاتِهَا دَامَ عَطَاؤُكَ .

◇ دَعِ الْعَنْدَلِيبَ عَلَىٰ غُصْنِهِ ... يُرَدِّدْ عَلَىٰ الْغُصْنِ أَحْزَانَهُ

فَلَمْ أَرَ فِي لَحْنِهِ كُلْفَةً ... تُهَجَّنُ[2] - إِنْ نَاحَ - أَلْحَانَهُ

لَئِنْ دَوَّنَ النَّاسُ أَشْعَارَهُمْ ... لَقَدْ جَعَلَ الرَّوْضَ دِيوَانَهُ

وَإِنْ قَيَّدَ الْوَزْنُ أَفْكَارَهُمْ ... لَقَدْ أَطْلَقَ الشَّدْوُ أَوْزَانَهُ

كَتَمْتَ الشُّجُونَ عَنِ الْعَنْدَلِيبِ ... فَرَاحَ يَبُثُّكَ أَشْجَانَهُ[3]

وَأَخْفَيْتَ عَنْهُ دُمُوعَ الْجُفُونِ ... وَقَدْ بَلَّلَ الدَّمْعُ أَجْفَانَهُ

فَهَلْ شَطَّ[4] عَنْ وَكْرِهِ جَارُهُ ... فَأَصْبَحَ يَنْدُبُ جِيرَانَهُ ؟!

أَمِ الْبَازُ[5] أَوْدَىٰ بِخُلَّانِهِ ... فَوَدَّعَ بِالنَّوْحِ خُلَّانَهُ ؟!

أَمِ الرِّيحُ هَبَّتْ بِأَفْنَانِهِ ... فَزَلْزَلَتِ الرِّيحُ أَفْنَانَهُ[6]

فَيَا لَكَ مِنْ مُمْعِنٍ[7] فِي الْحَنِينِ ... أَلَمْ يَشْهَدِ النَّاسُ إِمْعَانَهُ !!

أَتَبْكِي الْعَنَادِلُ أَوْطَانَهَا ... وَلَا يَنْدُبُ الْمَرْءُ أَوْطَانَهُ !!

---

(١) العندليب : طائر مغرد .

(٢) تُهجن : أي تُعيب .

(٣) الأشجان : الأحزان .

(٤) شط : نأى وبعد .

(٥) الباز : طائر من أفضل الجوارح صيدًا وأعلاها كعبًا ، انظر كتاب « الصّيد عند العرب » للمؤلف .

(٦) الأفنان : أغصان الشجر .

(٧) أمعن : بالغ .

◆ أَبَتِ ، مَا هَذَا ؟!! إِنَّ لِهَذَا الشِّعْرِ نَكْهَةً فَرِيدَةً عَزَّ أَنْ تَجِدَ لَهَا نَظِيرًا فِي شِعْرِنَا الْعَرَبِيِّ .

◇ لِلَّهِ أَنْتُمْ مَعْشَرَ الشَّبَابِ ! فَزَامِرُ حَيِّكُمْ أَبَدًا لَا يُطْرِبُ .

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ ؛ أَلَسْتَ مَعِي فِي أَنَّ هَذِهِ الْقِطْعَةَ رَائِعَةٌ بَارِعَةٌ ؟ .

◇ أَنَا مَعَكَ فِي أَنَّهَا رَائِعَةٌ وَبَارِعَةٌ أَيْضًا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ لَمَا اخْتَرْتُهَا لَكَ ، وَلَكِنِّي لَسْتُ مَعَكَ فِي أَنَّهَا لَا نَظِيرَ لَهَا فِي أَدَبِنَا الْعَرَبِيِّ ؛ فَأَدَبُنَا يَا بُنَيَّ ، زَاخِرٌ بِكُلِّ جَمِيلٍ ، غَنِيٌّ بِكُلِّ طَرِيفٍ .

◆ أَطَرَقَ شُعَرَاؤُنَا - يَا أَبَتِ - مِثْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ ؟! .

◇ كَثِيرًا يَا بُنَيَّ ، كَثِيرًا جِدًّا .

◆ أَلَا تَفَضَّلْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - فَأَنْشَدْتَنِي شَيْئًا مِمَّا قِيلَ فِي ذَلِكَ .

◇ قَرَأَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ الْمُعَاصِرُ عُمَرُ أَبُو رِيشَةَ[1] كَلِمَةً لِلْجَاحِظِ ، فَأَوْحَتْ إِلَيْهِ بِقِطْعَةٍ هِيَ أُخْتٌ لِتِلْكَ الَّتِي سَمِعْتَهَا ؟ .

◆ وَمَا الْكَلِمَةُ الَّتِي قَالَهَا الْجَاحِظُ ، فَأَوْحَتْ بِمَا أَوْحَتْ ؟ .

◇ قَالَ الْجَاحِظُ : « إِنَّ الْبُلْبُلَ[2] لَا يَنْسِلُ فِي قَفَصٍ » .

◆ أَيَعْنِي الْجَاحِظُ ؛ أَنَّ الْبَلَابِلَ لَا تَتَوَالَدُ مَا دَامَتْ فِي أَقْفَاصِهَا ؟ .

◇ نَعَمْ ذَلِكَ مَا يَعْنِيهِ ، وَقَدْ تَأَثَّرَ الشَّاعِرُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، ثُمَّ رَاحَ يُعَلِّلُهَا تَعْلِيلًا

---

(١) عمر أبو ريشة : شاعر سوري (١٩١٠ - ١٩٩٠م) عمل في السلك السياسي ، له ديوان شعر .
(٢) البلبل : طائر مغرد .

إِنْسَانِيًّا يَتَجَلَّىٰ فِيهِ صِدْقُ النَّظْرَةِ ، وَعُمْقُ الْفِكْرَةِ ، وَشَاعِرِيَّةُ الْأَدَاءِ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي أَوْحَتْ بِهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ عُنْوَانُهَا « بُلْبُلٌ فِي قَفَصٍ » وَفِيهَا يَقُولُ :

أَلْفَيْتُهُ[1] يَنْثُرُ أَلْحَانَهُ — كَأَنَّمَا يَنْثُرُ مِنْ كَبْدِهِ

مُدَلَّهُ اللَّفْتَاتِ[2] مُسْتَوْحِشٌ — طَاوٍ جَنَاحَيْهِ عَلَىٰ وَجْدِهِ[3]

كَمْ أَطْبَقَتْ مِنْقَارَهُ غُصَّةٌ — فَمَدَّهُ يَنْقُرُ فِي قَيْدِهِ

أَسْقَمَهُ الْعَيْشُ عَلَىٰ وَفْرِهِ — لَمَّا رَآهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّهِ

فَعَافَ دُنْيَاهُ وَلَمْ يَتَّخِذْ — عُشًّا وَلَمْ يَحْمِلْ سِوَىٰ زُهْدِهِ

كَأَنَّهُ مِنْ طُولِ مَا مَضَّهُ[4] — مِنْ عَبَثِ الدَّهْرِ وَمِنْ كَيْدِهِ

أَبَىٰ عَلَيْهِ الْكِبْرُ أَنْ يُورِثَ الْأَفْـ — ـرَاخَ ذُلَّ الْقَيْدِ مِنْ بَعْدِهِ

◆ رَائِعٌ هَذَا الشِّعْرُ يَا أَبَتِ ، رَائِعٌ حَقًّا ، إِنَّهُ لَيُجَارِي[5] ذَلِكَ الشِّعْرَ الْفَرَنْسِيَّ وَيُسَابِقُهُ ، وَلَكِنْ ...

◇ مَا أَكْثَرَ اسْتِدْرَاكَاتِكَ ، وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ مَعْذِرَةً يَا أَبَتِ ، أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ ...

◇ تَقُولُ مَاذَا ؟! .

---

(١) ألفيته : لقيته .
(٢) مدله اللفتات : متحير في الحركات والتلفت .
(٣) وجده : حزنه .
(٤) مضه : أتعبه وشق عليه .
(٥) يجاري : يسير ويجري معه في مضمار .

◆ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ إِنَّ أَبَا رِيشَةَ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ ، اتَّصَلَ بِالْأَدَبِ الْغَرْبِيِّ وَتَأَثَّرَ بِهِ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ ، وَطَرَقَهَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُوَّةِ .

◇ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا خُيِّلَ إِلَيْكَ يَا بُنَيَّ ، فَأَدَبُنَا الْعَرَبِيُّ طَافِحٌ بِهَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ ، وَبِمَا هُوَ أَجَلُّ مِنْهَا وَأَجْمَلُ ، وَلَكِنَّ زَامِرَ الْحَيِّ لَا يُطْرِبُ عَادَةً ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الزَّامِرُ زَامِرَ حَيِّنَا نَحْنُ الَّذِينَ فُتِنَّا(١) بِأُورُبَّا !! .

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ ، أَلِلْقُدَمَاءِ شَيْءٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضُوعِ ؟ .

◇ شَيْءٌ !! بَلْ أَشْيَاءُ ، أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ يَا بُنَيَّ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ الْقِطْعَةِ التَّالِيَةِ :

رُبَّ وَرْقَاءَ(٢) هَتُوفٍ فِي الضُّحَىٰ ... ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ

ذَكَرَتْ إِلْفًا(٣) وَدَهْرًا سَالِفًا ... فَبَكَتْ حُزْنًا فَهَاجَتْ حَزَنِي

فَبُكَائِي رُبَّمَا أَرَّقَهَا ... وَبُكَاهَا رُبَّمَا أَرَّقَنِي

وَلَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمُهَا ... وَلَقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُنِي

غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَىٰ(٤) أَعْرِفُهَا ... وَهْيَ أَيْضًا بِالْجَوَىٰ تَعْرِفُنِي

◆ إِنَّ لِهَذَا الْكَلَامِ مِنَ الرَّوْعَةِ وَالْحُسْنِ فِي نَفْسِ السَّامِعِ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ الْبَيَانُ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

---

(١) فُتِنَّا : زاد إعجابنا بها إلىٰ الولوع بكل ما يجيء منها .
(٢) الوَرْقاء : الحمامة التي لونها لون الرماد .
(٣) ذكرت إلفًا : تذكرت محبوبها .
(٤) الجوىٰ : حرارة الحب والهيام بالمحبوب .

◆ وَإِنَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا كَثِيرًا - يَا أَبَتِ - حِينَ ظَلَمْنَا أَدَبَنَا وَرَمَيْنَاهُ بِالْقُصُورِ وَالْعَجْزِ .

◇ أَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ يَا بُنَيَّ ، وَكَشَفَ عَنْ عَيْنَيْكَ الْحُجُبَ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، قَالَ الشَّاعِرُ فِي الْقِطْعَةِ الْأَخِيرَةِ :

رُبَّ وَرْقَاءَ هَتُوفٍ فِي الضُّحَىٰ

فَمَا الْمَعْنَىٰ الْمُعْجَمِيُّ الدَّقِيقُ لِكَلِمَةِ هَتُوفٍ ؟ .

◇ الْحَمَامَةُ الْهَتُوفُ يَا بُنَيَّ ، هِيَ الْكَثِيرَةُ الْهُتَافِ .

◆ وَمَا الْهُتَافُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ الْهُتَافُ : ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْأَصْوَاتِ ، وَحَالَةٌ مِنْ حَالَاتِهَا .

◆ وَهَلْ جَعَلَ الْعَرَبُ لِلْأَصْوَاتِ ضُرُوبًا ؟! .

◇ نَعَمْ ، وَجَعَلُوا لِكُلِّ ضَرْبٍ لَفْظًا خَاصًّا بِهِ .

◆ فَمَاذَا قَالُوا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ قَالُوا : ***الْهَمْسُ*** : صَوْتُ حَرَكَةِ الْإِنْسَانِ ، وَمِثْلُهُ : ***الْجَرْسُ*** ، وَقَدْ نَطَقَ بِالْأَوَّلِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ[1].

(١) ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ سورة طه الآية ١٠٨.

وَ ***الرِّكْزُ*** : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، وَقَدْ جَاءَ بِهِ التَّنْزِيلُ أَيْضًا[١] .

وَ ***الدَّنْدَنَةُ*** : أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ بِالْكَلَامِ فَتَسْمَعَ نَغْمَتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَفْهَمَهُ .

وَ ***الصُّرَاخُ*** : الصَّيْحَةُ الشَّدِيدَةُ عِنْدَ الْفَزْعَةِ أَوِ الْمُصِيبَةِ .

وَ ***الصَّخَبُ*** : الصَّوْتُ الشَّدِيدُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ .

وَ ***الْعَجُّ*** : رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ .

وَ ***التَّهْلِيلُ*** : رَفْعُ الصَّوْتِ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَ ***الْهَيْعَةُ*** : الصَّوْتُ عِنْدَ الْفَزَعِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ :

(خَيْرُ النَّاسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ ، إِذَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا)[٢] .

وَ ***اللَّغَطُ*** : الْأَصْوَاتُ الْمُبْهَمَةُ الَّتِي لَا تُفْهَمُ .

وَ ***الْغَمْغَمَةُ*** ، وَ ***الْجَمْجَمَةُ*** : الصَّوْتُ بِالْكَلَامِ الَّذِي لَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ .

وَ ***اللَّجَبُ*** : صَوْتُ الْعَسْكَرِ .

وَ ***الْوَغَى*** : صَوْتُ الْجَيْشِ فِي إِبَّانِ الْحَرْبِ .

وَ ***الضَّوْضَاءُ*** ، وَ ***الْجَلَبَةُ*** : اجْتِمَاعُ أَصْوَاتِ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ .

وَ ***الْهُتَافُ*** : الصَّوْتُ بِالدُّعَاءِ .

◆ جَزَىٰ اللَّهُ عَنَّا لُغَةَ الْقُرْآنِ أَلْفَ خَيْرٍ يَا أَبَتِ .

◇ وَوَقَاهَا الْعُقُوقَ[٣] مِنْ أَبْنَائِهَا ، وَلَقَّاهَا الْبِرَّ .

* * *

◆ وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ، أَيْنَ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ، طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ هَاكَهَا وَأَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ ...

رَوَىٰ الْجَاحِظُ أَنَّ سَائِلًا[٤] وَقَفَ بِبَابِ قَوْمٍ وَقَالَ : أَعِينُونِي أَعَانَكُمُ اللَّهُ .

---

(١) ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ سورة مريم الآية ٩٨.

(٢) صحيح مسلم ١٨٨٩.

(٣) العقوق : القطيعة والإهمال .

(٤) سائلًا : شحاذًا يسأل الناس أن يعطوه شيئًا .

فَقَالُوا : يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : كِسْرَةُ خُبْزٍ .

فَقَالُوا : مَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا .

قَالَ : فَقَلِيلٌ مِنْ بُرٍّ ، أَوْ فُولٍ ، أَوْ شَعِيرٍ .

فَقَالُوا : لَا نَسْتَطِيعُهُ .

فَقَالَ : فَقِطْعَةٌ مِنْ دُهْنٍ أَوْ قَلِيلٌ مِنْ زَيْتٍ أَوْ لَبَنٍ .

فَقَالُوا : لَا نَجِدُهُ .

قَالَ : فَشَرْبَةٌ مِنْ مَاءٍ .

فَقَالُوا : وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ .

قَالَ : فَمَا جُلُوسُكُمْ هُنَا !! ...

قُومُوا فَاسْأَلُوا النَّاسَ ؛ فَأَنْتُمْ أَحَقُّ مِنِّي بِالسُّؤَالِ .

* * *

الْجَلْسَةُ السَّادِسَةُ

اللُّغَةُ وَجِهَازُ النُّطْقِ الْإِنْسَانِيِّ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، أَتَأْذَنُ لِي بِأَنْ أَسْأَلَ ؟ .

◇ وَهَلِ اجْتَمَعْنَا إِلَّا لِتَسْأَلَ وَأُجِيبَ ؟! .

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ قَدِ امْتَازَتْ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَبْجَدِيَّاتِ بِاسْتِخْدَامِ جِهَازِ النُّطْقِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ .

◇ نَعَمْ ، قُلْتُ ذَلِكَ فِيمَا مَضَىٰ ، وَأَعُودُ فَأُؤَكِّدُهُ الْيَوْمَ .

◆ وَقُلْتَ أَيْضًا ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ إِنَّ فِي الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَصْوَاتًا[1] لَا تَكَادُ تَعْرِفُهَا الْأَبْجَدِيَّاتُ الْأُخْرَىٰ .

وَهِيَ : الْحَاءُ ، وَالْخَاءُ ، وَالْعَيْنُ ، وَالْغَيْنُ ، وَالصَّادُ ، وَالضَّادُ ، وَالطَّاءُ ، وَالظَّاءُ ، وَالْقَافُ .

---

(١) أي حروفًا .

◇ نَعَمْ ، وَقُلْتُ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَأَعُودُ فَأُقَرِّرُهُ الْيَوْمَ .

◆ لَكِنَّ ذَلِكَ - يَا أَبَتِ - يُوحِي لَنَا بِسُؤَالٍ .

◇ وَمَا هُوَ ؟ .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّ حُرُوفَ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنْ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّاتِ الْأُخْرَىٰ ؟ .

◇ الْأَمْرُ عَلَىٰ النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ عَلَىٰ النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ !! وَكَيْفَ ؟ .

◇ نَعَمْ ، عَلَىٰ النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ ، فَالْأَبْجَدِيَّاتُ الْأُخْرَىٰ إِمَّا أَنْ تُقَارِبَ الْأَبْجَدِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ فِي عَدَدِ حُرُوفِهَا ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ ... وَإِمَّا أَنْ تَزِيدَ عَنْهَا كَثِيرًا كَمَا هُوَ الشَّأْنُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الرُّوسِيَّةِ .

◆ وَمَا عَدَدُ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الرُّوسِيَّةِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ حَرْفًا .

◆ خَمْسَةٌ وَثَلَاثُونَ حَرْفًا !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ إِذَنْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي هَذِهِ الْأَبْجَدِيَّةِ ذَاتِ الْحُرُوفِ الْكَثِيرَةِ ، وَفِي أُخْتَيْهَا الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ حُرُوفٌ لَا تَعْرِفُهَا الْأَبْجَدِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ، كَمَا وُجِدَتْ فِي الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ حُرُوفٌ لَا تَعْرِفُهَا هَذِهِ الْأَبْجَدِيَّاتُ .

◇ الْأَمْرُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا تَوَهَّمْتَ ؛ فَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْأَبْجَدِيَّاتِ صَوْتٌ وَاحِدٌ

لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ أَبَتِ - عَفْوَكَ - كَأَنَّ فِي الْكَلَامِ تَنَاقُضًا . وَإِلَّا ، فَكَيْفَ اجْتَمَعَتْ لِتِلْكَ الْأَبْجَدِيَّاتِ الزِّيَادَةُ فِي الْحُرُوفِ مَعَ النَّقْصِ فِي الْأَصْوَاتِ ؟! ...
لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَمْرِ سِرٌّ .

◇ لَيْسَ هُنَاكَ مِنْ سِرٍّ ، وَكُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّ الْأَبْجَدِيَّاتِ الْأُخْرَىٰ جَعَلَتْ لِلصَّوْتِ الْوَاحِدِ أَكْثَرَ مِنْ حَرْفٍ .

◆ الْأَبْجَدِيَّاتُ الْأُخْرَىٰ جَعَلَتْ لِلصَّوْتِ الْوَاحِدِ أَكْثَرَ مِنْ حَرْفٍ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ الْمِثَالَ ، الْمِثَالَ - يَا أَبَتِ - فَالْمِثَالُ يُزِيلُ الْإِشْكَالَ .

◇ إِلَيْكَ الْمِثَالَ يَا بُنَيَّ ، فَفِي الْفَرَنْسِيَّةِ مَثَلًا الْحَرْفَانِ : " G " وَ " J " وَهُمَا يُؤَدِّيَانِ صَوْتًا وَاحِدًا ، وَكَذَلِكَ الْحَرْفَانِ : " Q " وَ " K " فَهُمَا يُؤَدِّيَانِ صَوْتًا وَاحِدًا أَيْضًا ، وَكَذَلِكَ الْحَرْفَانِ : " S " وَ " C " فَهُمَا يُؤَدِّيَان صَوْتًا وَاحِدًا .

◆ صَحِيحٌ صَحِيحٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَمَا يُقَالُ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ يُقَالُ عَنِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَمَا يُقَالُ عَنْهُمَا يُقَالُ عَنِ الرُّوسِيَّةِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ فَالْحُرُوفُ الزَّائِدَةُ لَيْسَتْ حُرُوفًا كَمَا رَأَيْتَ ، وَإِنَّمَا هِيَ حَرَكَاتٌ لِحُرُوفٍ .

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ قَدْ أَرْهَقْتُكَ .

◇ أَزْهَقْتَنِي !! بَلْ أَنْتَ سَرَرْتَنِي وَبَرَرْتَنِي[1] بِكَثْرَةِ أَسْئِلَتِكَ .

◆ عَلَىٰ هَذَا ، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَ ؟ .

◇ سَلْ ، وَلَا تَتَحَرَّجْ .

◆ أَبَتِ ، جِهَازُ النُّطْقِ الْإِنْسَانِيِّ وَاحِدٌ عِنْدَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، فَمَا الَّذِي جَعَلَ الْعَرَبَ يَسْتَخْدِمُونَهُ أَوْفَىٰ اسْتِخْدَامٍ ، بَيْنَمَا قَصَّرَ الْآخَرُونَ عَنْ بُلُوغِ هَذِهِ الْغَايَةِ فَجَاءَتْ أَبْجَدِيَّتُنَا وَافِيَةً ، وَجَاءَتْ أَبْجَدِيَّاتُ الْآخَرِينَ نَاقِصَةً ؟! .

◇ لَقَدْ أُتِيحَ لِلُغَتِنَا مِنْ عَوَامِلِ النُّمُوِّ وَالتَّكَامُلِ وَالِاصْطِفَاءِ ؛ مَا لَمْ يُتَحْ لِأَيَّةِ لُغَةٍ أُخْرَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ كَانَتِ الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ـ يَا بُنَيَّ ـ كَثِيرَةَ الْعَدَدِ ، وَكَانَ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ لَهْجَتُهَا فِي النُّطْقِ ، وَطَرِيقَتُهَا فِي أَدَاءِ الْأَصْوَاتِ ، وَكَانَ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ نَقْصٌ تُكْمِلُهُ الْقَبِيلَةُ الْأُخْرَىٰ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ *[بِصَوْتٍ خَافِتٍ]* .

◇ ثُمَّ الْتَقَتْ هَذِهِ الْقَبَائِلُ كُلُّهَا عَلَىٰ أَمْرٍ وَاحِدٍ ، وَصُفِّيَتْ لَهَجَاتُهَا فِي لَهْجَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَكَامِلَةٍ ، اجْتَمَعَ لَهَا أَفْضَلُ مَا لَدَىٰ الْقَبَائِلِ وَأَصْلَحُهُ لِلْبَقَاءِ .

◆ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ ـ يَا أَبَتِ ـ إِنَّ بَعْضَ الْقَبَائِلِ كَانَتْ تَخْتَلِفُ عَنْ بَعْضِهَا الْآخَرِ فِي اسْتِعْمَالِ بَعْضِ الْحُرُوفِ وَإِهْمَالِ بَعْضِهَا الْآخَرِ ؟ .

◇ بُورِكَ فِيكَ ، فَذَلِكَ مَا أَرَدْتُ قَوْلَهُ .

---

(١) بررتني : من البِرّ ؛ وهو إعطاء الحق ، والقيام بالواجب .

◆ إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُثِيرٌ !! وَلَكِنَّهُ مَا يَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الْإِيضَاحِ .

◇ إِلَيْكَ الْإِيضَاحَ يَا بُنَيَّ ، فَقَبِيلَةُ « فَقِيمٍ » مَثَلًا كَانَتْ تَنْطِقُ الْيَاءَ جِيمًا حَيْثُمَا وَرَدَتْ ، وَ« تَمِيمٌ » كَانَتْ تُقِيمُ الْعَيْنَ مَقَامَ الْهَمْزَةِ ، وَبَعْضُ الْقَبَائِلِ الْيَمَانِيَّةِ كَانَتْ تُبْدِلُ الْكَافَ شِينًا ، وَهَكَذَا ...

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ يَاءٌ لَدَىٰ « فَقِيمٍ » وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ هَمْزٌ لَدَىٰ « تَمِيمٍ » ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، ثُمَّ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْقَبَائِلُ ، فِي أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ .
وَعَلَىٰ أَبْجَدِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مُتَكَامِلَةٍ .

◆ أَلَمْ يَحْدُثْ مِثْلُ ذَلِكَ لِقَبَائِلِ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لَا يَا بُنَيَّ ؛ فَقَبَائِلُ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ تَحَوَّلَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَىٰ أُمَّةٍ قَائِمَةٍ بِذَاتِهَا ، أَمَّا الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ ؛ فَقَدْ آلَتْ بِفَضْلِ الْإِسْلَامِ وَهَدْيِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ . *

* * *

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ عُلَمَاءَ اللُّغَةِ قَسَّمُوا لُغَاتِ الْبَشَرِ إِلَىٰ ثَلَاثِ عَائِلَاتٍ : عَائِلَةِ لُغَاتِ النَّحْتِ ، وَعَائِلَةِ لُغَاتِ التَّجْمِيعِ ، وَعَائِلَةِ لُغَاتِ الِاشْتِقَاقِ .

◇ أَنَا لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ! أَمَا قَسَّمْتَ لُغَاتِ الْأَرْضِ إِلَىٰ ثَلَاثِ عَائِلَاتٍ ؟ .

◇ أَنَا لَمْ أُقَسِّمْهَا إِلَىٰ ثَلَاثِ عَائِلَاتٍ ، وَإِنَّمَا قَسَّمْتُهَا إِلَىٰ ثَلَاثِ أُسَرٍ .

◆ ثَلاثِ أُسَرٍ ؟! .

◇ نَعَمْ ، ثَلاثِ أُسَرٍ ، لَا ثَلاثِ عَائِلَاتٍ .

◆ أَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْأُسْرَةِ وَالْعَائِلَةِ ؟ .

◇ فَرْقٌ كَبِيرٌ جِدًّا يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا هُوَ ؟ طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ هُوَ أَنَّ الْعَائِلَةَ يَا بُنَيَّ مُؤَنَّثُ عَائِلٍ .

◆ وَمَا الْعَائِلُ ؟ .

◇ الْعَائِلُ : هُوَ الْفَقِيرُ ذُو الْعِيَالِ ، وَعَالَ الرَّجُلُ عِيَالَهُ أَيْ كَفَاهُمْ .

◆ عَلَىٰ هَذَا لَا يُقَالُ : فُلَانٌ يَنْتَمِي إِلَىٰ عَائِلَةِ كَذَا ، أَوْ يَنْحَدِرُ مِنْ عَائِلَةِ كَذَا ؟ ...

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَا يُقَالُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : فُلَانٌ يَنْتَمِي إِلَىٰ أُسْرَةِ كَذَا ، وَهُوَ يَنْحَدِرُ مِنْ أُسْرَةِ كَذَا ...

◆ أَتَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَضِفْهُ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ ؟ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً ، اكْتُبْ : لَا يُقَالُ : فُلَانٌ يَنْتَمِي إِلَىٰ عَائِلَةِ كَذَا ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : فُلَانٌ يَنْتَمِي إِلَىٰ أُسْرَةِ كَذَا ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَائِلَةَ فِي اللُّغَةِ إِنَّمَا هِيَ مُؤَنَّثُ عَائِلٍ ، وَالْعَائِلُ إِنَّمَا هُوَ الْفَقِيرُ ذُو الْعِيَالِ .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ يَا أَبَتِ .

◇ وَوُقِّيتَ الْخَطَأَ يَا بُنَيَّ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَرْجُو أَلَّا تَنْسَاهَا .

◇ إِنْ نَسِيتُهَا أَنَا ؛ فَلَنْ تَنْسَاهَا أَنْتَ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَلْمَمْتَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ لَقِيطُ بْنُ يَعْمُرَ الْإِيَادِيُّ .

◆ وَمَنْ لَقِيطٌ هَذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ ، عَاشَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ كَاتِبًا فِي دِيوَانِ كِسْرَىٰ « سَابُورَ » ذِي الْأَكْتَافِ ، وَلِقَصِيدَتِهِ الَّتِي اخْتَرْتُهَا لَكَ قِصَّةٌ .

◆ وَمَا قِصَّتُهَا يَا أَبَتِ ؟ طَالَ عُمُرُكَ .

◇ عَرَفَ لَقِيطٌ - يَا بُنَيَّ - أَنَّ كِسْرَىٰ قَدْ عَزَمَ عَلَىٰ غَزْوِ قَبِيلَتِهِ « إِيَادٍ » .

◆ فَمَاذَا فَعَلَ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ كُلُّ مُوَاطِنٍ شَرِيفٍ ، كَتَبَ إِلَىٰ قَوْمِهِ رِسَالَةً يُعْلِمُهُمْ فِيهَا بِعَزْمِ كِسْرَىٰ عَلَىٰ غَزْوِهِمْ ، وَمَعَهَا قَصِيدَةٌ يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَىٰ جَمْعِ الشَّمْلِ ، وَلَمِّ الشَّعْثِ[1]، وَتَوْحِيدِ الصَّفِّ ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ ، وَلَكِنْ ...

◆ وَلَكِنْ مَاذَا يَا أَبَتِ ؟ .

---

(١) الشعث : ما تفرق من الأمور ، يقال لَمَّ اللّه شعثه ، أي أعاد إليه ما تفرق من أمره .

◇ وَلَكِنَّ رِسَالَتَهُ وَقَعَتْ فِي يَدِ كِسْرَىٰ .

◆ فَمَاذَا صَنَعَ ؟ .

◇ قَطَعَ لِسَانَهُ ، وَغَزَا « إِيَادًا » .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ لَقِيطٌ فِي قَصِيدَتِهِ لِقَوْمِهِ ؟ .

◇ يَقُولُ لَهُمْ :

يَا لَهْفَ نَفْسِيَ إِنْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ
شَتَّىٰ ، وَأُحْكِمَ أَمْرُ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا
أَلَا تَخَافُونَ قَوْمًا - لَا أَبَا لَكُمُ -
أَمْسَوْا كَثِيرًا كَأَمْثَالِ الدَّبَا[1] سَرَعَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَسُنُّونَ الْحِرَابَ لَكُمْ
لَا يَهْجَعُونَ ، إِذَا مَا غَافِلٌ هَجَعَا
خُزْرٌ عُيُونُهُمُ ، كَأَنَّ لَحْظَهُمُ
حَرِيقُ غَابٍ تَرَىٰ مِنْهُ السَّنَا قِطَعَا
قُومُوا قِيَامًا عَلَىٰ أَمْشَاطِ[2] أَرْجُلِكُمْ
ثُمَّ افْزَعُوا ، قَدْ يَنَالُ الْأَمْرَ مَنْ فَزِعَا

◆ مَا هَذَا الْكَلَامُ يَا أَبَتِ ؟! لَقَدْ أَصَابَ الْمَحَزَّ[3]، كَأَنَّهُ يُوَجِّهُ إِلَيْنَا الْيَوْمَ .

(١) الدّبا : أصغر ما يكون من الجراد .
(٢) مشط القدم : الجزء الذي يقع بين رسغها وأصابعها .
(٣) المحز : مكان الحز الذي يسهل فيه القطع .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجِدَ مِنَّا الْآذَانَ الصَّاغِيَةَ ، وَالْقُلُوبَ الْوَاعِيَةَ ، وَالْهِمَمَ الَّتِي تُحَوِّلُ الْأَقْوَالَ إِلَىٰ أَفْعَالٍ .

◆ أَبَتِ ، أَمَا مِنْ جَنًى آخَرَ .

◇ الرَّوْضُ نَضِيرٌ ، وَالْجَنَىٰ كَثِيرٌ ...

◆ أَكْثَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْخَيْرَ ، وَأَفَاضَ عَلَيْكَ النِّعْمَةَ ...
وَمَنِ الشَّاعِرُ الْآخَرُ الَّذِي جَنَيْتَ مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ مَعْنُ بْنُ أَوْسٍ الْمُزَنِيُّ .

◆ وَمَنْ مَعْنٌ هَذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ شَاعِرٌ إِسْلَامِيٌّ مُقِلٌّ ، تُوُفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ لِلْهِجْرَةِ .

◆ وَمَا الَّذِي جَنَيْتَهُ مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ قَوْلُهُ :

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ[1]
بِحِلْمِيَ عَنْهُ ، وَهْوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمُ

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ
وَكَالْمَوْتِ عِنْدِي أَنْ يَحِلَّ بِهِ الرَّغْمُ[2]

إِذَا سِمْتُهُ[3] وَصْلَ الْقَرَابَةِ سَامَنِي
قَطِيعَتَهَا ، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالظُّلْمُ

(١) ضغنه : حقده الشديد .
(٢) الرّغم : الذل .
(٣) إذا سِمتُه : إذا كلفته وأردت منه .

فَمَا زِلْتُ فِي لِينٍ لَهُ وَتَعَطُّفٍ
عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَىٰ الْوَلَدِ الْأُمُّ

لِأَسْتَلَّ[1] مِنْهُ الضِّغْنَ حَتَّىٰ اسْتَلَلْتُهُ
وَقَدْ كَانَ ذَا حِقْدٍ يَضِيقُ بِهِ الْجُرْمُ[2]

◆ مَا هَذِهِ الْأَخْلَاقُ يَا أَبَتِ؟ مَا هَذِهِ الْأَخْلَاقُ !!.

◇ إِنَّهَا أَخْلَاقُ الْإِسْلَامِ؛ أَدَّبَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ.

◆ وَمَا هَذِهِ الرَّوْعَةُ فِي الْأَدَاءِ، وَالْإِيجَازُ فِي التَّعْبِيرِ؟!.

◇ إِذَا كَانَتْ قَدْ شَاقَتْكَ رَوْعَةُ الْأَدَاءِ وَرَاقَكَ إِيجَازُ التَّعْبِيرِ، فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَوْجَزَ مَعَانِيَ جَمِيعِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ فِي بِضْعِ كَلِمَاتٍ.

◆ فَمَاذَا قَالَ يَا أَبَتِ؟.

◇ قَالَ تَعَالَىٰ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿ **اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**[3] ﴾[4].

◆ حَقًّا هَذَا هُوَ الْإِيجَازُ يَا أَبَتِ.

◇ وَهَذَا هُوَ الْإِعْجَازُ يَا بُنَيَّ.

* * *

◆ أَبَتِ، نَعَتَ لَقِيطٌ قَوْمَ كِسْرَىٰ فَقَالَ:

---

(١) لأستل: لأخرج حقده من صدره.
(٢) الجرم: الذنب، وكأن حقده أكبر من أي ذنب.
(٣) حميم: صديق مخلص.
(٤) سورة فصلت الآية ٣٤.

خُـزْرٌ عُـيُـونُـهُـمْ كَـأَنَّ لَـحْـظَـهُـمْ

حَرِيقُ غَابٍ تَرَىٰ مِنْهُ السَّنَا قِطَعَا

فَمَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : خُزْرٌ عُيُونُهُمْ .

◇ ***الْـخَزَرُ*** يَا بُنَيَّ ، حَالَةٌ مِنْ حَالَاتِ النَّظَرِ الْكَثِيرَةِ .

◆ وَهَلْ جَعَلَ الْعَرَبُ لِكُلِّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ النَّظَرِ اسْمًا خَاصًّا بِهَا ، وَنَعْتًا دَالًّا عَلَيْهَا ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ أَفِي الْوَقْتِ مُتَّسَعٌ لِبَيَانِ حَالَاتِ النَّظَرِ ، وَمَا وُضِعَ لَهَا مِنْ أَلْفَاظٍ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .
قَالَتِ الْعَرَبُ :
إِذَا نَظَرَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ الشَّيْءِ بِمَجَامِعِ عَيْنَيْهِ[١] قِيلَ : ***رَمَقَهُ*** .
فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ جَانِبِ أُذُنِهِ قِيلَ : ***لَـحَظَهُ*** .
فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَجَلَةٍ قِيلَ : ***لَـمَـحَهُ*** .
فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِشِدَّةٍ قِيلَ : ***أَرْشَقَهُ*** ، وَ ***أَسَفَّ*** النَّظَرَ إِلَيْهِ ... وَفِي حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ ***يُسِفَّ*** الرَّجُلُ النَّظَرَ إِلَىٰ أُمِّهِ وَأُخْتِهِ وَابْنَتِهِ .

◆ عَظِيمٌ عَظِيمٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ فَإِنْ نَظَرَ إِلَىٰ الشَّيْءِ نَظْرَةَ الْمُتَعَجِّبِ مِنْهُ ، أَوِ الْكَارِهِ لَهُ ، أَوِ الْمُبْغِضِ إِيَّاهُ ، قِيلَ : ***شَفَنَهُ*** ، وَ ***شَفَنَ*** إِلَيْهِ .
فَإِنْ أَعَارَهُ لَحْظَ الْعَدَاوَةِ قِيلَ : نَظَرَ إِلَيْهِ ***شَزْرًا*** .

---

(١) بمجامع عينيه : بكل نظره في دقة دون التفات إلى شيء آخر .

فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْمَحَبَّةِ قِيلَ : نَظَرَ إِلَيْهِ **نَظْرَةَ ذِي عَلَقٍ** .
فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَىٰ حَاجِبِهِ مُسْتَظِلًّا ؛ لِيَسْتَبِينَ الْمَنْظُورَ إِلَيْهِ قِيلَ : **اسْتَوْضَحَهُ** ، وَ **اسْتَشْرَفَهُ** .

◆ رَائِعٌ رَائِعٌ !! [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ فَإِنْ نَشَرَ الثَّوْبَ وَرَمَقَهُ لِيَنْظُرَ إِلَىٰ صَفَاقَتِهِ أَوْ سَخَافَتِهِ[1]، أَوْ يَرَىٰ إِنْ كَانَ بِهِ عَوَارٌ[2] قِيلَ : **اسْتَشَفَّهُ** .
فَإِنْ نَظَرَ إِلَىٰ الشَّيْءِ كَاللَّمْحَةِ ثُمَّ خَفِيَ عَنْهُ قِيلَ : **نَفَضَهُ نَفْضًا** .
فَإِنْ نَظَرَ فِي كِتَابٍ أَوْ حِسَابٍ لِيُهَذِّبَهُ ، أَوْ لِيَسْتَكْشِفَ صِحَّتَهُ وَسَقَمَهُ قِيلَ : **تَصَفَّحَهُ** .
فَإِنْ فَتَحَ جَمِيعَ عَيْنِهِ لِشِدَّةِ النَّظَرِ قِيلَ : **حَمْلَقَ** .

◆ مَا هَذَا الْغِنَىٰ وَمَا هَذِهِ الثَّرْوَةُ يَا أَبَتِ ؟!! .

◇ فَإِنْ غَابَ سَوَادُ عَيْنَيْهِ مِنَ الْفَزَعِ عِنْدَ النَّظَرِ قِيلَ : **بَرِقَ** بَصَرُهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ** ﴾[3].
فَإِنْ بَالَغَ فِي فَتْحِ عَيْنَيْهِ لِفَزَعٍ أَوْ تَهْدِيدٍ قِيلَ : **حَدَجَ** .
فَإِنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَجَعَلَ لَا يُطْرِفُ قِيلَ : **شَخَصَ** ، وَفِي الْقُرْآنِ ﴿ **فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾[4].
فَإِنْ نَظَرَ إِلَىٰ أُفُقِ الْهِلَالِ لِيَتَبَصَّرَهُ ؛ قِيلَ : **تَبَصَّرَهُ** .

◆ مَا هَذَا كُلُّهُ يَا أَبَتِ ، مَا هَذَا كُلُّهُ !! .

◇ هَذَا بَعْضُ غِنَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَشْكُو مِنْ فَقْرِهَا الْجُهَّالُ الْمُتَجَاهِلُونَ .

---

(١) صفاقة الثوب : كثافة نسجه ، وسخافته : رقة نسجه وضعفه .
(٢) العوار : العيب .
(٣) سورة القيامة الآية ٧.   (٤) سورة الأنبياء الآية ٩٧.

◆ وَقَانَا اللَّهُ شَرَّ الْجَهَالَةِ وَالتَّجَاهُلِ .

◇ آمِينَ .

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَأَيْنَ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ؟ .

◇ أَمَا مِنْهَا بُدٌّ ؟ .

◆ إِذَا شِئْتَ يَا أَبَتِ ، إِذَا شِئْتَ .

◇ إِذَا كَانَ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهَا فَهَاكَهَا .

وَقَفَ حِمَارٌ بِبَابِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ ، وَنَزَلَ عَنْهُ رَجُلٌ أَشْعَثُ[1] أَغْبَرُ عَلَيْهِ عَلَائِمُ[2] السَّفَرِ الطَّوِيلِ وَمَعَهُ غُلَامٌ لَهُ .

وَاسْتَأْذَنَ الرَّجُلُ عَلَى الْخَلِيلِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَحَيَّاهُ وَدَعَاهُ ... فَبَدَتْ عَلَى الرَّجُلِ الرَّغْبَةُ فِي سُرْعَةِ التَّرَحُّلِ ؛ فَعَجِلَ إِلَيْهِ الْخَلِيلُ بِالسُّؤَالِ عَنْ حَاجَتِهِ ...

فَشَمَّرَ الرَّجُلُ عَنْ سَاعِدَيْهِ وَقَالَ يَتَعَمَّدُ[3] الْبَلَاغَةَ :

نُبِّئْتُ بِنُبُوغِكَ ، وَأُسْمِعْتُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ عَنْ فِقْهِكَ وَعِلْمِكَ ، فَعَوَّلْتُ[4] عَلَى أَنْ أَجْمَعَ ابْنِي هَذَا بِكَ لِيَأْخُذَ عَنْكَ ؛ فَجِئْتُكَ مِنْ سَفَرٍ بَعِيدٍ ، وَأُرِيدُكَ أَنْ تُؤَدِّبَ ابْنِي هَذَا شَيْئًا مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ ، وَأَنْ تُعَلِّمَهُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ النَّحْوِ ، وَأَنْ تُلَقِّنَهُ مَا يَحْتَاجُهُ مِنَ الطِّبِّ ، وَأَنْ تُفَقِّهَهُ بِفَرَائِضِ الشَّرْعِ ...

وَ إِنِّي لَوَاقِفٌ بِالْبَابِ ؛ أَنْتَظِرُ فَرَاغَكَ مِنْ تَعْلِيمِهِ .

فَالْتَفَتَ الْخَلِيلُ إِلَى الصَّبِيِّ وَقَالَ : إِلَيْكَ مَا ابْتَغَاهُ أَبُوكَ ...

---

(١) أشعث أغبر : متلبد الشعر ، عليه غبار من الجهد والمشقة .

(٢) علائم : دلائل .

(٣) يتعمد البلاغة : يتقعر في كلامه ويختار الكلام الغريب . (٤) فعولت : فعزمت ورجوت ذلك .

اِعْلَمْ يَا بُنَيَّ : أَنَّ الثُّرَيَّا[1] فِي وَسَطِ السَّمَاءِ ، وَكَفَاكَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةً بِالنُّجُومِ .
وَأَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَبِذَلِكَ يُبْدَأُ النَّحْوُ ، وَلَعَلَّهُ يَنْتَهِي بِهِ وَيُخْتَمُ .
وَأَنَّ الْهَلِيلَجَ[2] الْكَابُلِيَّ يَدْفَعُ الصَّفْرَاءَ ، وَهَذَا مِنَ الطِّبِّ فِي مَكَانٍ عَظِيمٍ .
وَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ رَجُلٌ وَتَرَكَ ابْنَيْنِ لَهُ ؛ فَمَالُهُ بَيْنَهُمَا سَوَاءٌ ، وَذَلِكَ أَصْلُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ .

ثُمَّ أَتْبَعَ يَقُولُ مُخَاطِبًا الصَّبِيَّ :

وَ إِنَّكَ يَا بُنَيَّ إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ أَدْرَكْتَ مِنَ الْعُلُومِ مَا يَلِيقُ بِصَبِيٍّ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْوَالِدِ .

فَأَثْنَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ الْخَلِيلِ ، وَقَالَ لِفَتَاهُ :

قُمْ يَا بُنَيَّ ، وَلَا تَنْسَ شَيْئًا مِمَّا قَالَهُ الشَّيْخُ .

* * *

(١) الثريا : مجموعة من النجوم علىٰ هيئة الثور .
(٢) الهليلج الكابلي : الإهليلج ، شجر ينبت في كابل والهند والصين ، ثمره علىٰ هيئة حب الصنوبر الكبار .

الْجَلْسَةُ السَّابِعَةُ

ابْتِكَارُ عِلْمِ الْأَصْوَاتِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ الشَّاعِرَ الْقَرَوِيَّ بَعَثَ بِرِسَالَةٍ إِلَىٰ الْمَرْحُومِ الْأُسْتَاذِ الْعَقَّادِ ، اقْتَرَحَ فِيهَا أَنْ تُدْعَىٰ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةَ « الْحَاءِ » بَدَلًا مِنْ لُغَةِ « الضَّادِ » .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ قُلْتُ ذَلِكَ .

◆ فَمَا الْمُنَاسَبَةُ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ هَذَا الِاقْتِرَاحِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ الْمُنَاسَبَةُ ... الْمُنَاسَبَةُ ، كَانَتِ الْمُنَاسَبَةُ - يَا بُنَيَّ فِيمَا أَذْكُرُ - الْحَدِيثَ عَنْ عَبْقَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي دَلَالَةِ حُرُوفِهَا عَلَىٰ الْمَعَانِي .

◆ الْحُرُوفُ وَهِيَ أَصْوَاتٌ مُبْهَمَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ الْمَعَانِي !!! .

◇ هَذَا مَا هَدَىٰ إِلَيْهِ الْبَحْثُ - يَا بُنَيَّ - وَهُوَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَآيَةٌ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّتِهَا .

◆ وَمَا الَّذِي قَالَهُ الشَّاعِرُ الْقَرَوِيُّ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ بَعْد إِزْجَاءِ[1] التَّحِيَّاتِ الْمُبَارَكَاتِ قَالَ الشَّاعِرُ الْقَرَوِيُّ : لَقَدْ تَنَبَّهْتُ بَعْدَ طُولِ الْمُرَاجَعَةِ إِلَىٰ أَنَّ حَرْفَ « الْفَاءِ » يَدُلُّ عَلَىٰ الإِبَانَةِ وَالْوُضُوحِ ، وَذَلِكَ كَمَا فِي : فَتَحَ ، وَفَرِحَ ، وَفَلَقَ ، وَفَجَرَ ، فَسَّرَ ، مِمَّا يُعْيِي إِحْصَاؤُهُ ، وَيَنْدُرُ اسْتِثْنَاؤُهُ .

◆ كَلَامٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ لَا يَقْطَعُ التَّتَابُعَ] .

◇ وَإِنَّ حَرْفَ « الضَّادِ » خُصَّ بِالشُّؤْمِ ؛ فَهُوَ يَسِمُ[2] جَبِينَ كُلِّ نُقْطَةٍ بِمَكْرَهَةٍ[3] لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهَا اسْمٌ أَوْ فِعْلٌ .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ ! [بِصَوْتٍ خَافِتٍ لَا يَقْطَعُ التَّتَابُعَ] .

◇ وَذَلِكَ كَمَا فِي : ضُرٍّ ، وَضَيْرٍ ، وَضَجِيجٍ ، وَضَوْضَاءٍ ، وَضَيَاعٍ ، وَضَلَالٍ ، وَضَنْكٍ ، وَضِيقٍ ، وَضَنًىٰ ، وَضَرَاوَةٍ .
وَإِنَّ حَرْفَ « الْحَاءِ » يَكَادُ يَحْتَكِرُ أَشْرَفَ الْمَعَانِي وَأَقْوَاهَا ، وَذَلِكَ كَمَا فِي : حُبٍّ ، وَحَقٍّ ، وَحُرِّيَّةٍ ، وَحَيَاةٍ ، وَحُسْنٍ ، وَحِكْمَةٍ ، وَحِلْمٍ ، وَحَزْمٍ .

◆ هَذِهِ فِطْنَةٌ مِنَ الشَّاعِرِ الْقَرَوِيِّ ، وَسَبْقٌ يُذْكَرُ لَهُ فَيُشْكَرُ .

◇ الشَّاعِرُ الْقَرَوِيُّ مَسْبُوقٌ فِي هَذَا ، وَمَا هُوَ بِالسَّابِقِ .

◆ مَسْبُوقٌ فِي هَذَا !! وَمَنِ الَّذِي سَبَقَهُ ؟؟ .

◇ سَبَقَهُ الْقُدَمَاءُ مِنْ لُغَوِيِّينَا ، وَالْمُحْدَثُونَ أَيْضًا .

---

(١) إزجاء التحيات : الإمعان والترسل في التحية .
(٢) يسم : يضع علامة .
(٣) بمكرهة : بما تكرهه النفس ويشق عليها .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَنْ دَامَ عِزُّكَ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ : ابْنِ جِنِّي ، وَابْنِ سِينَا ، وَالسَّكَّاكِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ .

◆ وَمَا الَّذِي قَالُوهُ فِي هَذَا الْبَابِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لَنْ تَسْتَطِيعَ اسْتِيعَابَ مَا قَالُوهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ الْأَكْمَلِ ؛ إِلَّا إِذَا وَقَفْتَ عَلَىٰ مَا قَرَّرَهُ عِلْمُ الْأَصْوَاتِ فِي طَرِيقَةِ تَكْوِينِ الْحُرُوفِ .

◆ عِلْمُ الْأَصْوَاتِ !! أَلِلْأَصْوَاتِ عِلْمٌ أَيْضًا .

◇ لِلْأَصْوَاتِ عِلْمٌ ، وَمُخْتَبَرَاتٌ ، وَمَعَامِلُ .

◆ وَمُخْتَبَرَاتٌ وَمَعَامِلُ أَيْضًا !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَفِي أَقْسَامِ اللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ مِنْ كُلِّيَاتِ الْآدَابِ مُخْتَبَرٌ لِلْأَصْوَاتِ .

◆ وَمَا الْغَرَضُ مِنْهُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ الْغَرَضُ مِنْهُ تَيْسِيرُ تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ؛ وَفْقَ نَهْجٍ قَوِيمٍ وَنُطْقٍ سَلِيمٍ .

◆ وَهَلْ زُرْتَ وَاحِدًا مِنْهَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ نَعَمْ زُرْتُ وَاحِدًا مِنْهَا ، وَتَمَنَّيْتُ أَنْ يَكُونَ لَنَا مِثْلُهُ .

◆ لَكُمْ !! تَعْنِي الْمُشْتَغِلِينَ بِتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

◇ نَعَمْ لَنَا نَحْنُ مَعْشَرَ الْمُهْتَمِّينَ بِتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ وَمَاذَا تَصْنَعُونَ بِهِ ؟ .

◇ نُعَلِّمُ بِوَسَاطَتِهِ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لِلْمُتَعَطِّشِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَنَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ إِتْقَانِ إِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَخَارِجِهَا عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَجْوِيدِهِ .

◆ يَا لَأُورُبَّا ، كَمِ اسْتَحْدَثَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ !! .

◇ نَحْنُ ـ الْمُسْلِمِينَ ـ أَصْحَابُ هَذَا الْعِلْمِ يَا بُنَيَّ ، نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهِ ، نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ أَتْقَنَهُ ، وَقَدَّمَهُ لِلْبَشَرِيَّةِ .

◆ نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هَذَا الْعِلْمِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ ، ثُمَّ جَاءَتْ « أُورُبَّا » فَأَخَذَتْهُ مِنَّا ، وَحَوَّلَتْهُ إِلَىٰ مَعَامِلَ وَمُخْتَبَرَاتٍ لِتَنْشُرَ لُغَاتِهَا فِي الْآفَاقِ ، وَتَرْفَعَ لِوَاءَ حَضَارَتِهَا فَوْقَ الْحَضَارَاتِ .

◆ وَمَا الْكُتُبُ الَّتِي خَلَّفَهَا أَسْلَافُنَا فِي هَذَا الْفَنِّ ؟ .

◇ لَقَدْ تَرَكُوا لَنَا أَكْثَرَ مِنْ كِتَابٍ ، وَأَكْثَرَ مِنْ مَبْحَثٍ وَمَقَالٍ .

◆ عَظِيمٌ عَظِيمٌ .

◇ وَلَعَلَّ أَجْوَدَ وَأَبْرَعَ مَا كَتَبُوهُ فِي هَذَا الْفَنِّ هُوَ مَا أَوْدَعَهُ ابْنُ جِنِّي فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّىٰ بِصِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ ، وَكِتَابِهِ الْآخَرِ الْمُسَمَّىٰ بِالْخَصَائِصِ .

◆ أَبَتِ ، يَقُولُونَ : إِنَّ الْحَاجَةَ أُمُّ الِاخْتِرَاعِ ، فَمَا الْحَاجَةُ الَّتِي دَفَعَتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ ابْتِكَارِ عِلْمِ الْأَصْوَاتِ ؟ .

◇ الْقُرْآنُ ، الْقُرْآنُ يَا بُنَيَّ .

◆ الْقُرْآنُ !! وَمَا عَلَاقَةُ الْقُرْآنِ بِهَذَا الْفَنِّ ؟ .

◇ هِيَ عَلَاقَةُ الْأَصْلِ بِالْفَرْعِ ، مَثَلُ الْقُرْآنِ ـ يَا بُنَيَّ ـ وَمَثَلُ الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،

كَمَثَلِ دَوْحَةٍ بَاسِقَةٍ[١] كَثِيرَةِ الْفُرُوعِ ، كُلُّ غُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا يَحْمِلُ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ .

◆ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ - يَا أَبَتِ - إِنَّ الْعُلُومَ الْإِسْلَامِيَّةَ نَشَأَتْ فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ .

◇ هَذَا مَا أَرَدْتُ قَوْلَهُ ، فَعُلُومُ اللُّغَةِ عَلَىٰ تَعَدُّدِهَا وَتَشَعُّبِهَا وَسَعَتِهَا ؛ إِنَّمَا وُجِدَتْ لِفَهْمِ الْقُرْآنِ ...

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ يُسَاعِدُ عَلَى التَّتَابُعِ] .

◇ وَعِلْمُ النَّحْوِ عَلَىٰ دِقَّةِ تَرْكِيبِهِ ، وَإِحْكَامِ بِنَائِهِ ، إِنَّمَا وُجِدَ لِيَصُونَ أَلْسِنَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ اللَّحْنِ فِي الْقُرْآنِ ...
وَعِلْمُ الْبَلَاغَةِ ؛ إِنَّمَا اسْتُحْدِثَ لِلْكَشْفِ عَنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ لَا يَقْطَعُ التَّتَابُعَ] .

◇ وَعِلْمُ الصَّوْتِ أَوْ عِلْمُ التَّجْوِيدِ ؛ إِنَّمَا وُجِدَ لِإِحْكَامِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَإِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَخَارِجِهَا .
وَلَوْ رُحْتُ أُعَدِّدُ لَكَ الصِّلَةَ الْمُبَاشِرَةَ وَغَيْرَ الْمُبَاشِرَةِ الَّتِي تَرْبِطُ عُلُومَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقُرْآنِ ؛ لَطَالَ بِنَا الْمَقَالُ وَلَضَاقَ الْمَقَامُ .

◆ أَبَتِ ، أَرَانَا اسْتَطْرَدْنَا[٢] كَثِيرًا طَالَ عُمْرُكَ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، فَالْحَدِيثُ ذُو شُجُونٍ كَمَا يَقُولُونَ .

◆ أَفَمَا لَنَا مِنْ رَجْعَةٍ إِلَىٰ أَصْلِ الْمَوْضُوعِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ .

---

(١) يقال بسق الشيء تم ارتفاعه .
(٢) استطردنا : تنقلنا في الحديث ، وبعدنا عن الموضوع .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَنَا مُغْتَبِطٌ[1] الْيَوْمَ .

◇ الْيَوْمَ ، وَدَائِمًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنْ مَا سَبَبُ اغْتِبَاطِكَ ؟ .

◆ سَبَبُ اغْتِبَاطِي أَنَّنِي خَرَجْتُ مِنْ حَدِيثِي مَعَكَ سَالِمًا غَانِمًا : سَلِمْتُ مِنَ الْخَطَإِ ، وَغَنِمْتُ الْمَعْرِفَةَ .

◇ وَهَلْ تَخْشَىٰ الْوُقُوعَ فِي الْخَطَإِ كُلَّ هَذِهِ الْخَشْيَةِ ؟! .

◆ نَعَمْ يَا أَبَتِ ، نَعَمْ ، فَأَنَا أَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ حِينَ أَنْتَهِي مِنَ الْحَدِيثِ مَعَكَ وَأَخْرُجُ عَلَىٰ خَيْرٍ .

◇ تَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ !!! .

◆ نَعَمْ أَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ .

◇ وَلِمَاذَا ؟ .

◆ اطْمِئْنَانًا وَارْتِيَاحًا .

◇ وَهَلْ يَتَنَفَّسُ الصُّعَدَاءَ مَنْ يَطْمَئِنُّ وَيَرْتَاحُ ؟! .

◆ طَبْعًا يَا أَبَتِ طَبْعًا .

◇ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟! .

---

(١) مغتبط : فَرِح .

◆ أَلَيْسَ مَعْنَىٰ : تَنَفَّسَ فُلَانٌ الصُّعَدَاءَ اسْتَرَاحَ بَعْدَ جُهْدٍ ، وَاطْمَأَنَّ بَعْدَ خَوْفٍ ؟ .

◇ كُتُبُ اللُّغَةِ تَقُولُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ .

◆ كُتُبُ اللُّغَةِ تَقُولُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ !!! .

◇ نَعَمْ ، مَا يُنَاقِضُهُ وَمَا يُضَادُّهُ .

◆ وَمَاذَا تَقُولُ هَذِهِ الْكُتُبُ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟!! .

◇ تَقُولُ : تَنَفَّسَ فُلَانٌ الصُّعَدَاءَ أَيْ لَقِيَ شِدَّةً وَمَشَقَّةً وَعُسْرًا ، وَالصُّعَدَاءُ : التَّنَفُّسُ الطَّوِيلُ مِنْ هَمٍّ أَوْ تَعَبٍ ، وَالصَّعُودُ : الْعَقَبَةُ الشَّاقَّةُ .

◆ عَجِيبٌ !!! [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ نَعَمْ الصَّعُودُ الْعَقَبَةُ الشَّاقَّةُ ، وَعَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** ﴾[1] أَيْ سَأُغْشِيهِ عَقَبَةً شَاقَّةَ الْمَصْعَدِ ، وَسَأُكَلِّفُهُ الصُّعُودَ فِي الْجِبَالِ الْوَعْرَةِ الشَّاقَّةِ الشَّاهِقَةِ .

◆ إِذَنْ لَا يُقَالُ : تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ بِمَعْنَىٰ اسْتَرَاحَ بَعْدَ جُهْدٍ ، وَاطْمَأَنَّ بَعْدَ خَوْفٍ ؟ .

◇ نَعَمْ لَا يُقَالُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ بِمَعْنَىٰ لَقِيَ الْمَشَقَّةَ ، وَعَانَىٰ الْعُسْرَ .

◆ أَتَأْذَنُ لِي بِأَنْ أُثْبِتَ ذَلِكَ فِي بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَثْبِتْهُ ، أَثْبِتْهُ ، وَلَا تَتَرَدَّدْ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ ؟ .

---

(١) سورة المدثر الآية ١٦ و ١٧.

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً.

اكْتُبْ: لَا يُقَالُ: تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ بِمَعْنَىٰ اسْتَرَاحَ بَعْدَ جُهْدٍ، وَاطْمَأَنَّ بَعْدَ خَوْفٍ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ؛ لِمَنْ عَانَىٰ الْمَشَقَّةَ وَلَقِيَ الْعُسْرَ.

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ، يَا خَيْرَ الْآبَاءِ.

◇ وَلَقَّاكَ اللَّهُ الْبِرَّ، يَا أَبَرَّ الْأَبْنَاءِ.

* * *

◆ أَبَتِ، بَعْدَ مُعَانَاةِ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ، وَتَنَفُّسِ الصُّعَدَاءِ، تَاقَتِ النَّفْسُ لِرَوْضَةِ الشِّعْرِ؛ فَأَدْخِلْنِيهَا طَالَ بَقَاؤُكَ.

◇ إِلَيْهَا، إِلَيْهَا يَا بُنَيَّ، فَهِيَ رَيَّانَةٌ بِالسِّحْرِ، شَذِيَّةٌ بِالْعِطْرِ.

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنَجْنِي مِنْ رَوْضِهِ الْيَوْمَ؟.

◇ إِنَّهُ سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ الْيَشْكُرِيُّ.

◆ وَمَنْ سُوَيْدٌ هَذَا - طَالَ بَقَاؤُكَ - فَإِنِّي أَرَاكَ تُغْرِبُ وَتُبْعِدُ.

◇ بَلْ أَسْتَطْرِفُ، وَأَتَحَاشَىٰ الْمُكَرَّرَ الْمَمْلُولَ.

◆ حَسَنٌ حَسَنٌ.

◇ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ سُوَيْدًا وَأَمْثَالَهُ مِنَ الْمَغْمُورِينَ، كَمَا نَعْرِفُ أَبَا الطَّيِّبِ وَأَمْثَالَهُ مِنَ الْمَشْهُورِينَ.

◆ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ سُوَيْدًا هَذَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ.

◇ بَلْ هُوَ إِسْلَامِيٌّ، تُوُفِّيَ قَرِيبًا مِنْ سَنَةِ سِتِّينَ لِلْهِجْرَةِ.

◆ وَمَا مَوْضُوعُ الْقَصِيدَةِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ شِعْرِهِ ؟ .

◇ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ مَوْضُوعٍ .

◆ أَكْثَرُ مِنْ مَوْضُوعٍ فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ !! .

◇ وَمَا فِي ذَلِكَ ؟ أَلَيْسَ فِي الرَّوْضِ أَكْثَرُ مِنْ زَهْرَةٍ ، وَلِكُلِّ زَهْرَةٍ لَوْنٌ ، وَلِكُلِّ لَوْنٍ عِطْرٌ ؟ .

◆ تَشْبِيهٌ جَمِيلٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَإِذَا أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا مَوْضُوعٌ ؛ فَمَوْضُوعُهَا : خَوَاطِرُ فَارِسٍ شَاعِرٍ .

◆ عُنْوَانٌ طَرِيفٌ .

◇ لِقَصِيدَةٍ طَرِيفَةٍ .

◆ أَنْشِدْنِيهَا ـ يَا أَبَتِ ـ أَنْشِدْنِيهَا طَالَ عُمْرُكَ .

◇ قَالَ سُوَيْدٌ :

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الْحَبْلَ لَنَا[1]	فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعْ
حُرَّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا وَاضِحًا	كَشُعَاعِ الشَّمْسِ فِي الْغَيْمِ سَطَعْ
صَقَلَتْهُ بِقَضِيبٍ نَاضِرٍ	مِنْ أَرَاكٍ طَيِّبٍ حَتَّى نَصَعْ[2]
أَبْيَضَ اللَّوْنِ لَذِيذًا طَعْمُهُ	طَيِّبَ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعْ
تَمْنَحُ الْمِرْآةَ وَجْهًا وَاضِحًا	مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي الصَّحْوِ ارْتَفَعْ

(١) رابعة : هو اسم محبوبته ، وبسطت الحبل ، أي قربت سبل المودة .
(٢) يصف الشاعر فمها بالنقاء وأنها تصقل أسنانها وتجولها بالأراك أي المسواك .

لَا أُلَاقِيهَا - وَقَلْبِي عِنْدَهَا - غَيْرَ إِلْمَامٍ إِذَا الطَّرْفُ هَجَعْ
وَكَذَاكَ الْحُبُّ مَا أَشْجَعَهُ يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَزَعْ[1]
فَأَبِيتُ اللَّيْلَ مَا أَرْقُدُهُ وَيُعَنِّينِي إِذَا نَجْمٌ طَلَعْ
وَإِذَا مَا قُلْتُ: لَيْلٌ قَدْ مَضَىٰ عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعْ

◆ رَائِعٌ سُوَيْدٌ هَذَا، رَائِعٌ حَقًّا !!.

◇ كَيْفَ بِاسْتِقْرَارِ حُرٍّ سَاخِطٍ بِبِلَادٍ لَيْسَ فِيهَا مُتَّسَعْ
لَا يُرِيدُ الدَّهْرَ عَنْهَا حِوَلًا جُرَعَ الْمَوْتَ، وَلِلْمَوْتِ جُرَعْ

◆ إِنَّهُ حُبُّ الْوَطَنِ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ].

◇ رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظًا قَلْبَهُ قَدْ تَمَنَّىٰ لِيَ شَرًّا لَمْ يُطَعْ
وَيَرَانِي كَالشَّجَا[2] فِي حَلْقِهِ عَسِرًا مَخْرَجُهُ مَا يُنْتَزَعْ
مُزْبِدٌ يَخْطِرُ مَا لَمْ يَرَنِي فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي انْقَمَعْ[3]
وَيُحَيِّينِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ[4]
فَرَّ مِنِّي هَارِبًا شَيْطَانُهُ حَيْثُ لَا يُعْطِي، وَلَا شَيْئًا مَنَعْ
سَاجِدَ الْمِنْخَرِ لَا يَرْفَعُهُ خَاشِعَ الطَّرْفِ، أَصَمَّ الْمُسْتَمَعْ
وَرَأَىٰ مِنِّي مَقَامًا صَادِقًا ثَابِتَ الْمَوْطِنِ كَتَّامَ الْوَجَعْ
وَلِسَانًا صَيْرَفِيًّا صَارِمًا كَحُسَامِ السَّيْفِ، مَا مَسَّ قَطَعْ

---

(١) الوازع: هو الناصح بالبعد عن طرق المضرة.
(٢) الشجا: ما يعترض ويعلق بالحلق من عظم ونحوه.
(٣) انقمع: خفي وتوارىٰ.
(٤) أي رتع في المرعىٰ وأكل، وكأن لحمي له طعام.

◆ حَقًّا إِنَّهَا لَخَوَاطِرُ شَاعِرٍ فَارِسٍ يَا أَبَتِ ...
أَفِي دِيوَانِ شِعْرِنَا الْعَرَبِيِّ مِثْلُ هَذَا ؟!.

◇ وَأَجْمَلُ مِنْ هَذَا وَأَكْمَلُ.

* * *

◆ أَبَتِ، قَالَ سُوَيْدٌ فِي وَصْفِ رَابِعَةَ:

تَمْنَحُ الْمِرْآةَ وَجْهًا وَاضِحًا مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي الصَّحْوِ ارْتَفَعْ
فَمَا قَرْنُ الشَّمْسِ يَا أَبَتِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟.

◇ ***قَرْنُ الشَّمْسِ***: أَوَّلُهَا.

◆ أَوَّلُهَا ؟!.

◇ نَعَمْ أَوَّلُهَا يَا بُنَيَّ، وَقَدْ حَفِلَتْ كُتُبُ اللُّغَةِ بِأَسْمَاءٍ لِأَوَائِلِ الْأَشْيَاءِ؛ عَزَّ أَنْ تَجِدَ لَهَا نَظِيرًا فِي لُغَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ لُغَةِ الْقُرْآنِ.

◆ أَفَلَا أَغْنَيْتَ ثَرْوَتِي اللُّغَوِيَّةَ بِطَائِفَةٍ مِنْهَا، دَامَ عَطَاؤُكَ.

◇ جَاءَ فِي أُمَّهَاتِ كُتُبِ اللُّغَةِ:

الصُّبْحُ: أَوَّلُ النَّهَارِ وَ ***الْغَسَقُ***: أَوَّلُ اللَّيْلِ

وَ ***الْوَسْمِيُّ***: أَوَّلُ الْمَطَرِ وَ ***الْبَارِضُ***: أَوَّلُ النَّبْتِ

وَ ***اللِّبَأُ***: أَوَّلُ اللَّبَنِ وَ ***السُّلَافُ***: أَوَّلُ الْعَصِيرِ

وَ ***الْبَاكُورَةُ***: أَوَّلُ الْفَاكِهَةِ وَ ***الْبِكْرُ***: أَوَّلُ الْوَلَدِ

وَ ***الطَّلِيعَةُ***: أَوَّلُ الْجَيْشِ وَ ***النَّهَلُ***: أَوَّلُ الشُّرْبِ

وَ ***الْوَخْطُ***: أَوَّلُ الشَّيْبِ وَ ***النُّعَاسُ***: أَوَّلُ النَّوْمِ

وَ *الْحَافِرَةُ* : أَوَّلُ الأَمْرِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ عَلَىٰ لِسَانِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ : ﴿ **يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي *الْحَافِرَةِ*** ﴾[1] أَيْ إِلَىٰ حَالِنَا الأُولَىٰ .
وَ *الْفَرَطُ* : أَوَّلُ الْوُرَّادِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : (أَنَا ***فَرَطُكُمْ*** عَلَىٰ الْحَوْضِ)[2] .

◆ مَا هَذِهِ اللُّغَةُ يَا أَبَتِ ، مَا هَذِهِ اللُّغَةُ ؟!! .

◇ وَأَيْضًا ... *الزَّفِيرُ* : أَوَّلُ صَوْتِ النَّارِ .
وَ *الاِسْتِهْلَالُ* : أَوَّلُ صِيَاحِ الْمَوْلُودِ إِذَا وُلِدَ .
وَ *النَّبَطُ* : أَوَّلُ مَا يَظْهَرُ مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ إِذَا حُفِرَتْ .
وَ *الْفَرَعُ* : أَوَّلُ مَا تُنْتِجُهُ النَّاقَةُ ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَذْبَحُهُ لِأَصْنَامِهَا .

◆ تَبًّا لِتِلْكَ الأَصْنَامِ .

◇ وَأَيْضًا ... *شَرْخُ الشَّبَابِ* : أَوَّلُهُ ، وَكَذَلِكَ *رَيْعَانُهُ* ، وَ *مَيْعَتُهُ* .
وَ *رَيِّقُ الْغَيْثِ* : أَوَّلُ شُؤْبُوبِهِ[3]، وَكَذَلِكَ *رَيِّقُ الشَّبَابِ* : أَوَّلُهُ .

◆ مَا هَذَا يَا أَبَتِ مَا هَذَا !! .

◇ وَ *تَبَاشِيرُ الصُّبْحِ* : أَوَّلُهُ ...
وَ *عُرُوكُ الْجَارِيَةِ* : أَوَّلُ بُلُوغِهَا مَبْلَغَ النِّسَاءِ .

◆ كَمْ هِيَ غَنِيَّةٌ هَذِهِ اللُّغَةُ !! .

◇ أَكْثَرُ مِمَّا تَتَصَوَّرُ ، وَأَبْعَدُ مِمَّا تَتَخَيَّلُ .

◆ لَا عُذْرَ مَعَ هَذَا الْغِنَىٰ لِمَنْ تَعِنُّ لَهُ[4] خَاطِرَةٌ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَهَا أَكْثَرَ مِنْ كَلِمَةٍ .

---

(١) سورة النازعات الآية ١٠.
(٢) البخاري ٦٥٧٥، ومسلم ٢٢٨٩.
(٣) الشؤبوب : الدفعة من المطر .
(٤) تعن له : تخطر علىٰ باله .

◇ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَّا عَنْ هَٰذِهِ الثَّرْوَةِ غَافِلُونَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، عَوَّدْتَنِي بِأَنْ تَجْعَلَ لِكُلِّ جِلْسَةٍ طُرْفَةً ، فَأَيْنَ طُرْفَةُ الْيَوْمِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ إِلَيْكَ مَا طَلَبْتَ وَأَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ :

لَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَدِمَ عَلَيْهِ وُفُودُ أَهْلِ كُلِّ بَلَدٍ ... فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَفْدُ أَهْلِ الْحِجَازِ ؛ فَاشْرَأَبَّ[٢] مِنْهُمْ غُلَامٌ لِلْكَلَامِ ؛ فَقَالَ عُمَرُ :

يَا غُلَامُ ، لِيَتَكَلَّمْ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ .

فَقَالَ الْغُلَامُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ، فَإِذَا مَنَحَ اللَّهُ الْعَبْدَ لِسَانًا لَافِظًا وَقَلْبًا حَافِظًا ؛ فَقَدْ أَجَادَ الِاخْتِيَارَ ... وَلَوْ أَنَّ الْأُمُورَ بِالسِّنِّ لَكَانَ هَا هُنَا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِمَجْلِسِكَ مِنْكَ .

فَقَالَ عُمَرُ : صَدَقْتَ ، تَكَلَّمْ ، فَهَٰذَا هُوَ السِّحْرُ الْحَلَالُ .

فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْنُ وَفْدُ التَّهْنِئَةِ لَا وَفْدُ الْمَرْزِئَةِ[٣] ، وَلَمْ تُقَدِّمْنَا إِلَيْكَ رَغْبَةٌ وَلَا رَهْبَةٌ ... لِأَنَّا قَدْ أَمِنَّا فِي أَيَّامِكَ مَا خِفْنَا ، وَأَدْرَكْنَا مَا طَلَبْنَا .

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ حَاضِرًا ، فَنَظَرَ إِلَىٰ وَجْهِ عُمَرَ قَدْ تَهَلَّلَ عِنْدَ ثَنَاءِ الْغُلَامِ عَلَيْهِ .

فَقَالَ الْغُلَامُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا يَغْلِبَنَّ جَهْلُ الْقَوْمِ بِكَ مَعْرِفَتَكَ بِنَفْسِكَ ؛ فَإِنَّ قَوْمًا خَدَعَهُمُ الثَّنَاءُ وَغَرَّهُمُ[٤] الشُّكْرُ ... فَزَلَّتْ أَقْدَامُهُمْ ؛ فَهَوَوْا فِي النَّارِ ، أَعَاذَكَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ ، وَأَلْحَقَكَ بِسَالِفِ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ .

فَبَكَىٰ عُمَرُ حَتَّىٰ خِيفَ عَلَيْهِ ...

وَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تُخْلِنَا مِنْ وَاعِظٍ .

---

(١) عمر بن عبد العزيز : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف .
(٢) فاشرأب منهم : رفع أحدهم رأسه يريد أن يتكلم .
(٣) وفد المرزئة : أي طلب العطاء . (٤) غرهم الشكر : خدعهم شكر الناس إياهم ؛ فتكبروا في الأرض .

◆ مَا هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ وَمِنْ أَيِّ تُرَابٍ جُبِلُوا؟.

◇ هُمْ مِنْ تُرَابِ الْبَشَرِ، لَكِنَّهُمْ جُبِلُوا بِمَاءِ الْإِسْلَامِ، وَصُبُّوا فِي قَوَالِبِ الْإِيمَانِ، فَزَانُوا مَفْرِقَ الدُّنْيَا[1]... وَكَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

* * *

(١) فزانوا مفرق الدنيا: أي أنهم زينوا رأس الدنيا بمفاخرهم.

الْجَلْسَةُ الثَّامِنَةُ

كَيْفِيَّةُ تَكَوُّنِ الْحُرُوفِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَلَّىٰ أَوَّلَ مَا تَتَجَلَّىٰ فِي حَرْفِهَا .

◇ نَعَمْ ، قُلْتُ ذَلِكَ ، وَأَعُودُ فَأُكَرِّرُهُ الْيَوْمَ .

◆ وَقُلْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - إِنَّ لِلْحُرُوفِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دَلَالَةً عَلَىٰ الْمَعَانِي ، وَإِنَّ ذَلِكَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ عَبْقَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◇ وَقُلْتُ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَأَعُودُ فَأُقَرِّرُهُ الْيَوْمَ .

◆ وَلَكِنْ أَنَّىٰ[1] يَكُونُ لِلْحُرُوفِ - وَهِيَ أَصْوَاتٌ مُبْهَمَةٌ - أَنْ تَدُلَّ عَلَىٰ الْمَعَانِي ؟!! .

◇ لَا تَسْتَطِيعُ إِدْرَاكَ ذَلِكَ - يَا بُنَيَّ - إِلَّا إِذَا عَرَفْتَ كَيْفَ تَحْدُثُ الْحُرُوفُ وَتَتَكَوَّنُ .

(١) أَنَّىٰ : كيف ؟ .

◆ بَحْثٌ طَرِيفٌ ، وَكَيْفَ تَتَكَوَّنُ الْحُرُوفُ يَا أَبَتِ ؟! .

◇ قَبْلَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ كَيْفِيَّةِ تَكَوُّنِ الْحُرُوفِ ؛ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُلِمَّ بِالْجِهَازِ الصَّوْتِيِّ عِنْدَ الْإِنْسَانِ وَتَقْسِيمَاتِهِ .

◆ وَمِمَّ يَتَأَلَّفُ هَذَا الْجِهَازُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ يَتَأَلَّفُ هَذَا الْجِهَازُ الْعَجِيبُ : مِنَ الرِّئَتَيْنِ ، وَهُمَا مِفْتَاحُ الْهَوَاءِ .
ثُمَّ مِنَ الْقَصَبَةِ الْهَوَائِيَّةِ ؛ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا الْهَوَاءُ الْمُنْبَعِثُ مِنَ الرِّئَتَيْنِ .
ثُمَّ مِنَ الْحِبَالِ الصَّوْتِيَّةِ ؛ الَّتِي تَهْتَزُّ عِنْدَ مُلَامَسَةِ الْهَوَاءِ لَهَا ، فَتَحْدُثُ بِاهْتِزَازِهَا الْأَصْوَاتُ .

◆ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ !! *[بِصَوْتٍ خَافِتٍ لَا يَقْطَعُ التَّتَابُعَ]* .

◇ ثُمَّ مِنْ تَجْوِيفِ الْحَلْقِ ، ثُمَّ مِنْ تَجْوِيفِ الْفَمِ ، ثُمَّ مِنَ الثَّغْرِ(١) .

◆ مَا أَعْظَمَ خَلْقَ اللَّهِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَلِتَجْوِيفِ الْحَلْقِ حَاجِزٌ مُتَحَرِّكٌ هُوَ اللَّهَاةُ ، وَلِتَجْوِيفِ الْفَمِ حَاجِزٌ مُتَحَرِّكٌ أَيْضًا هُوَ اللِّسَانُ ، وَلِلثَّغْرِ حَاجِزٌ ثَالِثٌ هُوَ الشَّفَتَانِ .

◆ سُبْحَانَ رَبِّي ! لَقَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ! .

◇ وَمَيَّزَهُ بِهَذَا الْجِهَازِ الصَّوْتِيِّ الْمَرِنِ ، الَّذِي يُمَكِّنُهُ مِنْ إِخْرَاجِ عَدَدٍ لَا يُحْصَىٰ مِنَ الْأَصْوَاتِ .

◆ وَلَكِنْ كَيْفَ يَتِمُّ النُّطْقُ بِالْحُرُوفِ فِي هَذَا الْجِهَازِ الْمُعَقَّدِ ؟ .

---

(١) الثغر : الأسنان والفم .

◇ بِبَسَاطَةٍ ، بِبَسَاطَةٍ بَالِغَةٍ يَا بُنَيَّ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ يَنْدَفِعُ الْهَوَاءُ مِنَ الرِّئَتَيْنِ مَارًّا بِالْقَصَبَةِ الْهَوَائِيَّةِ ، فَيُحَرِّكُ الْحِبَالَ الصَّوْتِيَّةَ وَيَهُزُّهَا هَزًّا يَحْدُثُ مَعَهُ الصَّوْتُ ، ثُمَّ يَمُرُّ الْهَوَاءُ الَّذِي يَحْمِلُ الصَّوْتَ بِتَجْوِيفِ الْحَلْقِ ، ثُمَّ بِتَجْوِيفِ الْفَمِ ، ثُمَّ بِالثَّغْرِ .

◆ طَرِيفٌ طَرِيفٌ جِدًّا .

◇ وَهُوَ حِينَ يَمُرُّ بِهَذِهِ التَّجْوِيفَاتِ الثَّلَاثَةِ ، إِمَّا أَنْ يُتْرَكَ لَهُ مَجَالُ الِانْطِلَاقِ دُونَ أَنْ يَحُولَ دُونَهُ حَائِلٌ ، وَإِمَّا أَنْ يُسَدَّ الطَّرِيقُ أَمَامَهُ بِأَحَدِ الْحَوَاجِزِ الثَّلَاثَةِ ، فِي أَوْضَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتَحْدُثُ بِذَلِكَ أَصْوَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، هِيَ الْحُرُوفُ .

◆ رَائِعٌ رَائِعٌ حَقًّا .

◇ وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِي اخْتِلَافِ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ .

◆ مَخَارِجُ الْحُرُوفِ ، كَلِمَةٌ كُنْتُ أَسْمَعُهَا وَلَا أَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا عَلَىٰ وَجْهِ الضَّبْطِ . وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَكِنْ مَوْضُوعُ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ مَا يَزَالُ فِي طَوْرِ الْإِجْمَالِ ، وَلَا بُدَّ لِهَذَا الْإِجْمَالِ مِنْ تَفْصِيلٍ ، إِذَا أَذِنْتَ .

◇ إِلَيْكَ التَّفْصِيلَ يَا بُنَيَّ ، إِلَيْكَ التَّفْصِيلَ ... إِذَا مَرَّ الْهَوَاءُ بِالْحِبَالِ الصَّوْتِيَّةِ وَانْطَلَقَ نَحْوَ الثَّغْرِ دُونَ أَنْ يَعْتَرِضَهُ مُعْتَرِضٌ ؛ حَدَثَتْ حُرُوفُ الْحَلْقِ وَهِيَ سِتَّةٌ .

◆ سِتَّةٌ أَمْ ثَلَاثَةٌ ؟ طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ بَلْ هِيَ سِتَّةٌ يَا بُنَيَّ : ثَلَاثَةٌ مِنْهَا طَوِيلَةٌ ، وَثَلَاثَةٌ قَصِيرَةٌ .

◆ وَمَا الثَّلَاثَةُ الطَّوِيلَةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ هِيَ : الْأَلِفُ ، وَالْوَاوُ ، وَالْيَاءُ ، « آ ، أُو ، إِي » .

◆ وَمَا الثَّلَاثَةُ الْقَصِيرَةُ دَامَ فَضْلُكَ ؟ .

◇ هِيَ الْفَتْحَةُ وَالضَّمَّةُ وَالْكَسْرَةُ ((ـَـ ـُـ ـِـ)) وَتُدْعَىٰ حُرُوفُ الْمَدِّ السِّتَّةُ بِالْحُرُوفِ الْجَوْفِيَّةِ أَوِ الْهَوَائِيَّةِ .

◆ هَذَا إِذَا لَمْ يَعْتَرِضِ الصَّوْتَ مُعْتَرِضٌ .

◇ نَعَمْ ، أَمَّا إِذَا اعْتَرَضَهُ مُعْتَرِضٌ بِسَبَبِ أَحَدِ الْحَوَاجِزِ الثَّلَاثَةِ ؛ فَتَحْدُثُ أَنْوَاعٌ أُخْرَىٰ مِنَ الْأَصْوَاتِ أَوِ الْحُرُوفِ ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ انْحِبَاسُ[1] الْهَوَاءِ كُلِّيًّا أَوْ جُزْئِيًّا يُسَمَّىٰ : مَخْرَجَ الْحَرْفِ .

◆ إِذَنْ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي تَعَدُّدِ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ .

◇ نَعَمْ ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِي اخْتِلَافِ أَصْوَاتِ الْحُرُوفِ ، وَعَدَمِ الْتِبَاسِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ... وَهُوَ السِّرُّ أَيْضًا فِي تَفَاوُتِ صِفَاتِهَا ؛ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ تَفَاوُتِ الْمَعَانِي الَّتِي تُؤَدِّيهَا .

◆ وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِي تَفَاوُتُ الصِّفَاتِ بَيْنَ الْحُرُوفِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ إِنَّ انْحِبَاسَ الْهَوَاءِ حِينَ حُدُوثِ الْحَرْفِ ؛ إِمَّا أَنْ يَكُونَ تَامًّا بِحَيْثُ لَا يَنْطَقُ

---

(١) انحباس : انقطاع .

بِالْحَرْفِ إِلَّا بَعْدَ إِزَالَةِ الْحَاجِزِ ...

◆ وَ إِمَّا ؟ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ لَا يَقْطَعُ التَّتَابُعَ] .

◇ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ نَاقِصًا ؛ بِحَيْثُ يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنَ الْهَوَاءِ مَعَ خُرُوجِ صَوْتِ الْحَرْفِ فِي آنٍ وَاحِدٍ .

◆ طَيِّبٌ ، مَفْهُومٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَتُسَمَّىٰ حُرُوفُ النَّوْعِ الْأَوَّلِ : الْحُرُوفَ الْمَجْهُورَةَ .

◆ الْمَجْهُورَةَ ؟ .

◇ نَعَمِ الْمَجْهُورَةَ ، بَيْنَمَا تُسَمَّىٰ حُرُوفُ النَّوْعِ الثَّانِي : الْحُرُوفَ الْمَهْمُوسَةَ .

◆ وَمَا الْحُرُوفُ الْمَجْهُورَةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ الْحُرُوفُ الْمَجْهُورَةُ ، هِيَ : الْهَمْزُ ، وَالْبَاءُ ، وَالْجِيمُ ، وَالدَّالُ ، وَالذَّالُ ، وَالرَّاءُ ، وَالزَّايُ ، وَاللَّامُ ، وَالْمِيمُ ، وَالنُّونُ .

◆ وَالْحُرُوفُ الْمَهْمُوسَةُ ؟ .

◇ الْحُرُوفُ الْمَهْمُوسَةُ ، هِيَ : مَا تَبَقَّىٰ مِنْ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ ، وَيَجْمَعُهَا قَوْلُكَ : « فَحَثَّهُ شَخْصٌ سَكَتْ » .

◆ أَبَتِ ، أَلِهَذَا التَّقْسِيمِ نَظِيرٌ عِنْدَ الْغَرْبِيِّينَ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لِلَّهِ أَنْتُمْ مَعْشَرَ الشَّبَابِ ! كَمْ تُلِحُّونَ عَلَىٰ الْغَرْبِيِّينَ ، وَكَمْ تَتَطَلَّعُونَ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُمْ ، كَأَنَّكُمْ تَطْلُبُونَ لَنَا مِنْهُمْ شَهَادَةً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ .

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ عَفْوَكَ ، مَا إِلَىٰ هَذَا ذَهَبْتُ ، وَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ .

◇ هَذَا التَّقْسِيمُ الَّذِي عَرَفْنَاهُ مُنْذُ عَشْرَةِ قُرُونٍ لَمْ تَعْرِفْهُ « أُورُبَّا » إِلَّا فِي هَذَا الْعَصْرِ ؛ فَسَمَّوُا الْحُرُوفَ الْمَجْهُورَةَ : بِالْحُرُوفِ الْمُغْلَقَةِ ، وَسَمَّوُا الْحُرُوفَ الْمَهْمُوسَةَ : بِالْحُرُوفِ النَّافِخَةِ .

◆ مَعْذِرَةً يَا أَبَتِ ؛ فَقَدْ أَرْهَقْتُكَ وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ ، أَلِلْحُرُوفِ صِفَاتٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ الْجَهْرِ وَالْهَمْسِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَقَدْ قَسَّمَ عُلَمَاؤُنَا الْحُرُوفَ أَيْضًا إِلَىٰ شَدِيدَةٍ ، وَرِخْوَةٍ ، وَمُتَوَسِّطَةٍ .

◆ شَدِيدَةٍ ، وَرِخْوَةٍ ، وَمُتَوَسِّطَةٍ ؟! .

◇ نَعَمْ .

◆ وَمَا الْحُرُوفُ الشَّدِيدَةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ هِيَ تِلْكَ الَّتِي يَمْتَنِعُ أَنْ يَجْرِيَ مَعَهَا الصَّوْتُ ، وَلَا يَتَمَكَّنُ الْمَرْءُ مِنْ مَدِّ الصَّوْتِ فِيهَا .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ : الْقَافِ ، وَالْجِيمِ ، وَالدَّالِ ؛ فَتَقُولُ الرِّقُ ، وَالْفَجُّ ، وَالْمَدُّ .

◆ وَالرِّخْوَة يَا أَبَتِ ؟ .

◇ الرِّخْوَةُ : هِيَ تِلْكَ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا الصَّوْتُ ؛ كَالسِّينِ ، وَالشِّينِ ، وَالْحَاءِ ... فَنَقُولُ : الْحِسُّ ، وَالرَّشُّ ، وَالشُّحُّ .

◆ وَالْمُتَوَسِّطَةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ الْمُتَوَسِّطَةُ : هِيَ تِلْكَ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الشَّدِيدَةِ وَالرِّخْوَةِ ، وَيَجْمَعُ حُرُوفَهَا قَوْلُكَ : « لَمْ يَرْدَعْنَا » .

◆ أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ صِفَاتِ الْحُرُوفِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ بَلْ لَهَا صِفَاتٌ أُخْرَىٰ يَا بُنَيَّ ، فَهُنَاكَ حُرُوفُ الْقَلْقَلَةِ وَهِيَ : الْقَافُ ، وَالطَّاءُ ، وَالْبَاءُ ، وَالْجِيمُ ، وَالدَّالُ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَحُرُوفُ الذَّلَاقَةِ وَهِيَ : الْبَاءُ ، وَالرَّاءُ ، وَالْفَاءُ ، وَاللَّامُ ، وَالْمِيمُ ، وَالنُّونُ .
وَحُرُوفُ الصَّفِيرِ وَهِيَ : الصَّادُ وَالسِّينُ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَحَرْفَا اللِّينِ ، وَهُمَا : الْوَاوُ ، وَالْيَاءُ السَّاكِنَتَانِ ... وَحَرْفَا الْغُنَّةِ : وَهُمَا الْمِيمُ ، وَالنُّونُ ... وَحَرْفُ التَّفَشِّي : وَهُوَ الشِّينُ .

◆ وَلَكِنْ مَا الصِّلَةُ بَيْنَ صِفَاتِ الْحُرُوفِ هَذِهِ ؛ وَبَيْنَ دَلَالَتِهَا عَلَىٰ الْمَعَانِي ؟ .

◇ ذَلِكَ مَا سَتَعْلَمُهُ فِي جَلْسَةٍ قَادِمَةٍ ، بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ حَدِيثُكَ يَا أَبَتِ عَنْ جِهَازِ الصَّوْتِ وَتَقْسِيمَاتِهِ جَمَعَ بَيْنَ الْمُتْعَةِ وَالْفَائِدَةِ .

◇ أَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ مُرْهِقًا صَعْبًا .

◆ طَلَاوَةُ كَلَامِكَ ؛ تَجْعَلُ الصَّعْبَ سَهْلًا وَالْعَسِيرَ يَسِيرًا .

◇ طَلَاوَةُ حَدِيثِي !! .

◆ نَعَمْ طَلَاوَةُ حَدِيثِكَ ، أَفِي ذَلِكَ شَيْءٌ يُؤْخَذُ عَلَيَّ ؟ .

◇ لَا شَيْءَ ، إِلَّا أَنَّكَ فَتَحْتَ مَا يَجِبُ أَنْ يُضَمَّ .

◆ فَتَحْتُ مَا يَجِبُ أَنْ يُضَمَّ ! لَمْ أُدْرِكْ مَا عَنَيْتَهُ ؛ طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ نَعَمْ فَتَحْتَ مَا يَجِبُ أَنْ يُضَمَّ ؛ فَقُلْتَ : طَلَاوَةُ حَدِيثِكَ بِفَتْحِ الطَّاءِ ، وَالصَّوَابُ : ضَمُّهَا .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ ، أَأَكْتُبُ ذَلِكَ فِي بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » ؟ .

◇ نَعَمْ ، اكْتُبْهُ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُضِيفَ إِلَيْهِ أَمْثَالَهُ .

◆ وَمَا أَمْثَالُهُ ، طَالَ عُمْرُكَ ؟ .

◇ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَضْمُومَةً ، وَالْعَوَامُّ وَبَعْضُ الْخَوَاصِّ يَفْتَحُونَهَا أَوْ يَكْسِرُونَهَا .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ كَلِمَةِ جُدَّةُ الْمَدِينَةُ الْمَعْرُوفَةُ ؛ فَالْعَامَّةُ تَقُولُ : مَدِينَةُ جَدَّةَ بِفَتْحِ الْجِيمِ أَوْ كَسْرِهَا ، وَالصَّوَابُ : ضَمُّهَا .

◆ أَهُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ مِنْ هَذَا الْبَابِ لُقِّيتَ الْخَيْرَ؟.

◇ نَعَمْ، الْعَامَّةُ تَقُولُ: خَفَّاشٌ عَنْ طَائِرِ اللَّيْلِ الْمَعْرُوفِ؛ بِفَتْحِ الْخَاءِ، وَالصَّوَابُ: ضَمُّهَا.

◆ وَأَيْضًا.

◇ وَالْعَامَّةُ تَقُولُ أَيْضًا: جَعَلْتُ هَذَا الأَمْرَ نَصْبَ عَيْنِي؛ بِفَتْحِ النُّونِ، وَالأَكْثَرُونَ يَرَوْنَ أَنَّ هَذَا لَحْنٌ لَا سَنَدَ لَهُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ؛ وَإِنَّمَا صَوَابُهُ: الضَّمُّ.

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَ ذَلِكَ عَلَيَّ ضَنًّا بِهِ أَنْ يَضِيعَ.

◇ اكْتُبْ: كَثِيرًا مَا تَفْتَحُ الْعَامَّةُ مَا وَرَدَ مَضْمُومًا عَنِ الْعَرَبِ.

◆ نَعَمْ.

◇ فَتَقُولُ: لِكَلَامِ فُلَانٍ طَلَاوَةٌ بِفَتْحِ الطَّاءِ، وَالصَّوَابُ: ضَمُّهَا.

◆ نَعَمْ.

◇ وَتَقُولُ: هَذِهِ مَدِينَةُ جَدَّةَ بِفَتْحِ الْجِيمِ أَوْ كَسْرِهَا، وَالصَّوَابُ: ضَمُّهَا.

◆ نَعَمْ.

◇ وَتَقُولُ: عَنْ طَائِرِ اللَّيْلِ خَفَّاشٌ بِفَتْحِ الْخَاءِ، وَالصَّوَابُ: ضَمُّهَا.

◆ نَعَمْ.

◇ وَتَقُولُ: جَعَلْتُ الأَمْرَ نَصْبَ عَيْنَيَّ بِفَتْحِ النُّونِ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ يَرَوْنَ أَنَّ هَذَا لَحْنٌ؛ وَالصَّوَابُ: ضَمُّهَا.

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ يَا أَبَتِ ، وَعَدَاكَ ذَمٌّ .

◇ وَلَقِيتَ الْبِرَّ يَا بُنَيَّ ، وَعَدَاكَ لَحْنٌ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَيْنَ مِنِّي شَذَاهَا[1]؟ .

◇ هُوَ مِنْكَ دَانٍ قَرِيبٌ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَلْمَمْتَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ مَحْمُودُ غُنَيْم[2].

◆ يَبْدُو أَنَّهُ مُعَاصِرٌ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ .

◆ وَمَا الزَّهْرَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ عُنْوَانُهَا « سَمَرُ[3] الْأُدَبَاءِ » .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ يَقُولُ :

مَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْشَرُ السُّمَّارُ[4] بِحَدِيثِهِمْ تَتَعَطَّرُ الْأَسْحَارُ

كَلِفُوا[5]، وَلَكِنْ بِالْبَيَانِ وَسِحْرِهِ وَمِنَ الْبَيَانِ عَرَائِسٌ أَبْكَارُ

يَتَطَارَحُونَ[6] الْقَوْلَ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَحْكِي كُئُوسَ الرَّاحِ حِينَ تُدَارُ

---

(١) شذاها : رائحتها الطيبة .
(٢) انظره في كتاب « الدّوحة المباركة » للمؤلف .
(٣) السّمر : الحديث ليلًا .
(٤) السّمار : الحاضرون مجلس السمر .
(٥) كَلِفوا : أحبوا الشيء وتعلقوا به .
(٦) يتطارحون : يتحاورون ويتبادلون .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ النَّدِيَّ عَلَيْهِمُ خَمْرًا ، مَنَابِتُ كَرْمِهَا الْأَسْفَارُ[1]

مِنْ كُلِّ رَاوِيَةٍ كَأَنَّ فُؤَادَهُ نُقِشَتْ عَلَىٰ صَفَحَاتِهِ الْأَخْبَارُ

مُتَحَدِّثٍ لَبِقٍ كَأَنَّ حَدِيثَهُ زَهْرُ الرِّيَاضِ يَزُفُّهُ « آذَارُ »[2]

إِنْ قَالَ خِلْتَ[3] « الْأَصْمَعِيَّ » أَعَارَهُ شَفَتَيْهِ ، لَوْ أَنَّ الشِّفَاهَ تُعَارُ

يَتَسَابَقُونَ إِلَىٰ الْبَيَانِ كَأَنَّهُمْ جُرْدٌ مَذَاكٍ ضَمَّهَا مِضْمَارُ

لَهُمْ دُعَابَاتٌ تُسَاقُ فَلَا تَرَىٰ حِلْمًا يَنِدُّ[4]، وَلَا يَطِيشُ وَقَارُ

يَتَنَدَّرُونَ وَلَا ابْتِذَالَ ؛ وَإِنَّمَا تُرْعَىٰ الْحُقُوقُ ، وَتُحْفَظُ الْأَقْدَارُ

أَحْيَوْا لَنَا الْعَظْمَ الرَّمِيمَ ؛ فَتَارَةً مَعْنَا الْوَلِيدُ ، وَتَارَةً بَشَّارُ

☆ ☆ ☆

أَنَا لَا أُشَبِّهُ بِالْجُمَانِ[5] حَدِيثَهُمْ إِنَّ الْجَوَاهِرَ كُلَّهَا أَحْجَارُ

حَذَقُوا[6] الْبَيَانَ قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ وَلِكُلِّ عَصْرٍ بَيْنَهُمْ أَنْصَارُ

كُلٌّ يَهُبُّ مُنَافِحًا[7] عَنْ رَأْيِهِ ضِدَّ الْخُصُومِ ، كَأَنَّهُ إِعْصَارُ

فَإِذَا بِهِمْ قَلَبُوا النَّدِيَّ[8] مَعَارِكًا حَتَّىٰ كَأَنَّ النَّقْعَ[9] فِيهِ مُثَارُ

يَا رُبَّ لَيْلٍ حَالِكٍ يُحْيُونَهُ بِرَوَائِعِ الْآدَابِ ؛ فَهْوَ نَهَارُ

مَا النَّاسُ إِلَّا كَاتِبٌ أَوْ شَاعِرٌ أَوْ نَاقِدٌ ، وَسِوَاهُمُ أَصْفَارُ

* * *

---

(١) الأسفار : جمع سِفر وهو الكتاب .
(٢) آذار : الشهر الثالث من السنة الشمسية ويوافق شهر مارس .
(٣) خلت : ظننت .
(٤) الحلم : هو العقل ، يَنِدّ : ينحرف أو يميل عن الأدب .
(٥) الجمان : اللؤلؤ ، أو حب يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ .
(٦) حذقوا : أتقنوه وأحسنوا صياغته .
(٧) منافحًا : مدافعًا .
(٨) النّدي : النّادي أو مجلس السّمر .
(٩) النقع : هو الغبار الذي يثار أثناء المعارك .

◆ أَبَتِ ، قَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ الأُدَبَاءَ :

يَتَسَابَقُونَ إِلَىٰ الْبَيَانِ كَأَنَّهُمْ جُرْدٌ مَذَاكٍ ضَمَّهَا مِضْمَارُ

فَمَا الْجُرْدُ الْمَذَاكِي طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ الْجُرْدُ ، وَالْمَذَاكِي : نَعْتَانِ مِنْ نُعُوتِ الْخَيْلِ الْكَرِيمَةِ ، وَقَدْ بَالَغَ الْعَرَبُ فِي ذِكْرِ أَوْصَافِ الْخَيْلِ مُبَالَغَةً تَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ عِنَايَتِهِمْ بِهَذَا الْحَيَوَانِ الْعَرِيقِ .

◆ فَمَاذَا قَالُوا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ قَالُوا : إِذَا كَانَ الْفَرَسُ كَرِيمَ الأَصْلِ رَائِعَ الْخَلْقِ ، فَهْوَ : ***عَتِيقٌ*** .

وَإِذَا كَانَ تَامًّا حَسَنَ الصُّورَةِ ، فَهْوَ : ***مُطَهَّمٌ*** .

فَإِذَا كَانَ سَامِيَ الطَّرْفِ[1] حَدِيدَ الْبَصَرِ[2] ، فَهْوَ : ***طَمُوحٌ*** .

فَإِذَا كَانَ طَوِيلَ الْعُنُقِ وَالْقَوَائِمِ ، فَهْوَ : ***سَلْهَبٌ*** .

فَإِذَا كَانَ مُنْطَوِيَ الْكَشْحِ[3] ، فَهْوَ : ***نَهْدٌ أَقَبُّ*** .

◆ رَائِعٌ رَائِعٌ .

◇ فَإِذَا كَانَ طَوِيلَ الذَّنَبِ ، فَهْوَ : ***ذَيَّالٌ*** .

فَإِذَا كَانَ مُسْتَتِمَّ الْخَلْقِ مُسْتَعِدًّا لِلْعَدْوِ ، فَهْوَ : ***طِمِرٌّ*** .

فَإِذَا كَانَ ضَخْمًا قِيلَ لَهُ : ***هَيْكَلٌ*** ؛ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْهَيْكَلِ : وَهُوَ الْبِنَاءُ الْمُرْتَفِعُ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ .

◇ فَإِذَا كَانَ رَقِيقَ شَعْرِ الْجِلْدِ قَصِيرَهُ ، فَهْوَ : ***أَجْرَدُ*** ، وَجَمْعُهُ ***جُرْدٌ*** .

◆ هَذَا مَا سَأَلْتُ عَنْهُ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

---

(١) سامي الطرف : كبير النفس ينظر بعزة واستعلاء .

(٢) حديد البصر : سليم العينين دقيق النظر . (٣) الكشح : ما بين الخاصرة و الضلوع في جانب الإنسان .

◇ فَإِذَا كَانَ تَامَّ السِّنِّ كَامِلَ الْقُوَّةِ ، فَهُوَ : *مُذَكًّى* ، وَالْجَمْعُ *مَذَاكِ* .

◆ وَهَذَا أَيْضًا جَوَابُ مَا سَأَلْتُ [بِصَوْتٍ خَافِتٍ] .

◇ وَلَوْ رُحْتُ أَسْتَقْصِي لَكَ مَا قَالُوهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ؛ لَطَالَ بِنَا الْمَقَالُ ... وَإِنَّمَا قَطَفْنَا مِنَ الرَّوْضِ زَهْرَةً ، وَأَخَذْنَا مِنَ الْبَحْرِ قَطْرَةً .

* * *

◆ وَأَخِيرًا ... فَأَيْنَ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ؟ طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ هَا هِيَ ذِي ، وَأَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ :

رَوَىٰ ابْنُ حِجَّةَ الْحَمَوِيُّ فِي كِتَابِهِ « ثَمَرَاتُ الْأَوْرَاقِ » أَنَّهُ كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَرْضٌ قَرِيبَةٌ مِنْ أَرْضِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ؛ فِيهَا عَبِيدٌ لَهُ مِنَ الزُّنُوجِ يُعَمِّرُونَهَا ... فَدَخَلُوا فِي أَرْضِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ؛ فَكَتَبَ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ يَا مُعَاوِيَةُ إِنْ لَمْ تَمْنَعْ عَبِيدَكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي أَرْضِي ؛ كَانَ لِي وَلَكَ شَأْنٌ(١) .

فَلَمَّا وَقَفَ مُعَاوِيَةُ عَلَىٰ الْكِتَابِ ، دَفَعَهُ(٢) إِلَىٰ ابْنِهِ يَزِيدَ ... فَلَمَّا قَرَأَهُ ، قَالَ مُعَاوِيَةُ لَهُ :

مَا تَرَىٰ ؟ .

قَالَ : أَرَىٰ أَنْ تُنْفِذَ إِلَيْهِ جَيْشًا ؛ أَوَّلُهُ عِنْدَهُ وَآخِرُهُ عِنْدَكَ يَأْتُوكَ بِرَأْسِهِ .

فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، بَلْ عِنْدِي خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : عَلَيَّ بِدَوَاةٍ وَقِرْطَاسٍ ، وَكَتَبَ :

وَقَفْتُ عَلَىٰ كِتَابِكَ يَا ابْنَ حَوَارِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ سَاءَنِي وَاللَّهِ مَا سَاءَكَ ، وَالدُّنْيَا هَيِّنَةٌ عِنْدِي فِي جَنْبِ رِضَاكَ ، وَقَدْ كَتَبْتُ لَكَ صَكًّا

---

(١) شأن : أمر من الأمور .

(٢) دفعه إلىٰ ابنه : ناوله لابنه .

بِالْأَرْضِ وَالْعَبِيدِ، وَأَشْهَدْتُ عَلَىٰ ذَلِكَ... فَلْتُضِفِ الْأَرْضَ إِلَىٰ أَرْضِكَ، وَالْعَبِيدَ إِلَىٰ عَبِيدِكَ وَالسَّلَامُ.

فَلَمَّا وَقفَ ابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَىٰ كِتَابِ مُعَاوِيَةَ، كَتَبَ إِلَيْهِ:

وَقَفْتُ عَلَىٰ كِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ـ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ـ فَلَا عَدِمَ[1] الرَّأْيَ الَّذِي أَحَلَّهُ مِنْ قُرَيْشٍ هَذَا الْمَحَلَّ، وَالسَّلَامُ.

فَلَمَّا وَقفَ مُعَاوِيَةُ عَلَىٰ كِتَابِ ابْنِ الزُّبَيْرِ؛ رَمَاهُ إِلَىٰ ابْنِهِ يَزِيدَ، وَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ، إِذَا رُمِيتَ بِهَذَا الدَّاءِ؛ فَدَاوِهِ بِهَذَا الدَّوَاءِ.

◆ مَا هَذِهِ الْأَخْلَاقُ الَّتِي كَانَ يَتَحَلَّىٰ بِهَا مُعَاوِيَةُ يَا أَبَتِ!!.

◇ إِنَّهَا الْأَخْلَاقُ الَّتِي خَلَّقَ بِهَا الْقُرْآنُ أَتْبَاعَهُ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[2] وَقَدْ دَفَعَ مُعَاوِيَةُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَاعْتَرَفَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِخِلَافَتِهِ.

◆ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ.

◇ نَعَمْ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ.

* * *

(١) فلا عدم الرأي: دعاء له بأن يكون رأيه سديدًا دائمًا.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٤.

الْجَلْسَةُ التَّاسِعَةُ

الْقِيَمُ التَعْبِيرِيَّةُ لِلْحُرُوفِ

◆ سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا أَبَتِ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ مَا أَجْمَلَ رَدَّ تَحِيَّتِكَ يَا أَبَتِ ! .

◇ بَلْ مَا أَجْمَلَ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ ، أَلَمْ يَأْمُرْنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ نَرُدَّ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا .

◆ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ .

◇ الْحَمْدُ لِلَّهِ ! ... الْحَمْدُ لِلَّهِ ! .

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَلَّىٰ أَوَّلَ مَا تَتَجَلَّىٰ فِي حَرْفِهَا .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ وَقُلْتَ : إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ الْحَرْفِ عِنْدَنَا بَرَزَتْ فِي اسْتِخْدَامِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْجِهَازِ الصَّوْتِيِّ أَوْفَىٰ اسْتِخْدَامٍ وَأَكْمَلَهُ .

◇ نَعَمْ وَقُلْتُ ذَلِكَ أَيْضًا .

◆ وَقُلْتَ شَيْئًا ثَالِثًا يَا أَبَتِ ، قُلْتَ : إِنَّ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ دَلَالَةً عَلَىٰ الْمَعَانِي .

◇ ذَلِكَ مَا هَدَىٰ إِلَيْهِ الْبَحْثُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا يَا بُنَيَّ .

◆ وَوَعَدْتَ بِأَنْ تَجْلُوَ لِي ذَلِكَ أَوْفَىٰ جَلَاءٍ .

◇ وَوَفَاءً بِالْوَعْدِ إِلَيْكَ الْبَيَانَ .

◆ وَرَغْبَةً فِي الْمَعْرِفَةِ إِلَيْكَ سَمْعِي كُلَّهُ ، فَكُلِّي آذَانٌ .

◇ وَصَفَ الْبُحْتُرِيُّ ذِئْبًا جَائِعًا اقْتَعَدَ[1] فِي مَكَانٍ مِنَ الصَّحْرَاءِ ، يَتَرَبَّصُ[2] بِفَرِيسَةٍ يَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ[3]، وَقَدْ أَخَذَتْهُ رِعْدَةُ[4] الْجُوعِ وَحُمَّةُ الْقَرَمِ[5]، فَقَالَ :

يُقَضْقِضُ عُصْلًا فِي أَسِرَّتِهَا الرَّدَىٰ
كَقَضْقَضَةِ الْمَقْرُورِ أَرْعَدَهُ الْبَرْدُ

◆ مِنْ فَضْلِكَ يَا أَبَتِ أَعِدْ عَلَيَّ الْبَيْتَ ، وَتَمَهَّلْ فِي إِنْشَادِهِ .

◇ يُقَضْقِضُ عُصْلًا فِي أَسِرَّتِهَا الرَّدَىٰ
كَقَضْقَضَةِ الْمَقْرُورِ أَرْعَدَهُ الْبَرْدُ

◆ رَائِعٌ يَا أَبَتِ ، رَائِعٌ حَقًّا ، فَأَنَا عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِي لَمْ أَفْهَمْ مَعْنَىٰ الْبَيْتِ فَهْمًا دَقِيقًا

---

(١) اقتعد : قعد .
(٢) يتربص : ينتظر .
(٣) الرمق : بقية الروح .
(٤) رِعْدة الجوع : شدة الجوع ورعشته للجسم .
(٥) القَرَم : الجوع الشديد .

مُفَصَّلًا ... إِلَّا أَنَّ الْمُوسِيقَىٰ الْمُنْبَعِثَةَ مِنْ تَكْرَارِ بَعْضِ حُرُوفِهِ ؛ أَثَارَتْ فِي جَسَدِي رِعْدَةً كَرِعْدَةِ الْجُوعِ الَّتِي كَانَتْ تَهُزُّ جِسْمَ هَذَا الْحَيَوَانِ الْمُفْتَرِسِ الْجَائِعِ .

◇ طَيِّبٌ طَيِّبٌ هَدَاكَ اللَّهُ .

◆ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمُوسِيقَىٰ أَعَانَتْ عَلَىٰ رَسْمِ الصُّورَةِ الَّتِي أَرَادَ الشَّاعِرُ التَّعْبِيرَ عَنْهَا .

◇ مَرْحَىٰ يَا بُنَيَّ مَرْحَىٰ ، لَقَدْ بَدَأْتَ تَكْشِفُ السِّرَّ ، لَقَدْ أَخَذْتَ تَسْتَشِفُّ[1] الْمَعَانِيَ مِنْ وَرَاءِ الْحُرُوفِ ، وَلَكِنْ قُلْ لِي مَا الْحُرُوفُ الَّتِي كَرَّرَهَا الشَّاعِرُ فَأَوْحَتْ لَكَ بِمَا أَوْحَتْ ؟ .

◆ إِنَّهَا الْقَافُ الْمُتَحَرِّكَةُ الْمَتْلُوَّةُ بِالضَّادِ السَّاكِنَةِ فِي قَوْلِهِ :

يُقَضْقِضُ[2] عُصْلًا[3] كَقَضْقَضَةِ الْمَقْرُورِ

◇ حَسَنٌ حَسَنٌ ، وَأَيْضًا ؟ .

◆ وَالرَّاءُ أَيْضًا يَا أَبَتِ ، مَا أَبْرَعَ هَذِهِ الرَّاءَ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ حَشَدَ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْبَيْتِ سِتًّا مِنَ الرَّاءَاتِ ؛ فَدَلَّتْ بِتَرَادُفِ جَرْسِهَا الْمُوسِيقِيِّ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ ، وَالحِدَّةِ ، وَالتَّتَابُعِ ، وَالِاسْتِمْرَارِ . اسْتَمِعْ إِلَيْهَا وَتَأَمَّلْ دَلَالَتَهَا يَا بُنَيَّ .

يُقَضْقِضُ عُصْلًا فِي أَسِرَّتِهَا[4] الرَّدَىٰ

كَقَضْقَضَةِ الْمَقْرُورِ أَرْعَدَهُ الْبَرْدُ

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ ، هَذِهِ الدَّلَالَةُ الَّتِي بَدَتْ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، أَهِيَ مِنْ قَبِيلِ

---

(١) استشف الشيء : أبصره من خلال غيره .

(٢) يقضقض : تضطرب أسنانه ويضرب بعضها بعضًا .

(٣) عصلًا : أنيابًا معوجة صلبة .

(٤) في أسرّتها : فيما يبدو منها .

الصُّدْفَةِ ، أَمْ إِنَّ لِهَذِهِ الرَّاءِ وَأَمْثَالِهَا دَلَالَاتٍ لَا تُخْطِئُ ؟ .

◇ مِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ لِلْحُرُوفِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قِيَمًا تَعْبِيرِيَّةً بَيَانِيَّةً ...
وَذَلِكَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ عَبْقَرِيَّةِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، وَقَدِ اهْتَدَىٰ إِلَىٰ هَذَا السِّرِّ الْقُدَمَاءُ ؛
كَمَا اهْتَدَىٰ إِلَيْهِ الْمُحْدَثُونَ .

◆ الْقُدَمَاءُ !! مِنْ أَمْثَالِ مَنْ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ يَقِفُ فِي ذِرْوَةِ هَؤُلَاءِ ابْنُ جِنِّي صَاحِبُ كِتَابِ « الْخَصَائِصِ » وَكِتَابِ « سِرِّ صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ » وَيَجْرِي وَرَاءَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

◆ أَفِي الذِّهْنِ نُبْذَةٌ مِمَّا قَالَهُ الْقُدَمَاءُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ؟ .

◇ عَشَرَاتُ النُّبَذِ يَا بُنَيَّ ، فَالسَّكَّاكِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ « مِفْتَاحِ الْعُلُومِ » يَرَىٰ لِلْحُرُوفِ دَلَالَةً فِي ذَوَاتِهَا - عَلَىٰ الْمَعَانِي - وَيَضْرِبُ لِذَلِكَ مَثَلًا بِحَرْفَيِ « الْفَاءِ » وَ« الْقَافِ » .

◆ فَمَاذَا يَقُولُ ؟ .

◇ يَقُولُ : إِنَّ حَرْفَ « الْفَاءِ » مَثَلًا حَرْفٌ شَفَوِيٌّ رَقِيقُ الْمُوسِيقَىٰ ، وَإِنَّ حَرْفَ « الْقَافِ » حَرْفٌ حَلْقِيٌّ مُقَلْقَلٌ شَدِيدُ الْجَرْسِ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ .

◇ وَإِنَّ وَاضِعَ اللُّغَةِ أَدْرَكَ هَذَا السِّرَّ وَرَاعَاهُ ، فَوَضَعَ كَلِمَةَ الْفَصْمِ الْمَبْدُوءِ بِالْفَاءِ الرَّقِيقَةِ ؛ لِيَدُلَّ عَلَىٰ الْكَسْرِ الْخَفِيفِ الَّذِي لَا بَيْنُونَةَ فِيهِ وَلَا انْفِصَالَ ... بَيْنَمَا وَضَعَ كَلِمَةَ الْقَصْمِ ؛ لِيَدُلَّ عَلَىٰ الْكَسْرِ الشَّدِيدِ الَّذِي تَبِينُ[1] فِيهِ أَجْزَاءُ

(١) تَبِينُ : تنفصل وتبعد .

الْمَكْسُورِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ .

◆ رَائِعَةٌ تِلْكَ اللُّغَةُ يَا أَبَتِ ، وَلَكِنْ مَنْ مِنَ الْمُحْدَثِينَ تَنَبَّهَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ .

◇ كَثِيرٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنَبَّهُوا لِهَٰذَا السِّرِّ وَكَشَفُوا عَنْ مُخَبَّآتِهِ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَنْ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ أَحْمَدِ تَيْمُورِ(١) فِي كِتَابِهِ « مِنْ أَسْرَارِ الْعَرَبِيَّةِ » ، وَعَبَّاسِ مَحْمُودِ الْعَقَّادِ فِي كِتَابِهِ « اللُّغَةُ الشَّاعِرَةُ » ، وَالشَّيْخِ طَاهِرِ الْجَزَائِرِيِّ فِي كِتَابِهِ « الْكَافِي فِي اللُّغَةِ » ، وَعَبْدِ اللَّهِ الْعَلَايْلِي فِي مُقَدِّمَتِهِ لِدِرَاسَةِ لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَالدُّكْتُورِ إِبْرَاهِيمَ أَنِيسٍ فِي كِتَابِهِ « مِنْ أَسْرَارِ الْعَرَبِيَّةِ » ، وَكِتَابِهِ « دَلَالَةُ الْأَلْفَاظِ » ، وَمُحَمَّدِ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِهِ « فِقْهُ اللُّغَةِ وَخَصَائِصُ الْعَرَبِيَّةِ » وَغَيْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَعْلَمُ وَمِمَّنْ لَا تَعْلَمُ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لَوْ كَانَ فِي الْوَقْتِ مُتَّسَعٌ لَحَدَّثْتُكَ بِمَا يَقُولُونَ .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ جَلْسَةٍ قَادِمَةٍ .

◇ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

◆ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَأْذَنُ ؟ .

---

(١) أحمد تيمور باشا : انظره في كتاب « الدوحة المباركة » للمؤلف .

◇ قُلْ، وَأَوْجِزْ.

◆ أَبَتِ، أَمْرُ دَلَالَةِ الْحُرُوفِ عَلَىٰ الْمَعَانِي، أَهُوَ قَاصِرٌ عَلَىٰ لُغَتِنَا، أَمْ هُوَ عَامٌّ يَشْمَلُ سَائِرَ اللُّغَاتِ؟.

◇ لَنْ أُجِيبَكَ عَلَىٰ سُؤَالِكَ حَتَّىٰ تَنْفِيَ عَنْهُ اللَّحْنَ.

◆ أَوَ فِيمَا قُلْتُهُ لَحْنٌ؟!!.

◇ لَحْنٌ وَأَيُّ لَحْنٍ.

◆ وَأَيْنَ اللَّحْنُ يَا أَبَتِ طَالَ بَقَاؤُكَ؟.

◇ أَنْتَ قُلْتَ عَنْ مَوْضُوعِ دَلَالَةِ الْحُرُوفِ عَلَىٰ الْمَعَانِي: أَهُوَ قَاصِرٌ عَلَىٰ لُغَتِنَا، وَكَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ كَلِمَةَ مَقْصُورٌ بَدَلًا مِنْ قَاصِرٌ.

◆ مَقْصُورٌ بَدَلًا مِنْ قَاصِرٌ؟!.

◇ نَعَمْ مَقْصُورٌ بَدَلًا مِنْ قَاصِرٌ.

◆ أَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ مَقْصُورٌ، وَقَاصِرٌ؟.

◇ فَرْقٌ كَبِيرٌ.

◆ وَمَا هُوَ دَامَ عِزُّكَ؟.

◇ الْقَاصِرُ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ قَصَرَ الشَّيْءَ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِمَعْنَىٰ خَصَّهُ بِهِ فَهُوَ قَاصِرٌ. أَمَّا الْمَقْصُورُ فَهُوَ الْمَخْصُوصُ، تَقُولُ: هَذَا الْأَمْرُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ فُلَانٍ أَيْ مَخْصُوصٌ بِهِ لَا يَتَعَدَّاهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

◆ أَتَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَضِفْهُ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً .

اكْتُبْ ... لَا يُقَالُ : هَذَا الْأَمْرُ قَاصِرٌ عَلَىٰ فُلَانٍ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : هَذَا الْأَمْرُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ فُلَانٍ ؛ لِأَنَّ الْقَاصِرَ : هُوَ مَنْ يَقُومُ بِعَمَلِ الْقَصْرِ ، أَمَّا الْمَقْصُورُ : فَهُوَ الْمَخْصُوصُ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ يَا أَبَتِ .

◇ وَلَقَّاكَ الْحِكْمَةَ يَا بُنَيَّ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، هَلْ نَسِيتَهَا ؟ .

◇ إِنْ نَسِيتُهَا أَنَا فَلَنْ تَنْسَاهَا أَنْتَ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنَدْخُلُ رَوْضَهُ ؟ .

◇ أَبُو الشَّمَقْمَقِ .

◆ أَبُو الشَّمَقْمَقِ !! أَهَذَا اسْمُهُ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ كُنْيَتُهُ .

◆ وَمَا اسْمُهُ ؟ .

◇ اسْمُهُ : مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ .

◆ وَفِي أَيِّ عَصْرٍ وُجِدَ ؟ .

◇ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ ؛ فَقَدْ تُوُفِّيَ نَحْوَ ثَمَانِينَ وَمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ .

◆ إِذَنْ هُوَ مِنْ مُعَاصِرِي بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَقَدِ اتَّصَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ .

◆ وَمَا وَجْهُ هَذِهِ الصِّلَةِ ؟ .

◇ كَانَ بَشَّارٌ يَدْفَعُ لَهُ جِزْيَةً مِقْدَارُهَا مِائَتَا دِرْهَمٍ كُلَّ عَامٍ .

◆ وَلِمَاذَا ؟!! .

◇ لِيَتَّقِيَ بِذَلِكَ هِجَاءَهُ[1]، وَيَكُفَّ عَنْهُ لِسَانَهُ .

◆ بَشَّارٌ !!! الشَّاعِرُ السَّلِيطُ الَّذِي كَانَتْ تَرْهَبُ الدُّنْيَا لِسَانَهُ ؛ يَشْتَرِي سُكُوتَ أَبِي الشَّمَقْمَقِ عَنْهُ بِمِائَتَيْ دِرْهَمٍ فِي كُلِّ عَامٍ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَقَدْ كَانَ فِي شِعْرِ أَبِي الشَّمَقْمَقِ خِفَّةٌ وَسُهُولَةٌ ؛ تُيَسِّرَانِ حِفْظَهُ وَإِنْشَادَهُ .

◆ وَذَلِكَ مَا كَانَ يَخْشَاهُ بَشَّارٌ .

◇ نَعَمْ ذَلِكَ مَا كَانَ يَخْشَاهُ .

◆ أَلَهُ دِيوَانٌ مَطْبُوعٌ ؟ .

◇ لَيْسَ لَهُ دِيوَانٌ يَا بُنَيَّ غَيْرَ أَنَّ الْمُسْتَشْرِقَ الأَلْمَانِيَّ « غُوسْتَاف فُونَ غْرِنْبَاوِمَ »

(١) الهجاء: السب وتعديد المعايب بالشعر.

جَمَعَ شِعْرَهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي دَعَاهُ « شُعَرَاءُ عَبَّاسِيُّونَ » .

◆ وَهَلْ نُشِرَ الْكِتَابُ ؟ .

◇ نَشَرَهُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ يُوسُفَ نَجْمٌ فِي بَيْرُوتَ عَامَ ١٩٥٩م .

◆ وَمَا الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ مِنْ شِعْرِهِ ؟ .

◇ صُوَرًا وَصْفِيَّةً رَائِعَةً ؛ يَصِفُ فِيهَا فَقْرَهُ وَسُوءَ حَالِهِ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ يَصِفُ سُكْنَاهُ فِي الْعَرَاءِ :

خَرَجْتُ مِنَ الْمَنَازِلِ وَالْقِبَابِ ... فَلَمْ يَعْسُرْ عَلَىٰ أَحَدٍ حِجَابِي

فَمَنْزِلِيَ الْفَضَاءُ وَسَقْفُ بَيْتِي ... سَمَاءُ اللَّهِ أَوْ قِطَعُ السَّحَابِ

فَأَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ دَخَلْتَ بَيْتِي ... عَلَيَّ مُسَلِّمًا مِنْ غَيْرِ بَابِ

لِأَنِّي لَمْ أَجِدْ مِصْرَاعَ[1] بَابٍ ... يَكُونُ مِنَ السَّحَابِ إِلَىٰ التُّرَابِ

◆ إِنَّهُ لَفَكِهٌ خَفِيفُ الظِّلِّ .

◇ إِنَّهُ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ أَمَا مِنْ صُورَةٍ أُخْرَىٰ ؟ .

◇ أَكْثَرُ مِنْ صُورَةٍ ، فَاسْمَعْ إِلَيْهِ وَهُوَ يَصِفُ خَصَاصَتَهُ[2] وَخُلُوَّ بَيْتِهِ مِمَّا يُشْبِعُ السِّنَّوْرَ[3]، فَيَقُولُ :

---

(١) مصراع الباب : أحد جزأيه ، ولكل باب مصراعان .
(٢) خصاصته : فقره الشديد .
(٣) السنور : القط .

وَأَقَامَ السِّنَّوْرُ فِي الْبَيْتِ حَوْلًا

مَا يَرَىٰ فِي جَوَانِبِ الْبَيْتِ فَارَهْ

يَنْفُضُ الرَّأْسَ مِنْهُ، مِنْ شِدَّةِ الْجُو(م)

عِ وَعَيْشٍ فِيهِ أَذًى وَمَرَارَهْ

قُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُهُ نَاكِسَ الرَّأْ(م)

سِ كَئِيبًا فِي الْجَوْفِ مِنْهُ حَرَارَهْ

قُلْتُ سِرْ رَاشِدًا إِلَىٰ بَيْتِ خَانٍ

مُخْصِبٍ رَحْلُهُ كَثِيرِ التِّجَارَهْ

- ◆ أَبَقِيَ فِي الْوَقْتِ مُتَّسَعٌ لِصُورَةٍ ثَالِثَةٍ ؟ .
- ◇ أَرَاكَ اسْتَمْرَأْتَ[1] شِعْرَهُ .
- ◆ إِنَّهُ لَحُلْوٌ طَلِيٌّ[2].
- ◇ وَمَا دُمْتَ قَدِ اسْتَحْلَيْتَهُ وَاسْتَطْلَيْتَهُ ؛ فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، فَهُمَا أَطْرَفُ مِمَّا سَمِعْتَ آنِفًا .
- ◆ وَمَا مَوْضُوعُهُمَا ؟ .
- ◇ فَقْرُهُ وَحَاجَتُهُ إِلَىٰ دَابَّةٍ يَرْكَبُهَا ، فَهُوَ يَرَىٰ جَمِيعَ النَّاسِ يَمْلِكُونَ رَوَاحِلَ تَحْمِلُهُمْ ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا قَدَمَيْهِ وَنَعْلَيْهِ .
- ◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهِمَا ؟ .

---

(١) استمرأ : استلذ .

(٢) طلي : جميل رائق .

◇ يَقُولُ:

أَتُـرَانِـي أَرَىٰ مِـنَ الـدَّهْـرِ يَـوْمًـا

لِـيَ فِـيـهِ مَـطِـيَّـةٌ[1] غَـيْـرُ رِجْـلِـي

كُلَّمَا كُنْتُ فِي جَمِيعٍ[2] فَقَالُوا:

قَـرِّبُـوا لِـلـرَّحِـيـلِ[3]، قَـرَّبْـتُ نَـعْـلِـي

◆ إِذَا عُرِفَ السَّبَبُ بَطُلَ الْعَجَبُ.

◇ أَيُّ سَبَبٍ وَأَيُّ عَجَبٍ؟.

◆ سَبَبُ خَوْفِ بَشَّارٍ مِنْ لِسَانِهِ، فَهْوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يُرْهَبَ وَيُخَافَ.

* * *

◆ أَبَتِ، أَمْهِلْنِي حَتَّىٰ أَكْتُبَ هَذِهِ النُّتَفَ الطَّرِيفَةَ مِنْ شِعْرِ أَبِي الشَّمَقْمَقِ فِي طِرْسٍ لِأَحْفَظَهَا.

◇ وَهَلْ يُكْتَبُ فِي الطِّرْسِ؟.

◆ أَيْنَ يُكْتَبُ إِذَنْ؟!!.

◇ يُكْتَبُ فِي الْقِرْطَاسِ أَوِ الْوَرَقِ.

◆ أَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ *الطِّرْسِ* وَ *الْقِرْطَاسِ*؟!.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ.

---

(1) مطية: ركوبة.
(2) في جميع: أي في جماعة.
(3) قربوا للرحيل: هيئوا ركائبكم لنرحل.

◆ وَمَا الْفَرْقُ ؟ .

◇ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا هُوَ أَنَّ ***الطِّرْسَ*** خَاصٌّ بِالْوَرَقِ الْمَكْتُوبِ ، أَمَّا ***الْقِرْطَاسُ*** فَيُطْلَقُ عَلَىٰ الصَّحِيفَةِ قَبْلَ أَنْ يُكْتَبَ فِيهَا .

◆ أَأُثْبِتُ هَذَا فِي بَابِ « لَا يُقَالُ كَذَا إِلَّا إِذَا كَانَ كَذَا » ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ أَثْبِتْهُ ، وَأَضِفْ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ بَابِهِ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ أَضِفْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُقَالُ لِلثَّوْبِ : ***حُلَّةٌ*** إِلَّا إِذَا كَانَ ثَوْبَيْنِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ .
وَلَا يُقَالُ لِلْقَوْمِ : ***رُفْقَةٌ*** إِلَّا مَا دَامُوا مُنْضَمِّينَ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ أَوْ مَسِيرٍ وَاحِدٍ ، فَإِذَا تَفَرَّقُوا ذَهَبَ مِنْهُمُ اسْمُ ***الرُّفْقَةِ*** ، وَلَمْ يَذْهَبْ عَنْهُ اسْمُ ***الرَّفِيقِ*** .
وَلَا يُقَالُ لِلذَّهَبِ : ***تِبْرٌ*** إِلَّا مَا دَامَ غَيْرَ مَصُوغٍ .
وَلَا يُقَالُ لِلشَّمْسِ : ***الْغَزَالَةُ*** إِلَّا عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ .
وَلَا يُقَالُ لِلْمَجْلِسِ : ***النَّادِي*** إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهِ أَهْلُهُ .
وَلَا يُقَالُ لِلْبَخِيلِ : ***شَحِيحٌ*** إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَ بُخْلِهِ حَرِيصًا .
وَلَا يُقَالُ لِلْمَاءِ الْمَالِحِ : ***أُجَاجٌ*** إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَ مُلُوحَتِهِ مُرًّا .
وَلَا يُقَالُ لِلْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ : ***إِهْطَاعٌ*** إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَهُ خَوْفٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿**مُهْطِعِينَ إِلَىٰ الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾[1] .
وَلَا يُقَالُ لِلْإِسْرَاعِ : ***إِهْرَاعٌ*** إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَهُ رِعْدَةٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ لُوطٍ : ﴿**وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ**﴾[2] .
وَلَا يُقَالُ لِلْفَرَسِ : ***مُحَجَّلٌ*** إِلَّا إِذَا كَانَ الْبَيَاضُ فِي قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ ، أَوْ فِي ثَلَاثٍ مِنْهَا .

---

(١) سورة القمر الآية ٨.

(٢) سورة هود الآية ٧٨.

◆ جزَاكَ اللَّهُ خيْرًا يَا أَبَتِ ، فَقَدْ كَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَلَّا يَضِيقَ الْوَقْتُ عَنْ طُرْفَةِ الْجَلْسَةِ ؛ فَأَنَا مَشُوقٌ إِلَىٰ سَمَاعِهَا .

◇ لَيْتَكَ تَحْرِصُ عَلَىٰ غَيْرِهَا كَمَا تَحْرِصُ عَلَيْهَا .

◆ أَبَتِ ، إِنَّ النُّفُوسَ تَمَلُّ ، وَالْعُقُولَ تَكِلُّ[1]، وَفِي هَذِهِ الطُّرَفِ فَائِدَةٌ وَمُتَعٌ .

◇ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ هَذِهِ الطُّرْفَةِ ...

جَاءَ فِي الْعِقْدِ الْفَرِيدِ أَنَّ ابْنَ كِلْدَةَ الثَّقَفِيَّ وَفَدَ عَلَىٰ كِسْرَىٰ ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ .

قَالَ : الْحَارِثُ بْنُ كِلْدَةَ .

قَالَ : أَعَرَبِيٌّ أَنْتَ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ ، وَمِنْ صَمِيمِهَا[2].

قَالَ : فَمَا صِنَاعَتُكَ ؟ .

قَالَ : طَبِيبٌ .

قَالَ : وَمَا تَصْنَعُ الْعَرَبُ بِالطَّبِيبِ مَعَ جَهْلِهَا ، وَضَعْفِ عُقُولِهَا ، وَقِلَّةِ قَبُولِهَا ، وَسُوءِ غِذَائِهَا .

فَقَالَ : ذَلِكَ أَجْدَرُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِذَا كَانَتْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَىٰ مَا يُصْلِحُ جَهْلَهَا ، وَيُقِيمُ عِوَجَهَا ، وَيَسُوسُ أَبْدَانَهَا ...

وَإِنَّ الْعَرَبَ فِيهِمْ مَا فِي النَّاسِ مِنْ جَاهِلٍ وَعَالِمٍ ، وَعَاجِزٍ وَحَازِمٍ .

قَالَ الْمَلِكُ : فَمَا الَّذِي تَجِدُ فِي أَخْلَاقِهِمْ ، وَتَحْفَظُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ ؟ .

فَقَالَ الْحَارِثُ : لَهُمْ أَنْفُسٌ سَخِيَّةٌ ، وَقُلُوبٌ جَرِيَّةٌ[3]، وَعُقُولٌ مَرْضِيَّةٌ ،

---

(١) الكَلّ : الضعف .

(٢) صميم الشيء : هو المحض الخالص ، وصميم العرب أصلهم الذي لم يختلط بنسب غيرهم .

(٣) جَرِيَّة : تخفيف لجريئة .

وَأَحْسَابٌ نَقِيَّةٌ ، وَإِنَّ الْكَلَامَ لَيَمْرُقُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الْوَتَرِ ، وَيَجْرِي عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ وَهُوَ أَلْيَنُ مِنَ الْمَاءِ وَأَعْذَبُ مِنَ الْهَوَاءِ ...
يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ، وَيَضْرِبُونَ الْهَامَ ، وَعِزُّهُمْ لَا يُرَامُ[1]، وَجَارُهُمْ لَا يُضَامُ ...
وَلَا يُقِرُّونَ بِفَضْلِ أَحَدٍ مِنَ الْأَقْوَامِ مَا خَلَا الْمَلِكَ الْهُمَامَ ؛ الَّذِي لَا يُقَاسُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَنَامِ .
فَقَالَ كِسْرَىٰ : لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ عَرَبِيٍّ ، لَقَدْ أَصَبْتَ عِلْمًا ، وَمُلِئْتَ فِطْنَةً وَفَهْمًا ...
ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُوصَلَ ، وَأَنْ تُقْضَىٰ حَوَائِجُهُ .

* * *

(١) لا يرام : لا يصل إليه .

الْجَلْسَةُ الْعَاشِرَةُ

الدَّلَالَاتُ الصَّوْتِيَّةِ لِلْحُرُوفِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ لِلْحُرُوفِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ دَلَالَةً عَلَىٰ الْمَعَانِي .

◇ نَعَمْ قُلْتُ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ فِيمَا مَضَىٰ ، وَأَعُودُ فَأُؤَكِّدُهُ الْآنَ .

◆ وَقُلْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - إِنَّ الْقُدَمَاءَ مِنْ لُغَوِيِّينَا قَدِ اهْتَدَوْا إِلَىٰ ذَلِكَ ، وَسُقْتَ بَعْضَ الشَّوَاهِدِ عَلَىٰ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ .

◇ نَعَمْ ، وَقُلْتُ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَاسْتَشْهَدْتُ لَهُ .

◆ وَلَكِنْ - يَا أَبَتِ - مَا مَوْقِفُ الْمُحْدَثِينَ مِنْ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ ؟ .

◇ لِلْمُحْدَثِينَ يَا بُنَيَّ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ جَوْلَاتٌ رَائِعَةٌ ؛ كَشَفَتْ عَنْ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِ عَبْقَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ كَشْفًا مُبِينًا .

◆ وَمَاذَا قَالُوا فِي ذَلِكَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟.

◇ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمِثَالِ لَا الْحَصْرِ ... يَقُولُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدٌ الْمُبَارَكُ عُضْوُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ فِي « دِمَشْقَ » : إِنَّ الْبَحْثَ هَدَاهُ إِلَىٰ أَنَّ حَرْفَ « الْغَيْنِ » مَثَلًا يَدُلُّ عَلَىٰ الِاسْتِتَارِ ، وَالْغَيْبَةِ ، وَالْخَفَاءِ .

◆ وَهَلْ يَسُوقُ شَاهِدًا عَلَىٰ ذَلِكَ ؟.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، إِنَّهُ يُورِدُ طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَبْدَأُ بِحَرْفِ « الْغَيْنِ » وَتَدُلُّ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمَذْكُورِ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا يَا أَبَتِ ؟.

◇ مِنْ أَمْثَالِ : غَابَ ، وَغَارَ ، وَغَالَ[1] ، وَغَامَ ، وَغَمَدَ ، وَغَمَرَ ، وَغَمُضَ ، وَغَمَطَ[2] ، وَغَرُبَ ، وَغَرَزَ ، وَغَرَسَ ، وَغَرِقَ ، وَغَرِمَ ، وَغَلَقَ ، وَغَلُفَ ، وَغَبَشَ[3] ، وَغَبَرَ ، وَغَبِيَ ، وَغَشَّىٰ ، وَغَطَّىٰ .

◆ وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُضِيفَ أَنَا إِلَىٰ ذَلِكَ ... الْغَفْلَةَ ، وَالْغِرَّةَ[4] ؛ فَهُمَا تَدُلَّانِ عَلَىٰ الْخَفَاءِ أَيْضًا .

◇ لَمْ يُخْطِئْكَ التَّوْفِيقُ فِيمَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ لَمْ تَغِيبَا عَنْ ذِهْنِ الرَّجُلِ يَا بُنَيَّ . فَقَدْ سَاقَهُمَا فِي جُمْلَةِ مَا سَاقَ مِنْ أَلْفَاظٍ .

◆ أَخْجَلْتَنِي يَا أَبَتِ ، فَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّنِي اسْتَدْرَكْتُ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْطِنْ إِلَيْهِ .

◇ وَهَدَاهُ الْبَحْثُ أَيْضًا - يَا بُنَيَّ - إِلَىٰ أَنَّ حَرْفَ « الْقَافِ » بِمَا فِيهِ مِنْ قَلْقَلَةٍ

---

(١) غال : اعتدىٰ علىٰ المال أو علىٰ النفس فقتلها .
(٢) غمط : أنكر .
(٣) الغبش : هو الغش والخداع ، وظلمة آخر الليل .
(٤) الغِرة : الغفلة ، وسذاجة الطفولة .

وَقُوَّةٍ ؛ يُفِيدُ مَعْنَىٰ الِاصْطِدَامِ ، وَالِانْفِصَالِ .

◆ وَهَلْ سَاقَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَمْثِلَةً أَيْضًا ؟ .

◇ كَثِيرًا جِدًّا .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ : دَقَّ ، وَشَقَّ ، وَعَقَّ ، وَفَلَقَ ، وَمَزَّقَ .

◆ وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُضِيفَ أَنَا إِلَىٰ ذَلِكَ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ هِيَ : زَعَقَ ، وَصَعَقَ ، وَخَفَقَ ، وَطَرَقَ .

◇ أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ أَحْسَنْتَ ، فَهَأَنْتَذَا بَدَأْتَ تَتَصَوَّرُ الْمَوْضُوعَ وَتَعِيهِ .

◆ وَهَلْ وَقَفَ عِنْدَ هَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ ـ يَا أَبَتِ ـ ؟ .

◇ بَلْ عَرَضَ لِكَثِيرٍ مِنْ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَشَفَ دَلَالَاتِهَا الصَّوْتِيَّةَ .

◆ جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا يَا أَبَتِ .

◇ نَعَمْ جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا ، وَأَثَابَ أَسْلَافَنَا عَلَىٰ مَا بَذَلُوا فِي سَبِيلِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ جَمْعًا وَتَدْوِينًا ، وَبَحْثًا وَتَقْعِيدًا ؛ مِمَّا لَا نَظِيرَ لَهُ عِنْدَ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ يَا بُنَيَّ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ نَوَّهْتَ[1] بِمُشَارَكَةِ الْأُسْتَاذِ الْعَقَّادِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟! .

◇ الْعَقَّادُ ، رَحِمَ اللَّهُ الْعَقَّادَ يَا بُنَيَّ ، وَأَجْزَلَ مَثُوبَتَهُ كِفَاءَ مَا قَدَّمَهُ لِلُغَةِ الضَّادِ مِنْ

(١) نوهت : أشرت إلى الأمر .

خِدْمَاتٍ تُذْكَرُ فَتُشْكَرُ ... نَعَمْ ، لَقَدْ تَنَاوَلَ الْعَقَّادُ هَذَا الْمَوْضُوعَ عَلَىٰ وَجْهٍ يَتَّفِقُ مَعَ عِلْمِهِ وَعَقْلِهِ وَعُمْقِهِ ، وَقَالَ فِيهِ مَا يُقْنِعُ وَمَا يُعْجِبُ .

◆ وَأَيْنَ أَثْبَتَ آرَاءَهُ هَذِهِ ؟ .

◇ فِي كِتَابَيْهِ اللَّذَيْنِ دَعَا أَحَدَهُمَا : بِاللُّغَةِ الشَّاعِرَةِ ، وَدَعَا ثَانِيَهُمَا : بِأَشْتَاتٍ مُجْتَمِعَاتٍ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ .

◆ أَبَتِ ، أَهُنَاكَ فَائِدَةٌ يَجْتَنِيهَا الدَّارِسُونَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْمَبْحَثِ ، أَمْ إِنَّهُ تَرَفٌ عَقْلِيٌّ مُمْتِعٌ وَكَفَىٰ ؟ .

◇ لِهَذَا الْمَبْحَثِ فَوَائِدُ جَمَّةٌ يَا بُنَيَّ ، فَإِدْرَاكُ الْقِيَمِ الصَّوْتِيَّةِ الْبَيَانِيَّةِ لِلْحُرُوفِ ، وَحُسْنُ الْإِفَادَةِ مِنْ هَذِهِ الْقِيَمِ فِي مَجَالَاتِ التَّعْبِيرِ ؛ ثَرْوَةٌ بَيَانِيَّةٌ لَا تُقَدَّرُ .

◆ وَهَلْ أَفَادَ شُعَرَاؤُنَا مِنْ ذَلِكَ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ أَجْزَلَ اللَّهُ ثَوَابَكَ .

◇ لَقَدِ اسْتَعَانَ كَثِيرٌ مِنْ شُعَرَائِنَا بِدَلَالَةِ الْحُرُوفِ عَلَىٰ الْمَعَانِي ، وَاسْتَخْدَمُوا ذَلِكَ فِي الشِّعْرِ بِعَامَّةٍ وَفِي الرَّوِيِّ بِخَاصَّةٍ .

◆ حَسَنٌ حَسَنٌ .

◇ فَأَصْبَحَ لِلْكَلِمَةِ يَا بُنَيَّ دَلَالَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا لُغَوِيَّةٌ تُسْتَفَادُ مِنْ مَعْنَاهَا الْوَصْفِيِّ ، وَأُخْرَىٰ صَوْتِيَّةٌ تُسْتَفَادُ مِنْ جَرْسِهَا[1] الْمُوسِيقِيِّ .

---

(١) الجرْس : هو نغمة الصوت .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ يَا أَبَتِ عَلَىٰ مَا أَوْضَحْتَ وَبَيَّنْتَ .

◇ وَنَفَعَكَ وَنَفَعَ اللَّهُ بِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنَّ جَلَسَاتِنَا هَذِهِ تُشْعِرُنِي يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ بِحَقِّ هَذِهِ اللُّغَةِ عَلَيْنَا ، وَأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا لَوْ أَمْضَىٰ عُمُرَهُ كُلَّهُ فِي خِدْمَتِهَا ؛ لَمَا ضَاعَ مِنْ عُمُرِهِ شَيْءٌ .

◇ يَمْضِي عُمُرَهُ كُلَّهُ فِي خِدْمَةِ اللُّغَةِ ؟!! .

◆ نَعَمْ يَا أَبَتِ ، يَمْضِي عُمُرَهُ كُلَّهُ فِي خِدْمَتِهَا وَهُوَ قَلِيلٌ فِي حَقِّهَا .

◇ وَكَيْفَ يَمْضِي الْمَرْءُ عُمُرَهُ ؟ .

◆ أَبَتِ ، أَتُرَانِي وَقَعْتُ فِي الْفَخِّ ؟ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا الَّذِي قُلْتُهُ حَتَّىٰ وَقَعْتُ فِي الْكَمِينِ الَّذِي نَصَبْتَهُ لِي ؟ .

◇ أَنَا مَا نَصَبْتُ لَكَ شَيْئًا ؛ بَلْ يَدَاكَ أَوْكَتَا[1] وَفُوكَ نَفَخَ .

◆ وَمَا الَّذِي تُنْكِرُهُ مِمَّا قُلْتُهُ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

---

(١) الوكاء : هو رباط القربة ، وأوكتا : يعني ربطتا القربة ... والعبارة « يداك أوكتا وفوك نفخ » : مَثَل للمهمل في عمله ، كالذي لا يجيد رباط القربة بعد نفخها ثم يعبر النهر عليها فينفك رباطها ، فيغرق ، يقال له : يداك أوكتا وفوك نفخ ، أي أنت الذي صنعت بنفسك هذا .

◇ أُنْكِرُ قَوْلَكَ : أَمْضَى الْمَرْءُ عُمْرَهُ .

◆ وَمَا فِي ذَلِكَ ؟ أَلَيْسَ كَلِمَةُ أَمْضَىٰ فُلَانٌ عُمْرَهُ تَعْنِي : قَضَىٰ فُلَانٌ عُمْرَهُ .

◇ كَلَّا يَا بُنَيَّ كَلَّا ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُونَ مَا تَوَهَّمْتَهُ فَيَقُولُونَ : أَمْضَىٰ أَحْمَدُ بِضْعَ سَنَوَاتٍ فِي دِيَارِ الْغُرْبَةِ ، وَ أَمْضَىٰ مُحَمَّدٌ الصَّيْفَ بِالطَّائِفِ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ قَضَىٰ .

◆ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ أَمْضَىٰ وَ قَضَىٰ ؟ طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ إِنَّ أَمْضَىٰ الْمُتَعَدِّيَةَ - يَا بُنَيَّ - تُفِيدُ مَعْنَىٰ الْإِنْجَازِ وَالتَّنْفِيذِ ، فَتَقُولُ : أَمْضَىٰ عَلِيٌّ الْبَيْعَ ، وَأَمْضَىٰ هِشَامٌ الْعَقْدَ بِمَعْنَىٰ أَنْفَذَاهُ وَأَجَازَاهُ .

◆ وَمَضَىٰ اللَّازِمَةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مَضَىٰ اللَّازِمَةُ يُفِيدُ مَعْنَىٰ الِانْقِضَاءِ ، فَتَقُولُ : مَضَىٰ عَلَىٰ وُجُودِي فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ شَهْرٌ ؛ أَيِ انْقَضَىٰ عَلَىٰ وُجُودِي فِيهَا شَهْرٌ .

◆ أَبَتِ ، أَتَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَضِفْهُ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً .

اُكْتُبْ : لَا يُقَالُ : أَمْضَىٰ فُلَانٌ شَهْرًا فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : قَضَىٰ فُلَانٌ شَهْرًا فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ... لِأَنَّ أَمْضَىٰ الْمُتَعَدِّيَةَ تُفِيدُ الْإِنْجَازَ وَالتَّنْفِيذَ ؛

حَيْثُ تَقُولُ : أَمْضَىٰ فُلَانٌ الْبَيْعَ أَيْ أَنْفَذَهُ ، وَأَنْجزَهُ ، وَأَجَازَهُ .
أَمَّا مَضَىٰ اللَّازِمَةُ فَتُفِيدُ مَعْنَىٰ الِانْقِضَاءِ ، فَتَقُولُ : مَضَىٰ عَلَىٰ وُجُودِي فِي الْمَصِيفِ شَهْرٌ بِمَعْنَىٰ انْقَضَىٰ شَهْرٌ عَلَىٰ وُجُودِي فِي الْمَصِيفِ .

◆ مَتَّعَكَ اللَّهُ يَا أَبَتِ بِالصِّحَّةِ ، وَمَدَّ فِي عُمُرِكَ .

◇ وَوَفَّقَكَ لِلْخَيْرِ وَالْبِرِّ يَا بُنَيَّ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَيْنَ رَوْضَةُ الشِّعْرِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ هِيَ مِنْكَ قَرِيبٌ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي جَنَيْتَ مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ ابْنُ الرُّومِيِّ .

◆ الشَّاعِرُ الْهَجَّاءُ السَّاخِرُ ؟ .

◇ إِنَّهُ هُوَ .

◆ يَقُولُونَ يَا أَبَتِ إِنَّهُ عَاشَ بِالْهِجَاءِ ؛ فَكَانَ يَتَكَسَّبُ بِهِ .

◇ وَقَدْ مَاتَ بِالْهِجَاءِ أَيْضًا .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ هَجَا الْقَاسِمَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ وَزِيرَ الْمُعْتَصِمِ هِجَاءً لَاذِعًا مُرًّا .

◆ فَمَاذَا كَانَ أَمْرُهُ ؟ .

◇ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ أَنَّهُ دَسَّ إِلَيْهِ أَحَدَ غِلْمَانِهِ ؛ فَأَطْعَمَهُ قِطْعَةً مِنَ الْحَلْوَىٰ مَسْمُومَةً وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ ... فَلَمَّا أَحَسَّ بِالسُّمِّ نَهَضَ ، فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ :

إِلَىٰ أَيْنَ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ ؟ .

فَقَالَ : إِلَىٰ الْمَوْضِعِ الَّذِي بَعَثْتَنِي إِلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ : إِذَنْ سَلِّمْ عَلَىٰ وَالِدَيَّ .

فَقَالَ : مَا طَرِيقِي عَلَىٰ النَّارِ .

◆ لِلَّهِ أَبُوهُ ! أَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ يَفْطِنُ إِلَىٰ مِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ .

◇ أَصْحَابُ الْبَدِيهَةِ - يَا بُنَيَّ - لَا تُفَارِقُهُمْ بَدِيهَتُهُمْ أَبَدًا .

◆ وَمَا الزَّهْرَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ قِطْعَةٌ ...

◆ فِي الْهِجَاء طَبْعًا .

◇ لَيْسَتْ فِي الْهِجَاءِ قَطْعًا .

◆ وَلَكِنْ فِي مَاذَا ؟! .

◇ فِي التَّعَبُّدِ وَالزُّهْدِ .

◆ فِي التَّعَبُّدِ وَالزُّهْدِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَعُنْوَانُ الْقِطْعَةِ « عَابِدٌ فِي لَيْلٍ » .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ ...

◇ يَقُولُ:

بَاتَ يَدْعُو الْوَاحِدَ الصَّمَدَا ... فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ مُعْتَمِدَا
نَادِمٌ لَمْ تُبْقِ حَسْرَتُهُ ... مِنْهُ لَا رُوحًا وَلَا جَسَدَا
قَدْ جَفَتْ عَيْنَاهُ غُمْضَهُمَا ... وَالْخَلِيُّ الْقَلْبِ مَا رَقَدَا
فِي حَشَاهُ مِنْ مَخَافَتِهِ ... حُرُقَاتٌ تَلْذَعُ الْكَبِدَا
كُلَّمَا مَرَّ الْوَعِيدُ بِهِ ... سَحَّ دَمْعُ الْعَيْنِ فَاطَّرَدَا[1]
لَوْ تَرَاهُ وَهْوَ مُنْتَصِبٌ ... مُشْعِرٌ[2] أَجْفَانَهُ السُّهُدَا
وَوَهَتْ أَرْكَانُهُ جَزَعًا ... وَارْتَقَتْ أَنْفَاسُهُ صُعُدَا
قَائِلٌ يَا مُنْتَهَىٰ أَمَلِي ... نَجِّنِي مِمَّا أَخَافُ غَدَا
أَنَا عَبْدٌ غَرَّنِي[3] أَمَلِي ... وَكَأَنَّ الْمَوْتَ قَدْ وَرَدَا
وَخَطِيئَاتِي الَّتِي سَلَفَتْ ... لَسْتُ أُحْصِي بَعْضَهَا عَدَدَا
فَلِيَ الْوَيْلُ الطَّوِيلُ غَدَا ... لَيْتَ عُمْرِي قَبْلَهَا نَفِدَا
وَيْحَ عَيْنِي سَاءَ مَا نَظَرَتْ ... وَيْحَ قَلْبِي سَاءَ مَا اعْتَقَدَا
لَيْتَ عَيْنِي قَبْلَ نَظْرَتِهَا ... كُحِّلَتْ أَجْفَانُهَا رَمَدَا

* * *

◆ أَبَتِ، قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي وَصْفِ الْعَابِدِ:

كُلَّمَا مَرَّ الْوَعِيدُ بِهِ ... سَحَّ دَمْعُ الْعَيْنِ فَاطَّرَدَا

فَمَا مَعْنَىٰ سَحَّ دَمْعُ الْعَيْنِ؛ طَالَ بَقَاؤُكَ؟.

---

(١) فاطّردا: جاء الدمع دفعة بعد دفعة يطرد بعضه بعضًا.
(٢) مُشْعِر أجفانه: يجعل أجفانه تشعر بالسهاد.
(٣) غرّني أملي: خدعني الأمل والثقة بطول العمر.

◇ *السَّحُّ* يَا بُنَيَّ : سُرْعَةُ الْمَطَرِ ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ مَجَازًا فِي الْبُكَاءِ .

◆ يَبْدُو أَنَّ الْعَرَبَ قَدِ اسْتَعْمَلُوا فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْبُكَاءِ أَكْثَرَ مِنْ لَفْظَةٍ .

◇ بَلْ إِنَّكَ لَوْ جَمَعْتَ مَا اسْتَعْمَلُوهُ مِنْ أَلْفَاظٍ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْبُكَاءِ ؛ لَأَلَّفْتَ رِسَالَةً صَغِيرَةً .

◆ أَيَتَّسِعُ الْمَجَالُ لِإِيرَادِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ؟ .

◇ إِلَيْكَ طَائِفَةً مِنْهَا ، وَمَتَىٰ ضِقْتَ ذَرْعًا بِهَا أَعْلِمْنِي حَتَّىٰ أَكُفَّ عَنِ الْمُتَابَعَةِ .

◆ إِلَىٰ هَذَا الْمَدَىٰ !! .

◇ نَعَمْ إِلَىٰ هَذَا الْمَدَىٰ ، وَإِلَىٰ أَبْعَدَ مِنْ هَذَا الْمَدَىٰ .

◆ فَمَاذَا قَالُوا فِي ذَلِكَ ؟ .

◇ قَالُوا : *بَكَىٰ* الرَّجُلُ ، وَ *اسْتَعْبَرَ* ، وَ *اسْتَدْمَعَ* ، وَ *أَسْبَلَ*[1] عَبْرَتَهُ ، وَ *أَذْرَىٰ*[2] دُمُوعَهُ ، وَ *أَرْسَلَ* عَيْنَيْهِ .
وَقَالُوا أَيْضًا : **دَمَعَتْ** عَيْنَا الرَّجُلِ ، وَ **ذَرَفَتْ** آمَاقُهُ[3] ، وَ **سَحَّتْ** جُفُونُهُ ، وَ **فَاضَتْ شُؤُونُهُ**[4] ، وَ **سَالَتْ غُرُوبُهُ**[5] ، وَ **أُسِيلَتْ عَبْرَتُهُ** .
وَقَالُوا أَيْضًا : **وَكَفَتِ** الدُّمُوعُ ، وَ **تَقَاطَرَتْ** ، وَ **تَسَاقَطَتْ** ، وَ **تَحَدَّرَتْ** ، وَ **تَصَبَّبَتْ** ، وَ **سَفَحَتْ** ، وَ **انْسَكَبَتْ** ، وَ **انْسَجَمَتْ** ، وَ **هَطَلَتْ** ، وَ **هَمَتْ** ، وَ **هَمَعَتْ** ، وَ **هَمَلَتْ** ...

---

(١) أسبل : أسال دمعه .
(٢) أذرىٰ : ذرت العين دمعها ، أسالته .
(٣) الآماق : واحدها ماق وهو طرف العين مما يلي الأنف ، وهو مجرىٰ الدموع .
(٤) شئون العين : مجاريها الدمعية .
(٥) الغروب : مجاري الدمع .

◆ مَا هَذَا يَا أَبَتِ ، مَا هَذَا !! .

◇ وَقَالُوا أَيْضًا : *انْهَمَرَتِ* الدُّمُوعُ ، وَ *اسْتَهَلَّتِ* الْعَبَرَاتُ .
وَقَالُوا أَيْضًا : هَذَا خَطْبٌ *يَسْتَوْكِفُ*[1] الدَّمْعَ ، وَ *يَسْتَذْرِفُ* الْجُفُونَ ، وَ *يَسْتَدِرُّ* الشُّئُونَ ، وَ *يَسْتَمْطِرُ* شَآبِيبَ[2] الْعُيُونِ .
وَقَالُوا أَيْضًا : فُلَانٌ ذُو عَيْنٍ *عَبْرَىٰ* ، وَمَقْلَةٍ *شَكْرَىٰ* ، وَدَمْعَةٍ *تَتْرَىٰ* .
حَسْبُكَ أَمْ أَزِيدُكَ .

◆ بَلْ زِدْنِي يَا أَبَتِ ، زِدْنِي .

◇ وَيَقُولُونَ : لَقَدْ لَجَّ فُلَانٌ فِي *الِاسْتِعْبَارِ* ، وَ *اسْتَرْسَلَ* فِي الْبُكَاءِ ، وَ *اسْتَسْلَمَ لِلْعَبْرَةِ* ، وَيَقُولُونَ أَيْضًا : بَكَىٰ فُلَانٌ حَتَّىٰ *اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ* ، وَ *بَلَّ نَحْرَهُ* ...
وَيَقُولُونَ : بَكَىٰ فُلَانٌ حَتَّىٰ *خَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ* ، وَ *شَرِقَ بِمَاءِ دَمْعِهِ* ، وَ *شَرِقَتْ عَيْنُهُ بِمَائِهَا* .
وَيَقُولُونَ : *نَشَجَ* الْبَاكِي : إِذَا غَصَّ بِالْبُكَاءِ فَرَدَّدَ صَوْتَهُ فِي صَدْرِهِ وَلَمْ يُخْرِجْهُ ، وَ *أَجْهَشَ* الرَّجُلُ : إِذَا تَهَيَّأَ لِلْبُكَاءِ ، وَ *تَرَقْرَقَ الدَّمْعُ* فِي عَيْنِ الرَّجُلِ : إِذَا دَارَ فِي حِمْلَاقِهَا ، وَ *اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ* بِالدَّمْعِ : إِذَا امْتَلَأَتَا وَلَمْ تَفِيضَا .
وَيَقُولُونَ : *غَاضَ دَمْعُ* الرَّجُلِ : إِذَا احْتَبَسَ وَوَقَفَ ...
وَيَقُولُونَ : *كَفْكَفَ* الرَّجُلُ دَمْعَهُ وَ *نَهْنَهَهُ* : إِذَا مَسَحَهُ وَكَفَّهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .
وَيَقُولُونَ ...

◆ حَسْبِي يَا أَبَتِ ، حَسْبِي ، لِلَّهِ هَذِهِ اللُّغَةُ مَا أَعْمَقَ بَحْرَهَا ! .

◇ وَمَا أَكْثَرَ دُرَّهَا أَيْضًا ! . وَلَكِنَّ أَهْلَهَا عَنْهَا غَافِلُونَ .

* * *

---

(١) يستوكف الدمع : استقطره واستدعىٰ جريانه .
(٢) الشآبيب : دفعات المطر ، وهي هنا دفعات الدموع .

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَلَّا تَنْسَىٰ طُرْفَةَ الْيَوْمِ .

◇ أَنْسَاهَا !! كَيْفَ أَنْسَاهَا وَأَنْتَ وَرَاءَهَا .

◆ إِذَنْ هَاتِهَا ، وَأَجْزَلَ اللَّهُ ثَوَابَكَ .

◇ إِلَيْكَ مَا طَلَبْتَ .

بَيْنَمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ رَاكِبٌ ؛ إِذْ تَعَرَّضَ لَهُ رَجُلٌ فِي الطَّرِيقِ ؛ فَأَمْسَكَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ ، وَقَالَ :

سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ أَيُّهَا الأَمِيرُ أَنْ تَضْرِبَ عُنُقِي .

فَبُهِتَ عَبْدُ اللَّهِ ، وَقَالَ : أَمَعْتُوهٌ أَنْتَ ؟! .

قَالَ : لَا وَرَأْسِ الأَمِيرِ .

قَالَ : فَمَا الْخَبَرُ ؟ .

قَالَ : لِي خَصْمٌ أَلَدُّ قَدْ لَزِمَنِي وَأَلَحَّ ؛ وَضَيَّقَ عَلَيَّ ، وَلَيْسَ لِي بِهِ طَاقَةٌ .

قَالَ : وَمَنْ خَصْمُكَ ؟ .

قَالَ : الْفَقْرُ .

فَالْتَفَتَ عَبْدُ اللَّهِ لِفَتَاهُ ، وَقَالَ : اِدْفَعْ لَهُ أَلْفَ دِينَارٍ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا أَخَا الْعَرَبِ خُذْهَا وَنَحْنُ سَائِرُونَ .

وَلَكِنْ إِذَا عَادَ إِلَيْكَ خَصْمُكَ مُتَغَشِّمًا(١) ؛ فَأْتِنَا مُتَظَلِّمًا .

فَإِنَّا مُنْصِفُوكَ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ : إِنَّ مَعِي مِنْ جُودِكَ مَا أُدْحِضُ بِهِ حُجَّةَ خَصْمِي بَقِيَّةَ عُمُرِي .

ثُمَّ أَخَذَ الْمَالَ وَانْصَرَفَ .

* * *

(١) متغشمًا : مجترئًا ظالمًا .

الْجَلْسَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ

أَوَّلُ كِتَابٍ عَرَبِيٍّ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ قَرَأْتُ أَمْسِ - يَا أَبَتِ - تَقْرِيظًا لِكِتَابٍ أَصْدَرَتْهُ مَكْتَبَةُ أَنْطَوَانَ فِي « بَيْرُوتَ ». قَالَ مُقَرِّظُهُ عَنْهُ : إِنَّهُ أَوَّلُ كِتَابٍ عَرَبِيٍّ كُتِبَ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ .

◇ أَوَ لَمْ تَحْفَظِ اسْمَ الْكِتَابِ ؟ .

◆ لَمْ يَعْلَقِ اسْمُهُ فِي ذِهْنِي يَا أَبَتِ ، فَقَدْ كَانَ غَرِيبًا .

◇ لَا بَأْسَ ، اسْمُ الْكِتَابِ « يَارَا » وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْكَ ، قَابِعٌ فِي الْمَكْتَبَةِ الَّتِي عَلَىٰ يَسَارِكَ ؛ فَهَاتِهِ .

◆ الْكِتَابُ عِنْدَنَا يَا أَبَتِ !! وَفِي الْمَكْتَبَةِ الَّتِي عَلَىٰ يَسَارِي ! لَقَدْ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَظْفَرَ بِهِ فِي نَجْوَةٍ[1] مِنْكَ ؛ فَوَجَدْتُهُ عِنْدَكَ .

◇ فِي نَجْوَةٍ مِنِّي ! وَلِمَاذَا ؟! .

---

(١) في نجوة منك : بعيدًا عنك .

◆ لِأَنّي ...

◇ لِأَنَّكَ مَاذا ؟ .

◆ لِأَنّي أَعْلَمُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذِهِ الْكُتُبَ ، وَتَعُدُّهَا هَدْمًا لِتُرَاثِنَا ، وَحَرْبًا تُشَنُّ عَلَىٰ وُجُودِنَا .

◇ إِنَّ كُرْهِي لِهَذِهِ الْكُتُبِ ، وَإِدْرَاكِي لِلْخَطَرِ الَّذِي يَكْمُنُ وَرَاءَهَا لَا يَمْنَعُنِي مِنْ شِرَائِهَا ، وَإِنَّمَا يَدْفَعُنِي إِلَىٰ اقْتِنَائِهَا .

◆ أَأَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّكَ لَا تُمَانِعُ فِي قِرَاءَةِ الْكِتَابِ ؟ .

◇ أُمَانِعُ فِي قِرَاءَتِهِ !! وَأَنَا مَا اشْتَرَيْتُهُ إِلَّا لِأَقْرَأَهُ أَنَا ، وَلِيَقْرَأَهُ أَمْثَالُكَ .

◆ هَأَنَذَا قَدْ أَحْضَرْتُ الْكِتَابَ ، فَهَلْ أَقْرَأُ ؟ .

◇ اِقْرَأْ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ .

[يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ وَيُتَمْتِمُ بِبَعْضِ الْمَقَاطِعِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفْصِحَ عَنْ شَيْءٍ] .

◇ مَا بِكَ ؟! مَالَكَ تُتَمْتِمُ ثُمَّ لَا تُفْصِحُ وَلَا تُبِينُ !! ... اِقْرَأْ .

◆ لَا أَسْتَطِيعُ الْقِرَاءَةَ يَا أَبَتِ ؛ فَأَنَا لَا أَفْهَمُ شَيْئًا مِمَّا هُوَ مَسْطُورٌ أَمَامِي ، أَتَتَفَضَّلُ بِقِرَاءَةِ شَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ أَمْ إِنَّكَ ...

◇ نَعَمْ إِنَّنِي لَسْتُ بِأَحْسَنَ مِنْكَ حَالًا فِي قِرَاءَةِ هَذَا الْكِتَابِ .

◆ أَكُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا يَا أَبَتِ قَبْلَ شِرَاءِ الْكِتَابِ ؟ أَمْ إِنَّكَ فُوجِئْتَ بِهِ بَعْدَ أَنِ اشْتَرَيْتَهُ ؟ .

◇ بَلْ عَرَفْتُ هَذَا قَبْلَ أَنْ أَشْتَرِيَ الْكِتَابَ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ حَافِزًا عَلَىٰ شِرَائِهِ .

◆ حَافِزًا عَلَىٰ شِرَائِهِ !! .

◇ نَعَمْ ، لَقَدِ اشْتَرَيْتُهُ لِأَنَّهُ لَا يُقْرَأُ ... وَاحْتَفَظْتُ بِهِ وَثِيقَةً لِلتَّارِيخِ ، وَشَاهِدًا عَلَىٰ بُطْلَانِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اصْطِنَاعِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ وَإِحْلَالِهِ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ .

◆ وَلَكِنْ مَا السِّرُّ فِي عَجْزِنَا عَنْ قِرَاءَتِهِ ؟! وَنَحْنُ نَعْرِفُ الْأَبْجَدِيَّةَ اللَّاتِينِيَّةَ الَّتِي كُتِبَ بِهَا الْكِتَابُ ؛ كَمَا نَعْرِفُ الْأَبْجَدِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ .

◇ السِّرُّ ... لَوْ أَنَّكَ اسْتَحْضَرْتَ مَا قُلْنَاهُ فِي جَلَسَاتِنَا السَّابِقَةِ ؛ لَمَا أَعْيَاكَ كَشْفُ السِّرِّ .

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ ، عَرَفْتُ ، عَرَفْتُ السِّرَّ ، إِنَّهُ يَكْمُنُ فِي وَفَاءِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَغِنَاهَا ، وَقُصُورِ الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ وَفَقْرِهَا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَفِي الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ تِسْعَةُ حُرُوفٍ لَيْسَ لَهَا مَا يُقَابِلُهَا فِي الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ ، أَتَذْكُرُهَا .

◆ نَعَمْ يَا أَبَتِ ، إِنَّهَا : الْهَمْزُ ، وَالْحَاءُ ، وَالْخَاءُ ، وَالصَّادُ ، وَالضَّادُ ، وَالطَّاءُ ، وَالظَّاءُ ، وَالْعَيْنُ ، وَالْغَيْنُ .

◇ بُورِكَ فِيكَ بُورِكَ فِيكَ ، هَذِهِ تِسْعَةُ حُرُوفٍ فِي الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ .

◆ وَمَا الَّذِي فَعَلَهُ صَاحِبُ كِتَابِ « يَارَا » لِاسْتِكْمَالِ هَذَا النَّقْصِ ، قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ الْعَرَبِيَّةَ بِالْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ .

◇ رَكِبَ لِلْأَمْرِ مَرْكَبًا خَشِنًا يَا بُنَيَّ ؛ فَاسْتَعْمَلَ الْأَحْرُفَ اللَّاتِينِيَّةَ السِّتَّةَ وَالْعِشْرِينَ ، وَاسْتَعْمَلَ مَعَهَا سَبْعَةَ حُرُوفٍ جَدِيدَةٍ اخْتَرَعَهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ،

وَاسْتَعْمَلَ فَوْقَ ذَلِكَ أَحَدَ عَشَرَ حَرْفًا لَاتِينِيًّا ؛ بَعْدَ أَنْ زَادَ عَلَيْهَا طَائِفَةً مِنَ الْإِشَارَاتِ الْخَاصَّةِ لِتُؤَدِّيَ بَعْضَ الْأَصْوَاتِ .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ ! لَقَدْ أَصْبَحَ عَدَدُ حُرُوفِ هَذِهِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْجَدِيدَةِ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا .

◇ نَعَمْ ، أَصْبَحَ عَدَدُ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْمُخْتَرَعَةِ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا .

◆ الْآنَ أَدْرَكْتُ السِّرَّ فِي عَجْزِي عَنْ قِرَاءَةِ سَطْرٍ وَاحِدٍ مِنْ « يَارَا » .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدِ احْتَاجَ صَاحِبُ كِتَابِ « يَارَا » إِلَىٰ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا ؛ لِتَنُوبَ مَنَابَ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ ، وَلِتُؤَدِّيَ مَا تُؤَدِّيهِ .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُتْقِنَ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا لِأَتَمَكَّنَ مِنْ قِرَاءَةِ « يَارَا » ؟.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْتَقِدَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا تَيْسِيرٌ ! بَلْ غَايَةُ التَّيْسِيرِ ، وَأَنَّ عَلَىٰ الْعَرَبِ أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ إِذَا كَانُوا يُرِيدُونَ مَحْوَ الْأُمِّيَّةِ ، وَتَعْلِيمَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ .

◆ أَبَتِ ، هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيءٌ[1] ، مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عُقُولٌ .

◇ بَلْ هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيءٌ ، مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَهُمْ عُقُولٌ ، أَوْ لَهُمْ عُقُولٌ وَلَكِنَّهَا تُخْفِي غَيْرَ مَا تُظْهِرُ ، وَتُسِرُّ غَيْرَ مَا تُعْلِنُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، دَامَ سُرُورُكَ - إِنِّي لَفِي شَوْقٍ لِلتَّنَزُّهِ فِي رَوْضَةِ الشِّعْرِ أَفَمَا آنَ الْأَوَانُ ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ تَتَنَزَّهَ فِي رَوْضَةِ الشِّعْرِ - عَلَىٰ حَدِّ تَعْبِيرِكَ - عَلَيْكَ أَنْ تُنَزِّهَ لِسَانَكَ عَنِ الْخَطَإِ .

---

(١) له خبيء : أي له معنىٰ خفي مخبأ في نفس قائله .

◆ وَهَلْ جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِي خَطَأٌ حَتَّىٰ أُنَزِّهَهُ مِنْهُ ؟!! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَقَدْ وَضَعْتَ كَلِمَةَ التَّنَزُّهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَاسْتَعْمَلْتَهَا فِي غَيْرِ مَعْنَاهَا .

◆ أَلَيْسَ مَعْنَىٰ التَّنَزُّهِ هُوَ الْخُرُوجُ إِلَىٰ الْبَسَاتِينِ ، وَالتَّمَتُّعُ بِمَا فِيهَا مِنْ مَاءٍ وَخُضْرَةٍ ؟ .

◇ بَلِ التَّنَزُّهُ هُوَ التَّبَاعُدُ عَنِ الْمِيَاهِ وَالْأَرْيَافِ ، وَعَلَيْهِ فَقَدْ قِيلَ : فُلَانٌ يَتَنَزَّهُ عَنِ الْأَقْذَارِ أَيْ يَتَبَاعَدُ مِنْهَا .
وَقِيلَ أَيْضًا : إِنَّ فُلَانًا لَنَزِيهٌ كَرِيمٌ ؛ إِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنَ اللُّؤْمِ .
وَيُقَالُ أَيْضًا : « تَنَزَّهُوا بِحُرَمِكُمْ عَنِ الْقَوْمِ » أَيْ تَبَاعَدُوا بِهِمْ عَنِ الْقَوْمِ .
وَيُقَالُ : هَذَا مَكَانٌ نَزِيهٌ أَيْ إِنَّهُ خَالٍ لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ .

◆ أَبَتِ ، وَهَلْ فَطِنَ الْقُدَمَاءُ لِمِثْلِ هَذَا الْخَطَإِ ؟ .

◇ فَطِنُوا إِلَيْهِ وَنَبَّهُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ : وَمِمَّا تَضَعُهُ الْعَامَّةُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُهُمْ : خَرَجْنَا نَتَنَزَّهُ إِذَا خَرَجُوا إِلَىٰ الْبَسَاتِينِ ، وَ إِنَّمَا التَّنَزُّهُ : التَّبَاعُدُ عَنِ الْمِيَاهِ وَالْأَرْيَافِ ، وَقَالَ : الْفَيْرُوزَبَادِيُّ ...

◆ صَاحِبُ الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، قَالَ : التَّنَزُّهُ التَّبَاعُدُ ، وَمَكَانٌ نَزِهٌ وَنَزِيهٌ ، وَأَمْكِنَةٌ نَزِهَةٌ وَنَزِيهَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الرِّيفِ وَغَمَقِ الْمِيَاهِ(١) ، وَنَزُهَ الرَّجُلُ نَزَاهَةً تَبَاعَدَ عَنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ ... ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ : وَاسْتِعْمَالُ التَّنَزُّهِ فِي الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْبَسَاتِينِ وَالرِّيَاضِ غَلَطٌ قَبِيحٌ .

---

(١) غَمَق المياه : كثرة المياه .

◆ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَلَكِنْ هَذَا الِاسْتِعْمَالُ كَثِيرٌ وَشَائِعٌ .

◇ إِنَّ شُيُوعَ الْخَطَإِ ـ كَمَا قُلْتُ لَكَ ـ لَا يَجْعَلُهُ صَوَابًا ، وَإِنَّ شُيُوعَ الشَّرِّ لَا يَجْعَلُهُ خَيْرًا .

◆ أَأَضَعُ هَذَا فِي بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » ؟ .

◇ ضَعْهُ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَخَافُ أَنْ يَكُونَ وُقُوعِي فِي الْخَطَإِ سَبَبًا فِي حِرْمَانِي مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِجَنَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ .

◇ لَنْ تُحْرَمَ مِنْهَا ـ بِإِذْنِ اللَّهِ ـ فَمَا شَوْقُكَ إِلَيْهَا بِأَكْثَرَ مِنْ شَوْقِي ، وَلَا رَغْبَتُكَ فِيهَا بِأَشَدَّ مِنْ رَغْبَتِي .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي جَنَيْتَ مِنْ رَوْضِهِ الْيَوْمَ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ هُمَا شَاعِرَانِ اثْنَانِ وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ .

◆ عَجِّلْ بِأَوَّلِهِمَا طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ أَوَّلُهُمَا يَا بُنَيَّ ، يَحْيَىٰ بْنُ طَالِبٍ الْحَنَفِيُّ .

◆ وَمَنْ يَحْيَىٰ هَذَا يَا أَبَتِ ؟ فَأَنْتَ مَا تَذْكُرُ لِي شَاعِرًا أَعْرِفُهُ .

◇ وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ ذِكْرِ مَنْ تَعْرِفُ ؟ ... يَحْيَىٰ هَذَا يَا بُنَيَّ شَاعِرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ الْفُرْسَانِ .

◆ وَمِنْ أَيِّ مَوْطِنٍ هُوَ ؟ .

◇ إِنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْيَمَامَةِ.

◆ فِي أَرْضِ نَجْدٍ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

◇ إِنَّهَا الْيَمَامَةُ الَّتِي تَعْرِفُ.

◆ وَفِي أَيِّ عَصْرٍ عَاشَ؟.

◇ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ.

◆ وَمَا مَوْضُوعُ الْأَبْيَاتِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا لَهُ؟.

◇ إِنَّهَا أَبْيَاتٌ يَحِنُّ فِيهَا إِلَىٰ الْيَمَامَةِ، وَلِلْأَبْيَاتِ قِصَّةٌ.

◆ وَمَا قِصَّتُهَا يَا أَبَتِ؟.

◇ كَانَ الشَّاعِرُ مِتْلَافًا(١) - يَا بُنَيَّ - وَقَدِ اسْتَدَانَ حَتَّىٰ ثَقُلَ عَلَيْهِ الدَّيْنُ وَعَجَزَ عَنْ وَفَائِهِ، فَهَرَبَ مِنْ دَيْنِهِ، وَابْتَعَدَ عَنْ مَرَاتِعِ طُفُولَتِهِ وَمَغَانِي شَبَابِهِ...
فَجَعَلَ يَحِنُّ إِلَىٰ الْيَمَامَةِ، وَيَصُوغُ حَنِينَهُ قَصَائِدَ.

◆ وَمَاذَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ يَا أَبَتِ؟.

◇ عَرَفَ الرَّشِيدُ خَبَرَهُ وَسَمِعَ شِعْرَهُ، فَأَمَرَ بِقَضَاءِ دَيْنِهِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ.

◆ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ ذَلِكَ فَرَّجَ كَرْبَهُ وَأَفْرَحَ فُؤَادَهُ، وَأَعَادَهُ إِلَىٰ الْيَمَامَةِ الَّتِي طَالَمَا حَنَّ إِلَيْهَا وَتَشَوَّقَ.

◇ بَلْ لَمْ يَجِدْ وَقْتًا لِلْفَرْحَةِ أَوْ مَجَالًا لِلْعَوْدَةِ.

---

(١) متلافًا: كثير إتلاف المال.

◆ وَلِمَ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ لِأَنَّ خَبَرَ وَفَاءِ دَيْنِهِ قَدْ بَلَغَهُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ .

◆ قِصَّةٌ مُحْزِنَةٌ يَا أَبَتِ .

◇ وَكَمْ فِي الْحَيَاةِ مِنْ مُحْزِنَاتٍ !.

◆ وَمَا الَّذِي قَالَهُ فِي حَنِينِهِ إِلَىٰ الْيَمَامَةِ ؟ .

◇ قَالَ :

إِذَا ارْتَحَلَتْ نَحْوَ الْيَمَامَةِ رِفْقَةٌ
دَعَاكَ الْهَوَىٰ وَاهْتَاجَ قَلْبُكَ لِلذِّكْرِ

كَأَنَّ فُؤَادِي كُلَّمَا مَرَّ رَاكِبٌ
جَنَاحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضًا إِلَىٰ وَكْرِ[1]

أَقُولُ لِصَحْبِي وَالدُّمُوعُ كَأَنَّهَا
جَدَاوِلُ مَاءٍ فِي مَسَارِبِهَا تَجْرِي

أَلَا هَلْ لِشَيْخٍ وَابْنِ سِتِّينَ حِجَّةً
بَكَىٰ طَرَبًا نَحْوَ الْيَمَامَةِ مِنْ عُذْرِ

تَعَزَّيْتُ[2] عَنْهَا كَارِهًا فَتَرَكْتُهَا
وَكَانَ فِرَاقِيهَا أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ

◆ رَحِمَ اللَّهُ يَحْيَىٰ بْنَ طَالِبٍ يَا أَبَتِ ؛ فَقَدْ أَشْجَىٰ وَأَحْزَنَ .

---

(١) رام نَهْضًا : أراد النهوض والارتفاع إلى وَكْره ، أي عشه .
(٢) تعزيت عنها : تسلَّيت عنها .

◇ رَحِمَهُ اللَّهُ .

◆ وَالشَّاعِرُ الثَّانِي .

◇ الشَّاعِرُ الثَّانِي هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ يَسِيرَ الرِّيَاشِيُّ .

◆ وَمَنْ مُحَمَّدٌ هَذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ شَاعِرٌ عَبَّاسِيٌّ عَزَفَ عَنِ الْخُلَفَاءِ وَصَدَفَ[1] عَنِ الأُمَرَاءِ ، وَانْقَطَعَ لِنَفْسِهِ .

◆ شَاعِرٌ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ يَعْزِفُ عَنِ الْخُلَفَاءِ ؛ وَفِي أَيْدِيهِمُ الْخَيْرُ وَالْعَطَاءُ !! .

◇ الْعَطَاءُ بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَا بُنَيَّ ، وَمَا قُدِّرَ لِمَاضِغِي[2] الْمَرْءِ أَنْ يَمْضُغَاهُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَمْضُغَاهُ ، فَطُوبَىٰ لِمَنْ أَكَلَهَا بِعِزٍّ .

◆ نَعَمْ طُوبَىٰ لِمَنْ أَكَلَهَا بِعِزٍّ وَلَمْ يَأْكُلْهَا بِذُلٍّ ...
وَمَا مَوْضُوعُ الْقِطْعَةِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا لَهُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ إِنَّهَا قِطْعَةٌ يَصِفُ بِهَا بُسْتَانَهُ .

◆ مَوْضُوعٌ طَرِيفٌ ، وَمَا الَّذِي يَقُولُهُ فِي وَصْفِ بُسْتَانِهِ .

◇ لِي بُسْتَانٌ أَنِيقٌ زَاهِرٌ ... نَاضِرُ الْخُضْرَةِ رَيَّانٌ يَرِفْ
لِمَجَارِي الْمَاءِ فِيهِ سَنَنٌ[3] ... كَيْفَمَا صَرَّفْتَهُ فِيهِ انْصَرَفْ
تَمْلِكُ الرِّيحُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ... فَإِذَا لَمْ يُؤْنِسِ الرِّيحَ وَقَفْ
يَنْطَوِي اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَإِذَا ... وَاجَهَ الشَّرْقَ تَجَلَّىٰ وَانْكَشَفْ

---

(١) صدف : ابتعد .
(٢) مَضَغَ الطعام : أي لاكه بأسنانه .
(٣) سَنَن : طريق .

صَابِرٌ لَيْسَ يُبَالِي كَثْرَةً　　جُزَّ بِالْمِنْجَلِ أَوْ مِنْهُ نُتِفْ
فَتَرَىٰ الْأَطْبَاقَ لَا تُمْهِلُهُ　　صَادِرَاتٍ وَارِدَاتٍ تَخْتَلِفْ

◆ لِلَّهِ بُسْتَانُهُ مَا أَكْرَمَهُ ؛ فَالْأَطْبَاقُ الْمَلْأَىٰ مِنْ ثَمَرِهِ الشَّهِيِّ تَخْتَلِفُ بَيْنَ جَنَبَاتِهِ صَادِرَةً وَارِدَةً .

◇ بَلْ لِلَّهِ الشَّاعِرُ مَا أَبْرَعَهُ !... فَقَدْ صَوَّرَ فَأَبْدَعَ ، وَوَصَفَ فَأَتْقَنَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، قَالَ طَالِبُ بْنُ يَحْيَىٰ الْحَنَفِيُّ فِي أَبْيَاتِهِ الَّتِي سَمِعْنَاهَا آنِفًا :

أَقُولُ لِصَحْبِي وَالدُّمُوعُ كَأَنَّهَا　　جَدَاوِلُ مَاءٍ فِي مَسَارِبِهَا تَجْرِي

فَمَا الْمُرَادُ بِالْمَسَارِبِ ؟ .

◇ الْمَسَارِبُ يَا بُنَيَّ ، جَمْعٌ مُفْرَدُهُ مَسْرَبٌ ، وَالْمَسْرَبُ اسْمُ مَكَانٍ مِنَ الْفِعْلِ سَرَبَ .

◆ وَمَا مَعْنَىٰ سَرَبَ ؟ .

◇ السَّرَبُ : خُرُوجُ الْمَاءِ مِنَ الْقِرْبَةِ خَاصَّةً .

◆ وَهَلْ جَعَلَ الْعَرَبُ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ مَوَاضِعِ خُرُوجِ الْمَاءِ اسْمًا خَاصًّا بِهِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ فَمَاذَا قَالُوا ؟ .

◇ قَالُوا : **سَحَّ** الْمَاءُ : إِذَا جَرَىٰ مِنَ السَّحَابِ ، وَ **نَبَعَ** : إِذَا جَرَىٰ مِنَ الْيَنْبُوعِ ، وَ **انْبَجَسَ** : إِذَا خَرَجَ مِنَ الْحَجَرِ ، وَ **فَاضَ** : إِذَا جَرَىٰ مِنَ النَّهْرِ ، وَ **وَكَفَ** :

إِذَا جَرَىٰ مِنَ السَّقْفِ ، وَ **رَشَحَ** : إِذَا جَرَىٰ مِنَ الْإِنَاءِ ، وَ **انْسَكَبَ** : إِذَا جَرَىٰ مِنَ الْعَيْنِ ، وَ **سَرَبَ** : إِذَا جَرَىٰ مِنَ الْقِرْبَةِ .

◆ وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ الشَّاعِرُ قَدْ شَبَّهَ عَيْنَيْهِ بِقِرْبَتَيْنِ سَرَبَ مِنْهُمَا الْمَاءُ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَزَادَكَ اللَّهُ فَهْمًا وَعِلْمًا .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَيْنَ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ دَامَ سُرُورُكَ ؟ .

◇ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ... طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ، إِلَيْكَ طُرْفَةَ الْجَلْسَةِ .

كَانَ أَبُو عَلْقَمَةَ مَعْرُوفًا بِالتَّشَادُقِ وَالْإِغْرَابِ فِي الْكَلَامِ [١]، فَدَخَلَ عَلَىٰ أَعْيَنَ الطَّبِيبِ وَقَالَ لَهُ :

أَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ ، إِنِّي أَكَلْتَ مِنْ لُحُومِ هَذِهِ الْجَوَازِلِ [٢]، فَطَسِئْتُ طَسْأَةً [٣]... فَأَصَابَنِي وَجَعٌ مَا بَيْنَ الْوَابِكَةِ إِلَىٰ دَأْبَةِ الْعُنُقِ [٤]، فَلَمْ يَزَلْ يَرْبُو حَتَّىٰ خَالَطَ الْجِلْبَ وَالشَّرَاسِيفَ ... فَهَلْ عِنْدَكَ دَوَاءٌ ؟ .

فَقَالَ أَعْيَنُ : نَعَمْ ...

خُذْ خِرْبَقًا وَشَبْرَقًا ، فَزَهْزِقْهُ وَزَقْزِقْهُ ، وَاغْسِلْهُ بِمَاءِ رَوْثٍ وَاشْرَبْهُ .

فَقَالَ عَلْقَمَةُ : لَمْ أَفْهَمْ عَنْكَ .

فَقَالَ أَعْيَنُ : أَفْهَمْتُكَ كَمَا أَفْهَمْتَنِي .

* * *

---

(١) الإغراب في الكلام : الإتيان بكلام غريب لا يفهم السامع معناه .
(٢) الجوازل : أي الفراخ .
(٣) طسأة : أي تخمة .
(٤) دأبة العنق : أي ما بين طرف الكتف إلى فقرة العنق .

الْجَلْسَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ

الدَّعْوَةُ إِلَىٰ إِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، لَا يَزَالُ فِي النَّفْسِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي كُتِبَ بِالْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ .

◇ تَقْصِدُ كِتَابَ « يَارَا » الَّذِي أَلَّفَهُ سَعِيدُ عَقْلٍ ، وَأَخْرَجَتْهُ مَكْتَبَةُ أَنْطُوَانَ فِي « بَيْرُوتَ » .

◆ نَعَمْ يَا أَبَتِ نَعَمْ ، وَهَلْ هُنَاكَ كِتَابٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ « يَارَا » كُتِبَ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ ؟ .

◇ الْمَعْرُوفُ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ أَوَّلُ كِتَابٍ عَرَبِيٍّ كُتِبَ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي فِي نَفْسِكَ مِنْهُ ؟ .

◆ لَقَدْ أَخَذْتُ الْكِتَابَ بَعْدَ جَلْسَتِنَا السَّابِقَةِ وَأَطَلْتُ النَّظَرَ فِيهِ ، وَاجْتَهَدْتُ فِي أَنْ أَقْرَأَ مَقْطُوعَةً وَاحِدَةً مِمَّا جَاءَ فِيهِ ، فَلَمْ أُفْلِحْ .

◇ أَنَّىٰ لَكَ أَنْ تُفْلِحَ فِي قِرَاءَةِ قِطْعَةٍ مِنْهُ ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَ صَاحِبُهُ فِي كِتَابَتِهِ الْأَحْرُفَ اللَّاتِينِيَّةَ السِّتَّةَ وَالْعِشْرِينَ ، وَاسْتَعْمَلَ مَعَهَا سَبْعَةَ حُرُوفٍ جَدِيدَةٍ اخْتَرَعَهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فَوْقَ ذَٰلِكَ أَحَدَ عَشَرَ حَرْفًا لَاتِينِيًّا ؛ بَعْدَ أَنْ زَادَ عَلَيْهَا طَائِفَةً مِنَ الْإِشَارَاتِ الْخَاصَّةِ لِتُؤَدِّيَ بَعْضَ الْأَصْوَاتِ .

◆ نَعَمْ يَا أَبَتِ نَعَمْ ، لَقَدْ لَاحَظْتُ أَنَّ عَدَدَ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْمُخْتَرَعَةِ قَدْ بَلَغَ أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَنِي أَعْجَزُ عَنِ الْقِرَاءَةِ .

◇ وَهَذَا مَا أَعْجَزَنِي أَيْضًا .

◆ أَبَتِ ، لَقَدْ جَاءَ فِي تَقْرِيظِ « يَارَا » أَنَّهُ أَوَّلُ كِتَابٍ عَرَبِيٍّ كُتِبَ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ فَهَلْ يَعْنِي هَذَا أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ جَدِيدَةٌ ؛ نَشَأَتْ مَعَ هَذَا الْكِتَابِ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ قَدِيمَةٌ تَرْجِعُ إِلَىٰ الْعَقْدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ .

◆ وَمَنْ أَوَّلُ مَنْ نَادَىٰ بِهَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ نَادَىٰ بِهَا فِي مِصْرَ قَاضٍ إِنْكِلِيزِيٌّ .

◆ قَاضٍ إِنْكِلِيزِيٌّ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ وَمَاذَا يُدْعَىٰ هَذَا الْقَاضِي ؟ .

◇ يُدْعَىٰ « وَلْمَز » ، كَانَ يَعْمَلُ فِي الْمَحْكَمَةِ الْمُخْتَلَطَةِ .

◆ وَمَا عَلَاقَةُ هَذَا الْقَاضِي الإِنْكِلِيزِيِّ بِالْمَوْضُوعِ ، وَمَا الدَّافِعُ الَّذِي يَدْفَعُهُ إِلَيْهِ ؟ .

◇ لَا شَيْءَ يَا بُنَيَّ ؛ إِلَّا الْغَيْرَةُ عَلَىٰ لُغَةِ الضَّادِ ! وَالْحِرْصُ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ النَّاطِقِينَ بِهَا .

◆ أَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ !!.

◇ لَا يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَىٰ الرِّيبَةِ أَيْضًا .

◆ وَهَلْ شَايَعَهُ[1] فِي دَعْوَتِهِ هَذِهِ أَحَدٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْكِنَانَةِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَنِ الَّذِي شَايَعَهُ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ ؟! .

◇ شَايَعَهُ - مَعَ بَالِغِ الْأَسَفِ يَا بُنَيَّ - بَعْضُ الْمَفْتُونِينَ بِكُلِّ جَدِيدٍ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ غَرَضٌ ، وَبَعْضُ الْمَشْبُوهِينَ مِمَّنْ فِي نُفُوسِهِمْ مَرَضٌ .

◆ أَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ - يَا أَبَتِ - رِجَالٌ مَعْرُوفُونَ ؟ .

◇ كَانَ بَيْنَهُمْ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ سَلَامَةُ مُوسَىٰ .

◆ أَنَا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَهْمِي ، وَلَكِنْ مَعْرِفَتِي بِسَلَامَةَ مُوسَىٰ ضَئِيلَةٌ . فَهَلَّا عَرَّفْتَنِي بِهِ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ سَأَتْرُكُ لَهُ الْمَجَالَ لِيُعَرِّفَكَ بِنَفْسِهِ .

◆ لَعَلَّهُ أَرَّخَ حَيَاتَهُ بِقَلَمِهِ ؛ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الرِّجَالِ .

---

(١) شايعه : مال إلىٰ رأيه وأيده.

◇ لَا - يَا بُنَيَّ - وَإِنَّمَا تَحَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ « الْيَوْمُ وَالْغَدُ » .

◆ فَمَاذَا قَالَ ؟ .

◇ قَالَ : كُلَّمَا ازْدَدْتُ خِبْرَةً وَتَجْرِبَةً وَثَقَافَةً ؛ تَوَضَّحَتْ أَمَامِي أَغْرَاضِي فِي الْأَدَبِ ... فَهِيَ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ - أَبْنَاءَ الشَّرْقِ - أَنْ نَخْرُجَ مِنْ آسْيَا ، وَأَنْ نَلْحَقَ بِأُرُوبَّا ... فَإِنَّنِي كُلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِالشَّرْقِ زَادَتْ كَرَاهِيَتِي لَهُ ، وَشُعُورِي بِأَنَّهُ غَرِيبٌ عَنِّي ... وَكُلَّمَا ازْدَادَتْ مَعْرِفَتِي بِأُرُوبَّا زَادَ حُبِّي لَهَا وَتَعَلُّقِي بِهَا . وَزَادَ شُعُورِي بِأَنَّهَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهَا .
هَذَا هُوَ مَذْهَبِي الَّذِي أَعْمَلُ لَهُ طُولَ حَيَاتِي سِرًّا وَجَهْرَةً ، فَأَنَا كَافِرٌ بِالشَّرْقِ مُؤْمِنٌ بِالْغَرْبِ .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ ! أَحَقٌّ هَذَا الَّذِي تَسْمَعُهُ أُذُنَايَ يَا أَبَتِ !! .

◇ هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ .

◆ أَوَ مِنْ حَقِّ مِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْ يُسْدِيَ النَّصِيحَةَ إِلَىٰ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَكْرَهُهُمْ كُلَّ هَذَا الْكُرْهِ ؟! .

◇ مِنْ حَقِّهِ - يَا بُنَيَّ - أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ ، وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِنَا نَحْنُ أَنْ نَرُدَّ الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ .

◆ أَبَتِ - مَعْذِرَةً - أَرَانَا شُغِلْنَا بِسَلَامَةَ مُوسَىٰ عَنْ « يَارَا » وَعَنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ إِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ .

◇ الْحَدِيثُ - يَا بُنَيَّ - ذُو شُجُونٍ ، وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ ، وَمَعْرِفَةُ مَنْ قَالَ ؛ تَقِفُكَ عَلَىٰ سِرِّ مَا قَالَ .

◆ أَبَتِ ، سَامِحْنِي إِذَا كُنتُ قَدْ أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ ، وَلَكِنَّ خُطُورَةَ الْمَوْضُوعِ تَجْعَلُنِي أُلِحُّ وَأُلْحِفُ فِي السُّؤَالِ .

◇ سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ ، فَنَحْنُ - كَمَا قُلْتُ لَكَ مِنْ قَبْلُ - مَا اجْتَمَعْنَا هُنَا إِلَّا لِتَسْأَلَ وَأُجِيبَ ؛ إِذَا كَانَ لِسُؤَالِكَ عِنْدِي جَوَابٌ .

◆ أَبَتِ ، وَمَاذَا كَانَتْ ثَمَرَةُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فِي مِصْرَ ؟ .

◇ كَانَتْ ثَمَرَتُهَا مَشْرُوعًا لِإِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ؛ تَقَدَّمَ بِهِ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي إِلَىٰ الْمَجْمَعِ اللُّغَوِيِّ بِمِصْرَ لِدِرَاسَتِهِ وَإِقْرَارِهِ .

◆ وَكَيْفَ اسْتُقْبِلَ هَذَا الْمَشْرُوعُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ أَسْوَأَ اسْتِقْبَالٍ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ تَصَدَّىٰ نَفَرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ وَوَأَدُوهُ فِي مَهْدِهِ .

◆ يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَىٰ « مِصْرَ » وَحْدَهَا ، وَإِنَّمَا وُجِدَتْ فِي بَعْضِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخْرَىٰ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، فَقَدْ قَامَ فِي « لُبْنَانَ » كُلٌّ مِنْ مِيشَالَ فَغَالِي ، وَجَبُّورِ عَبْدِ النُّورِ ، وَأَنِيسِ فَرِيحَةَ ، وَسَعِيدِ عَقْلٍ يَدْعُونَ إِلَىٰ إِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ ، وَكِتَابَتِهَا بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ بَدَلًا مِنَ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ .

◆ وَمَاذَا كَانَتْ ثَمَرَةُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فِي « لُبْنَانَ » ؟ .

◇ كَانَتْ ثَمَرَتُهَا كِتَابَ « يَارَا » ... فَهُوَ الَّذِي نَقَلَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مِنْ مَجَالِ النَّظَرِ

إِلَىٰ مَيْدَانِ التَّطْبِيقِ .

◆ وَهَلْ تَصَدَّىٰ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ أَحَدٌ فِي « لُبْنَانَ » ؟ .

◇ تَصَدَّىٰ لَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الْغَيْرَةِ عَلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتُرَاثِهَا الثَّمِينِ .

◆ وَمَنْ أَقْوَىٰ مَنْ تَصَدَّىٰ لَهَا ؟ .

◇ أَقْوَىٰ مَنْ تَصَدَّىٰ لَهَا كِتَابُ « يَارَا » ، فَهْوَ الَّذِي قَتَلَهَا فِي الْمَهْدِ .

◆ حَقًّا يَا أَبَتِ ، إِنَّ كِتَابَ « يَارَا » ، هُوَ الَّذِي وَأَدَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ فِي مَهْدِهَا .

◇ إِنَّ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْبَرَّاقَةَ كَثِيرًا مَا تَخْدَعُ النَّاسَ يَا بُنَيَّ ؛ فَإِذَا وُضِعَتْ مَوْضِعَ التَّطْبِيقِ تَبَدَّىٰ عَوَارُهَا[1] وَظَهَرَ زَيْفُهَا .

◆ إِنَّهَا كَالسَّرَابِ يَا أَبَتِ .

◇ نَعَمْ إِنَّهَا كَالسَّرَابِ الْخَادِعِ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ؛ فَإِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .

◆ وَإِنَّ قَاعِدَةَ الْبَقَاءُ لِلْأَصْلَحِ تَسْرِي عَلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ يَا أَبَتِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ :
﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[2].

◆ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، بِمُنَاسَبَةِ الْحَدِيثِ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ إِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا وَلَكِنِّي ...

---

(١) عَوَارها : عيبها .

(٢) سورة الرعد الآية ١٧.

◇ وَلَكِنَّكَ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَكِنِّي مُتَحَرِّجٌ مِنْ قَوْلِهِ .

◇ قُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ غَيْرِ حَرَجٍ .

◆ أَبَتِ ، مَا بَالُ أَصْحَابِ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْمَشْبُوهَةِ يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ أَحَدًا مِنْكُمْ يَتَصَدَّىٰ لَهُمْ .

◇ هَا نَحْنُ أُولَاءِ نَتَصَدَّىٰ لَهُمْ .

◆ مَا هَكَذَا يَكُونُ التَّصَدِّي .

◇ إِذَنْ كَيْفَ يَكُونُ فِي رَأْيِكَ ؟! .

◆ كَانَ عَلَىٰ الذَّادَةِ عَنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ أَنْ يُخْرِجُوا فِي الرَّدِّ عَلَىٰ هَذِهِ الدَّعْوَةِ أَكْثَرَ مِنْ كِتَابٍ ، كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُرْسِلُوا عَشَرَاتِ الْمَقَالَاتِ إِلَىٰ أُمَّهَاتِ الصُّحُفِ وَكُبْرَيَاتِ الْمَجَلَّاتِ .

◇ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا يَا بُنَيَّ ؛ فَقَدْ دَعَوْتَ إِلَىٰ رَشَادٍ ، وَلَكِنَّ دَعْوَتَكَ لَمْ تَبْرَأْ مِنَ اللَّحْنِ .

◆ وَمَا الَّذِي قُلْتُهُ حَتَّىٰ وَقَعْتُ فِي اللَّحْنِ ؟! .

◇ قُلْتَ : إِنَّ عَلَىٰ الذَّادَةِ عَنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ أَنْ يُرْسِلُوا عَشَرَاتِ الْمَقَالَاتِ إِلَىٰ أُمَّهَاتِ الصُّحُفِ .

◆ وَمَاذَا كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ طَالَ عُمْرُكَ ؟ .

◇ كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ عَلَىٰ الذَّادَةِ عَنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ أَنْ يُرْسِلُوا بِعَشَرَاتِ الْمَقَالَاتِ .

◆ وَهَلْ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِنَا : يُرْسِلُونَ عَشَرَاتِ الْمَقَالَاتِ ، وَقَوْلِنَا : يُرْسِلُونَ بِعَشَرَاتِ الْمَقَالَاتِ ؟ .

◇ فَرْقٌ كَبِيرٌ .

◆ وَأَيْنَ يَكْمُنُ هَذَا الْفَرْقُ ؟ .

◇ يَكْمُنُ فِي الْخُرُوجِ عَلَىٰ سَنَنِ الْعَرَبِ فِي اسْتِعْمَالِ الْفِعْلَيْنِ أَرْسَلَ وَ بَعَثَ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ دَأَبَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَىٰ الْقَوْلِ : أَرْسَلْتُ لِفُلَانٍ هَدِيَّةً وَبَعَثْتُ إِلَىٰ فُلَانٍ بِرَسُولٍ . وَهُمْ يُخَالِفُونَ سَنَنَ الْعَرَبِ فِي كِلْتَا الْعِبَارَتَيْنِ ، فَالْعَرَبُ تُفَرِّقُ فِي هَذَيْنِ الْفِعْلَيْنِ بَيْنَ مَا يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ ، وَمَا يُحْمَلُ .
فَتَقُولُ فِيمَا يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ : أَرْسَلْتُهُ وَبَعَثْتُهُ ، وَتَقُولُ فِيمَا يُحْمَلُ : بَعَثْتُ بِهِ وَأَرْسَلْتُ بِهِ .

◆ فَرْقٌ لَطِيفٌ .

◇ وَعَلَىٰ هَذَا لَا يُقَالُ : بَعَثْتُ لِفُلَانٍ هَدِيَّةً ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : بَعَثْتُ لِفُلَانٍ بِهَدِيَّةٍ ، كَمَا لَا يُقَالُ : بَعَثْتُ إِلَىٰ فُلَانٍ بِغُلَامٍ أَوْ بِرَسُولٍ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : بَعَثْتُ إِلَىٰ فُلَانٍ غُلَامًا أَوْ رَسُولًا .

◆ وَلَكِنْ ...

◇ مَا أَكْثَرَ اسْتِدْرَاكَاتِكَ ! وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ عَفْوًا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عَمَّا إِنْ كَانَ هَذَانِ الِاسْتِعْمَالَانِ قَدْ وَرَدَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ ؟ .

◇ بَلْ وَرَدَا فِي كَلَامِ اللَّهِ .

◆ عَلَىٰ الْعَيْنِ وَالرَّأْسِ .

◇ قَالَ تَعَالَىٰ : فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ : ﴿ **لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ** ﴾[1].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ النَّمْلِ عَلَىٰ لِسَانِ بِلْقَيْسَ : ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴾[2].

◆ أَبَتِ ، أَتَسْمَحُ لِي بِأَنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ أَضِفْهُ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ ؟ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً ، اكْتُبْ :

جَاءَ فِي دُرَّةِ الْغَوَّاصِ يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ : بَعَثْتُ إِلَيْهِ بِغُلَامٍ ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ هَدِيَّةً ... فَيُخْطِئُونَ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ فِيمَا يَنْصَرِفُ بِنَفْسِهِ : بَعَثْتُهُ ، وَأَرْسَلْتُهُ ... وَتَقُولُ فِيمَا يُحْمَلُ : بَعَثْتُ بِهِ ، وَأَرْسَلْتُ بِهِ .

---

(١) الآية ٧٠.

(٢) الآية ٣٥.

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ .

◇ وَلَقَّاكَ الْبِرَّ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَرْجُو أَلَّا أُحْرَمَ مِنْ طِيبِ جَنَاهَا الْيَوْمَ .

◇ لَنْ تُحْرَمَ مِنْ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنُلِمُّ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ .

◆ وَمَنْ عَلِيٌّ هَذَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ شَاعِرٌ فَارِسٌ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ ، ذُو مَذْهَبٍ فِي الدِّينِ وَالسِّيَاسَةِ ، الْتَزَمَ بِهِ عَنِ اقْتِنَاعٍ وَنَاضَلَ دُونَهُ بِإِخْلَاصٍ ، وَلَقِيَ فِي سَبِيلِهِ مَا يَلْقَاهُ أَصْحَابُ الْعَقَائِدِ(١).

◆ وَمَا مَذْهَبُهُ فِي الدِّينِ ؟ .

◇ لَقَدِ اعْتَنَقَ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ ؛ يَوْمَ كَانَ التَّسَنُّنُ يَجُرُّ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ الْبَلَاءَ ، فَوَالَىٰ أَوْلِيَاءَهُ وَعَادَىٰ أَعْدَاءَهُ ، وَجَرَّدَ لِسَانَهُ لِلذَّوْدِ عَنْهُ وَمُنَاضَلَةِ خُصُومِهِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ .

◆ وَمَا مَذْهَبُهُ فِي السِّيَاسَةِ ؟ .

◇ لَقَدْ كَانَ عَبَّاسِيَّ النَّزْعَةِ مُنْحَرِفًا عَنِ الطَّالِبِيِّينَ .

---

(١) انظر كتاب « علي بن الجهم » حياته وشعره للمؤلف .

◆ أَهُوَ الشَّاعِرُ الَّذِي يَقُولُ :

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرَّصَافَةِ وَالْجِسْرِ
جَلَبْنَ الْهَوَىٰ مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ إِنَّهُ هُوَ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ مِنْ عُيُونِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَهَا قِصَّةٌ .

◆ وَمَا قِصَّتُهَا طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ قِصَّةُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ هِيَ : أَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ قَدْ هَجَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ أَمِيرَ «خُرَاسَانَ» ، فَلَمَّا ظَفِرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ ؛ أَمَرَ أَنْ يُجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ إِلَّا مَا يَسْتُرُ الْعَوْرَةَ ، وَأَنْ يُصْلَبَ فِي مَيْدَانِ «الشَّاذِيَاخِ» ، فَأَنْشَدَ وَهُوَ عَلَىٰ خَشَبَةِ الصَّلْبِ قَصِيدَتَهُ التَّالِيَةَ :

لَمْ يَنْصِبُوا بِالشَّاذِيَاخِ صَبِيحَةَ الإِ(م) ثْنَيْنِ مَغْمُورًا وَلَا مَجْهُولَا
نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مِلْءَ عُيُونِهِمْ شَرَفًا وَمِلْءَ صُدُورِهِمْ تَبْجِيلَا
هَلْ كَانَ إِلَّا اللَّيْثَ فَارَقَ غِيلَهُ فَرَأَيْتَهُ فِي مَحْمَلٍ مَحْمُولَا
لَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ مِنْ شَدَّاتِهِ شَدًّا يُفَصِّلُ هَامَهُمْ تَفْصِيلَا
مَا عَابَهُ أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ فَالسَّيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَىٰ مَسْلُولَا
إِنْ يُبْتَذَلْ فَالْبَدْرُ لَا يُزْرِي[1] بِهِ أَنْ كَانَ لَيْلَةَ تِمِّهِ مَبْذُولَا[2]

---

(١) لا يزري به : لا يعيبه .
(٢) أي لا يعيب البدر في ليلة اكتماله انتشار ضيائه علىٰ كل الأرض .

أَوْ يَسْلِبُوهُ الْمَالَ يُحْزِنُ فَقْدُهُ ضَيْفًا أَلَمَّ وَطَارِقًا وَنَزِيلَا

أَوْ يَحْبِسُوهُ فَلَيْسَ يُحْبَسُ سَائِرٌ مِنْ شِعْرِهِ يَدَعُ الْعَزِيزَ ذَلِيلَا

إِنَّ الْمَصَائِبَ مَا تَعَدَّتْ دِينَهُ نِعَمٌ وَإِنْ صَعُبَتْ عَلَيْهِ قَلِيلَا

وَاللَّـهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ أَمْرِهِ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ نَاصِرًا وَوَكِيلَا

لَنْ تَسْلُبُوهُ - وَإِنْ سَلَبْتُمْ كُلَّ مَا خَوَّلْتُمُوهُ - وَسَامَةً وَقَبُولَا

هَلْ تَمْلِكُونَ لِدِينِهِ وَيَقِينِهِ وَجَنَانِهِ «وَبَيَانِهِ» تَبْدِيلَا

لَمْ تَنْقُصُوهُ وَقَدْ مَلَكْتُمْ ظُلْمَهُ مَا النَّقْصُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَهُولَا

كَادَتْ تَكُونُ مُصِيبَةً لَوْ أَنَّكُمْ أَوْضَحْتُمُ ذَنْبًا عَلَيْهِ جَلِيلَا

إِنْ كَانَ سَفَّ إِلَىٰ الدَّنِيئَةِ أَوْ يَرَىٰ غَيْرَ الْجَمِيلِ مِنَ الْأُمُورِ جَمِيلَا

لَوْ تُنْصِفُ الْأَيَّامُ لَمْ تَعْثُرْ بِهِ إِذْ كَانَ مِنْ عَثَرَاتِهِنَّ مُقِيلَا

وَلَتَعْلَمُنَّ إِذَا الْقُلُوبُ تَكَشَّفَتْ عَنْهَا الْأَكِنَّةُ[1] مَنْ أَضَلُّ سَبِيلَا

* * *

◆ أَبَتِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ:

لَنْ تَسْلُبُوهُ - وَإِنْ سَلَبْتُمْ كُلَّ مَا خَوَّلْتُمُوهُ - وَسَامَةً وَقَبُولَا

فَمَا الْمَعْنَىٰ الدَّقِيقُ لِكَلِمَةِ الْوَسَامَةِ؟.

◇ الْوَسَامَةُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْحُسْنِ، وَقَدْ فَصَّلَ الْعَرَبُ الْقَوْلَ فِي حُسْنِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ تَفْصِيلًا عَزَّ أَنْ نَجِدَ لَهُ نَظِيرًا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ.

◆ فَمَاذَا قَالُوا فِي ذَلِكَ؟.

(١) الأكنة: الستائر التي تكنها وتخفي ما بها.

◇ قَالُوا فِي تَرْتِيبِ حُسْنِ الْمَرْأَةِ :

إِذَا كَانَتْ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ مِسْحَةٌ مِنَ الْجَمَالِ ، فَهْيَ : **وَضِيئَةٌ** ، وَالرَّجُلُ **وَضِيءٌ** .

فَإِذَا اسْتَغْنَتْ بِجَمَالِهَا عَنِ التَّجَمُّلِ ، فَهْيَ : **غَانِيَةٌ** .

فَإِذَا كَانَ حُسْنُهَا ثَابِتًا كَأَنَّهُ وُسِمَ ، فَهْيَ : **وَسِيمَةٌ** ، وَالرَّجُلُ **وَسِيمٌ** .

فَإِذَا قُسِمَ لَهَا حَظٌّ وَافِرٌ مِنَ الْحُسْنِ ، فَهْيَ : **قَسِيمَةٌ** .

فَإِذَا كَانَ النَّظَرُ إِلَيْهَا يَسُرُّ الرُّوعَ[1] ، فَهْيَ : **رَائِعَةٌ** .

فَإِذَا غَلَبَتِ النِّسَاءَ بِحُسْنِهَا ، فَهْيَ : **بَاهِرَةٌ** .

◆ مَا أَغْنَىٰ هَذِهِ اللُّغَةَ يَا أَبَتِ ، وَمَا أَدَقَّ اسْتِعْمَالَاتِهَا !! .

◇ إِذَا أَرَدْتَ دِقَّةَ الِاسْتِعْمَالِ ؛ فَاسْتَمِعْ إِلَىٰ مَا يَقُولُهُ عُلَمَاءُ هَذِهِ اللُّغَةِ فِي تَقْسِيمِ الْحُسْنِ عَلَىٰ الْأَعْضَاءِ .

◆ مَاذَا يَقُولُونَ ؟ .

◇ يَقُولُونَ :

الصَّبَاحَةُ فِي الْوَجْهِ ، وَ **الْوَضَاءَةُ** فِي الْبَشَرَةِ .

وَ **الْجَمَالُ** فِي الْأَنْفِ ، وَ **الْحَلَاوَةُ** فِي الْعَيْنِ .

وَ **الْمَلَاحَةُ** فِي الْفَمِ ، وَ **الظَّرْفُ** فِي اللِّسَانِ .

وَ **الرَّشَاقَةُ** فِي الْقَدِّ ، وَ **اللَّبَاقَةُ** فِي الشَّمَائِلِ .

وَ **النَّضَارَةُ** فِي اللَّوْنِ ... وَمِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ** ﴾[2] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴾[3] .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ أَكْرَمَ الْجَزَاءِ ؛ فَقَدْ كَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ .

---

(١) الرُّوع : أي النفس .

(٢) سورة القيامة الآية ٢٢.

(٣) سورة المطففين الآية ٢٤.

◇ وَجَازَىٰ هَٰذِهِ اللُّغَةَ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ فَقَدْ أَعْطَتْ بِسَخَاءٍ ، وَلَبَّتْ كُلَّ مَطْلَبٍ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْيَوْمِ أَرْجُو أَلَّا أُحْرَمَ مِنْهَا .

◇ لَنْ تُحْرَمَ مِنْهَا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَهِيَ لَيْسَتْ بِطُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَ إِنَّمَا هِيَ طُرَفٌ .

◆ تَفَضَّلْ .

◇ سَأَلَ رَجُلٌ آخَرَ مِنْ أَصْحَابِ النَّحْوِ ؛ فَقَالَ : هَلِ الظَّبْيُ مَعْرِفَةٌ أَمْ نَكِرَةٌ ؟ .
فَقَالَ : إِذَا كَانَ مَشْوِيًّا عَلَىٰ الْمَائِدَةِ ؛ فَهُوَ مَعْرِفَةٌ ...
أَمَّا إِذَا كَانَ فِي الصَّحْرَاءِ يَعْدُو ؛ فَهُوَ نَكِرَةٌ . [ضَحِكٌ] .
وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا اسْمُ الْمَرَقِ عِنْدَكُمْ ؟ .
فَأَجَابَ : « السَّخِينُ » .
قَالُوا : فَإِذَا بَرَدَ ؟ .
قَالَ لَا نَدَعُهُ يَبْرُدُ . [ضَحِكٌ] .
وَسُئِلَ الشَّاعِرُ الْمِصْرِيُّ « إِمَامُ الْعَبْدُ » وَكَانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ ، سُئِلَ :
لِمَاذَا تَخْتَارُ رَبْطَةَ عُنُقِكَ بَيْضَاءَ ؟ .
فَأَجَابَ : لِيَعْرِفَ النَّاسُ أَيْنَ يَنْتَهِي جِسْمِي ، وَأَيْنَ يَبْتَدِئُ رَأْسِي [ضَحِكٌ] .
وَجَلَسَ مَرَّةً يَكْتُبُ ، فَسَقَطَتْ نُقْطَةُ حِبْرٍ عَلَىٰ الْوَرَقِ ؛ فَقَالَ لَهُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ :
نَشِّفْ عَرَقَكَ [ضَحِكٌ] .

* * *

الْجَلْسَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ

حُرُوفُ الْحَرَكَاتِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، مَعْذِرَةً ، فَإِنَّهُ مَا يَزَالُ فِي النَّفْسِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ إِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ .

◇ سَأَسُلُّ هَذَا الشَّيْءَ مِنْ نَفْسِكَ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ أَنَا أَعْلَمُ ذَلِكَ ؛ فَسُلْطَانُ بَيَانِكَ لَا يُقَاوَمُ ، وَمَنْطِقُ حُجَّتِكَ لَا يُدْحَضُ .

◇ بَلْ هُوَ سُلْطَانُ الْحَقِّ ؛ الَّذِي يَدْمَغُ الْبَاطِلَ وَيُزْهِقُهُ .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ... شَعَرْتُ بَعْدَ أَنِ افْتَرَقْنَا فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ شَعَرْتُ ...

◇ شَعَرْتَ بِمَاذَا ؟ .

◆ شَعَرْتُ - طَالَ بَقَاؤُكَ - أَنَّنَا تَنَاوَلْنَا الْمَوْضُوعَ تَنَاوُلًا خَطَابِيًّا عَاطِفِيًّا يُرْضِي وَلَكِنْ لَا يُقْنِعُ ، وَيَحُومُ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ وَلَكِنْ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ .

◇ طَيِّبٌ طَيِّبٌ .

◆ أَفَلَدَيْكَ مَانِعٌ مِنْ أَنْ نَتَنَاوَلَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ تَنَاوُلًا عِلْمِيًّا مَوْضُوعِيًّا كَمَا يَقُولُونَ .

◇ مَانِعٌ ... لَيْسَ لَدَيَّ أَيُّ مَانِعٍ ، وَإِنَّمَا عِنْدِي أَكْثَرُ مِنْ دَافِعٍ ؛ فَلَيْسَ أَخْطَرُ عَلَىٰ الْقَضَايَا الْعِلْمِيَّةِ مِنْ مَنْطِقِ الْعَوَاطِفِ .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ وَالْبِرَّ .

◇ وَجَعَلَكَ اللَّهُ - أَنْتَ وَإِخْوَتَكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ - ذَادَةً عَنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ تَصُدُّونَ عَنْهَا عُدْوَانَ الْعَادِينَ ، وَتَحْمُونَهَا مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

◆ أَبَتِ ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَىٰ إِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ، فِيهِمُ الْمُسْتَشْرِقُ الْمُحَنَّكُ ، وَالْكَاتِبُ الْمَعْرُوفُ ، وَالْعَالِمُ الْمَجْمَعِيُّ ، أَفَخَرَجَ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ النَّاسِ بِدَعْوَتِهِمْ هَذِهِ مِنْ غَيْرِ حُجَجٍ تُؤَيِّدُهُمْ ، وَمَنْطِقٍ يَسْنُدُهُمْ ؟! .

◇ بَلْ كَانَتْ لَهُمْ حُجَجُهُمْ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا أَبْرَزُ هَذِهِ الْحُجَجِ وَأَقْوَاهَا ؟ .

◇ إِنَّ حُجَّتَهُمُ الْكُبْرَىٰ فِيمَا دَعَوْا إِلَيْهِ - يَا بُنَيَّ - هِيَ أَنَّ رَسْمَ الْكَلِمَاتِ بِالْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ لَا تَتَيَسَّرُ مَعَهُ قِرَاءَةُ النُّصُوصِ قِرَاءَةً مُسْتَرْسِلَةً مَضْبُوطَةً ، وَذَلِكَ لِخُلُوِّ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ حُرُوفِ الْحَرَكَاتِ .

◆ حُرُوفُ الْحَرَكَاتِ !! وَمَا حُرُوفُ الْحَرَكَاتِ ؟! لَمْ أَفْهَمْ مَا يُرِيدُونَ .

◇ يُرِيدُونَ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ اللَّاتِينِيَّةَ قَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنِ الْحَرَكَاتِ ، فَالضَّمَّةُ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْحَرْفِ " O " « أُو » ، وَالْكَسْرَةُ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْحَرْفِ " I " « آي » ، وَالْفَتْحَةُ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْحَرْفِ " A " « آ » ، بَيْنَمَا حُرِمَتْ الْأَبْجَدِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ الْأُورُبِيَّ يَقْرَأُ الْكَلِمَةَ مَشْكُولَةً مَضْبُوطَةً مِنْ غَيْرِ لَبْسٍ أَوْ تَخْمِينٍ .

◆ الْمِثَالَ الْمِثَالَ يَا أَبَتِ ، فَالْمِثَالُ يُزِيلُ الْإِشْكَالَ .

◇ الْمِثَالُ ... خُذِ الْمِثَالَ ، يَقُولُ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةُ - مَثَلًا - إِنَّ كَلِمَةَ « بَرٌّ » وَهُوَ ضِدُّ الْبَحْرِ ، وَ« بُرٌّ » وَهُوَ الْقَمْحُ ، وَ« بِرٌّ » وَهُوَ الْخَيْرُ ، إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْمُثَلَّثَةَ تُكْتَبُ بِالْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ ، وَعَلَىٰ الْقَارِئِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يُعْمِلَ ذَكَاءَهُ لِضَبْطِهَا ، وَأَنْ يَكِدَّ ذِهْنَهُ لِفَهْمِ الْمُرَادِ مِنْهَا ، وَأَنْ يَسْتَعِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالسِّيَاقِ وَالسِّبَاقِ ...
وَلَوْ أَنَّهَا كُتِبَتْ بِالْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ ؛ لَأَثْبَتْنَا بَعْدَ الْبَاءِ حَرْفًا يَدُلُّ عَلَىٰ الْحَرَكَةِ الْمَطْلُوبَةِ ، وَلَقَرَأْنَا الْكَلِمَةَ قِرَاءَةً صَحِيحَةً ، وَلَفَهِمْنَا مَعْنَاهَا مِنْ قِرَاءَتِهَا لَا مِنَ السِّيَاقِ وَالسِّبَاقِ .

◆ حُجَّةٌ بَالِغَةٌ يَا أَبَتِ ، وَمَنْطِقٌ قَوِيمٌ .

◇ صَبْرَكَ يَا بُنَيَّ صَبْرَكَ ، إِذَا جَاءَكَ شَاكٍ وَقَدْ فُقِئَتْ إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ فَلَا تَحْكُمْ لَهُ ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَشْكُوُّ مِنْهُ قَدْ فُقِئَتْ عَيْنَاهُ كِلْتَاهُمَا .

◆ مَعْذِرَةً يَا أَبَتِ ، فَقَدْ تَعَجَّلْتُ .

◇ نَعَمْ لَقَدْ تَعَجَّلْتَ ؛ فَهُمْ حِينَ قَاسُوا لُغَتَنَا عَلَىٰ اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةِ كَانُوا كَمَنْ

يَقِيسُ الْبَيْضَ عَلَىٰ الْبَاذِنْجَانِ ؛ بِجَامِعِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُدَوَّرٌ .

◆ نُكْتَةٌ طَرِيفَةٌ يَا أَبَتِ .

◇ لَيْسَتْ بِنُكْتَةٍ - يَا بُنَيَّ - وَإِنَّمَا هِيَ وَاقِعٌ مِنْ حَيَاةِ بَعْضِ النَّاسِ ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقِيسُونَ أَمْرًا عَلَىٰ آخَرَ لِأَدْنَىٰ مُلَابَسَةٍ ، وَيَنْسَوْنَ أَوْ يَتَنَاسَوْنَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ فُرُوقٍ أَسَاسِيَّةٍ جِذْرِيَّةٍ .

◆ أَبَتِ عَفْوَكَ ، أَرَانَا نَبْتَعِدُ عَنْ لُبِّ الْمَوْضُوعِ ، وَأَنَا أَتَلَهَّفُ لِسَمَاعِ الْحُجَّةِ الَّتِي تَقْرَعُ الْحُجَّةَ ، وَالدَّلِيلِ الَّذِي يَدْمَغُ الدَّلِيلَ .

◇ إِلَيْكَ الْحُجَجَ وَهِيَ كَثِيرَةٌ .

◆ وَأَوَّلُهَا ...

◇ أَوَّلُهَا وَأَبْسَطُهَا : أَنَّ الْأَبْجَدِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ قَدِ اسْتَغْنَتْ عَنْ حُرُوفِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ فِي صُلْبِ الْكَلِمَةِ " i ، o ، a " « آ ، أو ، آي » بِالْحَرَكَاتِ الَّتِي تُوضَعُ فَوْقَ الْحُرُوفِ أَوْ تَحْتَهَا ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنَ اللَّبْسِ بَيْنَ « بَرٍّ » ، وَ« بُرٍّ » ، وَ« بِرٍّ » ؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَضَعَ لِلْبَاءِ فَتْحَةً أَوْ ضَمَّةً أَوْ كَسْرَةً ، وَكَفَىٰ اللَّهُ الْكَاتِبِينَ شَرَّ حُرُوفِ الْحَرَكَاتِ .

◆ وَهَلْ لِحُرُوفِ الْحَرَكَاتِ شَرٌّ ؟ يَا أَبَتِ .

◇ شَرٌّ كَبِيرٌ ، وَدَفْعُ هَذَا الشَّرِّ يُمَثِّلُ الْحُجَّةَ الثَّانِيَةَ مِنَ الْحُجَجِ الْكَثِيرَةِ .

◆ الْإِيضَاحَ الْإِيضَاحَ ، طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ إِلَيْكَ الْإِيضَاحَ يَا بُنَيَّ ، إِنَّ لُغَتَنَا تُغَايِرُ اللُّغَاتِ الْأُورُبِيَّةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لُغَةٌ

مُعْرَبَةٌ ؛ تَخْتَلِفُ فِيهَا أَحْوَالُ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ بِاخْتِلَافِ مَوَاقِعِهَا مِنَ الْجُمَلِ .

◆ وَمَا عَلَاقَةُ ذَلِكَ بِمَوْضُوعِنَا يَا أَبَتِ ؟ .

◇ عَلَاقَتُهُ هِيَ أَنَّنَا لَوْ أَخَذْنَا بِطَرِيقَةِ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْحَرَكَاتِ بِحُرُوفٍ تُثْبَتُ فِي صُلْبِ الْكَلِمَةِ ؛ لَأَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ وُقُوعِ الْجَمَاهِيرِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ قَوَاعِدَ النَّحْوِ فِي فَيْضٍ مِنَ الْخَطَإِ .

◆ صَحِيحٌ صَحِيحٌ .

◇ وَبِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ السَّوَادُ مِنْ شَعْبِنَا وَالصِّغَارُ مِنْ أَبْنَائِنَا أَنْ يَكْتُبُوا عِبَارَةً صَحِيحَةً ؛ إِلَّا إِذَا أَتْقَنُوا أَحْكَامَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ، وَالْحَالِ وَالتَّمْيِيزِ ، وَعَرَفُوا النَّوَاصِبَ وَالْجَوَازِمَ ، وَوَقَفُوا عَلَىٰ ضَبْطِ عَيْنِ الْفِعْلِ ، وَأَحْكَمُوا نُطْقَ الْأَسْمَاءِ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ .

◇ وَبِذَلِكَ يُحَالُ دُونَ أُمَّتِنَا وَدُونَ تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ ، وَتَسُودُ الْأُمِّيَّةُ عَامَّةَ شَعْبِنَا .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ ! .

◇ وَبِذَلِكَ - أَيْضًا - تَقَرُّ عُيُونُ أَعْدَائِنَا وَيَبْلُغُونَ مِنَّا مَا يُرِيدُونَ .

◆ الْآنَ فَهِمْتُ قِصَّةَ قِيَاسِ الْبَيْضِ عَلَىٰ الْبَاذِنْجَانِ بِجَامِعِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُدَوَّرٌ .

◇ وَسَتَفْهَمُهَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، إِذَا تَذَكَّرْتَ أَنَّ فِي الْعَرَبِيَّةِ تِسْعَةَ حُرُوفٍ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ الَّتِي يَدْعُونَنَا إِلَىٰ اسْتِعْمَالِهَا .

◆ وَكَيْفَ عَالَجَ دُعَاةُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ هَذِهِ الْمُعْضِلَةَ ؟ .

◇ عَالَجُوهَا بِإِحْدَىٰ طَرِيقَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا : أَنْ تُؤْخَذَ هَذِهِ الْحُرُوفُ مِنَ الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنْ تُضَمَّ إِلَىٰ الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ كَمَا هِيَ .

◆ سَتُصْبِحُ الْأَبْجَدِيَّةُ الْمُقْتَرَحَةُ خَلِيطًا مُشَوَّشًا مُشَوَّهًا غَيْرَ مُتَنَاسِقٍ !.

◇ وَمَا فِي ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، فَالَّذِي يَخْطُبُ الْحَسْنَاءَ لَا يَسْتَغْلِي الْمَهْرَ !!! .

◆ بَلْ نَخْطُبُ الشَّوْهَاءَ وَنَدْفَعُ غَالِيَ الْمُهُورِ !.

◇ هَذَا هُوَ الِاقْتِرَاحُ الْأَوَّلُ .

◆ وَمَا الِاقْتِرَاحُ الثَّانِي ؟ .

◇ الِاقْتِرَاحُ الثَّانِي : هُوَ مَا أَخَذَ بِهِ صَاحِبُ كِتَابِ « يَارَا » .

◆ وَعَلَىٰ أَيَّةِ أُسُسٍ بُنِيَ الِاقْتِرَاحُ الثَّانِي ؟ .

◇ بُنِيَ عَلَىٰ اسْتِعْمَالِ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ كُلِّهَا بَعْدَ أَنْ ضَمَّ إِلَيْهَا صَاحِبُ الِاقْتِرَاحِ سَبْعَةَ حُرُوفٍ جَدِيدَةٍ اخْتَرَعَهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، وَبَعْدَ أَنْ أَضَافَ إِلَيْهَا أَحَدَ عَشَرَ حَرْفًا لَاتِينِيًّا مَوْسُومَةً بِبَعْضِ الْإِشَارَاتِ الْخَاصَّةِ .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ ! أَنَحْمِلُ النَّاشِئَ مِنْ أَبْنَائِنَا عَلَىٰ تَعَلُّمِ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا بَدَلًا مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ ؛ حَتَّىٰ تُكْتَبَ الْكَلِمَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ !!! .

◇ وَمَا فِي ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ؟ أَلَيْسَ فِي هَذَا تَجْدِيدٌ !!! .

◆ بَلْ إِنَّهُ تَبْدِيدٌ .

◇ نَعَمْ ، إِنَّهُ وَاللَّهِ تَجْهِيلٌ وَتَبْدِيدٌ .

* * *

◆ أَبَتِ ، يَبْدُو أَنَّ مَبْحَثَ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ قَدِ اكْتَمَلَ وَنَضَجَ .

◇ نَضَجَ ، أَمْ نَضِجَ ؟ .

◆ وَاللَّهِ لَا أَعْلَمُ ، أَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ نَضَجَ ، وَ نَضِجَ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ هُوَ الْفَرْقُ مَا بَيْنَ الْخَطَإِ وَالصَّوَابِ .

◆ أَبَتِ ، سَدَدْتَ عَلَيَّ الْمَسَالِكَ ، حَتَّى كِدْتَ تَعْقِلُ[1] لِسَانِي .

◇ مَعَاذَ اللَّهِ ! مَا أَرَدْتُ أَنْ أَعْقِلَ لِسَانَكَ ، وَ إِنَّمَا وَدِدْتُ أَنْ أُقَوِّمَ بَيَانَكَ .

◆ وَمَا وَجْهُ الْخَطَإِ فِي نَضَجَ هَذِهِ ؟ .

◇ هُوَ أَنَّكَ فَتَحْتَ مِنْهَا مَا يَجِبُ أَنْ يُكْسَرَ .

◆ تُرِيدُ أَنْ أَقُولَ : نَضِجَ بِكَسْرِ الضَّادِ .

◇ لَسْتُ أَنَا الَّذِي أُرِيدُهُ ، وَ إِنَّمَا تُرِيدُهُ مِنْكَ الْمُعْجَمَاتُ ، وَمُتُونُ اللُّغَةِ ، وَيُرِيدُهُ مِنْكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَيْضًا .

◆ عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ .

◇ سَلِمَ الرَّأْسُ ، وَحُفِظَتِ الْعَيْنُ .

---

(١) تعقل لساني : تمسكه كأنما قيدته بعقال فلا أستطيع الكلام .

◆ وَمَا الَّذِي جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِصْدَاقًا لِذَلِكَ.

◇ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي وَصْفِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ ﴾[1].

◆ وَلَكِنْ أَيْنَ أُثْبِتُ هَذَا فِي مُذَكِّرَاتِي؟.

◇ أَثْبِتْهُ فِي بَابِ مَا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مَكْسُورًا، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهِ فَتَفْتَحُهُ.

◆ أَهُنَاكَ غَيْرُ «نَضَجَ» عَفْوَكَ «نَضِجَ» حَتَّى أَفْتَحَ لَهُ بَابًا فِي مُذَكِّرَاتِي؟!.

◇ كَثِيرٌ كَثِيرٌ.

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا؟.

◇ مِنْ أَمْثَالِ صَعَدَ، وَصَوَابُهَا: صَعِدَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ.

وَيَرْجَعُ، وَصَوَابُهَا: يَرْجِعُ بِكَسْرِ الْجِيمِ.

وَالْجَنَازَةُ، وَصَوَابُهَا: الْجِنَازَةُ بِكَسْرِ الْجِيمِ.

وَالْمَرْوَحَةُ، وَصَوَابُهَا: الْمِرْوَحَةُ بِكَسْرِ الْمِيمِ.

وَالْمَبْرَدُ، وَصَوَابُهَا: الْمِبْرَدُ بِكَسْرِ الْمِيمِ.

وَالْمَخْرَزُ، وَصَوَابُهَا: الْمِخْرَزُ[2] بِكَسْرِ الْمِيمِ.

وَمَنْسَرُ الطَّائِرِ، وَصَوَابُهَا: الْمِنْسَرُ[3] بِكَسْرِ الْمِيمِ.

وَالْبَطِّيخُ، وَصَوَابُهَا: الْبِطِّيخُ بِكَسْرِ الْبَاءِ.

وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ لِلسُّورَتَيْنِ الْمَعْرُوفَتَيْنِ، وَالصَّوَابُ: الْمُعَوِّذَتَيْنِ بِكَسْرِ الْوَاوِ الْمُشَدَّدَةِ.

وَالْمَنْدِيلُ، وَالصَّوَابُ: الْمِنْدِيلُ بِكَسْرِ الْمِيمِ.

---

(١) سورة النساء الآية ٥٦.

(٢) المِخرز: آلة لخرق الجلود وما شابهها.

(٣) المِنسر: منقار الطائر.

وَكَلِمَةُ مُلْحَقٌ مِنَ الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: إِنَّ عَذَابَكَ الْجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحَقٌ، وَالصَّوَابُ: مُلْحِقٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ.

◆ جُزِيتَ أَلْفَ خَيْرٍ يَا أَبَتِ، فَقَدْ وَفَّيْتَ وَكَفَيْتَ.

* * *

◆ أَبَتِ، أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ الْوَقْتُ قَدْ ضَاقَ عَنْ رَوْضَةِ الشِّعْرِ؛ فَأُحْرَمُ مِنْ طِيبِ شَذَاهَا.

◇ لَنْ تُحْرَمَ مِنْهَا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَقَدْ وَعَدْتُكَ بِأَنْ تَكُونَ لِكُلِّ جَلْسَةٍ طَاقَةٌ مِنْ أَزَاهِيرِ الشِّعْرِ، وَأَنَا عِنْدَ وَعْدِي.

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي جَنَيْتَ مِنْ رَوْضِهِ الْيَوْمَ؟.

◇ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ.

◆ وَاضِعُ عِلْمِ النَّحْوِ؟!.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ، وَاضِعُ عِلْمِ النَّحْوِ.

◆ أَبُو الْأَسْوَدِ هَذِهِ كُنْيَتُهُ، فَمَا اسْمُهُ طَالَ عُمْرُكَ؟.

◇ اسْمُهُ: ظَالِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سُفْيَانَ بْنِ جَنْدَلٍ الدُّؤَلِيُّ.

◆ مَا هَذِهِ الْقَسْوَةُ فِي الْأَسْمَاءِ: ظَالِمُ بْنُ جَنْدَلٍ!!.

◇ وَلَكِنَّ شِعْرَهُ لَيْسَ كَذَلِكَ فَمَا هُوَ بِظَالِمٍ، وَلَا هُوَ بِجَنْدَلٍ... وَإِنَّمَا هُوَ أَزْهَىٰ مِنَ الْبُرُودِ الْيَمَانِيَةِ[1]، وَأَنْعَمُ مِنَ الدِّيبَاجِ[2].

---

(١) البرد: كساء مخطط يلتحف به، والبرود اليمانية المصنوعة في «اليمن» أزهاها وأحسنها منظرًا.
(٢) الديباج: الحرير الخالص.

◆ وَكَيْفَ نَشَأَ أَبُو الْأَسْوَدِ ، وَمَتَىٰ مَاتَ ؟ .

◇ كَانَ أَبُو الْأَسْوَدِ يَا بُنَيَّ عَالِمًا فَقِيهًا فَارِسًا شَاعِرًا ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ وَاضِعُ عِلْمِ النَّحْوِ ، وَقَدْ مَاتَ بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ لِلْهِجْرَةِ .

◆ وَمَا الزَّهْرَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ هِيَ قِطْعَةٌ رَقِيقَةٌ يَصِفُ فِيهَا حَمَامَةً .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ يَقُولُ :

وَسَاجِعٍ فِي فُرُوعِ الْأَيْكِ هَيَّجَنِي
لَمْ أَدْرِ لِمْ نَاحَ مِمَّا بِي وَلِمْ سَجَعَا

أَبَاكِيًا إِلْفَهُ مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِهِ
أَمْ جَازِعًا لِلنَّوَىٰ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقَعَا

يَدْعُو حَمَامَتَهُ وَالطَّيْرُ هَاجِعَةٌ
فَمَا هَجَعْتُ لَهُ لَيْلًا وَلَا هَجَعَا

مُوَشَّحٌ سُنْدُسًا ، خُضْرٌ مَنَاكِبُهُ
تَرَىٰ مِنَ الْمِسْكِ فِي أَذْيَالِهِ لُمَعَا

لَهُ مِنَ الْآسِ[1] طَوْقٌ فَوْقَ لَبَّتِهِ
مِنَ الْبَنَفْسَجِ وَالْخِيرِيِّ[2] قَدْ جُمِعَا

---

(١) الآس : شجر عطري دائم الخضرة أبيض الزهر أو ورديه .
(٢) الخيري : نبات له زهر أصفر ، يستخرج دهنه ويدخل في الأدوية .

كَأَنَّمَا عَبَّ مِنْ مُسْوَدِّ غَالِيَةٍ[1]

وَحَلَّ مِنْ تَحْتِهِ الْكَافُورُ فَانْتَفَعَا

كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مِنْ حُسْنِ اصْفِرَارِهِمَا

فَصَّانِ مِنْ حَجَرِ الْيَاقُوتِ قَدْ جُمِعَا

كَأَنَّ رِجْلَيْهِ مِنْ حُسْنِ احْمِرَارِهِمَا

مَا رَقَّ مِنْ شُعَبِ الْمَرْجَانِ فَاتَّسَعَا

شَكَا النَّوَىٰ فَبَكَىٰ خَوْفَ الْأَسَىٰ فَرَمَىٰ

بَيْنَ الْجَوَانِحِ مِنْ أَوْجَاعِهِ وَجَعَا

وَالرِّيحُ تَخْفِضُهُ طَوْرًا وَتَرْفَعُهُ

طَوْرًا، فَمُنْخَفِضًا يَدْعُو وَمُرْتَفِعَا

كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي رَأْسِ صَوْمَعَةٍ

يَتْلُو الزَّبُورَ، وَنَجْمُ الصُّبْحِ قَدْ طَلَعَا

* * *

◆ أَبَتِ، قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ:

وَسَاجِعٍ فِي فُرُوعِ الْأَيْكِ هَيَّجَنِي

لَمْ أَدْرِ لِمْ نَاحَ مِمَّا بِي وَلِمْ سَجَعَا

فَمَا السَّجْعُ طَالَ بَقَاؤُكَ؟.

◇ السَّجْعُ يَا بُنَيَّ: ضَرْبٌ مِنْ أَصْوَاتِ الطُّيُورِ، وَقَدْ فَصَّلَ الْعَرَبُ الْقَوْلَ فِي الْأَصْوَاتِ تَفْصِيلًا عَزَّ أَنْ تَجِدَ لَهُ نَظِيرًا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ... فَعَقَدُوا

(١) الغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.

عِشْرِينَ بَابًا وَنَيِّفًا[1] فِي كُتُبِ اللُّغَةِ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْأَصْوَاتِ .

◆ عِشْرُونَ بَابًا وَنَيِّفٌ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْأَصْوَاتِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَلَمْ يَتْرُكُوا إِنْسَانًا أَوْ حَيَوَانًا أَوْ جَمَادًا ؛ إِلَّا وَفَصَّلُوا الْقَوْلَ فِي صَوْتِهِ .

◆ وَمَاذَا قَالُوا فِي أَصْوَاتِ الطُّيُورِ ؟ .

◇ قَالُوا :

الْهَدِيلُ، وَ ***الْهَدِيرُ*** : صَوْتُ الْحَمَامِ .
وَ ***الْعَنْدَلَةُ*** : صَوْتُ الْعَنْدَلِيبِ .
وَ ***السَّقْسَقَةُ*** : صَوْتُ الْعُصْفُورِ .
وَ ***النَّعِيقُ***، وَ ***النَّعِيبُ*** : صَوْتُ الْغُرَابِ .
وَ ***الصَّفِيرُ*** : صَوْتُ النَّسْرِ .
وَ ***الزُّقَاءُ***، وَ ***الصُّقَاعُ*** : صَوْتُ الدِّيكِ .
وَ ***الْقَوْقَأَةُ***، وَ ***النَّقْنَقَةُ*** : صَوْتُ الدَّجَاجَةِ .
وَ ***الصَّرْصَرَةُ*** : صَوْتُ الْبَازِي .
وَ ***الْقَعْقَعَةُ*** : صَوْتُ الصَّقْرِ .
وَ ***السَّجْعُ*** : صَوْتُ الْقُمْرِيِّ .

◆ جَزَىٰ اللَّهُ عَنَّا لُغَةَ الْقُرْآنِ خَيْرَ الْجَزَاءِ ؛ فَمَا تَرَكَتْ زِيَادَةً لِمُسْتَزِيدٍ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ، أَرْجُو أَلَّا تَنْسَاهَا .

---

(١) النيف : من العدد من واحد إلىٰ ثلاثة ولا يقال إلا بعد العقد ، يقال عشرون ونيف ، وثلاثون ونيف ، إلخ .

◇ إِذَا نَسِيتُهَا أَنَا فَلَنْ تَنْسَاهَا أَنْتَ .

◆ عَجِّلْ بِهَا عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ .

◇ جَاءَ فِي كِتَابِ الْمُسْتَطْرَفِ لِلْأَبْشِيهِيِّ : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ الْمُلَقَّبَ بِالْقَسِّ كَانَ عِنْدَ أَهْلِ مَكَّةَ بِمَنْزِلَةِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ[1] فِي الْعِبَادَةِ ، وَقَدْ مَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ بِسَلَّامَةَ وَهِيَ تُغَنِّي ؛ فَوَقَفَ يَسْمَعُ غِنَاءَهَا ، فَرَآهُ مَوْلَاهَا[2]، فَقَالَ :
هَلْ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ وَتَسْمَعَ ... فَأَبَىٰ .
فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّىٰ دَخَلَ فَغَنَّتْهُ فَأَعْجَبَتْهُ ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْمَعُهَا وَيُلَاحِظُهَا النَّظَرَ حَتَّىٰ شُغِفَ بِهَا ... فَلَمَّا شَعَرَتْ بِتَعَلُّقِهِ بِهَا وَلَحْظِهِ إِيَّاهَا ؛ غَنَّتْهُ :

رُبَّ رَسُولَيْنِ لَنَا بَلَّغَا رِسَالَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَحَا
الطَّرْفُ لِلطَّرْفِ بَعَثْنَاهُمَا فَقَضَيَا حَاجًا ، وَمَا صَرَّحَا

فَهَامَ بِهَا حَتَّىٰ كَادَ يَهْلِكُ ، فَقَالَتْ لَهُ :
إِنِّي وَاللَّهِ أُحِبُّكَ .
قَالَ : وَأَنَا وَاللَّهِ أُحِبُّكِ .
قَالَتْ : وَأُحِبُّ أَنْ أُوَاصِلَكَ .
قَالَ : وَأَنَا وَاللَّهِ كَذَلِكَ .
قَالَتْ : فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ ؟ .
قَالَ : أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ صَدَاقَةُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكِ ؛ عَدَاوَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾[3].

* * *

(١) عطاء بن أبي رباح : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .
(٢) مولاها : سيدها .
(٣) سورة الزخرف الآية : ٦٧.

الْجَلْسَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ

كِتَابَةُ اللُّغَاتِ بِالْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، مَا يَزَالُ لَدَيَّ سُؤَالٌ يَتَّصِلُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ إِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ، فَهَلْ تَسْمَحُ ؟ .

◇ أَسْمَحُ ! سَلْ يَا بُنَيَّ سَلْ ، فَفِي أَسْئِلَتِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ أَجْزَلَ الْجَزَاءِ ...
أَبَتِ ، أَيُّهُمْ أَكْثَرُ عَدَدًا ؟ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ ؛ أَمِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ بِالْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ؟ .

◇ وَمَا عَلَاقَةُ الْقِلَّةِ أَوِ الْكَثْرَةِ بِمَوْضُوعِنَا هَذَا يَا بُنَيَّ ؟!! .

◆ قَدْ لَا تَكُونُ لَهَا عَلَاقَةٌ أَسَاسِيَّةٌ بِالْمَوْضُوعِ وَلَكِنَّهَا تُلْقِي نُورًا عَلَيْهِ ، وَتُعْطِي فِكْرَةً لِلْبَاحِثِ .

◇ بَلْ إِنَّ مَنْطِقَ الْأَرْقَامِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْقَضَايَا كَثِيرًا مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّضْلِيلِ ،

فَصَلَاحُ الْحُرُوفِ لِلْكِتَابَةِ لَا يُقَاسُ بِكَثْرَةِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ بِهَا أَوْ بِقِلَّتِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُقَاسُ بِأَمْرٍ آخَرَ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ إِنَّ صَلَاحَ الْحُرُوفِ لِلْكِتَابَةِ - يَا بُنَيَّ - يَعُودُ إِلَىٰ أَنْوَاعِ اللُّغَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ .

◆ أَنْوَاعُ اللُّغَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ !! .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَفِي الْعَالَمِ ثَلَاثُ أُسَرٍ لُغَوِيَّةٍ هِيَ : الْأُسْرَةُ « الْهِنْدِيَّةُ الْجِرْمَانِيَّةُ » ، وَالْأُسْرَةُ « الطُّورَانِيَّةُ » ، وَالْأُسْرَةُ « الْعَرَبِيَّةُ » ، وَهَذِهِ الْأُسَرُ الثَّلَاثُ تُكْتَبُ بِالْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ ، بَيْنَمَا لَا تُكْتَبُ بِالْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ إِلَّا أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ .

◆ إِنَّهُ لَأَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الِاعْتِزَازِ ، وَلَكِنْ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الْإِيضَاحِ .

◇ إِنَّ الْحُرُوفَ الْعَرَبِيَّةَ يَا بُنَيَّ تُكْتَبُ بِهَا اللُّغَةُ الْفَارِسِيَّةُ ، وَاللُّغَةُ الْأُرْدِيَّةُ ، وَاللُّغَةُ التُّرْكِيَّةُ ، وَاللُّغَةُ الْمَلَاوِيَّةُ ، وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ كَلَامٌ طَيِّبٌ .

◇ وَمِنَ الْمَعْلُومِ - يَا بُنَيَّ - أَنَّ اللُّغَتَيْنِ الْفَارِسِيَّةَ وَالْأُرْدِيَّةَ هُمَا مِنَ الْأُسْرَةِ « الْهِنْدِيَّةِ الْجِرْمَانِيَّةِ » ، وَأَنَّ اللُّغَةَ التُّرْكِيَّةَ هِيَ مِنَ الْأُسْرَةِ « الطُّورَانِيَّةِ » ، وَأَنَّ اللُّغَةَ « الْمَلَاوِيَّةَ » فِيهَا خَصَائِصُ مِنَ الْأُسْرَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ .

◆ وَهَلِ اسْتَطَاعَتِ الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ تَنْهَضَ بِكِتَابَةِ جَمِيعِ هَذِهِ اللُّغَاتِ ؟!! .

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - نَعَمْ ؛ لَقَدْ تَمَكَّنَتْ هَذِهِ الْأُمَمُ جَمِيعُهَا أَنْ تَكْتُبَ لُغَاتِهَا بِالْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ أَنْ تُدْخِلَ عَلَىٰ هَذِهِ الْحُرُوفِ تَعْدِيلًا ، أَوْ تُحْدِثَ فِي أَشْكَالِهَا تَغْيِيرًا ، أَوْ تَتَصَرَّفَ بِهَا أَيَّ تَصَرُّفٍ سِوَىٰ بَعْضِ الْعَلَامَاتِ وَالنُّقَطِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَوْقَ بَعْضَ الْحُرُوفِ .

◆ أَبَتِ - عَفْوَكَ - أَيُسَلِّمُ الْآخَرُونَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ ؟ .

◇ هَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا جِدَالَ فِيهَا - يَا بُنَيَّ - وَإِنَّ عَلَىٰ كُلِّ عَرَبِيٍّ ، وَإِنَّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ ، أَنْ يَعِيَهَا ، وَأَنْ يَضَعَهَا نُصْبَ عَيْنَيْهِ ؛ لِيَعْرِفَ مَدَىٰ التَّجَنِّي عَلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمَبْلَغَ الْبُهْتَانِ فِي شَكْوَىٰ الشَّاكِينَ مِنْ صُعُوبَةِ الْكِتَابَةِ بِالْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ أَبَتِ ، بَقِيَ لَدَيَّ سُؤَالٌ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، فَأَرْجُو أَنْ يَتَّسِعَ لَهُ صَدْرُكَ .

◇ يَتَّسِعُ صَدْرِي لَهُ !! ، صَدْرِي أَوْسَعُ مِنْ فَيَافِي بَنِي أَسَدٍ ؛ فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ .

◆ أَبَتِ - عَفْوَكَ - هَبْ أَنَّنَا اسْتَجَبْنَا لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَأَحْلَلْنَا الْحَرْفَ اللَّاتِينِيَّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ، فَمَاذَا تَكُونُ النَّتَائِجُ وَالْآثَارُ فِي تَقْدِيرِكَ ؟ .

◇ تَقُولُ : هَبْ أَنَّنَا اسْتَجَبْنَا وَأَحْلَلْنَا ، فَمَنْ هُمُ الَّذِينَ سَيَسْتَجِيبُونَ وَمَنْ هُمُ الَّذِينَ سَيُحِلُّونَ ؟! .

◆ أَهْلُ قُطْرٍ ... أَيِّ قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ .

◇ إِنَّ هَذَا الْحَرْفَ الْعَرَبِيَّ - يَا بُنَيَّ - لَيْسَ مِلْكًا لِقُطْرٍ عَرَبِيٍّ بِعَيْنِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِلْكٌ لِلْعَرَبِ جَمِيعًا ، وَهُوَ لَيْسَ مِلْكًا لِلْعَرَبِ وَحْدَهُمْ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مِلْكٌ لِمَلَايِينِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ ... فَبِهِ كُتِبَ قُرْآنُهُمْ ، وَبِهِ دُوِّنَتْ أَحَادِيثُ نَبِيِّهِمْ .

فَمَنْ ذَا الَّذِي سَيَعْمِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ تَغْيِيرِ هَذَا الْحَرْفِ ؟ .
وَإِذَا اجْتَرَأَ فَرِيقٌ مِنْ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ تَبْدِيلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ ؛ فَهَلْ يَأْخُذُ الْآخَرُونَ بِرَأْيِهِ ؟ أَوْ هَلْ يَرْضَىٰ هُوَ بِأَنْ يَعْزِلَ نَفْسَهُ عَنْ بَنِي قَوْمِهِ وَإِخْوَتِهِ فِي الدِّينِ وَالْعَقِيدَةِ ؟! .

◆ عَفْوَكَ ، أَبَتِ ، أَنَا أَفْتَرِضُ ذَلِكَ افْتِرَاضًا ؛ فَأَقُولُ هَبْ أَنَّنَا جَمِيعًا قَدِ اتَّفَقْنَا عَلَىٰ أَنْ نُحِلَّ الْحَرْفَ اللَّاتِينِيَّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ، فَمَاذَا سَتَكُونُ الْآثَارُ وَالنَّتَائِجُ فِي نَظَرِكَ ؟ .

◇ لَوْ حَدَثَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ - لَا سَمَحَ اللَّهُ وَلَا قَدَّرَ - لَوَأَدْنَا[1] آلَافَ آلَافِ الْكُتُبِ الَّتِي دُوِّنَتْ بِالْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ خِلَالَ تَارِيخِنَا الْحَضَارِيِّ الطَّوِيلِ التَّلِيدِ ...

◆ هِهْ هِهْ .

◇ وَلَقَطَعْنَا صِلَةَ الْأَبْنَاءِ بِالْآبَاءِ ، وَلَحَرَمْنَا الْأَوَاخِرَ مِنَ الْبِنَاءِ عَلَىٰ أَسَاسِ الْأَوَائِلِ ، وَلَمَنَعْنَا اللَّاحِقَ مِنَ الْإِفَادَةِ مِنَ السَّابِقِ .

◆ إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُرِيعٌ ! .

◇ نَعَمْ إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُرِيعٌ - يَا بُنَيَّ - إِنَّهُ يَجْعَلُ أُمَّتَنَا كَإِنْسَانٍ فَقَدَ ذَاكِرَتَهُ ؛ فَانْقَطَعَتْ صِلَتُهُ بِمَاضِيهِ ، بِكُلِّ مَا فِي هَذَا الْمَاضِي مِنْ تَجَارِبَ وَخِبْرَاتٍ وَمَعَارِفَ ، وَبَاتَ يَعِيشُ عَلَىٰ حَاضِرِهِ الْقَاصِرِ الْمَحْدُودِ .

◆ لَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ لَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَبَدًا ، مَا دَامَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ شَبَابٌ أَمْثَالُكُمْ يَغَارُونَ

---

(١) لوأدنا : لقتلنا وأهلكنا ودفناها حية .

عَلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ، وَيُنَافِحُونَ عَنْ حَضَارَةِ الْإِسْلَامِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَالدِّينَ تَوْءَمَانِ لَا يَفْتَرِقَانِ[1].

* * *

◆ أَبَتِ، كُنْتَ لَفَتَّنِي فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَكْسُورَةً، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا فَتَفْتَحُهَا.

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ.

◆ أَمَا زَالَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ يُذْكَرَ؛ فَأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ «مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ» مِنْ مُذَكِّرَاتِي؟.

◇ هُنَاكَ الْكَثِيرُ الْكَثِيرُ.

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَزَوَّدْتَنِي بِشَيْءٍ مِنْهُ لِأُزَيِّنَ بِهِ بَيَانِي، وَأَعْصِمَ بِصَوَابِهِ عَنِ الْخَطَإِ لِسَانِي؟؟.

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً.

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ.

◇ عَقَدَ ابْنُ السِّكِّيتِ بَابًا فِي كِتَابِهِ «إِصْلَاحُ الْمَنْطِقِ» لِمَا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مَكْسُورَ الْأَوَّلِ، وَالْعَامَّةُ تُخْطِئُ فِيهِ فَتَفْتَحُهُ أَوْ تَضُمُّهُ.

◆ وَمَاذَا قَالَ فِيهِ؟ طَالَ عُمْرُكَ.

◇ قَالَ: تَقُولُ الْعَامَّةُ: هَذَا شَيْءٌ رَخْوٌ بِفَتْحِ الرَّاءِ، وَالصَّوَابُ: رِخْوٌ بِالْكَسْرِ.

---

(١) انظر كتاب «العدوان على العربية عدوان على الإسلام» للمؤلف.

وَتَقُولُ : هَذَا جُرَابٌ بِضَمِّ الْجِيمِ ، وَالصَّوَابُ : الْجِرَابُ بِالْكَسْرِ .

وَتَقُولُ : هَذِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ بِفَتْحِ الْهَمْزِ ، وَالصَّوَابُ : إِرْمِينِيَّةَ بِالْكَسْرِ .

وَتَقُولُ عَنِ الْفَاكِهَةِ الْمَعْرُوفَةِ : هَذَا مُشْمُشٌ بِضَمِّ الْمِيمِ ، وَالصَّوَابُ : الْمِشْمِشُ بِالْكَسْرِ .

وَتَقُولُ : الدَّهْلِيزُ بِفَتْحِ الدَّالِ ، وَالصَّوَابُ : الدِّهْلِيزُ بِالْكَسْرِ .

وَتَقُولُ : الرُّوَاقُ بِضَمِّ الرَّاءِ ، وَالصَّوَابُ : الرِّوَاقُ بِالْكَسْرِ .

وَتَقُولُ : الْوُشَاحُ بِضَمِّ الْوَاوِ ، وَالصَّوَابُ : الْوِشَاحُ بِالْكَسْرِ .

وَتَقُولُ : التَّرْيَاقُ بِفَتْحِ التَّاءِ ، وَالصَّوَابُ : التِّرْيَاقُ بِالْكَسْرِ .

وَتَقُولُ : الْمَرْفَقُ لِمَا يُرْتَفَقُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ بِفَتْحِ الْمِيمِ ، وَالصَّوَابُ : الْمِرْفَقُ بِالْكَسْرِ .

◆ لَقَّاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ جَزَاءَ مَا سَدَّدْتَ وَصَوَّبْتَ .

◇ وَنَفَعَكَ اللَّهُ أَنْتَ وَإِخْوَتَكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا تَتَعَلَّمُونَ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَيْنَ رَوْحُهَا وَرَيْحَانُهَا ؟ .

◇ هُمَا مِنْكَ قَرِيبَانِ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي جَنَيْتَ مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ أَبُو ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيُّ .

◆ أَهَذَا هُوَ اسْمُهُ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ كُنْيَةٌ غَلَبَتْ عَلَيْهِ ، أَمَّا اسْمُهُ فَخُوَيْلِدُ بْنُ خَالِدِ ... بْنِ هُذَيْلِ بْنِ مُدْرِكَةَ ابْنِ إِلْيَاسِ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارٍ .

◆ عَلَىٰ هَذَا فَهُوَ يَلْتَقِي فِي نَسَبِهِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

◇ أَحْسَنْتَ ، بُورِكَ فِيكَ ، نَعَمْ إِنَّهُ يَلْتَقِي مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّسَبِ عِنْدَ جَدِّهِ مُدْرِكَةَ .

◆ وَمَتَىٰ وُجِدَ أَبُو ذُؤَيْبٍ ؟ .

◇ أَبُو ذُؤَيْبٍ - يَا بُنَيَّ - شَاعِرٌ مُخَضْرَمٌ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ ، وَالْإِسْلَامَ .

◆ وَمَتَىٰ أَسْلَمَ ؟ وَهَلْ كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ .

◇ لَا يَذْكُرُ الْمُؤَرِّخُونَ شَيْئًا عَنْ إِسْلَامِهِ ، وَالَّذِي يَبْدُو هُوَ أَنَّ الشَّاعِرَ لَمَّا رَأَىٰ أَنْوَارَ الْفَجْرِ الْجَدِيدِ تَغْمُرُ الْجَزِيرَةَ ، شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ؛ فَأَسْلَمَ وَظَلَّ مُقِيمًا مَعَ قَوْمِهِ فِي بَوَادِيهِمْ .

◆ وَهَلْ عُمِّرَ الشَّاعِرُ بَعْدَ ذَلِكَ طَوِيلًا ؟ .

◇ بَقِيَ عَلَىٰ قَيْدِ الْحَيَاةِ مُدَّةَ خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ ، وَالْفَارُوقِ ، وَطَرَفًا يَسِيرًا مِنْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الْوَفَاةُ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي اصْطَفَيْتَهَا مِنْ شِعْرِهِ ؟ .

◇ إِنَّهَا مِنْ أُمَّهَاتِ الْمَرَاثِي يَا بُنَيَّ ، فَأَنَا لَا أَكَادُ أَعْرِف أَدِيبًا فِي الْقَدِيمِ

أَوِ الْحَدِيثِ جَمَعَ مُخْتَارَاتٍ مِنْ رَوَائِعِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ إِلَّا جَعَلَ عَيْنِيَّةَ أَبِي ذُؤَيْبٍ فِي طَلِيعَةِ مُخْتَارَاتِهِ .

◆ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِنْشَادِ الْقَصِيدَةِ .

◇ قَبْلَ أَنْ أُنْشِدَكَ الْقَصِيدَةَ ، يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ مُنَاسَبَتِهَا .

◆ وَمَا هِيَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ كَانَ لِلشَّاعِرِ يَا بُنَيَّ أَبْنَاءٌ خَمْسَةٌ مَعْدُودُونَ فِي الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ ، فَحَلَّ الطَّاعُونُ فِي أَرْضِهِمْ ، فَتَخَطَّفَهُمُ الْمَوْتُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ فِي أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أَيَّامٍ ؛ فَبَكَاهُمُ الشَّاعِرُ بِقَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ نَقْتَطِفُ مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتَ :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ؟
وَالدَّهرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ[1] مَنْ يَجْزَعُ

قَالَتْ أُمَيْمَةُ : مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا ؟!
مُنْذُ ابْتُلِيتَ ، وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ

أَمْ ، مَا لِجَنْبِكَ لَا يُلَائِمُ مَضْجَعًا
إِلَّا أَقَضَّ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ ؟

فَأَجَبْتُهَا : أَمَّا لِجِسْمِي أَنَّهُ
أَوْدَىٰ بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا

أَوْدَىٰ بَنِيَّ فَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً
بَعْدَ الرُّقَادِ ، وَعَبْرَةً مَا تُقْلِعُ

---

(١) مُعْتِب : سامع للعتاب ، فاعل ما يرضي العاتب .

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا[1] لِهَوَاهُمُ
فَتُخُرِّمُوا[2]، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فَغَبَرْتُ[3] بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ
وَإِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أُدَافِعَ عَنْهُمُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا
أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا
سُمِلَتْ بِشَوْكٍ، فَهْيَ عُورٌ تَدْمَعُ

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ[4] أُرِيهِمُ
أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا
وَإِذَا تُرَدُّ إِلَىٰ قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَلَئِنْ بِهِمْ فَجَعَ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ[5]
إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفَجَّعُ

◆ مَا هَذِهِ الْمَرْثِيَّةُ الرَّائِعَةُ ؟!.

(١) أعنقوا لِهَواهم: أسرعوا في طريقهم، والمراد هنا نهاية الحياة.
(٢) تخرموا: أهلكهم الوباء واحدًا بعد واحد.
(٣) غبرت: بقيت.
(٤) الشَّامِتِين: الفرحين بمصيبتي.
(٥) ريب الزمان: حوادثه.

◇ أَمَا قُلْتُ لَكَ أَنَّهَا مِنْ أُمَّهَاتِ الْمَرَاثِي ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ قِيمَةِ هَذِهِ الرَّائِعَةِ مِنْ رَوَائِعِ الْعَرَبِ ؛ فَلْتَسْتَمِعْ إِلَىٰ هَذَا الْخَبَرِ :

رَوَتْ جُلُّ كُتُبِ الْأَدَبِ أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ لَمَّا فُجِعَ بِابْنِهِ الْأَكْبَرِ جَعْفَرٍ ؛ حَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا أَقَضَّ مَضْجَعَهُ ، وَمَا إِنْ رَجَعَ مِنْ دَفْنِهِ حَتَّىٰ قَالَ لِمَوْلَاهُ الرَّبِيعِ :

انْظُرْ لِي وَاحِدًا مِنْ أَهْلِي يُنْشِدُنِي قَصِيدَةَ أَبِي ذُؤَيْبٍ ؛ عَلِّي أَتَسَلَّىٰ بِهَا عَنْ مُصِيبَتِي ، قَالَ الرَّبِيعُ :

فَخَرَجْتُ إِلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ ، وَكَانُوا جَمِيعًا حَاضِرِينَ ... فَسَأَلْتُهُمْ عَنْهَا فَلَمْ أَجِدْ فِيهِمْ مَنْ يَحْفَظُهَا ، فَرَجَعْتُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ :

وَاللَّهِ لَمُصِيبَتِي بِأَلَّا يُوجَدَ فِي أَهْلِ بَيْتِي مَنْ يَحْفَظُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ لِقِلَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْأَدَبِ ؛ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِي بِابْنِي ، ثُمَّ قَالَ :

انْظُرْ ، هَلْ تَجِدُ مَنْ يَحْفَظُهَا ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهَا .

فَجَعَلْتُ أَسْتَعْرِضُ الْمَارِّينَ ؛ حَتَّىٰ وَجَدْتُ مُعَلِّمًا لِلصِّبْيَانِ مُنْصَرِفًا مِنْ كُتَّابِهِ يَحْفَظُهَا ، فَأَدْخَلْتُهُ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَاسْتَنْشَدَهُ إِيَّاهَا فَأَنْشَدَهَا ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ قَوْلِهِ :

وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

قَالَ : صَدَقَ أَبُو ذُؤَيْبٍ وَاللَّهِ ، أَنْشِدْنِي هَذَا الْبَيْتَ مِائَةَ مَرَّةٍ ، فَأَنْشَدَهُ إِيَّاهُ .

ثُمَّ أَذِنَ لَهُ بِالِانْصِرَافِ ؛ بَعْدَ أَنْ أَجْزَلَ صِلَتَهُ[1] .

وَلَعَلَّكَ تَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْبَلَاغِيِّينَ يَكَادُونَ يُجْمِعُونَ عَلَىٰ أَنَّ أَبْرَعَ اسْتِعَارَةٍ[2] لِلْعَرَبِ وَرَدَتْ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ :

---

(١) الاستعارة في اللغة : هي تشبيه بليغ يحذف فيه المشبه ووجه الشبه حتىٰ ليظن القارئ أن المشبه به هو المشبه نفسه .

(٢) أجزل صلته : أعظمها .

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ *

◆ سُؤَالٌ أَخِيرٌ.

◇ هَاتِهِ وَأَوْجِزْ.

◆ هَلْ كَانَتْ شُهْرَةُ الشَّاعِرِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ ؟.

◇ كَلَّا يَا بُنَيَّ كَلَّا، فَهَذِهِ الْقَصِيدَةُ وَاحِدَةٌ مِنْ رَوَائِعِهِ الْكَثِيرَةِ، وَحَتَّىٰ تَعْرِفَ مَكَانَةَ أَبِي ذُؤَيْبٍ فِي الشِّعْرِ؛ اسْتَمِعْ إِلَىٰ الْخَبَرِ التَّالِي:

رَوَىٰ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي الشِّعْرِ وَالشُّعَرَاءِ؛ أَنَّ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ سُئِلَ: مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ؟ فَقَالَ: أَشْعَرُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ هُذَيْلٌ، وَأَشْعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ. *

* * *

◆ أَبَتِ، كُنْتَ قُلْتَ لِي: إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ فَصَّلُوا الْقَوْلَ فِي الْأَصْوَاتِ تَفْصِيلًا عَزَّ أَنْ نَجِدَ لَهُ نَظِيرًا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ النَّاسِ.

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ.

◆ وَكُنْتَ أَشَرْتَ إِلَىٰ أَنَّهُمْ عَقَدُوا عِشْرِينَ بَابًا وَنَيِّفًا فِي كُتُبِ اللُّغَةِ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْأَصْوَاتِ.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ، إِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ كُلَّهُ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

◆ وَكُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - أَغْنَيْتَ ثَرْوَتِي اللُّغَوِيَّةَ بِمَا قَالُوهُ عَنْ أَصْوَاتِ الطُّيُورِ، فَهَلَّا أَكْرَمْتَنِي بِمَزِيدٍ مِمَّا قَالُوهُ فِي هَذَا الْبَابِ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ سَابِقِهِ.

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً ، قَالَتِ الْعَرَبُ فِي أَصْوَاتِ ذَاتِ الظِّلْفِ :

الْخُوَارُ لِلْبَقَرِ . وَ *الثُّغَاءُ* لِلْغَنَمِ . وَ *الثُّوَاجُ* لِلضَّأْنِ .

وَ *الْيُعَارُ* لِلْمَعِزِ . وَ *النَّبِيبُ* لِلتَّيْسِ .

◆ مَا هَذَا الْغِنَىٰ !! مَا هَذَا التَّفْصِيلُ !! .

◇ وَقَالَتِ الْعَرَبُ فِي تَفْصِيلِ أَصْوَاتِ السِّبَاعِ وَالْوُحُوشِ :

الزَّئِيرُ لِلأَسَدِ .

وَ *الْعُوَاءُ* ، وَ *الْوَعْوَعَةُ* لِلذِّئْبِ ... وَ *التَّضَوُّرُ* صَوْتُهُ عِنْدَ جُوعِهِ .

وَ *النُّبَاحُ* لِلْكَلْبِ ، وَ *الضُّغَاءُ* لَهُ إِذَا جَاعَ ، وَ *الْهَرِيرُ* لَهُ إِذَا أَنْكَرَ شَيْئًا أَوْ كَرِهَهُ .

وَ *الضُّبَاحُ* لِلثَّعْلَبِ . وَ *الْقُبَاعُ* لِلْخِنْزِيرِ . وَ *الْمُوَاءُ* لِلْهِرَّةِ .

وَ *الضَّحِكُ* لِلْقِرْدِ . وَ *الضَّغِيبُ* لِلأَرْنَبِ .

وَ *النَّزِيبُ* لِلظَّبْيِ ، وَ *الْبُغُومُ* لَهُ أَيْضًا ، وَهُوَ أَرْخَمُ صَوْتِهِ .

◆ مَا هَذِهِ اللُّغَةُ يَا أَبَتِ ، مَا هَذِهِ اللُّغَةُ !!؟ .

◇ إِنَّهَا اللُّغَةُ الَّتِي وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ ، إِنَّهَا لُغَةُ الْقُرْآنِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ، أَرْجُو أَلَّا يَضِيقَ عَنْهَا الْوَقْتُ .

◇ لَنْ يَضِيقَ عَنْهَا الْوَقْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِذَا ضَاقَ وَسَّعْنَاهُ .

◆ إِذَنْ عَجِّلْ بِهَا عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ .

◇ كَانَ هِلَالُ بْنُ الْأَسْعَرِ شَاعِرًا مِنْ شُعَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَكَانَ فَارِسًا شُجَاعًا شَدِيدَ الْبَأْسِ ، وَالْبَطْشِ ، وَكَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ غَنَاءً فِي حَرْبٍ[1] وَأَشَدَّهُمْ وَطْأَةً

---

(١) غناء في حرب : أي عنده من الشجاعة ما يغني قومه عن غيره للدفاع عنهم .

عَلَىٰ الْعَدُوِّ ، رَوَتْ كُتُبُ الْأَدَبِ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ شَجَاعَتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَوْرَدَهُ صَاحِبُ الْأَغَانِي حَيْثُ قَالَ :

كَانَ هِلَالٌ يَوْمًا عِنْدَ الظَّهِيرَةِ فِي إِبِلٍ لَهُ ، وَالْيَوْمُ شَدِيدُ وَقْعِ الشَّمْسِ ، مُحْتَدِمُ الْهَاجِرَةِ[1] ، وَقَدْ عَمَدَ إِلَىٰ عَصَاهُ ، فَطَرَحَ عَلَيْهَا كِسَاءَهُ ، ثُمَّ أَدْخَلَ رَأْسَهُ تَحْتَ الْكِسَاءِ مِنَ الشَّمْسِ ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي « نَهْشَلٍ » وَالْآخَرُ مِنْ بَنِي « فَقِيم » ، وَكَانَا أَشَدَّ رَجُلَيْنِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بَطْشًا ، فَلَمَّا وَقَفَا عَلَىٰ الْإِبِلِ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ ، وَهُمَا لَا يَعْرِفَانِ هِلَالًا بِوَجْهِهِ ، نَادَيَا :

يَا رَاعِ ، أَعِنْدَكَ شَرَابٌ تَسْقِينَا ؟ - وَهُمَا يَظُنَّانِهِ عَبْدًا لِبَعْضِهِمْ - ...

فَنَادَاهُمَا هِلَالٌ وَرَأْسُهُ تَحْتَ كِسَائِهِ : عَلَيْكُمَا بِالنَّاقَةِ الَّتِي صِفَتُهَا كَذَا وَكَذَا فَأَنِيخَاهَا ... فَإِنَّ عَلَيْهَا سِقَاءَيْنِ مِنْ لَبَنٍ ؛ فَاشْرَبَا مِنْهُمَا مَا بَدَا لَكُمَا .

فَقَالَ أَحَدُهُمَا : وَيْحَكَ انْهَضْ يَا غُلَامُ ، فَأْتِ بِذَلِكَ اللَّبَنِ .

فَقَالَ لَهُمَا : إِنْ تَكُنْ لَكُمَا حَاجَةٌ ؛ فَسَتَأْتِيَانِهَا .

فَقَالَ أَحَدُهُمَا : إِنَّكَ لَغَلِيظُ الْكَلَامِ ... قُمْ فَاسْقِنَا .

ثُمَّ دَنَوَا مِنْ هِلَالٍ وَهُوَ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالِ ؛ فَقَالَ لَهُمَا :

أَرَاكُمَا وَاللَّهِ سَتَلْقَيَانِ هَوَانًا .

فَدَنَا أَحَدُهُمَا مِنْهُ ؛ فَأَهْوَىٰ عَلَيْهِ بِسَوْطٍ كَانَ فِي يَدِهِ ، فَتَنَاوَلَ هِلَالٌ يَدَهُ - وَهُوَ مُضْطَجِعٌ - وَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ وَرَمَاهُ تَحْتَ فَخِذِهِ ، ثُمَّ ضَغَطَهُ ضَغْطَةً ؛ فَنَادَىٰ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ : وَيْحَكَ ، أَغِثْنِي قَدْ قَتَلَنِي .

فَدَنَا صَاحِبُهُ مِنْهُ ، فَتَنَاوَلَ هِلَالٌ يَدَهُ أَيْضًا وَرَمَىٰ بِهِ تَحْتَ فَخِذِهِ الْأُخْرَىٰ ؛ ثُمَّ أَخَذَ يَصُكُّ رَأْسَ أَحَدِهِمَا بِرَأْسِ صَاحِبِهِ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا :

كُنْ هِلَالًا وَلَا نُبَالِي بِمَا صَنَعْتَ ؛ فَقَالَ لَهُمَا :

أَنَا وَاللَّهِ هِلَالٌ ، وَلَا وَاللَّهِ لَا تَفْلِتَانِ مِنِّي حَتَّىٰ تُعْطِيَانِي عَهْدًا لَا تَخِيسَانِ[2]

---

(١) محتدم الهاجرة : وقدة حر الظهيرة .

(٢) لا تخيسان به : لا تخونانه ، ولا تجحدانه .

بِهِ : لَتَأْتِيَانِّ الْمِرْبَدَ[1] إِذَا قَدِمْتُمَا الْبَصْرَةَ ، ثُمَّ لَتُنَادِيَا بِأَعْلَىٰ صَوْتَيْكُمَا بِمَا كَانَ مِنِّي وَمِنْكُمَا .

فَعَاهَدَاهُ ، وَأَعْطَيَاهُ قُفَّةً مِنْ تَمْرٍ كَانَتْ مَعَهُمَا .

ثُمَّ قَدِمَا الْبَصْرَةَ ، فَأَتَيَا الْمِرْبَدَ ؛ فَنَادَيَا بِمَا كَانَ مِنْهُمَا وَمِنْهُ .

* * *

(١) المربد : موقف الإبل ومحبسها ، وبه سمي مكان في « البصرة » ، كان سوقًا للإبل . وكان الشعراء يجتمعون فيه ينشدون أشعارهم .

الْجَلْسَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ

مَوْتُ الأَلْفَاظِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ ، وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَلَّىٰ فِي حُرُوفِهَا الَّتِي تُبْنَىٰ مِنْهَا الأَلْفَاظُ ، وَفِي أَلْفَاظِهَا الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْجُمَلُ ، وَفِي جُمَلِهَا الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْعِبَارَاتُ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ وَأَنْتَ ـ أَجْزَلَ اللَّهُ مَثُوبَتَكَ ـ قَدْ وَفَّيْتَ الْكَلَامَ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ، فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ فَانْتَقَلْتَ بِنَا إِلَىٰ الْحَدِيثِ عَنْ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◇ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ـ يَا بُنَيَّ ـ فَضْلٌ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ اعْتِدَالِ أَلْفَاظِهَا ، وَخِفَّةِ نُطْقِهَا عَلَىٰ اللِّسَانِ .

◆ وَمَا الْمُرَادُ بِاعْتِدَالِ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ؟ وَأَيْنَ يَبْدُو هَذَا الِاعْتِدَالُ ؟ .

◇ يَبْدُو هَذَا الِاعْتِدَالُ فِي بِنَاءِ الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَعَدَدِ حُرُوفِهَا .

◆ لَمْ أَفْهَمْ مَا عَنَيْتَهُ ؛ فَهَلَّا زِدْتَنِي إِيضَاحًا زَادَكَ اللَّهُ خَيْرًا .

◇ إِنَّ جُلَّ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ وُضِعَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ ، وَأَقَلَّهَا قَدْ وُضِعَ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَحْرُفٍ ، أَمَّا الَّذِي وُضِعَ عَلَىٰ خَمْسَةِ أَحْرُفٍ ؛ فَهْوَ أَقَلُّ مِنَ الْقَلِيلِ .

◆ أَتُعْتَبَرُ قِلَّةَ حُرُوفِ الْكَلِمَاتِ مَزِيَّةً مِنْ مَزَايَا اللُّغَةِ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، إِنَّهَا لَمَزِيَّةٌ كَبِيرَةٌ ، وَهِيَ مَزِيَّةٌ قَدِ اخْتُصَّتْ بِهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ دُونِ سَائِرِ اللُّغَاتِ .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ .

◇ وَالْمَرْءُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّرَ هَذِهِ الْمَزِيَّةَ حَقَّ قَدْرِهَا ؛ إِلَّا إِذَا وَازَنَ بَيْنَ أَلْفَاظِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَبْقَرِيَّةِ وَبَيْنَ أَلْفَاظِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ الْأُخْرَىٰ مِنْ أَلْمَانِيَّةٍ ، وَإِنْكِلِيزِيَّةٍ ، وَفَرَنْسِيَّةٍ ، وَغَيْرِهَا ... فَجُلُّ أَلْفَاظِ هَذِهِ اللُّغَاتِ يَتَأَلَّفُ مِنْ خَمْسَةِ أَحْرُفٍ أَوْ سِتَّةٍ أَوْ سَبْعَةٍ ، وَفِي ذَلِكَ مَا فِيهِ مِنَ الْعُسْرِ عَلَىٰ النُّطْقِ .

◆ وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَكِنَّنَا نَجِدُ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَلْفَاظًا مُؤَلَّفَةً مِنْ خَمْسَةِ أَحْرُفٍ أَوْ مِنْ سِتَّةٍ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ : تَجَاهَلَ ، وَتَعَاضَدَ ، وَتَعَاظَمَ ، وَنَحْوِهَا .

◇ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - يَا بُنَيَّ - لَفْظٌ مَبْنِيٌّ مِنْ سِتَّةِ حُرُوفٍ أَصْلِيَّةٍ ، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ الَّتِي أَوْرَدْتَهَا جَمِيعًا قَدْ بُنِيَتْ فِي الْأَصْلِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ ؛ فَأَصْلُ

تَجَاهَلَ : جَهِلَ ، وَأَصْلُ تَعَاضَدَ : عَضَدَ ، وَأَصْلُ تَعَاظَمَ : عَظُمَ ، وَهَلُمَّ جرًّا .

◆ أَبَتِ ، أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ مَزَايَا اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا .

◆ وَمَا الثَّانِيَةُ ؟ .

◇ ثَانِيَةُ هَذِهِ الْمَزَايَا - يَا بُنَيَّ - : فَصَاحَةُ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ فَصَاحَةُ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ !! إِنَّ كَلِمَةَ الْفَصَاحَةِ كَثِيرَةُ الدَّوَرَانِ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ ؛ فَمَا الْمُرَادُ بِهَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْدِيدِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ الْفَصَاحَةُ - يَا بُنَيَّ - صِفَةٌ يُوصَفُ بِهَا الْكَلَامُ ، وَالْمُتَكَلِّمُ ، وَالْكَلِمَةُ ؛ فَيُقَالُ : هَذَا كَلَامٌ فَصِيحٌ ، وَهَذَا رَجُلٌ فَصِيحٌ ، وَهَذِهِ كَلِمَةٌ فَصِيحَةٌ .

◆ وَمَا الْمُرَادُ بِفَصَاحَةِ الْكَلِمَةِ ؟ .

◇ إِذَا كَانَتِ الْكَلِمَةُ مِمَّا يَسْهُلُ نُطْقُهَا عَلَىٰ اللِّسَانِ ، وَيَحْلُو وَقْعُهَا فِي الْآذَانِ ، وَيَتَيَسَّرُ فَهْمُهَا عَلَىٰ الْأَذْهَانِ ؛ فَهِيَ الْكَلِمَةُ الْفَصِيحَةُ .

◆ أَتَتَوَافَرُ هَذِهِ الصِّفَاتُ لِجَمِيعِ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟! .

◇ كَلَّا يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ هِيَ السِّمَاتُ الْغَالِبَةُ عَلَىٰ الْكَثْرَةِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَلْفَاظِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَبْقَرِيَّةِ .

◆ حَسَنٌ حَسَنٌ .

◇ هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ؛ فَإِنَّ عُلَمَاءَ الْبَلَاغَةِ قَدْ دَعَوْا إِلَىٰ اسْتِبْعَادِ كُلِّ

لَفْظَةٍ لَا تَتَوَافَرُ فِيهَا هَذِهِ الشُّرُوطُ ، وَعَدُّوا اسْتِعْمَالَهَا مُخِلًّا بِفَصَاحَةِ الْكَلَامِ حَاطًّا مِنْ قِيمَتِهِ .

◆ وَهَلْ كَانَتْ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ آثَارُهَا ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ؛ لَقَدْ حَرِصَ الْأُدَبَاءُ وَالشُّعَرَاءُ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ الِابْتِعَادِ عَنْ كُلِّ لَفْظَةٍ لَا تَتَوَافَرُ فِيهَا هَذِهِ الشُّرُوطُ ؛ فَمَاتَتِ الْأَلْفَاظُ غَيْرُ الْفَصِيحَةِ مِنْ طُولِ الْإِهْمَالِ ، وَنُدْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ .

◆ وَهَلْ وَجَدَ أُولَئِكَ الْكُتَّابُ وَالشُّعَرَاءُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْفَصِيحَةِ مَا يَسُدُّ حَاجَتَهُمْ ، وَيُعَبِّرُ عَمَّا يُرِيدُونَ التَّعْبِيرَ عَنْهُ ؟! .

◇ بَلْ وَجَدُوا أَكْثَرَ مِمَّا يَرُومُونَ ، وَأَوْسَعَ مِمَّا يَبْتَغُونَ ، حَتَّىٰ إِنَّ سَعَةَ اللُّغَةِ وَكَثْرَةَ مَا فِيهَا مِنَ الْفَصِيحِ جَرَّتْهُمْ - أَحْيَانًا - إِلَىٰ أُمُورٍ عِيبَتْ عَلَيْهِمْ .

◆ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ طَالَ عُمْرُكَ ؟ .

◇ لَقَدْ كَانَتْ سَعَةُ أَلْفَاظِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَوَفْرَةُ الْفَصِيحِ فِيهَا ؛ سَبَبًا فِي سُلُوكِ كَثِيرٍ مِنَ الْكُتَّابِ سَبِيلَ الْإِطْنَابِ(١) .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ .

◇ كَمَا كَانَتْ سَبَبًا لِأَنْ يُكْثِرَ بَعْضُهُمْ مِنَ التَّرَادُفِ .

◆ وَمَا الْمُرَادُ بِالتَّرَادُفِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ التَّرَادُفُ هُوَ أَنْ يُؤَدَّىٰ الْمَعْنَىٰ الْوَاحِدُ بِجُمْلَتَيْنِ ، وَأَحْيَانًا بِثَلَاثِ جُمَلٍ ، بِحَيْثُ تَكُونُ هَذِهِ الْجُمَلُ مُتَّفِقَةَ الْمَعْنَىٰ ، مُخْتَلِفَةً فِي الْأَلْفَاظِ .

---

(١) الإطناب : الإطالة في الكلام والإسهاب فيه .

◆ أَمْرٌ مَلْحُوظٌ .

◇ وَلَوْلَا سَعَةُ اللُّغَةِ ، وَلَوْلَا وَفْرَةُ الْفَصِيحِ فِيهَا ؛ لَمَا سَلَكَ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابُ هَذَا الطَّرِيقَ ، وَلَمَا أُغْرُوا بِهِ .

◆ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ سَعَةَ اللُّغَةِ ، وَوَفْرَةَ مَا فِيهَا مِنَ الْفَصِيحِ كَانَا سَبَبًا فِي الْإِطْنَابِ وَالتَّرَادُفِ ؟ .

◇ نَعَمْ - يَا بُنَيَّ - نَعَمْ ؛ فَكَثِيرًا مَا جَرَّ الْغِنَىٰ إِلَىٰ التَّبْذِيرِ ، وَأَغْرَتِ الثَّرْوَةُ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ .

◆ حَسَنٌ حَسَنٌ .

◇ إِنَّ كُتَّابَنَا - يَا بُنَيَّ - يَجِدُونَ الْأَلْفَاظَ مَنْثُورَةً أَمَامَهُمْ كَاللُّؤْلُؤِ ؛ فَيَحَارُونَ فِي أَيِّهَا يَأْخُذُونَ وَأَيِّهَا يَدَعُونَ .

◆ وَكَيْفَ يَخْرُجُونَ مِنْ هَذِهِ الْحَيْرَةِ ؟ .

◇ بَعْضُهُمْ يَحْزِمُ أَمْرَهُ فَيُؤْثِرُ لَفْظًا عَلَىٰ آخَرَ ، وَبَعْضُهُمْ يَضِنُّ[1] بِهَذَا اللُّؤْلُؤِ أَنْ يَضِيعَ فَيَرْصِفُهُ فِي كَلَامِهِ رَصْفًا يَجُرُّهُ إِلَىٰ الْإِطْنَابِ تَارَةً ، وَإِلَىٰ التَّرَادُفِ تَارَةً أُخْرَىٰ .

◆ أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ مَزَايَا اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

◇ بَلْ هُنَاكَ مَزَايَا أُخْرَىٰ أَعْظَمُ شَأْنًا وَأَثْقَلُ وَزْنًا ، وَمَجَالُ الْحَدِيثِ عَنْهَا فِي جَلْسَةٍ قَادِمَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

---

(١) يضن : يبخل .

◆ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ زَوَّدْتَنِي فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَكْسُورَةً ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا فَتَفْتَحُهَا .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ أَمَا زَالَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ يُذْكَرَ فَأُضِيفَهُ إِلَى بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكَّرَاتِي ؟ .

◇ هُنَاكَ الْكَثِيرُ الْكَثِيرُ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَزَوَّدْتَنِي بِشَيْءٍ مِنْهُ لِأَزِينَ بِهِ بَيَانِي ، وَأَعْصِمَ[1] بِصَوَابِهِ عَنِ الْخَطَإِ لِسَانِي ؟ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ .

◇ عَقَدَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ « بِأَدَبِ الْكَاتِبِ » فَصْلًا لِمَا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مَفْتُوحًا ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهِ فَتَضُمُّهُ .

◆ فَمَاذَا قَالَ فِيهِ طَيَّبَ اللَّهُ ثَرَاهُ ؟ .

◇ قَالَ : تَقُولُ الْعَامَّةُ : قَبِلْتُ الشَّيْءَ قُبُولًا بِضَمِّ الْقَافِ ، وَالصَّوَابُ : قَبُولًا بِالْفَتْحِ . وَتَقُولُ لِوَاحِدَةِ الْأَنَامِلِ : أُنْمُلَةٌ بِضَمِّ الْمِيمِ ، وَالصَّوَابُ : الْأَنْمَلَةُ بِالْفَتْحِ . وَتَقُولُ عَنْ كَلْبِ الصَّيْدِ الْمَعْرُوفِ : هَذَا كَلْبٌ سُلُوقِيٌّ بِضَمِّ السِّينِ ،

(١) أعصم : أمسك .

وَالصَّوَابُ : سَلُوقِيٌّ بِالْفَتْحِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَىٰ بَلْدَةِ « سَلُوقٍ » بِالْيَمَنِ ، فَمِنْهَا تُجْلَبُ هَٰذِهِ الْكِلَابُ .

وَتَقُولُ عَمَّا يُسْتَنْشَقُ : السُّعُوطُ بِضَمِّ السِّينِ ، وَالصَّوَابُ : السَّعُوطُ بِالْفَتْحِ .

وَتَقُولُ : شُلَّتْ يَدُ فُلَانٍ تُشَلُّ بِضَمِّ الشِّينِ فِي الْمَاضِي وَضَمِّ التَّاءِ فِي الْمُضَارِعِ ، وَالصَّوَابُ : شَلَّتْ يَدُ فُلَانٍ تَشَلُّ بِالْفَتْحِ فِي كِلْتَيْهِمَا .

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَنْ تَتَمَهَّلَ فِي إِيرَادِ مَا تُورِدُهُ حَتَّىٰ تُتَاحَ لِي فُرْصَةُ كِتَابَتِهِ .

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ .

◇ وَعَقَدَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فَصْلًا آخَرَ لِمَا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مَضْمُومًا ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهِ فَتَفْتَحُهُ .

◆ وَمَاذَا قَالَ فِيهِ أَجْزَلَ اللَّهُ مَثُوبَتَهُ ؟ .

◇ قَالَ : تَقُولُ الْعَامَّةُ : هَٰذِهِ أَثْوَابٌ جُدَدٌ بِفَتْحِ الدَّالِ ، وَالصَّوَابُ : جُدُدٌ بِالضَّمِّ .

◆ وَلَٰكِنْ ...

◇ وَلَٰكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ : ﴿**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ**﴾[1] .

◇ الْجُدَدُ الْوَارِدَةُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَا بُنَيَّ هِيَ : الطَّرَائِقُ ، أَمَّا الْجُدُدُ الَّتِي أَوْرَدَهَا ابْنُ قُتَيْبَةَ فَهِيَ : جَمْعُ جَدِيدٍ .

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٧.

◆ أَثَابَكَ اللَّهُ وَأَثَابَهُ .

◇ وَتَقُولُ الْعَامَّةُ يَا بُنَيَّ : أَعْطَيْتُهُ الشَّيْءَ أَوِ الدَّوَاءَ دَفْعَةً بَعْدَ دَفْعَةٍ بِفَتْحِ الدَّالِ ، وَالصَّوَابُ : دُفْعَةً بَعْدَ دُفْعَةٍ بِالضَّمِّ .
وَتَقُولُ : هَذِهِ نَقَاوَةُ الْفَاكِهَةِ بِفَتْحِ النُّونِ ، وَالصَّوَابُ : النُّقَاوَةُ بِالضَّمِّ .
أَيَكْفِيكَ هَذَا الْيَوْمَ أَمْ أَزِيدُكَ ؟ .

◆ زِدْنِي يَا أَبَتِ زِدْنِي زَادَكَ اللَّهُ خَيْرًا وَبِرًّا .

◇ صَدَقَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (نَهِمَانِ لَا يَشْبَعَانِ : طَالِبُ عِلْمٍ ، وَطَالِبُ مَالٍ) وَلَوْلَا أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ ضَاقَ لَزِدْتُكَ ، فَإِلَى جَلْسَةٍ قَادِمَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

◆ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَيْنَ طِيبُ شَذَاهَا ، وَشَهِيُّ جَنَاهَا ؟ .

◇ هُمَا مِنْكَ قَرِيبَانِ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَلْمَمْتَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ مَحْمُودُ غُنَيْمٍ .

◆ مَحْمُودُ غُنَيْمٍ أَحْسَبُهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ الْمُعَاصِرِينَ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ إِنَّهُ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ .

◆ وَمِنْ أَيِّ قُطْرٍ هُوَ ؟ .

◇ إِنَّهُ شَاعِرٌ مِصْرِيٌّ ، مِنْ أَبْنَاءِ الرِّيفِ ، خَفِيفُ الظِّلِّ ، حُلْوُ النُّكْتَةِ ، سَرِيعُ الْبَدِيهَةِ .

◆ أَهُوَ حَيٌّ ؟[1].

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُ حَيٌّ يُرْزَقُ ، وَهُوَ يَشْغَلُ مَنْصِبًا كَبِيرًا مِنْ مَنَاصِبِ تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَفْتِيشِهَا .

◆ وَهَلْ لَهُ دِيوَانٌ مَطْبُوعٌ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَقَدْ سَمَّاهُ « صَرْخَةٌ فِي وَادٍ » .

◆ اسْمٌ طَرِيفٌ .

◇ لِشِعْرٍ طَرِيفٍ .

◆ وَمَا الزَّهْرَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ يَصِفُ فِيهَا الْمِذْيَاعَ .

◆ تَقْصِدُ « الرَّادْيُو » .

◇ نَعَمْ ، « الرَّادْيُو » يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنَّ كَلِمَةَ الْمِذْيَاعِ أَحْلَىٰ وَقْعًا ، وَأَعْذَبُ جَرْسًا ، وَأَبْيَنُ بَيَانًا .

◆ وَمَاذَا قَالَ فِي قَصِيدَتِهِ ؟ .

◇ قَالَ :

شَـادٍ تَـرَنَّـمَ ، لَا طَـيْـرٌ وَلَا بَـشَـرُ
يَا صَاحِبَ اللَّحْنِ أَيْنَ الْعُودُ وَالْوَتَرُ ؟

(١) توفي رحمه الله سنة ١٣٩٣هـ ، انظره في كتاب « الدّوحة المباركة » للمؤلف .

إِنِّي سَمِعْتُ لِسَانًا قُدَّ مِنْ خَشَبِ

فَهَلْ تُرَىٰ بَعْدَ هَذَا يَنْطِقُ الْحَجَرُ؟

كَـأَنَّـمَـا كُـلُّ أُذْنٍ أُذْنُ «سَـارِيَـةٍ»

وَكُلُّ نَاءٍ يُنَادِي نَائِيًا «عُـمَرُ»[1]

هُنَا الْخَطِيبُ الَّذِي خَانَتْهُ جُرْأَتُهُ

يَقُولُ مَا شَاءَ لَا جُبْنٌ وَلَا خَوَرُ

فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَخْلُوقٌ يُقَاطِعُهُ

وَلَيْسَ يَعْنِيهِ قَلَّ الْقَوْمُ أَوْ كَثُرُوا

وَلَيْسَ يَخْشَىٰ ضَجِيجَ الْقَوْمِ إِنْ طَرِبُوا

وَلَيْسَ يَخْشَىٰ عَجِيجَ الْقَوْمِ إِنْ سَخِرُوا

☆ ☆ ☆

وَآلَةٍ جَعَلَتْ مِنْ حُجْرَتِي أُفُقًا

يَرْتَدُّ مُنْحَسِرًا عَنْ حَدِّهِ الْبَصَرُ

كَأَنَّمَا الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ انْحَصَرَتْ

فِي جَوْفِهَا، وَالْوَرَىٰ فِي جَوْفِهَا انْحَصَرُوا

تَطْوِي الْفَيَافِيَ طَيًّا وَهْيَ جَاثِمَةٌ

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ إِذْ تَسْرِي أَوِ الْقَمَرُ

---

(١) إشارة إلىٰ ما يُروىٰ بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد نادىٰ قائده سارية وهو في بعض غزواته؛ وقد أحاط به الروم من كل جانب قائلًا: يا سارية الجبل الجبل، فسمع سارية النداء ـ علىٰ بعد ما بينهما ـ والتجأ إلىٰ الجبل؛ فنجا.

كَأَنَّنِي - وَأَنَا فَرْدٌ بِجَانِبِهَا -

حَوْلِي مِئَاتٌ مِنَ السُّمَّارِ قَدْ حَضَرُوا

قَدْ حَكَّمَتْنِيَ فِي الْأَصْوَاتِ لَوْحَتُهَا

فَصِرْتُ أَخْتَارُ مَا آتِي وَمَا أَذَرُ

وَكُلُّ رَقْمٍ عَلَيْهَا حَشْوُهُ طَرَبٌ

وَفِيهِ كَنْزٌ مِنَ الْأَلْحَانِ مُسْتَتِرُ

عَوْرَاءُ لَا تَخْرُجُ الْأَصْوَاتُ مِنْ فَمِهَا

إِلَّا إِذَا مَا بَدَا مِنْ عَيْنِهَا الشَّرَرُ

صَمَّاءُ لَكِنْ تَعِي مَا لَا تَعِي أُذُنٌ

بَكْمَاءُ مِنْ فَمِهَا الْأَخْبَارُ تَنْتَشِرُ

ثَرْثَارَةٌ إِنْ أَرَدْتَ الْقَوْلَ ثَرْثَرَةً

فَإِنْ أَرَدْتَ اخْتِصَارًا فَهْوَ مُخْتَصَرُ

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ قُلْتَ لِي إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ فَصَّلُوا الْقَوْلَ فِي الْأَصْوَاتِ تَفْصِيلًا عَزَّ أَنْ نَجِدَ لَهُ نَظِيرًا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ وَكُنْتَ أَشَرْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - إِلَىٰ أَنَّ عُلَمَاءَ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ عَقَدُوا عِشْرِينَ بَابًا وَنَيِّفًا فِي كُتُبِ اللُّغَةِ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْأَصْوَاتِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

◆ وَكُنْتَ - أَجْزَلَ اللَّهُ مَثُوبَتَكَ - قَدْ أَغْنَيْتَ ثَرْوَتِي اللُّغَوِيَّةَ بِمَا قَالُوهُ فِي أَصْوَاتِ الطُّيُورِ وَالسِّبَاعِ.

◇ أَذْكُرُ ذَلِكَ.

◆ فَهَلَّا أَكْرَمْتَنِي - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - بِمَزِيدٍ مِمَّا قَالُوهُ فِي هَذَا الْغَرَضِ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ سَابِقِهِ.

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ، قَالَتِ الْعَرَبُ:

الْهَزِيمُ: صَوْتُ الرَّعْدِ.

وَ***الْعَزِيفُ***: صَوْتُ الْجِنِّ.

وَ***الْحَفِيفُ***: صَوْتُ الشَّجَرِ.

وَ***الْجَعْجَعَةُ***: صَوْتُ الرَّحَا[1].

◆ أَلِهَذَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ «أَسْمَعُ جَعْجَعَةً وَلَا أَرَىٰ طِحْنًا»؟.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ، وَ***الْوَسْوَاسُ***: صَوْتُ الْحَلْيِ.

وَ***الصَّرِيرُ***: صَوْتُ الْبَابِ وَالْقَلَمِ.

وَ***الْقَلْقَلَةُ***: صَوْتُ الْمِفْتَاحِ فِي الْقُفْلِ.

وَ***الْخَفْقُ***: صَوْتُ النِّعَالِ عَلَىٰ الْأَرْضِ.

وَ***الصَّرِيفُ***: صَوْتُ نَابِ الْبَعِيرِ.

وَ***الْمُكَاءُ***: صَوْتُ النَّافِخِ فِي يَدِهِ.

◆ لَعَلَّ هَذَا مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾[2].

---

(١) الرحا: أداة يطحن بها الحب، وهي حجران يستقر الحب علىٰ الأسفل، ويدور الأعلىٰ فيطحن.
(٢) سورة الأنفال الآية ٣٥.

◇ هُدِيتَ إِلَىٰ الصَّوَابِ ...
وَ ***الدَّرْدَابُ*** - يَا بُنَيَّ -: صَوْتُ الطَّبْلِ.
وَ ***الطَّنْطَنَةُ***: صَوْتُ الْأَوْتَارِ.
وَ ***الرَّنِينُ***: صَوْتُ الثَّكْلَىٰ، وَصَوْتُ الْقَوْسِ أَيْضًا.
وَ ***الْقَصِيفُ***: صَوْتُ الرَّعْدِ، وَصَوْتُ الْبَحْرِ إِذَا هَاجَ.
وَ ***النَّقِيقُ***: صَوْتُ الضَّفَادِعِ، وَصَوْتُ الدَّجَاجِ أَيْضًا.

◆ أَبَتِ، مَا هَذِهِ الثَّرْوَةُ الَّتِي لَا تَنْفَدُ !! مَا هَذِهِ اللُّغَةُ الَّتِي لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُهَا ؟!!.

◇ إِنَّهَا بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ يَا بُنَيَّ، مَا اسْتَنْجَدَ بِهَا ذُو بَيَانٍ إِلَّا أَنْجَدَتْهُ ... فَصَنَعَ مِنْهَا أُدَبَاؤُنَا وَشُعَرَاؤُنَا خُطَبًا تَهُزُّ الْقُلُوبَ، وَنَظَمُوا بِهَا قَصَائِدَ تَأْسِرُ الْأَسْمَاعَ، وَكَتَبُوا بِهَا عُلُومًا مَلَأَتِ الْأَرْضَ خَيْرًا وَفَهْمًا.

* * *

◆ أَبَتِ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ أَرْجُو أَلَّا تَنْسَاهَا.

◇ إِنْ أَدْرَكَنِي النِّسْيَانُ فَأَنْتَ نِعْمَ الْمُذَكِّرُ.

◆ إِذَنْ هَاتِهَا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْخَيْرَ.

◇ رَوَىٰ الْجَاحِظُ أَنَّهُ كَانَ بِالْبَصْرَةِ شَيْخٌ يُكَنَّىٰ «أَبَا الْأَعَزِّ» نَزَلَ بِبَنِي أُخْتٍ لَهُ قَدْ خَرَجَ رِجَالُهُمْ إِلَىٰ ضِيَاعِهِمْ، وَبَقِيَتِ النِّسَاءُ يُصَلِّينَ بِالْمَسْجِدِ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الدَّارِ إِلَّا كَلْبٌ يَحْرُسُ ... فَرَأَىٰ حُجْرَةً فَدَخَلَ فِيهَا ثُمَّ انْغَلَقَ الْبَابُ عَلَيْهِ، فَسَمِعَ بَعْضُ الْإِمَاءِ حَرَكَتَهُ فَظَنُّوا أَنَّ لِصًّا دَخَلَ الدَّارَ ... فَذَهَبَتْ إِحْدَاهُنَّ إِلَىٰ أَبِي الْأَعَزِّ فَأَخْبَرَتْهُ، فَقَالَ:
مَا يَبْتَغِي اللِّصُّ مِنَّا ؟! ...
ثُمَّ أَخَذَ عَصَاهُ وَجَاءَ حَتَّىٰ وَقَفَ بِبَابِ الْبَيْتِ، وَقَالَ:

إِيهِ يَا مَلْأَمَانُ[١]، أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ بِي لَعَارِفٌ، وَإِنِّي أَيْضًا بِكَ لَعَارِفٌ، فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا مِنْ لُصُوصِ بَنِي مَازِنٍ، شَرِبْتَ حَامِضًا خَبِيثًا، حَتَّىٰ إِذَا دَارَتِ الْأَقْدَاحُ فِي رَأْسِكَ مَنَّتْكَ نَفْسُكَ الْأَمَانِيَّ وَقُلْتَ: دُورُ بَنِي عَمْرٍو خَالِيَةٌ وَالرِّجَالُ غَائِبُونَ، وَالنِّسَاءُ يُصَلِّينَ فِي الْمَسْجِدِ فَأَسْرِقُهُنَّ... سَوْءَةً لَكَ، وَاللَّهِ مَا يَفْعَلُ هَذَا الْأَحْرَارُ، فَاخْرُجْ وَإِلَّا دَخَلْتُ عَلَيْكَ... وَايْمُ اللَّهِ لَتَخْرُجَنَّ أَوْ لَأَهْتِفَنَّ[٢] هَتْفَةً مَشْئُومَةً عَلَيْكَ، وَيَصِيرُ أَمْرُكَ إِلَىٰ تَبَابٍ[٣]، وَيَسِيلُ عَلَيْكَ الرِّجَالُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا.

فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُ أَخَذَهُ بِاللِّينِ وَقَالَ:

اخْرُجْ يَا بُنَيَّ وَأَنْتَ مَسْتُورٌ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ تَعْرِفُنِي، وَلَوْ عَرَفْتَنِي لَقَنِعْتَ بِقَوْلِي وَاطْمَأْنَنْتَ إِلَيَّ...

أَنَا عُرْوَةُ بْنُ مَرْثَدٍ خَالُ الْقَوْمِ وَهُمْ لَا يَعْصُونَنِي فِي أَمْرٍ، وَأَنَا لَكَ بِالذِّمَّةِ كَفِيلٌ؛ فَاخْرُجْ فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِي، وَعِنْدِي وِعَاءَانِ مِنَ التَّمْرِ فَخُذْ أَحَدَهُمَا حَلَالًا.

وَكَانَ الْكَلْبُ إِذَا سَمِعَ الْكَلَامَ أَطْرَقَ، وَإِذَا سَكَتَ أَبُو الْأَعَزِّ وَثَبَ يَرُومُ الْمَخْرَجَ... فَتَضَاحَكَ أَبُو الْأَعَزِّ، وَقَالَ:

يَا أَلْأَمَ النَّاسِ وَأَوْضَعَهُمْ، إِذَا قُلْتُ لَكَ السَّوْدَاءُ وَالْبَيْضَاءُ تُطْرِقُ وَتَسْكُتُ، وَإِذَا سَكَتُّ عَنْكَ تَرُومُ الْمَخْرَجَ.

فَلَمَّا طَالَ وُقُوفُهُ؛ جَاءَتْ جَارِيَةٌ مِنْ إِمَاءِ الْحَيِّ فَقَالَتْ: أَعْرَابِيٌّ مَجْنُونٌ، وَاللَّهِ مَا أَرَىٰ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا.

وَدَفَعَتِ الْبَابَ فَخَرَجَ الْكَلْبُ مُسْرِعًا، وَحَادَ عَنْهُ أَبُو الْأَعَزِّ مُسْتَلْقِيًا عَلَىٰ الْأَرْضِ وَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَسَخَكَ كَلْبًا، وَكَفَانِي حَرْبًا.

* * *

(١) ملأمان: كثير اللوم. (٢) لأهتفن: لأصيحن بصوت عالٍ. (٣) تباب: هلاك ودمار.

مَقَايِيسُ الْكَلَامِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ حَدَّثْتَنِي فِي الْجَلْسَةِ الْمَاضِيَةِ عَنْ طَرَفٍ مِنْ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ .

◆ وَقُلْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَبْدُو فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْمَظَاهِرِ ، أَوَّلُهَا : اعْتِدَالُهَا مِنْ حَيْثُ التَّكْوِينُ ، وَثَانِيهَا : فَصَاحَتُهَا مِنْ حَيْثُ النُّطْقُ وَالدَّلَالَةُ .

◇ هُوَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ ـ قَوَّاكَ اللَّهُ ـ وَعَدْتَ بِأَنْ تُتِمَّ الْحَدِيثَ عَنْ بَاقِي خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِيمَا بَعْدُ .

◇ نَعَمْ ، اللَّهُمَّ نَعَمْ ، وَوَفَاءً بِالْوَعْدِ إِلَيْكَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

◆ وَلَكِنِّي - بَعْدَ اسْتِئْذَانِكَ - أَتَمَنَّىٰ أَنْ تُجِيبَنِي عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَسْئِلَةِ قَبْلَ الْمُضِيِّ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ .

◇ هَاتِ مَا عِنْدَكَ ، وَعَلَىٰ اللَّهِ التَّيْسِيرُ .

◆ أَبَتِ ، أَكَانَتْ لِلْعَرَبِ قَبْلَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ لُغَةٌ وَاحِدَةٌ ، أَمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَدِيدًا مِنَ اللَّهَجَاتِ وَاللُّغَاتِ ؟ .

◇ كَانَتْ لِلْعَرَبِ - يَا بُنَيَّ - قَبْلَ الْإِسْلَامِ لَهَجَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ بِتَعَدُّدِ الْقَبَائِلِ ، مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِهَا ، لَكِنَّ هَذِهِ اللَّهَجَاتِ كَانَتْ مُتَقَارِبَةً مِنْ حَيْثُ تَصَارِيفُهَا[1] ، وَحَرَكَاتُ إِعْرَابِهَا ، وَالْقَوَانِينُ الَّتِي تَطَّرِدُ فِيهَا .

◆ حَسَنٌ ، وَلَكِنْ مَا أَفْصَحُ هَذِهِ اللَّهَجَاتِ ؟ .

◇ أَفْصَحُ لَهَجَاتِ الْعَرَبِ - يَا بُنَيَّ - لَهْجَةُ قُرَيْشٍ .

◆ وَمَا الَّذِي جَعَلَ لَهْجَةَ قُرَيْشٍ تَفْضُلُ غَيْرَهَا مِنَ اللَّهَجَاتِ ؟! .

◇ سَبَبَانِ يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ سَبَبَانِ .

◆ وَمَا هُمَا طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ أَوَّلُهُمَا : صَفَاءُ هَذِهِ اللَّهْجَةِ وَبُعْدُهَا عَنِ الشَّوَائِبِ .

◆ وَمَا الَّذِي جَعَلَ قُرَيْشًا تَخْتَصُّ بِذَلِكَ ؟! .

◇ بُعْدُهَا عَنْ بِلَادِ الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، فَأَصْحَابُ الْبَيَانِ لَا يَحْتَجُّونَ بِلَهَجَاتِ الْقَبَائِلِ الَّتِي كَانَتْ تُجَاوِرُ « الْفُرْسَ » وَ« الرُّومَ » .

---

(١) تصاريفها : أي تصريف حروفها واشتقاق كلماتها .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَنْ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ لَخْمٍ ، وَجُذَامَ ، وَقُضَاعَةَ ، وَغَسَّانَ .

◆ هَذَا أَوَّلُ السَّبَبَيْنِ ، وَهُوَ سَبَبٌ وَجِيهٌ ، فَمَا ثَانِيهِمَا ؟ .

◇ ثَانِيهِمَا يَا بُنَيَّ : أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَسْكُنُ مَكَّةَ وَمَا جَاوَرَهَا .

◆ وَمَا عَلَاقَةُ سُكْنَىٰ مَكَّةَ بِفَصَاحَةِ اللَّهْجَةِ ؟! .

◇ صَبْرَكَ يَا بُنَيَّ صَبْرَكَ ، لَقَدْ كَانَتْ فِي مَكَّةَ أَعْظَمُ مُقَدَّسَاتِ الْعَرَبِ ، وَكَانَتِ الْقَبَائِلُ تَفِدُ عَلَيْهَا فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، وَتُقِيمُ فِي كُلِّ عَامٍ قَرِيبًا مِنْ خَمْسِينَ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ قُرَيْشٍ .

◆ بَدَأْتُ أَفْهَمُ .

◇ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَتَخَيَّرُ مِنْ لَهَجَاتِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ مَا تَلَاءَمَتْ حُرُوفُهُ ، وَخَفَّ نُطْقُهُ ، وَحَلَا وَقْعُهُ ، وَتَرْفُضُ مَا يَثْقُلُ عَلَىٰ النَّفْسِ ، وَلَا يَجِدُ فِي السَّمْعِ مَسَاغًا .

◆ وَمَا الْمَقَايِيسُ الَّتِي كَانُوا يَقِيسُونَ بِهَا الْكَلَامَ لِيَأْخُذُوا مَا يَأْخُذُونَ ، وَيَتْرُكُوا مَا يَتْرُكُونَ ؟ .

◇ الذَّوْقُ يَا بُنَيَّ ، الذَّوْقُ ، إِنَّ الذَّوْقَ الصَّافِيَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .

◆ وَكَيْفَ ؟! .

◇ أَتَعْتَقِدُ أَنَّ صَاحِبَ ذَوْقٍ فِي الدُّنْيَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْخَوْجَمِ ، وَالْوَرْدَةِ وَالْخَوْجَمَةِ ؟! .

◆ الْخَوْجَمُ وَالْخَوْجَمَةُ !! أَعُوذُ بِاللَّهِ ، مَا الْخَوْجَمُ وَالْخَوْجَمَةُ ؟! .

◇ هُوَ الْوَرْدُ وَالْوَرْدَةُ فِي لُغَةِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ ؛ لَكِنَّ التَّصْفِيَةَ الَّتِي حَدَّثْتُكَ عَنْهَا أَمَاتَتِ الْخَوْجَمَ وَالْخَوْجَمَةَ ، وَأَحْيَتِ الْوَرْدَ وَالْوَرْدَةَ .

◆ أَمَا مِنْ مِثَالٍ آخَرَ ؟ .

◇ أَكْثَرُ مِنْ مِثَالٍ ، فَهُنَاكَ مَثَلًا كَلِمَةُ الْخَنْشَلِيلُ وَالسَّيْفُ .

◆ الْخَنْشَلِيلُ !! .

◇ نَعَمْ ، الْخَنْشَلِيلُ ، لَكِنَّ التَّصْفِيَةَ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا ضَرَبَتِ الْخَنْشَلِيلَ بِالسَّيْفِ ، وَكَفَىٰ اللَّهُ لُغَةَ الْقُرْآنِ شَرَّ اللَّفْظِ الثَّقِيلِ .

◆ أَبَتِ ، هَذِهِ التَّصْفِيَةُ الَّتِي تَمَّتْ لِلُغَتِنَا عَلَىٰ يَدِ قُرَيْشٍ ، أَمَا وَقَعَ مِثْلُهَا لِلُغَاتِ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ مِمَّنْ كَانَتْ تَعِيشُ حَيَاةً قَبَلِيَّةً كَحَيَاةِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ الْأُمَمُ الْأُخْرَىٰ تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُهَا إِلَىٰ شُعُوبٍ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْمَعْهَا جَامِعٌ .

◆ وَنَحْنُ ؟ .

◇ نَحْنُ جَمَعَنَا الْقُرْآنُ ، فَإِذَا الْقَبَائِلُ الْمُتَعَدِّدَةُ تَنْصَهِرُ فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا اللَّهَجَاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ تُصَفَّىٰ فِي لُغَةٍ وَاحِدَةٍ .

◆ وَهَلْ يُقِرُّ الْآخَرُونَ لِلُغَتِنَا بِهَذِهِ الْمَزِيَّةِ ؟ .

◇ لَا يَعْنِينَا إِقْرَارُ الْآخَرِينَ أَوْ رَفْضُهُمْ ، وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ شَهَادَةِ الْآخَرِينَ ؛ فَإِلَيْكَ مَا أَرَدْتَ : رَوَىٰ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِهِ « الْمَثَلُ السَّائِرُ » أَنَّهُ لَقِيَ رَجُلًا إِسْرَائِيلِيًّا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، فَجَرَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ ذِكْرُ

اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَفَصَاحَتِهَا ، فَقَالَ الْإِسْرَائِيلِيُّ : كَيْفَ لَا تَكُونُ الْعَرَبِيَّةُ كَذَلِكَ !! وَأَصْحَابُهَا قَدْ نَظَرُوا فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ السَّالِفَةِ ، ثُمَّ اخْتَصَرُوا مِنْهَا مَا اخْتَصَرُوا ، وَخَفَّضُوا مِنْهَا مَا خَفَّضُوا ، وَمِنْ ذَلِكَ اسْمُ الْجَمَلِ فَإِنَّهُ عِنْدَنَا فِي اللِّسَانِ الْعِبْرِيِّ « كُومِيلٌ » فَجَاءَ وَاضِعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَذَفَ مِنْهُ الثَّقِيلَ ، وَقَالَ : جَمَلٌ ؛ فَصَارَ عَذْبًا مُسْتَحْسَنًا . ثُمَّ طَفِقَ يُعَدِّدُ أَمْثَالَ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ .

◆ أَبَتِ ، كَأَنِّي فَهِمْتُ مِنْ كَلَامِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَدْ عَمِلَ أَيْضًا عَلَىٰ تَصْفِيَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

◇ الْقُرْآنُ ... لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَثَرِهِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ قِصَّةٌ مِنْ أَرْوَعِ الْقِصَصِ ، قِصَّةٌ تَطُولُ ، فَإِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ أَوْرَدْتَ لِي فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ طَائِفَةً مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَفْتُوحَةً ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا فَتَضُمُّهَا .

◇ نَعَمْ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ وَعَيْتَهُ ؛ لِتَزِينَ بِهِ بَيَانَكَ وَتَعْصِمَ بِصَوَابِهِ لِسَانَكَ .

◆ كُنْ مُطْمَئِنًّا يَا أَبَتِ ، فَقَدْ نَزَلَ مِنِّي مَنْزِلَةَ الْقَطْرَةِ الْهَاطِلَةِ ، عَلَىٰ الزَّهْرَةِ الذَّابِلَةِ .

◇ اللَّهَ ، اللَّهَ ! هَا أَنْتَ بَدَأْتَ تَقُولُ الشِّعْرَ .

◆ إِنْ كَانَ هَذَا شِعْرًا فَهُوَ بِفَضْلِكَ .

◇ الْفَضْلُ لِلَّهِ صَاحِبِ الْفَضْلِ ، وَلَكِنْ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ ؟ .

◆ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ : إِذَا كَانَ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ هُنَاكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَزَوَّدْتَنِي بِبَعْضِهِ مَشْكُورًا مَأْجُورًا .

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ .

◇ عَقَدَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَابْنُ السِّكِّيتِ بَابًا لِمَا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعِلْتُ » بِكَسْرِ الْعَيْنِ ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهِ فَتَفْتَحُ عَيْنَهُ .

◆ وَمَا الَّذِي قَالَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَثَابَهُمَا اللَّهُ ؟ .

◇ قَالَا : تَقُولُ الْعَامَّةُ : لَعَقْتُ الْإِنَاءَ بِفَتْحِ الْعَيْنِ ، وَالصَّوَابُ : لَعِقْتُ الْإِنَاءَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ .

وَتَقُولُ : لَحَسْتُ إِصْبَعِي بِفَتْحِ الْحَاءِ ، وَالصَّوَابُ : لَحِسْتُهَا بِكَسْرِ الْحَاءِ .

وَتَقُولُ : بَلَعَ فُلَانٌ اللُّقْمَةَ بِفَتْحِ اللَّامِ ، وَالصَّوَابُ : بَلِعَ فُلَانٌ اللُّقْمَةَ بِكَسْرِ اللَّامِ .

وَتَقُولُ : زَرَدَ فُلَانٌ اللُّقْمَةَ بِفَتْحِ الرَّاءِ ، وَالصَّوَابُ : زَرِدَ فُلَانٌ اللُّقْمَةَ بِكَسْرِ الرَّاءِ .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، أَحَقٌّ هَذَا الَّذِي تُورِدُهُ ؟!! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، إِنَّهُ لَحَقٌّ .

◆ وَلَكِنَّ الَّذِي خَطَّأْتَهُ شَائِعٌ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ .

◇ قُلْتُ لَكَ غَيْرَ مَرَّةٍ : إِنَّ شُيُوعَ الْخَطَإِ لَا يَجْعَلُهُ صَوَابًا ، كَمَا أَنَّ انْتِشَارَ الرَّذِيلَةِ لَا يُحَوِّلُهَا إِلَىٰ فَضِيلَةٍ .

◆ ذَلِكَ حَقٌّ ، وَلَكِنْ هَلْ بَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، تَقُولُ الْعَامَّةُ : سَفَفْتُ السُّفُوفَ بِفَتْحِ الْفَاءِ ، وَالصَّوَابُ : سَفِفْتُ السُّفُوفَ بِكَسْرِهَا .
وَتَقُولُ : صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ بِفَتْحِ الرَّاءِ ، وَالصَّوَابُ : بَرِرْتَ بِكَسْرِهَا .
وَتَقُولُ عَنِ الْمَرِيضِ : نَهَكَهُ الْمَرَضُ بِفَتْحِ الْهَاءِ ، وَالصَّوَابُ : نَهِكَهُ بِكَسْرِ الْهَاءِ .
وَتَقُولُ لِمَنْ لَجَّ فِي أَمْرٍ : لَجَجْتَ فِي الْأَمْرِ بِفَتْحِ الْجِيمِ ، وَالصَّوَابُ : لَجِجْتَ بِكَسْرِهَا .
وَتَقُولُ : مَصَصْتَ الشَّرَابَ بِفَتْحِ الصَّادِ ، وَالصَّوَابُ : مَصِصْتَ الشَّرَابَ بِكَسْرِهَا .
وَتَقُولُ : نَشَقْتُ رَائِحَةً أَوْ طِيبًا بِفَتْحِ الشِّينِ ، وَالصَّوَابُ : نَشِقْتُ بِكَسْرِهَا .
وَتَقُولُ : بَشَشْتُ بِفُلَانٍ بِفَتْحِ الشِّينِ ، وَالصَّوَابُ : بَشِشْتُ بِكَسْرِهَا .
وَتَقُولُ : وَدَدْتُ لَوْ يَكُونُ كَذَا بِفَتْحِ الدَّالِ ، وَالصَّوَابُ : وَدِدْتُ بِكَسْرِهَا .
وَتَقُولُ : نَفَدَ الْمَالُ بِفَتْحِ الْفَاءِ ، وَالصَّوَابُ : نَفِدَ بِكَسْرِهَا .

◆ أَوْلَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ فَقَدْ كَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَيْنَ مِنِّي حُلْوُ جَنَاهَا ، وَطِيبُ شَذَاهَا ؟ .

◇ هُمَا مِنْكَ دَانِيَانِ قَرِيبَانِ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَلْمَمْتَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانُ .

◆ يَبْدُو مِنِ اسْمِهِ أَنَّهُ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ ؛ فَقَدْ وُلِدَ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانُ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَتُوُفِّيَ فِي أَوَائِلِ الْأَرْبَعِينَاتِ .

◆ وَلَكِنْ أَيْنَ وُلِدَ ؟ وَكَيْفَ نَشَأَ ؟ .

◇ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانُ يَا بُنَيَّ ، مِنْ مَوَالِيدِ مَدِينَةِ « نَابُلُسَ » الْبَاسِلَةِ الْمُجَاهِدَةِ ، وَقَدْ تَفَتَّحَ شَبَابُهُ عَلَىٰ مَأْسَاةِ أُمَّتِهِ ؛ فَهُوَ مَا كَادَ يَبْلُغُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ حَتَّىٰ وَجَدَ أُمَّهُ « فِلَسْطِينَ » تَقَعُ بَيْنَ أَنْيَابِ الِاسْتِعْمَارِ الْعَاتِي ، وَبَرَاثِنِ الصَّهْيُونِيَّةِ الْحَادَّةِ .

◆ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

◇ وَقَدْ رَأَىٰ الشَّاعِرُ بِعَيْنِهِ بِنَاءَ الْوَطَنِ الْقَوْمِيِّ لِلْيَهُودِ فِي بِلَادِهِ حَجَرًا بَعْدَ حَجَرٍ ، وَعَاصَرَ نِضَالَ أُمَّتِهِ الْيَائِسَ فِي وَجْهِ هَذِهِ الْغَارَةِ الشَّعْوَاءِ ؛ فَتَرَكَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَفِي شِعْرِهِ أَكْبَرَ الْآثَارِ .

◆ وَمَا الْمَوْضُوعَاتُ الَّتِي طَرَقَهَا الشَّاعِرُ ؟ .

◇ شِعْرُ إِبْرَاهِيمَ طَوْقَانَ - يَا بُنَيَّ - شِعْرٌ وِجْدَانِيٌّ ذَاتِيٌّ ، قَصَرَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ يَشْدُو أَفْرَاحَهَا وَيُغَنِّي آلَامَهَا ، وَعَلَىٰ أُمَّتِهِ يَصِفُ نِضَالَهَا ، وَيُوقِظُ مَشَاعِرَهَا .

◆ حَبَّذَا الشِّعْرُ شِعْرُهُ .

◇ وَإِنَّ الشَّاعِرَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُسْتَعْصِيَةِ الَّتِي حَيَّرَتِ الْأَطِبَّاءَ وَلَازَمَتْهُ مَدَىٰ الْحَيَاةِ ، كَانَ خَفِيفَ الظِّلِّ عَذْبَ الرُّوحِ ، حُلْوَ الدُّعَابَةِ .

◆ وَأَيْنَ يَبْدُو ذَلِكَ طَالَ عُمْرُكَ ؟ .

◇ يَبْدُو فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي قَالَهَا وَهُوَ عَلَىٰ سَرِيرِ الْمَرَضِ ؛ فَقَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ طَبِيبُهُ الْمُعَالِجُ بِضَرُورَةِ تَزْوِيدِهِ بِالدَّمِ ، وَجَعَلَ يَبْحَثُ لَهُ عَنْ رَجُلٍ ذِي دَمٍ يُلَائِمُ دَمَهُ ، وَيَرْضَىٰ بِالْبَيْعِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ :

وَطَبِيبٍ رَأَىٰ صَحِيفَةَ وَجْهِي ... شَاحِبًا لَوْنُهَا وَعُودِي نَحِيفًا

قَالَ لَا بُدَّ مِنْ دَمٍ لَكَ نُعْطِيـ(م) ... ـهِ جَدِيدًا مِلْءَ الْعُرُوقِ عَنِيفًا

لَكَ مَا شِئْتَ يَا طَبِيبِي وَلَكِنْ ... أَعْطِنِي مِنْ دَمٍ يَكُونُ خَفِيفًا

◆ لَطِيفٌ .

◇ ثُمَّ كَتَبَ إِلَىٰ أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ رِسَالَةً يَقُولُ فِيهَا :

وَقَدْ سَاوَرَنِي الْقَلَقُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ [أَيْ نَاحِيَةِ نَقْلِ الدَّمِ] فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ تَعَدَّتِ الْجَسَدَ إِلَىٰ الرُّوحِ ، وَخَشِيتُ أَنْ أُبْتَلَىٰ بِثَقِيلِ دَمٍ يُدْخِلُ عَلَيَّ مِنْ دَمِهِ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَىٰ نَفْسِي مِنْ أَمْرَاضِ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ؛ فَقَدْ كَانَ بَائِعُ دَمِهِ ظَرِيفًا ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ظَرِيفًا مَنِ اعْتَبَرَ نَفْسَهُ كَوِعَاءِ الزَّيْتِ وَاللَّبَنِ يَعْرِضُهُ عَلَىٰ أَمْثَالِي مِنَ الزَّبَائِنِ ؛ فَيُفْرِغُ لَهُمْ مِنْهُ عَلَىٰ قَدْرِ الْحَاجَةِ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ شِعْرِهِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ إِنَّهَا قَصِيدَةٌ أَشْبَهُ بِالْمُوَشَّحِ عُنْوَانُهَا « الْفِدَائِيُّ » قَالَ عَنْهَا أَحَدُ كِبَارِ الشُّعَرَاءِ

وَالنُّقَّادِ : « أَتَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الشَّاعِرِيَّةِ الْمُتَوَثِّبَةِ الَّتِي تَجِيشُ بِهَا النُّفُوسُ الظَّمْأَىٰ إِلَىٰ حُرِّيَّاتِهَا ؟ ثُمَّ أَتَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْبَلَاغَةِ تُطْلِقُهَا الشِّفَاهُ الْمُلْتَهِبَةُ دَمًا وَنَارًا ؟ تَعَرَّفْ إِلَيْهَا إِذَنْ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ » .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ طَالَ عُمْرُكَ ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ أَرْوِيَ لَكَ الْقَصِيدَةَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أَقِفَكَ عَلَىٰ قِصَّتِهَا .

◆ وَهَلْ لَهَا قِصَّةٌ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ كَانَ فِي « فِلَسْطِينَ » آنَذَاكَ رَجُلٌ يَهُودِيُّ الدِّينِ ، بِرِيطَانِيُّ الْجِنْسِيَّةِ ، وَكَانَ يَشْغَلُ مَنْصِبَ قَاضِي الْقُضَاةِ ، وَكَانَ مَسْئُولًا عَنِ التَّشْرِيعِ ، وَقَدْ أَمْعَنَ[1] فِي النِّكَايَةِ بِالْمُسْلِمِينَ فَوَضَعَ عَدَدًا مِنَ الْقَوَانِينِ الْجَائِرَةِ الَّتِي اسْتَلَبَتِ الْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَتِ الْعِبَادَ ، فَكَمَنَ لَهُ شَابٌّ مُسْلِمٌ مِنْ عَرَبِ « فِلَسْطِينَ » عِنْدَ مَدْخَلِ دَارِ الْحُكُومَةِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ عَلَيْهِ النَّارَ ، فَأَصَابَهُ بِجُرْحٍ وَلَكِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ .

◆ وَقُتِلَ الْفِدَائِيُّ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ قُتِلَ ، وَقَدْ قَالَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانُ مُوَشَّحَهُ التَّالِي :

(١)

لَا تَسَلْ عَنْ سَلَامَتِهْ　　رُوحُهُ فَوْقَ رَاحَتِهْ

بَدَّلَتْهُ هُمُومُهُ　　كَفَنًا مِنْ وِسَادَتِهْ

---

(١) أمعن : جد وأبعد وبالغ في الأمر .

يَـرْقُـبُ الـسَّـاعَـةَ الَّـتِـي بَـعْـدَهَـا هَـوْلُ سَـاعِـتِـهْ

بَـيْنَ جَـنْـبَـيْـهِ خَـافِـقٌ يَـتَـلَـظَّـىٰ بِـغَـايَـتِـهْ

☆ ☆ ☆

هُـوَ بِـالْـبَـابِ وَاقِـفُ وَالـرَّدَىٰ مِـنْـهُ خَـائِـفُ

فَـاهْـدَئِـي يَـا عَـوَاصِـفُ خَـجَـلًا مِـنْ جُـرَاءَتِـهْ

(٢)

صَـامِـتٌ لَـوْ تَـكَـلَّـمَـا لَـفَـظَ الـنَّـارَ وَالـدَّمَـا

قُـلْ لِـمَـنْ عَـابَ صَـمْـتَـهُ خُـلِـقَ الْـحَـزْمُ أَبْـكَـمَـا

وَأَخُـو الْـحَـزْمِ لَـمْ تَـزَلْ يَـدُهُ تَـسْـبِـقُ الْـفَـمَـا

لَا تَـلُـومُـوهُ قَـدْ رَأَىٰ مَـنْـهَـجَ الْـحَـقِّ مُـظْـلِـمَـا

وَبِـــلَادًا أَحَـــبَّـــهَـــا رُكْـنُـهَـا قَـدْ تَـهَـدَّمَـا

☆ ☆ ☆

هُـوَ بِـالْـبَـابِ وَاقِـفُ وَالـرَّدَىٰ مِـنْـهُ خَـائِـفُ

فَـاهْـدَئِـي يَـا عَـوَاصِـفُ خَـجَـلًا مِـنْ جُـرَاءَتِـهْ

◆ رَحِمَ اللَّهُ الْفِدَائِيَّ الشَّهِيدَ ؛ فَمَا أَعْظَمَ مَا بَذَلَ .

◇ وَرَحِمَ اللَّهُ الشَّاعِرَ الْمُبْدِعَ ؛ فَمَا أَرْوَعَ مَا صَوَّرَ وَسَجَّلَ .

[مَعًا] رَحِمَهُمَا اللَّهُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ قُلْتَ فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ : إِنَّ الْعَرَبَ فَصَّلُوا الْقَوْلَ فِي الْأَصْوَاتِ تَفْصِيلًا عَزَّ أَنْ تَجِدَ لَهُ نَظِيرًا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ .

◇ هُوَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، فَقَدْ عَقَدَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ عِشْرِينَ بَابًا وَنَيِّفًا لِلْحَدِيثِ عَنِ الْأَصْوَاتِ وَأَنْوَاعِهَا وَصِفَاتِهَا ، وَوَضَعُوا لِكُلِّ صَوْتٍ اسْمًا خَاصًّا بِهِ .

◆ وَقَدْ كُنْتَ - أَجْزَلَ اللَّهُ مَثُوبَتَكَ - أَغْنَيْتَ ثَرْوَتِي اللُّغَوِيَّةَ بِشَيْءٍ مِمَّا وَرَدَ فِي هَذَا الشَّأْنِ .

◇ نَعَمْ ، كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ فَهَلَّا أَمْدَدْتَنِي بِمَزِيدٍ مِمَّا قِيلَ فِي هَذَا الصَّدَدِ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ سَابِقِهِ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً ، قَالَتِ الْعَرَبُ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَلَىٰ أَصْوَاتِ الْمَكْرُوبِينَ ، وَالْمَكْدُودِينَ[1] ، وَالْمَرْضَىٰ :

الْهَمْهَمَةُ : صَوْتٌ يُخْرِجُهُ تَرَدُّدُ الزَّفِيرِ فِي الصَّدْرِ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ .

وَ ***الزَّحِيرُ*** : إِخْرَاجُ النَّفَسِ مَصْحُوبًا بِالْأَنِينِ عِنْدَ الْعَمَلِ أَوِ الشِّدَّةِ .

وَ ***النَّهِيمُ*** : شِبْهُ الْأَنِينِ يُخْرِجُهُ الْعَامِلُ الْمَكْدُودُ فَيَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ .

◆ مَا أَدَقَّ هَذِهِ التَّفْصِيلَاتِ !! .

◇ وَقَدْ فَصَّلَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ الْقَوْلَ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ أَيْضًا .

◆ فَمَاذَا قَالُوا ؟ .

◇ قَالُوا : إِذَا أَخْرَجَ الْمَكْرُوبُ أَوِ الْمَرِيضُ صَوْتًا رَقِيقًا ، فَهُوَ : ***الرَّنِينُ*** .

فَإِذَا أَخْفَاهُ ، فَهُوَ : ***الْهَنِينُ*** .

فَإِذَا أَظْهَرَهُ فَخَرَجَ خَافِيًا ، فَهُوَ : ***الْحَنِينُ*** ، فَإِنْ زَادَ فِيهِ ، فَهُوَ : ***الْأَنِينُ*** ، فَإِنْ زَادَ فِي رَفْعِهِ ، فَهُوَ : ***الْحَنِينُ*** .

(١) المكدودين : المتعبين .

فَإِذَا قَبُحَ الْأَنِينُ وَاشْتَدَّ، فَهُوَ: *الزَّفِيرُ*، فَإِذَا مَدَّ الْمَكْرُوبُ النَّفَسَ ثُمَّ رَمَىٰ بِهِ، فَهُوَ: *الشَّهِيقُ*، فَإِذَا تَرَدَّدَ النَّفَسُ فِي الصَّدْرِ عِنْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ، فَهُوَ: *الْحَشْرَجَةُ*.

◆ مَا قِصَّةُ هَؤُلَاءِ الْأَجْدَادِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ إِلَّا هَذِهِ اللُّغَةُ!!.

◇ بَلْ كَانَ لَدَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، لَقَدْ كَانُوا أَبْطَالًا فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ... تَسْمَعُ قَصَصَ عَدْلِهِمْ؛ فَيُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّهُمْ وَقَفُوا حَيَاتَهُمْ عَلَىٰ الْعَدْلِ دُونَ سِوَاهُ... وَتَقْرَأُ أَخْبَارَ بَذْلِهِمْ؛ فَتَظُنُّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا الْبَذْلَ...

وَتُلِمُّ بِأَخْبَارِ بُطُولَاتِهِمْ؛ فَتَتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ لَمْ يُجِيدُوا شَيْئًا غَيْرَ فَنِّ الْمَوْتِ وَالِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...

وَتَقِفُ عَلَىٰ أَخْبَارِهِمْ فِي مَجَالَاتِ الْعِلْمِ وَالْحِكَمِ؛ فَتَأْخُذُكَ الدَّهْشَةُ وَيَعْرُوكَ الْعَجَبُ.

◆ ذَلِكَ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ.

◇ وَلَكِنَّ مَآثِرَ هَؤُلَاءِ الْأَجْدَادِ كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ، كُلَّمَا اسْتَقْبَلْتَ مَوْجَةً أَنْسَتْكَ سَابِقَتَهَا.

◆ يَا عِزَّ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ.

◇ يَا عِزَّهُ وَيَا سَعْدَهُ، إِذَا تَأَسَّىٰ بِهِمْ، وَنَسَجَ عَلَىٰ مِنْوَالِهِمْ.

* * *

◆ أَبَتِ، أَرْجُو أَلَّا تَنْسَىٰ طُرْفَةَ الْيَوْمِ.

◇ كَيْفَ أَنْسَاهَا وَأَنْتَ وَرَاءَهَا ؟ .

◆ إِذَنْ هَاتِهَا طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ أَحَدِ الْخُلَفَاءِ ، فَوَجَدَهُ جَالِسًا وَ إِلَىٰ جَانِبِهِ جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ تُدْعَىٰ خَالِصَةَ ... وَعَلَيْهَا مِنَ الْحُلِيِّ وَأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ وَاللآلِئِ مَا لَا يُوصَفُ .
فَصَارَ الشَّاعِرُ يَمْتَدِحُهُ ، وَهُوَ يُعْرِضُ عَنْهُ .
فَلَمَّا خَرَجَ كَتَبَ عَلَىٰ الْبَابِ :

لَقَدْ ضَاعَ شِعْرِي عَلَىٰ بَابِكُمْ
كَمَا ضَاعَ دُرٌّ عَلَىٰ خَالِصَهْ

فَقَرَأَهُ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْخَلِيفَةِ ، وَأَخْبَرَهُ بِهِ .
فَغَضِبَ لِذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الشَّاعِرِ .
فَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ الْبَابِ مَسَحَ تَجْوِيفَ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ فِي لَفْظَةِ ضَاعَ .
ثُمَّ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ ، فَقَالَ لَهُ :
مَا كَتَبْتَ عَلَىٰ الْبَابِ ؟! .
قَالَ : كَتَبْتُ :

لَقَدْ ضَاءَ شِعْرِي عَلَىٰ بَابِكُمْ
كَمَا ضَاءَ دُرٌّ عَلَىٰ خَالِصَهْ

فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ .
وَخَرَجَ الشَّاعِرُ وَهُوَ يَقُولُ : لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ شِعْرٍ قُلِعَتْ عَيْنَاهُ ؛ فَأَبْصَرَ .

* * *

الْجَلْسَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ

نَمَطٌ فَرِيدٌ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ .

◇ وَعَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ وَعَدْتَنِي فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ بِأَنْ تُحَدِّثَنِي عَنْ أَثَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اللُّغَةِ .

◇ وَأَنَا لَا أَزَالُ عِنْدَ وَعْدِي .

◆ إِذَنْ فَتَفَضَّلْ ، وَلَكَ مِنِّي الشُّكْرُ وَمِنَ اللَّهِ الْمَثُوبَةُ .

◇ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَا بُنَيَّ ، هُوَ كِتَابُ الْعَرَبِيَّةِ الْأَكْبَرُ ، وَمَنَاطُ الْبَلَاغَةِ الْأَسْمَىٰ ، وَمُعْجِزَةُ اللَّهِ الْبَاقِيَةُ عَلَىٰ الدَّهْرِ ، لَمْ تُرْزَقْ أُمَّةٌ كِتَابًا مِثْلَهُ دِينِيًّا وَلَا دُنْيَوِيًّا .

◆ وَهَلْ شَعَرَ الْعَرَبُ الَّذِينَ أُنْزِلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ بِذَلِكَ ؟ .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ يَرُوعُ[1] سَامِعِيهِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَيَأْخُذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ ؛ لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَنْ آمَنَ وَمَنْ أَعْرَضَ .

---

(١) يروع سامعيه : تأخذ روعته بقلوبهم ، ويعجبون به .

◆ حَتَّىٰ الَّذِينَ أَعْرَضُوا !! كَانُوا يُقِرُّونَ بِرَوْعَةِ الْقُرْآنِ وَسِحْرِ بَلَاغَتِهِ !! .

◇ حَتَّىٰ الَّذِينَ أَعْرَضُوا ... فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ - وَهُوَ مِنْ أَلَدِّ خُصُومِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - سَمِعَ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ ﷺ يَتْلُو بَعْضَ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، فَتَوَجَّهَ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَقُولُ لَهُمْ : « وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ كَلَامًا مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطُلَاوَةً ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ » .

◆ وَمَاذَا كَانَ أَثَرُ قَوْلِهِ هَذَا فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ ؟ .

◇ لَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا عِنَادًا وَإِعْرَاضًا .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ ! .

◇ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ جَاءَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَقَالَ لَهُ : يَا عَمُّ ، قُلْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ قَوْلًا يَعْلَمُ قَوْمُكَ مِنْهُ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ ، بَعْدَ الَّذِي قُلْتَهُ فِيهِ .

◆ وَمَاذَا كَانَ جَوَابُهُ ؟ .

◇ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ إِنَّ لِلْكَلَامِ الَّذِي يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ لَحَلَاوَةً ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَاذَا أَقُولُ فِيهِ ؟!! فَوَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالشِّعْرِ مِنِّي وَلَا أَدْرَىٰ بِرَجَزِهِ وَقَصِيدِهِ ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُهُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَىٰ .

◆ وَهَلْ وَقَفَ أَبُو جَهْلٍ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ؟ .

◇ كَلَّا يَا بُنَيَّ كَلَّا ، فَعِنَادُ أَبِي جَهْلٍ لَا يُوقِفُهُ عِنْدَ حَدٍّ ، لَقَدْ جَعَلَ يُلِحُّ عَلَىٰ الْوَلِيدِ وَيَقُولُ : « وَاللَّهِ لَا يَرْضَىٰ قَوْمُكَ يَا عَمُّ حَتَّىٰ تَقُولَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ قَوْلًا » .

◆ وَهَلِ انْصَاعَ الْوَلِيدُ لَهُ ، وَقَبِلَ أَنْ يُنَاقِضَ نَفْسَهُ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ قَالَ لَهُ : دَعْنِي حَتَّىٰ أُفَكِّرَ فِيهِ .

◆ وَمَاذَا قَالَ بَعْدَ أَنْ فَكَّرَ قَاتَلَهُ اللَّهُ ؟! .

◇ هَذَا مَا يَرْوِيهِ لَكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَفْسُهُ .

◆ وَهَلْ نَزَلَ فِي هَذَا الْحَادِثِ قُرْآنٌ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ؛ قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا ، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[1] .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ وَمِنْ مُوجِبَاتِ النَّارِ .

◇ لَقَدْ أَحَسَّ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ - يَا بُنَيَّ - فِي دِقَّةٍ وَوُضُوحٍ ، أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كُلِّيًّا عَنْ كَلَامِ الْإِنْسِ مِنْ فُصَحَائِهِمْ ، كَمَا تُغَايِرُ كَلَامَ الْجِنِّ الَّذِي كَانَتْ تَنْطِقُ بِهِ كُهَّانُهُمْ .

◆ وَهَلْ كَانَ هَذَا الْإِحْسَاسُ مَقْصُورًا عَلَىٰ الْقِلَّةِ الْقَلِيلَةِ كَالْوَلِيدِ وَأَضْرَابِهِ مِنْ أَصْحَابِ الْفَصَاحَةِ وَاللَّسَنِ ؟ .

---

(١) سورة المدثر من الآية ١١ - ٣٠.

◇ بَلْ كَانَ عَامًّا يَا بُنَيَّ ، فَلَقَدْ أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبُ بِسَلِيقَتِهِمْ[1] أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ شِعْرًا مَوْزُونًا مِمَّا كَانَ يَدُورُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ شُعَرَائِهِمْ ، وَلَا سَجْعًا مُقَفًّى مِمَّا كَانَتْ تَجُودُ بِهِ قَرَائِحُ خُطَبَائِهِمْ وَكُهَّانِهِمْ .

◆ حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِشِعْرٍ وَلَا هُوَ بِنَثْرٍ أَيْضًا .

◇ هَدَاكَ اللَّهُ يَا بُنَيَّ ، إِنَّ الْقُرْآنَ نَمَطٌ فَرِيدٌ مِنَ الْقَوْلِ ، فُصِّلَتْ آيَاتُهُ بِفَوَاصِلَ تَطْمَئِنُّ عِنْدَهَا النَّفْسُ ، وَتَجِدُ فِيهَا وَفِي كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ أَلْفَاظٍ رَوْحًا ، وَعُذُوبَةً ، إِنَّهُ نَمَطٌ بَاهِرٌ مُعْجِزٌ .

◆ وَهَلْ كَانَ سِحْرُ الْقُرْآنِ نَفْسُهُ سَبَبًا فِي إِيمَانِ بَعْضِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ مَا أَكْثَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِسَبَبٍ مِنْ رَوْعَةِ سِحْرِ هَذَا الْقُرْآنِ وَسُمُوِّ بَلَاغَتِهِ !! وَلَوْلَا ضِيقُ الْوَقْتِ لَسُقْتُ لَكَ طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِ بَعْضِهِمْ .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعِلْتُ » بِكَسْرِ الْعَيْنِ ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا فَتَفْتَحُ عَيْنَهَا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ وَقَعَ مِنْ نَفْسِكَ مَوْقِعًا حَسَنًا .

◆ مَوْقِعًا حَسَنًا فَحَسْبُ !! لَقَدْ وَقَعَ مِنِّي مَوْقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي[2] .

---

(1) سليقتهم : طبيعتهم التي جبلوا عليها .
(2) ذو الغلة الصادي : العطشان الشديد الظمأ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مِمَّنْ يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَ ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ .

◆ أَقُولُ إِذَا كَانَ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ هُنَاكَ الْكَثِيرُ الْكَثِيرُ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ ؛ فَأَوْرَدْتَ لِي طَرَفًا مِنْهُ مَشْكُورًا مِنِّي ، مَأْجُورًا مِنَ اللَّهِ .

◇ لَكَ مَا سَأَلْتَ ، هُنَاكَ يَا بُنَيَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » بِفَتْحِ الْعَيْنِ ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا فَتَضُمُّ عَيْنَهَا أَوْ تَكْسِرُهَا .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ تَقُولُ الْعَامَّةُ : ذَبُلَ الرَّيْحَانُ بِضَمِّ الْبَاءِ ، وَالصَّوَابُ : ذَبَلَ بِفَتْحِهَا .
وَتَقُولُ : جَمُدَ الْمَاءُ بِضَمِّ الْمِيمِ ، وَالصَّوَابُ : جَمَدَ بِفَتْحِهَا .
وَتَقُولُ : كَفِلَ فُلَانٌ فُلَانًا بِكَسْرِ الْفَاءِ ، وَالصَّوَابُ : كَفَلَ بِفَتْحِهَا .

◆ وَلَكِنْ !! .

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَكِنَّ الْمُعْجَمَ : يَقُولُ كَفِلَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ ، وَكَفِلَ الرَّجُلُ الْمَالَ !! .

◇ هَدَاكَ اللَّهُ يَا بُنَيَّ ، هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ كَفَلَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ بِمَعْنَىٰ أَعَالَهُ ، وَكَفِلَ الرَّجُلُ الْمَالَ وَالرَّجُلَ ، بِمَعْنَىٰ ضَمِنَهُ .

◆ إِذَنْ كَفِلَ بِالْكَسْرِ لِلضَّمَانِ ، وَكَفَلَ بِالْفَتْحِ لِلْإِعَالَةِ ؟ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .
وَتَقُولُ الْعَامَّةُ - يَا بُنَيَّ -: حَرِصْتُ عَلَىٰ الْأَمْرِ بِكَسْرِ الرَّاءِ ، وَالصَّوَابُ : حَرَصْتُ بِفَتْحِ الرَّاءِ .

◆ وَعَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1] ، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2] .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ وَزَادَكَ اللَّهُ عِلْمًا وَفَهْمًا ... وَتَقُولُ الْعَامَّةُ أَيْضًا :
جَهِدْتُ بِمَعْنَىٰ بَذَلْتُ جَهْدِي ، وَالصَّوَابُ : جَهَدْتُ بِفَتْحِ الْهَاءِ .
وَتَقُولُ : عَجِزَ فُلَانٌ عَنِ الْأَمْرِ بِكَسْرِ الْجِيمِ ، وَالصَّوَابُ : عَجَزَ بِفَتْحِهَا .
وَتَقُولُ : نَحِلَ جِسْمُ فُلَانٍ بِكَسْرِ الْحَاءِ ، وَالصَّوَابُ : نَحَلَ بِفَتْحِهَا .
وَتَقُولُ : نَقِهَ فُلَانٌ مِنَ الْمَرَضِ بِكَسْرِ الْقَافِ ، وَالصَّوَابُ : نَقَهَ بِفَتْحِ الْقَافِ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ أَلْفَ خَيْرٍ كِفَاءَ مَا سَدَّدْتَ وَصَوَّبْتَ .

◇ وَعَلَّمَكَ اللَّهُ مَا يَنْفَعُكَ ، وَنَفَعَكَ بِمَا عَلَّمَكَ .

[معًا] آمِينَ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ إِنَّ فِي النَّفْسِ شَوْقًا إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ .

◇ مَا شَوْقُكَ إِلَيْهَا بِأَكْثَرَ مِنْ شَوْقِي .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ الْيَوْمَ ؟ .

◇ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَّادٍ ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو الْقَاسِمِ ... وَقَدْ عُرِفَ فِي التَّارِيخِ بِالصَّاحِبِ ابْنِ عَبَّادٍ .

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٩.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٣.

◆ وَفِي أَيِّ عَصْرٍ عَاشَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ ؟ .

◇ عَاشَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهِجْرِيِّ ، وَإِنْ شِئْتَ التَّحْدِيدَ فَهُوَ قَدْ وُلِدَ سَنَةَ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ .

◆ لَمْ يُعَمَّرْ طَوِيلًا ؛ فَقَدْ عَاشَ تِسْعًا وَخَمْسِينَ سَنَةً .

◇ وَلَكِنَّهُ مَلَأَ فِي عُمُرِهِ الدُّنْيَا ، وَشَغَلَ النَّاسَ .

◆ وَفِي أَيِّ قُطْرٍ وُلِدَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَنَشَأَ ؟ .

◇ وُلِدَ الصَّاحِبُ وَنَشَأَ فِي مِنْطَقَةِ « قَزْوِينَ » مِنْ بِلَادِ فَارِسَ .

◆ عَلَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ لَيْسَ بِعَرَبِيِّ الْأَصْلِ !! .

◇ وَلَكِنَّهُ عَرَبِيُّ اللِّسَانِ ، وَالْبَيَانِ ، وَالدِّينِ ... فَدِينُهُ الْإِسْلَامُ ، وَلُغَتُهُ لُغَةُ الْقُرْآنِ .

◆ وَكَيْفَ كَانَتْ نَشْأَتُهُ ؟ .

◇ وُلِدَ الصَّاحِبُ فِي كَنَفِ أَبِيهِ عَبَّادٍ ، وَكَانَ أَبُوهُ عَيْنًا مِنْ أَعْيَانِ زَمَانِهِ : دَيِّنًا صَيِّنًا خَيِّرًا ، حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يُلَقَّبُ بِالْأَمِينِ .
وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ عَالِمًا أَدِيبًا كَاتِبًا مُجِيدًا .

◆ نِعْمَ الْأَبُ .

◇ وَكَانَ إِلَىٰ ذَلِكَ وَزِيرًا لِرُكْنِ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيِّ .

◆ وَعَمَّنْ أَخَذَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ الْعِلْمَ ؟ .

◇ كَانَ أَبُوهُ أَوَّلَ شُيُوخِهِ ، ثُمَّ تَلَقَّىٰ الْعِلْمَ عَلَىٰ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ زَمَانِهِ ، وَفِي طَلِيعَةِ

هَؤُلَاءِ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ ، وَأَبُو الْفَضْلِ بْنُ الْعَمِيدِ .

◆ وَهَلْ أُتِيحَ لِلصَّاحِبِ أَنْ يَتَّصِلَ بِسَلَاطِينِ عَصْرِهِ مِنْ آلِ بُوَيْهِ ؟ .

◇ لَمْ يَتَّصِلْ بِهِمْ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا وَزَرَ لَهُمْ دَهْرًا طَوِيلًا ... فَقَدِ اسْتَوْزَرَهُ مُؤَيَّدُ الدَّوْلَةِ بْنُ بُوَيْهِ ، وَكَانَ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَخِ وَالصَّدِيقِ وَالْوَزِيرِ .
وَلَمَّا تُوُفِّيَ مُؤَيَّدُ الدَّوْلَةِ وَآلَ الْمُلْكُ إِلَىٰ أَخِيهِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ اسْتَوْزَرَهُ أَيْضًا ، وَظَلَّ يَتَسَنَّمُ مَنْصِبَ الْوِزَارَةِ إِلَىٰ أَنْ وَافَاهُ الْأَجَلُ .

◆ وَكَيْفَ كَانَتْ سِيرَتُهُ فِي وِزَارَتِهِ ؟ .

◇ كَانَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ يَتَمَتَّعُ بِشَخْصِيَّةٍ ذَاتِ هَيْبَةٍ تَفْرِضُ احْتِرَامَهَا عَلَىٰ مَنْ حَوْلَهَا حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ مَلِكًا .

◆ وَكَيْفَ ؟! .

◇ يَقُولُ الْمُؤَرِّخُونَ : كَانَتِ الشُّئُونُ فِي عَهْدِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيِّ تَصْدُرُ عَنْ أَمْرِ الصَّاحِبِ ، وَالْمُلْكُ يُدَبَّرُ بِرَأْيِهِ ، وَكَانَ إِذَا قَالَ فَخْرُ الدَّوْلَةِ قَوْلًا ، وَقَالَ الصَّاحِبُ قَوْلًا آخَرَ ؛ امْتُثِلَ قَوْلُ الصَّاحِبِ وَتُرِكَ قَوْلُ فَخْرِ الدَّوْلَةِ .

◆ مَا شَاءَ اللَّهُ .

◇ بَلْ إِنَّ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ فَخْرِ الدَّوْلَةِ بَلَغَتْ حَدًّا جَعَلَهُ يَكُفُّ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تَنْزِعُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ؛ حِشْمَةً لِوَزِيرِهِ وَحُرْمَةً لَهُ ... فَلَمَّا مَاتَ الصَّاحِبُ تَفَلَّتَ فَخْرُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْقُيُودِ الَّتِي فَرَضَتْهَا عَلَيْهِ حُرْمَتُهُ ، وَجَعَلَ يَأْتِي بَعْدَ مَمَاتِهِ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِ فِي حَيَاتِهِ .

◆ مَنْ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ عَرَفَ النَّاسُ قَدْرَهُ .

◇ أَصَبْتَ ...

◆ وَمَا السِّرُّ فِي إِعْظَامِ سَلَاطِينِ آلِ بُوَيْهِ لِلصَّاحِبِ ؟ .

◇ السِّرُّ فِي ذَلِكَ - يَا بُنَيَّ - مَا كَانُوا يَرَوْنَهُ مِنْ رَجَاحَةِ عَقْلِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ أَخَذَ لَهُمْ نَحْوَ خَمْسِينَ قَلْعَةً بِجَوْدَةِ رَأْيِهِ ، وَصِحَّةِ تَدْبِيرِهِ ، وَحُسْنِ سِيَاسَتِهِ .

◆ يَبْدُو أَنَّ السِّيَاسَةَ وَالرِّيَاسَةَ شَغَلَتِ الصَّاحِبَ عَنِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ .

◇ كَانَ الصَّاحِبُ يَا بُنَيَّ يُعْطِي لِلْعِلْمِ وَالْأَدَبِ مِنْ وَقْتِهِ وَاهْتِمَامِهِ مِثْلَمَا كَانَ يُعْطِي السِّيَاسَةَ وَالرِّيَاسَةَ ، فَهْوَ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِالْمَأْمُونِ ، وَقَدْ كَانَتْ دَارُهُ مَوْئِلًا لِلْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ يَفِدُونَ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَيَؤُمُّونَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَكَانَتْ مَجَالِسُ الْعِلْمِ تُعْقَدُ فِي دَارِهِ كُلَّ يَوْمٍ ؛ كَمَا كَانَتْ تُعْقَدُ مَجَالِسُ الْحُكْمِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ .

◆ مَا أَجْمَلَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا ...

◇ حَقًّا لَقَدِ اجْتَمَعَ لِلصَّاحِبِ الدِّينُ وَالدُّنْيَا مَعًا ، فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَانَتْ تَخْضَعُ لَهُ الْمُلُوكُ ؛ كَانَ يَخْضَعُ لِلْعُلَمَاءِ ، فَقَدْ كَانَ يَقُولُ لِلْوَافِدِينَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : اسْتَأْنِسُوا ، وَانْبَسِطُوا ، وَلَا تَرْدَعَنَّكُمْ صَوْلَةُ الْخَدَمِ وَالْحَشَمِ ... فَإِنَّ سُلْطَانَ الْعِلْمِ فَوْقَ سُلْطَانِ الْوِلَايَةِ ، كَمَا كَانَ يَقُولُ لِإِخْوَانِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ : نَحْنُ فِي النَّهَارِ سُلْطَانٌ ، وَفِي اللَّيْلِ إِخْوَانٌ ؛ فَلَا تَحْتَشِمُوا مِنَّا .

◆ أَخْلَاقٌ عَالِيَةٌ .

◇ حَقًّا إِنَّهَا لَأَخْلَاقٌ عَالِيَةٌ .... وَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَلَعِ الرَّجُلِ بِالْعِلْمِ أَنَّ مَكْتَبَتَهُ كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلَى أَرْبَعِمِائَةِ جَمَلٍ لِتُحْمَلَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، وَقَدْ رَأَى الْإِمَامُ الْبَيْهَقِيُّ فِهْرِسَ مَكْتَبَتِهِ ؛ فَوَجَدَهُ يَقَعُ فِي عَشْرِ مُجَلَّدَاتٍ .

◆ عَفْوًا ، لَقَدْ شَغَلَنَا الصَّاحِبُ الْوَزِيرُ الْعَالِمُ عَنِ الصَّاحِبِ الشَّاعِرِ ؛ فَمَا الْأَغْرَاضُ الَّتِي طَرَقَهَا فِي شِعْرِهِ ؟ .

◇ أَغْلَبُ شِعْرِهِ ذَاتِيٌّ وِجْدَانِيٌّ ؛ يُعَبِّرُ فِيهِ عَنْ خَلَجَاتِ نَفْسِهِ وَيُصَوِّرُ مِنْ خِلَالِهِ مَشَاعِرَهُ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جُلُّ شِعْرِهِ فِي الْغَزَلِ وَالْفَخْرِ وَالْإِخْوَانِيَاتِ ، إِذْ لَا يُنْتَظَرُ مِنْ مِثْلِهِ أَنْ يَمْدَحَ وَيَهْجُوَ .

◆ وَهَلْ تَرْوِي شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ ؟ .

◇ لَوْلَا ضِيقُ الْوَقْتِ لَأَوْرَدْتُ لَكَ مِنْهُ الْكَثِيرَ ، وَلَكِن حَسْبُكَ الْآنَ هَاتَانِ الْقِطْعَتَانِ الصَّغِيرَتَانِ .

◆ تَفَضَّلْ .

◇ مِنْ بَدِيعِ شِعْرِهِ قَوْلُهُ فِي الْغَزَلِ :

دَعَتْنِيَ عَيْنَاكِ نَحْوَ الصِّبَا
دُعَاءً تَكَرَّرَ فِي كُلِّ سَاعَهْ
فَلَوْلَا «وَحَقِّكِ» عُذْرُ الْمَشِيبِ
لَقُلْتُ لِعَيْنَيْكِ : سَمْعًا وَطَاعَهْ

◆ بَدِيعٌ ...

◇ وَمِنْ مُخْتَارِ شِعْرِهِ قَوْلُهُ فِي رِثَاءِ كَثِيرِ بْنِ أَحْمَدَ ؛ وَكَانَ عَالِمًا جَلِيلَ الْقَدْرِ عَظِيمَ الْمَكَانَةِ .

يَقُولُونَ لِي : أَوْدَىٰ كَثِيرُ بْنُ أَحْمَدٍ
وَذَلِكَ رُزْءٌ - مَا عَلِمْتُ - جَلِيلُ

فَقُلْتُ: دَعُونِي وَالْعُلَا نَبْكِهِ مَعًا

فَمِثْلُ كَثِيرٍ فِي الرِّجَالِ قَلِيلُ

◆ وَهَلْ رَثَاهُ أَحَدٌ حِينَ مَاتَ ؟ .

◇ قِيلَتْ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَرَاثِي ، وَلَعَلَّ مِنْ أَجْوَدِهَا مَا قَالَهُ الضِّبِّيُّ وَقَدْ مَرَّ بِبَابِ بَيْتِ الصَّاحِبِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ فَخَاطَبَهُ قَائِلًا :

أَيُّهَا الْبَابُ لِمْ عَلَاكَ اكْتِئَابُ ؟!

أَيْنَ ذَاكَ الْحِجَابُ وَالْحُجَّابُ ؟!!

أَيْنَ مَنْ كَانَ يَفْزَعُ الدَّهْرُ مِنْهُ ؟!

فَهْوَ الْآنَ فِي التُّرَابِ تُرَابُ

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ زَوَّدْتَنِي فِيمَا مَضَىٰ بِثَرْوَةٍ ثَمِينَةٍ عَمَّا قَالَتْهُ الْعَرَبُ فِي الْأَصْوَاتِ وَأَقْسَامِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَمَرَاتِبِهَا ، وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ : إِنَّ أَهَمِّيَّةَ الْأَصْوَاتِ تَبْدُو ضَئِيلَةً إِذَا قِيسَتْ بِأَهَمِّيَّةِ الْأَلْوَانِ .

◇ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا رَيْبَ فِيهِ يَا بُنَيَّ ، فَالْأَلْوَانُ تَحْتَلُّ فِي حَضَارَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْيَوْمَ مَكَانًا مَرْمُوقًا ، لَقَدْ كَثُرَتْ ضُرُوبُ الْأَلْوَانِ بِمَا يَنْشَأُ مِنْ مَزْجِ لَوْنٍ بِلَوْنٍ ، وَبِظُهُورِ اللَّوْنِ الْوَاحِدِ فِي دَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ .

◆ هَذَا مَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ ؛ إِنَّ هَذِهِ الْأَلْوَانَ الْمُتَكَاثِرَةَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَسْمَاءٍ وَمُصْطَلَحَاتٍ ، فَهَلِ اتَّسَعَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِذَلِكَ كُلِّهِ ؟! .

◇ إِنَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْمُعْجَمَاتُ الْعَرَبِيَّةُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْأَلْوَانِ أَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ وَالْإِعْجَابِ الشَّدِيدَيْنِ.

◆ أَبَتِ، أَفِي وُسْعِنَا أَنْ نَنْتَقِلَ مِنْ مَجَالِ الْكَلَامِ الْعَامِّ إِلَىٰ مَيْدَانِ الْأَلْفَاظِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ؟.

◇ ذَلِكَ مَا عَقَدْنَا الْعَزْمَ عَلَيْهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

◆ تَفَضَّلْ.

◇ مِمَّا جَاءَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ عَنِ الْأَلْوَانِ: ***الْأُدْمَةُ***: وَهُوَ لَوْنٌ بَيْنَ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ، يُقَالُ: ***أَدِمَ*** الْجِلْدُ فَهُوَ ***آدَمُ*** وَالْمُؤَنَّثُ ***أَدْمَاءُ***.

وَ ***الْبَضَاضَةُ***: وَهُوَ شِدَّةُ الْبَيَاضِ، يُقَالُ: هَذَا أَبْيَضُ ***بَضٌّ*** أَيْ شَدِيدُ الْبَيَاضِ.

وَ ***الْبُغْثَةُ***: وَهُوَ بَيَاضٌ يَضْرِبُ إِلَىٰ الْخُضْرَةِ أَوْ إِلَىٰ الْحُمْرَةِ، يُقَالُ: هَذَا ***أَبْغَثُ*** وَهَذِهِ ***بَغْثَاءُ***.

وَ ***الْحُتْمَةُ***: وَهِيَ السَّوَادُ، يُقَالُ: هَذَا ***أَحْتَمُ*** أَيْ أَسْوَدُ.

وَ ***الْحُلْكَةُ***: وَهِيَ شِدَّةُ السَّوَادِ، يُقَالُ: ***حَلِكَ*** الثَّوْبُ فَهُوَ ***حَالِكٌ***، وَيُبَالَغُ فِيهِ فَيُقَالُ: أَسْوَدُ حَالِكٌ.

وَ ***الْحُوَّةُ***: وَهِيَ حُمْرَةٌ تَضْرِبُ إِلَىٰ سَوَادٍ، وَقَدْ أَطْلَقُوا عَلَىٰ كُلِّ أَسْوَدَ غَيْرِ شَدِيدِ السَّوَادِ كَلِمَةَ ***أَحْوَىٰ***.

◆ لَعَلَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْأَعْلَىٰ: ﴿**وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً *أَحْوَىٰ***﴾ !؟[1].

◇ هُوَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ، هُوَ كَذَلِكَ، لَا زِلْتَ مُوَفَّقًا إِلَىٰ الصَّوَابِ.

---

(١) الآية ٥.

◆ أَبَتِ ، أَهَذَا كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْأَلْوَانِ ؟ .

◇ كُلُّهُ !! إِنَّهُ لَيَسِيرٌ مِنْ كَثِيرٍ ، وَ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

◇ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، قَرَأْتُ أَمْسِ كَلِمَةً مَنْسُوبَةً إِلَىٰ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ[١] يَقُولُ فِيهَا : « حَادِثُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّبُولِ » .

◇ كَلِمَةٌ بَلِيغَةٌ ، وَلَكِنْ مَا مُنَاسَبَتُهَا الْآنَ ؟ .

◆ مُنَاسَبَتُهَا - طَالَ بَقَاؤُكَ - التَّذْكِيرُ بِطُرْفَةِ الْجَلْسَةِ فَإِنَّهَا حَدِيثُ الْقُلُوبِ .

◇ إِلَيْكَ مَا طَلَبْتَ : حَجَّ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ ؛ فَنَزَلَ بِبَعْضِ الْمِيَاهِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَدَعَا بِالْغَدَاءِ ، ثُمَّ قَالَ لِأَحَدِ غِلْمَانِهِ : اذْهَبْ وَأَحْضِرْ لِي مَنْ يَأْكُلُ مَعِي .

فَذَهَبَ وَنَظَرَ نَحْوَ الْجَبَلِ ، وَ إِذَا بِرَاعٍ بَيْنَ شَمْلَتَيْنِ[٢] نَائِمٌ ؛ فَأَيْقَظَهُ ، وَقَالَ لَهُ : إِئْتِ الْأَمِيرَ ؛ فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ :

اِغْسِلْ يَدَكَ وَتَغَدَّ مَعِي يَا أَعْرَابِيُّ .

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : دَعَانِي مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ فَأَجَبْتُهُ .

فَقَالَ الْحَجَّاجُ : وَمَنِ الَّذِي دَعَاكَ ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي ؟!! .

قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : اللَّهُ دَعَانِي إِلَىٰ الصِّيَامِ ، فَصُمْتُ .

---

(١) الحسن البصري : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف .
(٢) الشملة : كساء من صوف أو شعر يتغطىٰ به الرجل أو يتلفع به .

قَالَ الْحَجَّاجُ : فِي هَذَا الْحَرِّ الشَّدِيدِ تَصُومُ !! .
قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : صُمْتُ لِيَوْمٍ أَشَدَّ حَرًّا مِنْهُ .
قَالَ الْحَجَّاجُ : أَفْطِرِ الْآنَ وَصُمْ غَدًا .
فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : إِنْ ضَمِنْتَ لِي الْبَقَاءَ إِلَىٰ غَدٍ .
فَقَالَ الْحَجَّاجُ : لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيَّ .
فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : كَيْفَ تَسْأَلُنِي عَاجِلًا بِآجِلٍ لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ؟ .
قَالَ الْحَجَّاجُ : ذَلِكَ لِأَنَّهُ طَعَامٌ طَيِّبٌ .
فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : وَاللَّهِ ، إِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ لَأَطْيَبُ مِنْهُ وَأَبْقَىٰ .

* * *

الْجَلْسَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ

الْـمُعْجِزَةُ اللُّغَوِيَّةُ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ قُلْتَ إِنَّ الْقُرْآنَ سَحَرَ الْعَرَبَ بِبَلَاغَتِهِ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَىٰ الَّتِي اسْتَمَعُوا فِيهَا لِهَذَا الْقُرْآنِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَقَدِ اسْتَوَىٰ فِي ذَلِكَ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً .

◆ وَهَلْ كَانَ سِحْرُ الْقُرْآنِ سَبَبًا فِي إِيمَانِ بَعْضِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَعْضِهِمْ فَحَسْبُ !! إِنَّنَا إِذَا تَجَاوَزْنَا عَنِ النَّفَرِ الْقَلِيلِ الَّذِينَ كَانَتْ شَخْصِيَّةُ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَحْدَهَا هِيَ سَبَبَ إِيمَانِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ خَدِيجَةَ ، وَالصِّدِّيقِ ، وَعَلِيٍّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ... فَإِنَّنَا نَجِدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَفْسَهُ كَانَ هُوَ الْعَامِلَ الْحَاسِمَ فِي إِيمَانِ الْـمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ .

◆ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَحْدَهُ كَانَ مَدْعَاةً لِإِيمَانِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ !!! .

◇ إِنَّهُ لَكَذَلِكَ ؛ فَفِي فَجْرِ الدَّعْوَةِ لَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَوْلٌ وَلَا طَوْلٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لِلْإِسْلَامِ قُوَّةٌ وَلَا مَنَعَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ بِيَدِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ سِلَاحٍ ؛ إِلَّا هَذَا الْقُرْآنَ وَمُعْجِزَتَهُ الْبَيَانِيَّةَ .

◆ أَتَذْكُرُ لِي وَاحِدًا مِمَّنْ أَسْلَمُوا بِفِعْلِ الْقُرْآنِ ؟ .

◇ وَاحِدًا فَقَطْ ، هُنَاكَ الْعَشَرَاتُ بَلِ الْمِئَاتُ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَنْ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .

◆ أَكَانَ إِسْلَامُ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَأْثِيرِ الْقُرْآنِ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ؛ فَقَدْ أَجْمَعَتْ كُتُبُ السِّيرَةِ عَلَىٰ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ مُتَوَشِّحًا بِسَيْفِهِ يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَرَهْطًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَدِ اجْتَمَعُوا فِي بَيْتٍ عِنْدَ « الصَّفَا » ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِينَ بَيْنَ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ .

◆ وَمَاذَا يُرِيدُ بِهِمْ ؟! .

◇ شَرًّا يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِمْ ، وَأَنْ يَئِدَ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ فِي مَهْدِهَا .

◆ ثُمَّ مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ؟! .

◇ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ - يَا بُنَيَّ - أَنْ لَقِيَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ وِجْهَتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ عُمَرُ بِغَرَضِهِ ، فَجَعَلَ يَصُدُّهُ صَاحِبُهُ عَنْ مُبْتَغَاهُ وَيُحَذِّرُهُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ؛ إِذَا هُوَ أَقْدَمَ عَلَىٰ قَتْلِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

◆ وَهَلْ ثَنَاهُ ذَلِكَ عَنْ عَزْمِهِ ؟ .

◇ كَلَّا يَا بُنَيَّ كَلَّا ، مِمَّا جَعَلَ صَاحِبَهُ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ أُخْتِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْخَطَّابِ وَزَوْجِهَا ؛ فَقَدْ صَبَأَا عَنْ دِينِهِمَا وَدَخَلَا فِي الْإِسْلَامِ .

◆ لَا بُدَّ أَنَّهُ عَوَّلَ[1] عَلَىٰ الْفَتْكِ بِأُخْتِهِ !! ... رَحْمَةً لِأُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ !! كَمْ لَاقَوْا ، وَكَمْ ذَاقُوا !! .

◇ لَقَدْ عَادَ إِلَيْهَا - يَا بُنَيَّ - وَهُوَ عَازِمٌ أَنْ يَفْتِكَ بِهَا وَبِزَوْجِهَا ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمَا عِبْرَةً لِكُلِّ مَكِّيٍّ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ تَرْكَ دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ .

◆ ثُمَّ مَاذَا ؟! .

◇ وَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ بَيْتِهَا سَمِعَ خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ[2] يَتْلُو عَلَيْهَا وَعَلَىٰ زَوْجِهَا الْقُرْآنَ ، فَأَخَذَتْهُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاقْتَحَمَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ الثَّلَاثَةِ الْبَابَ ، وَشَجَّ رَأْسَ أُخْتِهِ ، وَبَطَشَ بِزَوْجِهَا .

◆ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

◇ ثُمَّ أَخَذَ الصَّحِيفَةَ وَفِيهَا سُورَةُ « طَهَ » ؛ فَمَا إِنْ قَرَأَ صَدْرًا مِنْهَا حَتَّىٰ سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، وَهَدَأَتْ نَفْسُهُ ... وَإِذَا بِالْإِعْصَارِ الْهَائِجِ يَتَحَوَّلُ بِسِحْرِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ نَسِيمٍ رَقِيقٍ ، وَإِذَا بِابْنِ الْخَطَّابِ يَقُولُ : « مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ ، وَمَا أَكْرَمَهُ » !! .

◆ وَهَلْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ .

◇ وَهَلْ يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يُسْلِمَ !! لَقَدْ ذَهَبَ مِنْ تَوِّهِ إِلَىٰ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ .

---

(١) عول على : اعتمد على الشيء واتكل . وهي هنا بمعنى عزم وأراد .
(٢) خباب بن الأرت : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف .

◆ إِنَّهَا لَفَرْحَةٌ كُبْرَىٰ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ فَرِحَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِإِسْلَامِ عُمَرَ كَمَا لَمْ يَفْرَحْ بِإِسْلَامِ أَحَدٍ ، فَكَبَّرَ تَكْبِيرَةً عَرَفَ مَعَهَا أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّ عُمَرَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَدْ أَسْلَمَ .

◆ أَكَانَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كُلُّ هَذَا الْوَقْعِ فِي نَفْسِ عُمَرَ ؟! .

◇ وَمَا نَفْسُ عُمَرَ يَا بُنَيَّ إِذَا قِيسَتْ بِالْجَبَلِ الْأَصَمِّ ؟! أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ : ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...** ﴾(١) .

◆ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ .

◇ وَعُمَرُ يَا بُنَيَّ لَيْسَ بِجَبَلٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِكُلِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ مِنَ الْمَعَانِي .

◆ إِنَّ قِصَّةَ عِنَادِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَيْهَا فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ ؛ تُقَابِلُهَا قِصَّةُ انْصِيَاعِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِسْلَامِهِ .

◇ لَكِنَّكَ إِذَا قَرَنْتَ الْقِصَّتَيْنِ وَجَدْتَهُمَا تَلْتَقِيَانِ عِنْدَ نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ .

◆ حَقًّا ، لَقَدْ شَرَحَتِ التَّقْوَىٰ قَلْبَ عُمَرَ لِلْإِسْلَامِ ، وَصَدَّتِ الْكِبْرِيَاءُ نَفْسَ الْوَلِيدِ عَنْهُ ؛ مَعَ إِقْرَارِهِمَا مَعًا بِسِحْرِ الْقُرْآنِ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَهَدَاكَ إِلَىٰ الْخَيْرِ .

◆ آمِينَ .

---

(١) سورة الحشر الآية ٢١.

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » بِفَتْحِ الْعَيْنِ ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا فَتَضُمُّ عَيْنَهَا أَوْ تَكْسِرُهَا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَآمُلُ أَنْ تَكُونَ قَدِ ارْتَحْتَ لَهُ وَانْتَفَعْتَ بِهِ .

◆ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَوَقَّعُ ، وَأَعْظَمَ مِمَّا تَنْتَظِرُ .

◇ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ كَبِيرٌ .

◆ أَمَا زَالَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا تَرُومُ[1] .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ - غَيْرَ مَأْمُورٍ - فَأَوْرَدْتَ لِي طَرَفًا مِنْهُ .

◇ هُنَاكَ يَا بُنَيَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « يَفْعُلُ » بِضَمِّ الْعَيْنِ ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِ الْعَامَّةِ : « هَمَعَتِ » الْعَيْنُ تَهْمَعُ بِفَتْحِ الْمِيمِ ، وَالصَّوَابُ : تَهْمُعُ بِالضَّمِّ .

وَقَوْلِهَا : « بَرَقَتِ » السَّمَاءُ تَبْرِقُ بِكَسْرِ الرَّاءِ ، وَالصَّوَابُ : تَبْرُقُ بِالضَّمِّ .

وَقَوْلِهَا : « لَمَسَ » الشَّيْءَ يَلْمَسُهُ بِفَتْحِ الْمِيمِ ، وَالصَّوَابُ : يَلْمُسُهُ بِالضَّمِّ .

---

(١) تروم : أي تريد وترغب أن تناله .

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَنْ تَتَمَهَّلَ فِي إِيرَادِ هَذِهِ التَّصْوِيبَاتِ ؛ فَهِيَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الضَّبْطِ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً ، ثُمَّ هُنَاكَ ـ يَا بُنَيَّ ـ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « يَفْعِلُ » بِكَسْرِ الْعَيْنِ ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهِ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِ الْعَامَّةِ : « نَحَتَ » الْحَجَرَ يَنْحَتُهُ بِفَتْحِ الْحَاءِ ، وَالصَّوَابُ : يَنْحِتُهُ بِالْكَسْرِ .

وَقَوْلِهَا : « نَسَجَ » الثَّوْبَ يَنْسُجُهُ بِضَمِّ السِّينِ ؛ وَالصَّوَابُ : يَنْسِجُهُ بِالْكَسْرِ .

وَقَوْلِهَا : « نَشَرْتُ » الثَّوْبَ أَنْشُرُهُ بِضَمِّ الشِّينِ ؛ وَالصَّوَابُ : أَنْشِرُهُ بِالْكَسْرِ .

وَقَوْلِهَا : « نَعَقَ »(١) الرَّاعِي بِالشَّاءِ يَنْعَقُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ ؛ وَالصَّوَابُ : يَنْعِقُ بِالْكَسْرِ .

◆ مَا أَكْثَرَ مَا نَقَعُ فِيهِ مِنْ خَطَإٍ !! .

◇ ثُمَّ هُنَاكَ أَلْفَاظٌ أُخْرَىٰ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « يَفْعَلُ » بِفَتْحِ الْعَيْنِ ، وَالْعَامَّةُ تَلْحَنُ فِيهَا .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِ الْعَامَّةِ : « مَصَّ » الرَّجُلُ الشَّرَابَ يَمُصُّهُ بِضَمِّ الْمِيمِ ، وَالصَّوَابُ : يَمَصُّهُ بِالْفَتْحِ .

وَقَوْلِهَا : « شَمَّ » الرَّجُلُ الزَّهْرَ يَشُمُّهُ بِضَمِّ الشِّينِ ، وَالصَّوَابُ : يَشَمُّهُ بِالْفَتْحِ .

---

(١) النعيق أو النعاق : صوت الغراب ، وهي هنا بمعنىٰ رفع صوته .

أَحَسْبُكَ هَذَا أَمْ أَزِيدُكَ ؟ .

◆ حَسْبِي هَذَا الْيَوْمَ ، فَمَا قَلَّ وَقَرَّ ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَفَرَّ .
وَجَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَدَ فِي الْأَثَرِ : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » .

◇ أَجَلْ يَا بُنَيَّ أَجَلْ ، فَالْبَيَانُ نِعْمَةٌ مِنْ أَجَلِّ نِعَمِ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، وَالشِّعْرُ وِعَاءٌ مِنْ أَوْعِيَةِ الْحِكْمَةِ ، وَلَكِنْ مَا مُنَاسَبَةُ إِيرَادِ هَذَا الْأَثَرِ ؟ .

◆ مُنَاسَبَتُهُ !! إِنَّ مُنَاسَبَتَهُ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْكَ ، إِنَّهَا التَّذْكِيرُ بِرَوْضَةِ الشِّعْرِ .

◇ دُونَكَ رَوْضَةَ الشِّعْرِ فَهِيَ طَيِّبَةُ الْجَنَىٰ ، دَانِيَةُ الْقُطُوفِ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَلْمَمْتَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ هُوَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ؛ الْمَعْرُوفُ بِالْقَاضِي الْجُرْجَانِيِّ .

◆ وَفِي أَيِّ عَصْرٍ وُجِدَ الْقَاضِي الْجُرْجَانِيُّ ؟ .

◇ وُلِدَ الْقَاضِي الْجُرْجَانِيُّ يَا بُنَيَّ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ وَتُوُفِّيَ فِي أَوَائِلِ النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهِجْرِيِّ ، وَإِنْ شِئْتَ مَزِيدًا مِنَ التَّحْدِيدِ ؛ فَالْمُؤَرِّخُونَ يُقَدِّرُونَ أَنَّهُ وُلِدَ سَنَةَ مِائَتَيْنِ وَتِسْعِينَ لِلْهِجْرَةِ ، وَيُقَرِّرُونَ أَنَّهُ تُوُفِّيَ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ .

◆ وَفِي أَيِّ بَلَدٍ وُلِدَ الْجُرْجَانِيُّ ، وَفِي أَيِّ مَوْطِنٍ نَشَأَ ؟ .

◇ وُلِدَ الْقَاضِي الْجُرْجَانِيُّ وَنَشَأَ فِي مَدِينَةِ « جُرْجَانَ » ، وَهِيَ مَدِينَةٌ وَصَفَهَا يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ فِي كِتَابِهِ « مُعْجَمُ الْبُلْدَانِ » بِقَوْلِهِ : « جُرْجَانُ » مَدِينَةٌ

مَشْهُورَةٌ عَظِيمَةٌ وَاقِعَةٌ بَيْنَ « طَبَرِسْتَانَ » وَ« خُرَاسَانَ » ، ثُمَّ وَصَفَ أَهْلَهَا فَقَالَ :
وَأَهْلُ « جُرْجَانَ » ذَوُو وَقَارٍ ، وَمُرُوءَةٍ ، وَيَسَارٍ ، وَهُمْ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْأَنَاةِ وَحَمِيدِ الْأَخْلَاقِ ... وَقَدْ خَرَجَ مِنْهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأُدَبَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ ... وَلِجُرْجَانَ - يَا بُنَيَّ - تَارِيخٌ كَبِيرٌ أَلَّفَهُ حَمْزَةُ بْنُ يَزِيدَ السَّهْمِيُّ عَلَىٰ غِرَارِ تَارِيخِ بَغْدَادَ لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ ، وَتَارِيخِ دِمَشْقَ لِابْنِ عَسَاكِرَ ، وَتَارِيخِ الْقَاهِرَةِ الْمَعْرُوفِ بِالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ لِابْنِ تَغْرِي بَرْدِي .

◆ يَبْدُو أَنَّ الْجُرْجَانِيَّ كَانَ قَاضِيًا ؛ فَمَا عَلَاقَتُهُ بِالشِّعْرِ ؟ .

◇ الْقَاضِي الْجُرْجَانِيُّ - يَا بُنَيَّ - نَمُوذَجٌ رَائِعٌ لِأَسْلَافِنَا مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، حَيْثُ كُنْتَ تَجِدُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ مُتَبَحِّرًا فِي أَلْوَانٍ مِنَ الْعُلُومِ ، مُتَمَكِّنًا مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْفُنُونِ ، حَتَّىٰ لَتَأْخُذُكَ الْحِيرَةُ إِلَىٰ أَيِّ عِلْمٍ تَنْسِبُهُ وَفِي أَيِّ فَنٍّ تُخَصِّصُهُ ، فَأَنْتَ إِذَا وَقَفْتَ عَلَىٰ كُتُبِ طَبَقَاتِ الْمُفَسِّرِينَ ؛ طَالَعَكَ اسْمُ الْجُرْجَانِيِّ ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ كِتَابًا نَفِيسًا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .
وَإِذَا قَرَأْتَ كُتُبَ طَبَقَاتِ الْفُقَهَاءِ ؛ بَرَزَ لَكَ اسْمُ الْجُرْجَانِيِّ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ أَلَّفَ كِتَابًا ثَمِينًا فِي الْفِقْهِ عَرَضَ فِيهِ لِأَرْبَعَةِ آلَافِ مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِهِ .
وَإِذَا طَالَعْتَ الْكُتُبَ الَّتِي تَبْحَثُ عَنِ الْمُؤَرِّخِينَ ؛ وَجَدْتَ الْجُرْجَانِيَّ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ ... فَقَدْ أَلَّفَ كِتَابًا فِي هَذَا الْفَنِّ دَعَاهُ « تَهْذِيبُ التَّارِيخِ » وَهُوَ كِتَابٌ أُعْجِبَ بِهِ الثَّعَالِبِيُّ ، وَقَالَ عَنْهُ : « إِنَّهُ اتَّسَمَ بِبَلَاغَةِ الْأَلْفَاظِ ، وَصِحَّةِ الرِّوَايَاتِ ، وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ ، وَدِقَّةِ النَّقْدِ لِلْحَوَادِثِ وَالْأَخْبَارِ » .

◆ مَا شَاءَ اللَّهُ ! .

◇ وَلَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ شَاعِرٌ مَرْمُوقٌ ، وَأَدِيبٌ فَذٌّ ، وَنَاقِدٌ لَمْ يَعْرِفْ تَارِيخُ النَّقْدِ الْأَدَبِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ مَنْ يُمَاثِلُهُ غَيْرَ اثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا : الْآمِدِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَالْبُحْتُرِيِّ ،

وَثَانِيهِمَا : مُوَاطِنُهُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ صَاحِبُ أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ ، وَدَلَائِلِ الْإِعْجَازِ .

◆ وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ التَّبَحُّرَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْعُلُومِ ، وَهُوَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ النَّائِيَةِ الْبَعِيدَةِ عَنْ مَهْدِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَهْبِطِ الْوَحْيِ ؟! .

◇ يُجِيبُكَ عَنْ هَذَا الثَّعَالِبِيُّ فَيَقُولُ : « كَانَ الْجُرْجَانِيُّ فِي صِبَاهُ كَالْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَطْعِ عَرْضِ الْأَرْضِ ، وَتَدْوِيخِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَغَيْرِهَا مِنْ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ لِاقْتِبَاسِ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ ، حَتَّىٰ صَارَ فِي الْعُلَمَاءِ عَلَمًا ، وَفِي الْكَمَالِ عَالَمًا » .

◆ أَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ ! كَيْفَ كَانَ يَتَنَقَّلُ هَؤُلَاءِ ؟ وَمَنِ الَّذِي يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ؟ .

◇ لَا مَجَالَ لِلدَّهْشَةِ يَا بُنَيَّ فَمَمْلَكَةُ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي كَانَتْ تُغَطِّي شَطْرًا كَبِيرًا مِنْ قَارَّاتِ آسْيَا ، وَأَفْرِيقِيَا ، وَأُورُبَّا ، وَشِبْهِ الْقَارَّةِ الْهِنْدِيَّةِ كَانَتْ مَفْتُوحَةً أَمَامَ كُلِّ مُسْلِمٍ عَلَىٰ ظَهْرِ الْأَرْضِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَنَقَّلَ فِي أَرْجَائِهَا الْفَسِيحَةِ كُلَّمَا شَاءَ وَأَنَّىٰ شَاءَ دُونَ حَاجِزٍ يَحْجِزُهُ أَوْ عَائِقٍ يَعُوقُهُ ، وَكَانَتِ الْأَوْقَافُ وَالرُّبُطُ[1] وَالتَّكَايَا الْمُنْتَشِرَةُ فِي كُلِّ بَلَدٍ تَفْتَحُ صَدْرَهَا رَحِيبًا لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَافِدٍ عَلَيْهَا وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ .

◆ لِلَّهِ دَرُّ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ مَا أَعْظَمَ وَمَا أَكْرَمَ !!! .

◇ بِذَلِكَ سَادُوا - يَا بُنَيَّ - وَبِذَلِكَ شَادُوا .

◆ أَبَتِ أَرَانَا ابْتَعَدْنَا كَثِيرًا عَنْ رَوْضَةِ الشِّعْرِ .

---

(١) الرابط : ملجأ الفقراء .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، فَقَدْ أَغْرَتْنَا شَخْصِيَّةُ الْجُرْجَانِيِّ الْأَدَبِيَّةُ وَالنَّقْدِيَّةُ عَنْ شَخْصِيَّتِهِ الشَّاعِرِيَّةِ .

◆ آمَلُ أَلَّا يَضِيقَ الْوَقْتُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَىٰ الْقَصِيدَةِ الَّتِي اخْتَرْتَهَا لِي .

◇ قَبْلَ أَنْ أَرْوِيَ لَكَ الْقَصِيدَةَ لَا بُدَّ أَنْ أَضَعَكَ فِي جَوِّهَا ، وَأُورِدَ لَكَ مُنَاسَبَتَهَا .

◆ تَفَضَّلْ ، وَجُزِيتَ خَيْرًا .

◇ بَعْدَ أَنْ طَافَ الْجُرْجَانِيُّ أَرْجَاءَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ طَلَبًا لِلْعِلْمِ ، وَبَحْثًا عَنِ الْمَعْرِفَةِ ... وَبَعْدَ أَنْ وَعَىٰ صَدْرُهُ مِنَ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَا وَعَىٰ ؛ عَادَ إِلَىٰ بَلَدِهِ « جُرْجَانَ » ، وَقَدْ عَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَىٰ أَلَّا يَتَزَلَّفَ لِحَاكِمٍ رَغْبَةً فِي الْمَنَاصِبِ ، وَأَلَّا يَبْذُلَ ذَاتَهُ لِذِي سُلْطَانٍ طَمَعًا فِي الرِّزْقِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الرَّزَّاقَ هُوَ اللَّهُ ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ الزُّلْفَىٰ وَالْقُرْبَىٰ ... وَكَانَ أَصْحَابُهُ يُلِحُّونَ عَلَيْهِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَىٰ ذَوِي السُّلْطَانِ ، وَيَأْخُذُونَ عَلَيْهِ انْقِبَاضَهُ عَنِ النَّاسِ وَالْتِزَامَهُ بَيْتَهُ ؛ فَأَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ :

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرَىٰ النَّاسَ : مَنْ دَانَاهُمُو هَانَ عِنْدَهُمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِيَ جَانِبًا
مِنَ الذَّمِّ ، أَعْتَدُّ[1] الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا

---

(١) أعتد الصيانة : أعتبر ، وأعِد .

إِذَا قِيلَ : هَذَا مَشْرَبٌ ، قُلْتُ : قَدْ أَرَىٰ ؛

وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا

بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ مَغْنَمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي

لِأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ ، لَكِنْ لِأُخْدَمَا

أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ؟!

إِذًا ؛ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا[1]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ

وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ ؛ فَهَانَ ، وَدَنَّسُوا

مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ ؛ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا[2]

◆ مَا أَعْظَمَ هَذِهِ النَّفْسَ ، وَمَا أَبْعَدَهَا عَنْ مَوَارِدِ الذُّلِ وَالْهَوَانِ !! .

◇ هَكَذَا تَكُونُ النُّفُوسُ الْكَبِيرَةُ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ كَانَ الْجُرْجَانِيُّ يَرَىٰ أَنَّ مِنْ حَقِّ الْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ مَخْدُومًا لَا خَادِمًا ، وَأَنْ يَكُونَ مَطْلُوبًا مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ لَا طَالِبًا لَهُمْ .

◆ وَهَلْ تَحَقَّقَ أَمَلُهُ ؟ .

◇ وَهَلْ تَتَوَقَّعُ غَيْرَ ذَلِكَ ؟! لَقَدْ سَمِعَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ بِالْجُرْجَانِيِّ وَتَوَاتَرَتْ إِلَيْهِ

---

(١) أحزما : أي أكثر ضبطًا وإتقانًا .

(٢) تجهّما : صار جهمًا كالوجه العبوس الكريه .

أَخْبَارُ عِلْمِهِ وَفَضْلِهِ ؛ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَأَصْبَحَ يَرَىٰ الْحَيَاةَ بِدُونِهِ تَافِهَةً لَا خَيْرَ فِيهَا ... وَكَانَ الصَّاحِبُ آنَذَاكَ وَزِيرًا لِبَنِي بُوَيْهِ ؛ فَأَسْنَدَ إِلَىٰ الْجُرْجَانِيِّ قَضَاءَ « جُرْجَانَ » ، ثُمَّ وَجَدَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَنْصِبَ يُبْعِدُهُ عَنْهُ ؛ فَأَسْنَدَ إِلَيْهِ قَضَاءَ « الرِّيِّ » لِيَكُونَ بِجَانِبِهِ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَلَعِهِ بِهِ مَا يَرْوِيهِ لَنَا الْقَاضِي الْجُرْجَانِيُّ نَفْسُهُ فَيَقُولُ :

انْصَرَفْتُ يَوْمًا مِنْ دَارِ الصَّاحِبِ ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ عِيدِ الْفِطْرِ فَمَا وَصَلْتُ إِلَىٰ دَارِي ؛ حَتَّىٰ جَاءَنِي رَسُولُهُ يَحْمِلُ إِلَيَّ عِطْرَ الْعِيدِ وَمَعَ الْعِطْرِ هَذَانِ الْبَيْتَانِ :

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي نَفْسِي لَهُ
مَعَ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَهْ

أَهْدَيْتُ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ
فَكَأَنَّمَا أُهْدِي لَهُ أَخْلَاقَهْ

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مُعْجَمَاتُ الْعَرَبِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْأَلْوَانِ ، فَهَلْ بَقِيَ فِي الْكِنَانَةِ شَيْءٌ ؟ .

◇ شَيْءٌ !! هُنَاكَ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ ، إِنَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ لُغَةُ الْعَرَبِ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَلْوَانِ كَفِيلٌ بِسَدِّ حَاجَاتِ الْحَضَارَةِ مَهْمَا بَلَغَتْ عِنَايَتُهَا بِالْأَلْوَانِ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَغْنَيْتَ ثَرْوَتِي اللُّغَوِيَّةَ بِشَيْءٍ مِمَّا قِيلَ فِي هَذَا الْبَابِ ؟ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ فِي الْأَلْوَانِ : ***الدُّبْسَةَ*** : وَهِيَ حُمْرَةٌ مُشْرَبَةٌ سَوَادًا ؛ يُقَالُ : ***دَبِسَ*** الشَّيْءُ ***فَهُوَ أَدْبَسُ*** ، وَهِيَ ***دَبْسَاءُ*** .

وَالدُّجْنَةُ : وَهِيَ أَقْبَحُ السَّوَادِ يُقَالُ : ***دَجِنَ*** الشَّيْءُ ***فَهُوَ أَدْجَنُ*** وَهِيَ ***دَجْنَاءُ*** .

وَالدُّخْنَةُ : وَهِيَ لَوْنُ الدُّخَانِ ، يُقَالُ : ***دَخِنَ*** الشَّيْءُ ***فَهُوَ أَدْخَنُ*** وَهِيَ ***دَخْنَاءُ*** .

وَالزَّبْدَةُ : وَهِيَ كُدْرَةٌ فِي سَوَادٍ يُقَالُ : **ازْبَدَّ** الشَّيْءُ فَهُوَ **أَزْبَدُ** وَهِيَ **زَبْدَاءُ** .
وَالرُّمْدَةُ : وَهِيَ لَوْنُ الرَّمَادِ ، يُقَالُ : هَذَا ثَوْبٌ **أَرْمَدُ** وَهَذِهِ عَبَاءَةٌ **رَمْدَاءُ** .

◆ مَا هَذَا كُلُّهُ !! مَا هَذَا !! .

◇ إِنَّهُ لَيَسِيرٌ مِنْ كَثِيرٍ ، وَلَوْلَا ضِيقُ الْوَقْتِ لَاتَّسَعَ مَجَالُ الْقَوْلِ ، فَإِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَلَّا يَضِيقَ الْوَقْتُ عَنْ طُرْفَةِ الْجَلْسَةِ .

◇ هَلَّا دِنْتَنِي[1] بِهَا إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ ؟ .

◆ أَنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - تَقُولُ دَائِمًا : الدَّيْنُ هَمٌّ بِاللَّيْلِ ، وَمَذَلَّةٌ بِالنَّهَارِ ، فَمَا لَنَا وَلِلدَّيْنِ ، وَالْعَاجِلُ خَيْرٌ مِنَ الْآجِلِ .

◇ يَبْدُو أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهَا .

◆ إِذَا شِئْتَ ، وَلَكَ الْفَضْلُ .

◇ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ : جَاءَ فِي عُيُونِ الْأَخْبَارِ أَنَّ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ صَاحِبَ الْعِرَاقِ وَلَّىٰ أَعْرَابِيًّا عَمَلًا لَهُ ؛ فَخَانَهُ ، فَعَزَلَهُ ... فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابِيُّ ، قَالَ لَهُ :
يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ !!! .
فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : فَمَالُ مَنْ آكُلُ إِذَا لَمْ آكُلْ مَالَ اللَّهِ ؟ ...
لَقَدْ رَاوَدْتُ إِبْلِيسَ أَنْ يُعْطِيَنِي فَلْسًا وَاحِدًا ؛ فَمَا فَعَلَ .
فَضَحِكَ مِنْهُ ، وَاسْتَرَدَّ مَا فِي يَدِهِ ، وَأَخْلَىٰ سَبِيلَهُ .

* * *

(١) دنتني بها : جعلتها دينًا عليَّ ، أقدمها لك في وقت لاحق .

الْجَلْسَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ

التَّأْثِيرُ الْإِلَـٰهِيُ فِي اللُّغَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ وَعَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، يُكْثِرُ عُلَمَاؤُنَا الْحَدِيثَ عَنْ أَثَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اللُّغَةِ كَثْرَةً تَلْفِتُ النَّظَرَ .

◇ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ إِلَّا بَعْضَ مَا يَجِبُ أَنْ يُقَالَ .

◆ إِلَىٰ هَذَا الْحَدِّ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، مِنْ غَيْرِ تَزَيُّدٍ ، أَوْ مُغَالَاةٍ .

◆ وَمَا أَبْرَزُ آثَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اللُّغَةِ ؟ .

◇ أَوَّلُ هَذِهِ الْآثَارِ لَا أَبْرَزُهَا ، هُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ جَمَعَ الْعَرَبَ عَلَىٰ لَهْجَةِ قُرَيْشٍ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللَّهَجَاتِ .

◆ عَفْوَكَ يَا أَبَتِ ، لَكِنَّ الْمَعْرُوفَ هُوَ أَنَّ لَهْجَةَ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَسُودُ عَرَبَ الشَّمَالِ قَبْلَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَقَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ أَيْضًا .

◇ ذَلِكَ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِيضَاحٍ ؛ فَسِيَادَةُ لَهْجَةِ قُرَيْشٍ لَمْ تَكُنْ تَامَّةً شَامِلَةً ؛ فَقَدْ كَانَ الشُّعَرَاءُ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَهَا غَالِبًا ، أَمَّا قَبَائِلُهُمْ فَقَدْ كَانَتْ تَلُوكُ[1] لَهَجَاتٍ تَخْتَلِفُ عَنِ اللَّهْجَةِ الْقُرَشِيَّةِ كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا .

◆ وَمَا السَّبَبُ فِي كَثْرَةِ هَذَا الِاخْتِلَافِ وَقِلَّتِهِ مِنْ قَبِيلَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ ؟! .

◇ يَرْجِعُ السَّبَبُ - يَا بُنَيَّ - إِلَىٰ قُرْبِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ مِنْ « مَكَّةَ » أَوْ بُعْدِهَا عَنْهَا ؛ فَكُلَّمَا قَرُبَتِ الْقَبِيلَةُ مِنْ « مَكَّةَ » كَانَتْ أَدْنَىٰ إِلَىٰ التَّأَثُّرِ بِلَهْجَةِ قُرَيْشٍ وَالْأَخْذِ بِهَا ، وَكُلَّمَا بَعُدَتْ عَنْهَا كَانَتْ أَبْعَدَ فِي لَهْجَتِهَا عَنْ لَهْجَةِ قُرَيْشٍ .

◆ إِذَنْ مِنْ هُنَا يَبْدَأُ تَأْثِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اللُّغَةِ .

◇ هَدَاكَ اللَّهُ - يَا بُنَيَّ - ؛ فَلَقَدْ عَمِلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَىٰ تَشْذِيبِ هَذِهِ اللَّهَجَاتِ ، وَتَضْيِيقِ مَا بَيْنَهَا مِنْ فُرُوقٍ ، وَبِذَلِكَ اسْتَكْمَلَ السِّيَادَةَ لِلَهْجَةِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ سَائِرِ اللَّهَجَاتِ .

◆ وَلَكِنْ كَيْفَ تَمَّ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ ؟ .

◇ مِنَ الْمَعْلُومِ لَدَيْكَ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلَهْجَةِ قُرَيْشٍ .

◆ نَعَمْ .

◇ وَأَنَّ الْعَرَبَ حِينَ اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ أُولِعُوا بِالْقُرْآنِ أَشَدَّ الْوَلَعِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْإِقْبَالِ ، وَذَهَبُوا بِالْإِعْجَابِ بِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ .

◆ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْهِمْ .

◇ فَضْلٌ وَأَيُّ فَضْلٍ ... وَقَدْ بَلَغَ مِنْ وَلَعِهِمْ بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتْلُونَهُ آنَاءَ اللَّيْلِ

---

(١) تلوك : تخلط .

وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، وَيَتَدَبَّرُونَهُ مَا وَسِعَهُمُ التَّدَبُّرُ ، لَا فَرْقَ فِي ذَٰلِكَ بَيْنَ سُكَّانِ الصَّحَارَىٰ وَقُطَّانِ[1] الأَرْيَافِ وَالْمُدُنِ ؛ وَبِذَٰلِكَ تَحَوَّلَ جُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ حَفَظَةٍ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَبِذَٰلِكَ أَخَذَ هَدْيُ الْقُرْآنِ طَرِيقَهُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، وَسَلَكَتْ لَهْجَتُهُ سَبِيلَهَا إِلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ .

◆ وَبِذَٰلِكَ عَمَّتْ لَهْجَتُهُ الَّتِي هِيَ لَهْجَةُ قُرَيْشٍ وَسَادَتْ عَلَىٰ لَهَجَاتِ الْعَرَبِ ، أَلَيْسَ كَذَٰلِكَ ؟ .

◇ لَا زِلْتَ مُوَفَّقًا إِلَىٰ الصَّوَابِ ، نَعَمْ ، إِنَّهُ لَكَذَٰلِكَ .

◆ هَذَا أَثَرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي لَهَجَاتِ عَرَبِ شَمَالِيِّ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَمَا أَثَرُهُ فِي لَهَجَاتِ عَرَبِ الْجَنُوبِ ؟ .

◇ لَقَدْ كَانَ تَأْثِيرُهُ فِي لَهَجَاتِ عَرَبِ الْجَنُوبِ أَبْعَدَ ، وَأَعْمَقَ ، وَأَكْبَرَ .

◆ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ مِنَ الْمَعْلُومِ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ كَانَتْ لِعَرَبِ الْجَنُوبِ بِعَامَّةٍ ، وَلِحِمْيَرَ بِخَاصَّةٍ ، لُغَةٌ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كُلِّيًّا عَنْ لُغَةِ عَرَبِ الشَّمَالِ .

◆ اخْتِلَافًا كُلِّيًّا !! إِلَىٰ هَذَا الْحَدِّ !! .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ نَعَمْ ؛ فَأَحَدُ كِبَارِ لُغَوِيِّينَا الْقُدَمَاءِ وَهُوَ عَمْرُو بْنُ الْعَلَاءِ يَقُولُ : « مَا لُغَةُ حِمْيَرَ بِلُغَتِنَا ، وَلَا لِسَانُهُمْ بِلِسَانِنَا » .

◆ وَمَا الَّذِي حَدَثَ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ لُغَتَا الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ لُغَةً وَاحِدَةً ؟ .

◇ إِنَّهُ الْقُرْآنُ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُ الْقُرْآنُ . لَمَّا أَكْرَمَ اللَّهُ الْعَرَبَ بِالْقُرْآنِ أُولِعَ بِهِ عَرَبُ

(١) قطان : سكان .

الْجَنُوبِ كَمَا أُولِعَ بِهِ عَرَبُ الشَّمَالِ ؛ فَاطْمَأَنَّتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَاسْتَعْذَبَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ ، فَغَدَتْ لُغَتُهُ لُغَتَهُمْ ، وَلَمْ تَبْقَ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَتَانِ كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهَا دِينَانِ .

◆ أَبَتِ ، وَلَكِنْ مَا أَهَمِّيَّةُ سِيَادَةِ لَهْجَةِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟! .

◇ لَهْجَةُ قُرَيْشٍ - يَا بُنَيَّ - تُصَوِّرُ عَبْقَرِيَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَرْوَعَ تَصْوِيرٍ ؛ فَقَدِ اجْتَمَعَ لَهَا أَحْلَىٰ مَا فِي لَهَجَاتِ الْعَرَبِ وَأَصْفَاهُ ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فَزَادَهَا حَلَاوَةً وَطَلَاوَةً وَصَفَاءً ، ثُمَّ إِنَّهُ أَمَاتَ مَا عَدَاهَا وَأَفْسَحَ لَهَا وَحْدَهَا مَجَالَ الْحَيَاةِ .

◆ ثُمَّ إِنَّهُ نَشَرَهَا فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ .

◇ لَمْ يَنْشُرْهَا يَا بُنَيَّ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا ضَمِنَ لَهَا أَنْ تُحْفَظَ ، وَأَنْ تَظَلَّ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ جَدِيدَةً لَا تَبْلَىٰ[1] جِدَّتُهَا ، غَضَّةً نَضِرَةً لَا تَذْبُلُ نَضْرَتُهَا .

◆ إِنَّهُ لَفَضْلٌ كَبِيرٌ لِلْقُرْآنِ عَلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ بِعَامَّةٍ وَلَهْجَةِ قُرَيْشٍ بِخَاصَّةٍ .

◇ وَيَتَّضِحُ هَذَا الْفَضْلُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ؛ إِذَا عَرَفْنَا كَيْفَ اسْتَطَاعَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنْ يَجْعَلَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ اللُّغَةَ الْأَدَبِيَّةَ لِلشُّعُوبِ الْقَاطِنَةِ فِي الْأَصْقَاعِ الْمُمْتَدَّةِ مِنْ أَوَاسِطِ آسْيَا إِلَىٰ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ .

◆ وَكَيْفَ تَرَكَتْ هَذِهِ الْأَقْوَامُ لُغَاتِهَا ، وَأَحَلَّتْ مَحَلَّهَا هَذِهِ اللُّغَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ عَنْهَا ، الدَّخِيلَةَ عَلَيْهَا ؟ .

◇ حِينَ أَسْلَمَتْ هَذِهِ الْأَقْوَامُ - يَا بُنَيَّ - لَمْ تَبْقَ هَذِهِ اللُّغَةُ أَجْنَبِيَّةً عَنْهَا أَوْ دَخِيلَةً عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا غَدَتْ أَحَبَّ إِلَىٰ قُلُوبِهَا مِنْ أَلْسِنَتِهَا ، وَأَعْذَبَ فِي أَفْوَاهِهَا مِنْ لُغَاتِهَا .

---

(١) لا تبلىٰ : لا تفنىٰ ولا تزول .

◆ إِنَّهُ لَأَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ ، لَقَدْ حَاوَلَ الْمُسْتَعْمِرُونَ أَنْ يَفْرِضُوا لُغَاتِهِمْ عَلَىٰ الشُّعُوبِ الْمُسْتَعْمَرَةِ بِجَمِيعِ الْوَسَائِلِ ؛ فَلَمْ يُفْلِحُوا .

◇ ذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ لُغَةَ الْغُزَاةِ ، وَكَانَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ لُغَةَ الْهُدَاةِ ، وَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الْغَازِي وَالْهَادِي .

◆ أَبَتِ ، أَهَذَا هُوَ كُلُّ أَثَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اللُّغَةِ ؟ .

◇ بَلْ هَذَا بَعْضُ أَثَرِهِ ، أَمَّا آثَارُهُ الْأُخْرَىٰ فَمَوْعِدُهَا الْحَدِيثُ الْقَادِمُ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ زَوَّدْتَنِي - طَالَ بَقَاؤُكَ - بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « يَفْعُلُ » بِضَمِّ الْعَيْنِ ، وَهِيَ مِمَّا يَكْثُرُ فِيهِ اللَّحْنُ .

◇ نَعَمْ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَإِنِّي لَآمُلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَجْدَىٰ عَلَيْكَ .

◆ لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَجْدَىٰ عَلَيَّ وَنَفَعَنِي لَمَا اسْتَزَدْتُ مِنْهُ !! .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَّمَكَ مَا يَنْفَعُكَ ، وَنَفَعَكَ بِمَا يُعَلِّمُكَ .

◆ وَالْآنَ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ : أَمَا زَالَ فِي الْجَعْبَةِ شَيْءٌ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكَّرَاتِي ؟ .

◇ هُنَاكَ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ - مَشْكُورًا - فَأَوْرَدْتَ لِي طَرَفًا مِنْهَا !! .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً ، حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بُنَيَّ ، هُنَاكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ غَيْرَ مَهْمُوزَةٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِيهَا الْخَطَأُ فَتُهْمَزُ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِهِمْ : أَشْغَلَ فُلَانٌ فُلَانًا بِالْأَمْرِ ، وَالصَّوَابُ : شَغَلَهُ بِالْأَمْرِ يَشْغَلُهُ بِهِ .

◆ أَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُقَالُ : أَشْغَلْتُهُ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لَا يُقَالُ : أَشْغَلْتُهُ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : شَغَلْتُهُ .
وَلَا يُقَالُ أَيْضًا : أَنْعَشَهُ اللَّهُ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : نَعَشَهُ اللَّهُ يَنْعَشُهُ .
وَلَا يُقَالُ : أَعَبْتُ الشَّيْءَ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : عِبْتُ الشَّيْءَ أَعِيبُهُ .

◆ وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾[1] أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَمُضَارِعُ « عِبْتُ » هُوَ « أَعِيبُ » ، وَلَوْ كَانَ الْمَاضِي « أَعَبْتُ » لَكَانَ مُضَارِعُهُ « أُعِيبُ » .
ثُمَّ إِنَّهُ لَا يُقَالُ : أَرْفَدْتُ فُلَانًا ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : رَفَدْتُهُ[2] .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي وَعَنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ أَلْفَ خَيْرٍ كِفَاءَ مَا سَدَّدْتَ وَصَوَّبْتَ .

◇ آمِينَ .

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَمَا آنَ لَنَا بَعْدَ طُولِ الْعَنَاءِ ؛ أَنْ نَتَفَيَّأَ[3] ظِلَالَ الرَّوْضَةِ الْغَنَّاءِ ؟ .

---

(١) سورة الكهف الآية ٧٩.
(٢) رفدته : أعنته وأعطيته .
(٣) نتفيأ : نحتمي بالفيء وهو الظل .

◇ هَا هِيَ ذِي مُفَتَّحَةَ الْأَبْوَابِ ؛ فَادْخُلْهَا بِسَلَامٍ آمِنًا .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنُلِمُّ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ إِنَّهُ الْفَرَزْدَقُ .

◆ صَاحِبُ جَرِيرٍ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ صَاحِبُ جَرِيرٍ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ دِيوَانِهِ ؟ .

◇ إِنَّهَا قَصِيدَةٌ فِي مَدْحِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١] .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ أُنْشِدَكَهَا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَسْمَعَ قِصَّتَهَا .

◆ تَفَضَّلْ مَأْجُورًا غَيْرَ مَأْمُورٍ .

◇ جَاءَ فِي زَهْرِ الْآدَابِ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ حَجَّ ذَاتَ سَنَةٍ ؛ فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَأَرَادَ اسْتِلَامَ الْحَجَرِ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ مِنْ شِدَّةِ الزِّحَامِ ... فَنُصِبَ لَهُ مِنْبَرٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ، فَبَيْنَا[٢] هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي إِزَارٍ وَرِدَاءٍ[٣] ، وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَعْطَرَهُمْ رَائِحَةً ، وَأَكْثَرَهُمْ خُشُوعًا ، وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا يُشْبِهُ رُكْبَةَ الْعَنْزِ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... فَطَافَ بِالْبَيْتِ ، ثُمَّ أَتَى لِيَسْتَلِمَ الْحَجَرَ فَتَنَحَّى النَّاسُ لَهُ هَيْبَةً وَإِجْلَالًا ، فَغَاظَ

---

(١) انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف .
(٢) فبينا : فبينما .
(٣) الإزار : ما يستر أسفل الجسم ، والرداء : ما يستر الجزء الأعلى من الجسم .

ذَلِكَ هِشَامًا ؛ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّام :
مَنِ الَّذِي أَكْرَمَهُ النَّاسُ هَذَا الْإِكْرَامَ ، وَأَعْظَمُوهُ هَذَا الْإِعْظَامَ ؟!! .
فَقَالَ هِشَامٌ : لَا أَعْرِفُهُ ، لِئَلَّا يَعْظُمَ فِي صُدُورِ أَهْلِ الشَّامِ .
فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ وَكَانَ حَاضِرًا :

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ[1] وَطْأَتَهُ
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ
هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
إِلَىٰ مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ

يُنْمَىٰ[2] إِلَىٰ ذِرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ
عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الْإِسْلَامِ وَالْعَجَمُ

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ[3] رَاحَتِهِ
رُكْنُ الْحَطِيمِ[4] إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

يُغْضِي[5] حَيَاءً وَيُغْضَىٰ مِنْ مَهَابَتِهِ
فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ[6]
طَابَتْ عَنَاصِرُهُ وَالْخِيمُ[7] وَالشِّيَمُ

---

(١) البطحاء : مكان سيل الماء ، بالقرب من البيت الحرام .
(٢) يُنمىٰ : يُنسب .
(٣) العرفان : المعرفة ، والمعنىٰ : يكاد ركن الحطيم يمسكه عندما يعرف يده الممتدة إليه .
(٤) الحطيم : بناء قبالة الميزاب خارج الكعبة .
(٥) يغضي : يغض طرفه حياءً .
(٦) النبعة : الأصل الكريم .
(٧) الخيم : السجية والطبيعة .

يَنْجَابُ نُورُ الْهُدَىٰ عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ

كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلَمُ

حَمَّالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا افْتُرِحُوا[1]

حُلْوُ الشَّمَائِلِ تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ

هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ

بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا

مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ

وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الْأُمَمُ

كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا

يُسْتَوْكَفَانِ[2]، وَلَا يَعْرُوهُمَا الْعُدْمُ[3]

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَىٰ بَوَادِرُهُ[4]

تَزِينُهُ الاِثْنَتَانِ: الْحِلْمُ وَالْكَرَمُ

لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ مَيْمُونٌ بِغُرَّتِهِ

رَحْبُ الْفِنَاءِ[5] أَرِيبٌ حِينَ يَعْتَزِمُ

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ، وَبُغْضُهُمُ

زَيْغٌ، وَقُرْبُهُمُ مَنْجًى وَمُعْتَصَمُ

---

(١) إذا افترحوا: إذا أصابهم الدهر بقروح، وأثقلهم بأعبائه.

(٢) يستوكفان: يطلب الناس غيثهما.

(٣) لا يعروهما: لا يصيبهما.

(٤) البوادر: جمعٌ مفرده بادرة، وهي الحدَّة والقسوة.

(٥) رحب الفناء: واسع الفناء لا يضيق بيته بالواردين إليه.

إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَىٰ كَانُوا أَئِمَّتَهُمْ

أَوْ قِيلَ : مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ ؟ قِيلَ : هُمُ

لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ بُعْدَ غَايَتِهِمْ[1]

وَلَا يُدَانِيهِمُ قَوْمٌ وَإِنْ كَرُمُوا

هُمُ الْغُيُوثُ[2] إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ

وَالْأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَىٰ وَالْبَأْسُ مُحْتَدِمُ[3]

لَا يُنْقِصُ الْعُسْرُ بَسْطًا مِنْ أَكُفِّهِمُ

سِيَّانِ ذَلِكَ إِنْ أَثْرَوْا وَإِنْ عَدِمُوا

مَا قَالَ « لَا » قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُّدِهِ

لَوْلَا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعَمُ

فَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِهِ

الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

◆ مَا أَرْوَعَ هَذَا الْكَلَامَ !! وَمَا أَبْرَعَ هَذَا الْبَيَانَ !! .

◇ وَمَا أَعْظَمَ هَذِهِ الْجُرْأَةَ عَلَىٰ قَوْلَةِ الْحَقِّ فِي الْمَوْقِفِ الصَّعْبِ ، يَقُولُهَا الْمَرْءُ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ الرُّجُولَةِ ؛ فَتَظَلُّ بَاقِيَةً عَلَىٰ وَجْهِ الدَّهْرِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - أَجْزَلَ اللَّهُ ثَوَابَكَ - زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ لُغَةُ الْقُرْآنِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْأَلْوَانِ ، فَهَلْ بَقِيَ شَيْءٌ فِي هَذَا الْبَابِ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ ؟ .

---

(١) بعد غايتهم : أي نهاية مضمار السباق .

(٢) الغيوث : جمع مفرده غيث ، وهو المطر يأتي بالخير.

(٣) محتدم : مشتد وعنيف .

◇ أَنَا مَا قُلْتُ لَكَ إِلَّا يَسِيرًا مِنْ كَثِيرٍ، فَفِي مُعْجَمَاتِ الْعَرَبِ وَكُتُبِ اللُّغَةِ مِنْ أَسْمَاءِ الأَلْوَانِ وَضُرُوبِهَا مَا يَكْفُلُ سَدَّ حَاجَاتِ الْحَضَارَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ؛ مَهْمَا اشْتَدَّتْ حَاجَتُهَا إِلَىٰ الْمُصْطَلَحَاتِ فِي هَذَا الْبَابِ.

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ، وَأَرْجُوكَ أَنْ تَتَمَهَّلَ.

◇ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ فِي الأَلْوَانِ: ***السُّفْعَةُ***: وَهِيَ سَوَادٌ مُشْرَبٌ بِحُمْرَةٍ، وَقِيلَ: بَلِ ***السُّفْعَةُ*** سَوَادٌ مُخْتَلِطٌ بِلَوْنٍ آخَرَ أَيِّ لَوْنٍ كَانَ ... يُقَالُ: هَذَا ثَوْبٌ ***أَسْفَعُ*** وَهَذِهِ مُلَاءَةٌ ***سَفْعَاءُ***.
وَ ***الشُّكْلَةُ***: وَهِيَ حُمْرَةٌ وَبَيَاضٌ مُخْتَلِطَانِ.
وَ ***الشُّهْبَةُ***: وَهِيَ بَيَاضٌ يَغْلِبُ عَلَىٰ السَّوَادِ، يُقَالُ: ***شَهِبَ*** الشَّيْءُ وَ ***شَهُبَ*** بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ فَهُوَ ***أَشْهَبُ*** وَهِيَ ***شَهْبَاءُ***.
وَ ***الصُّبْحَةُ***: وَهِيَ سَوَادٌ يَضْرِبُ إِلَىٰ حُمْرَةٍ يُقَالُ: ***صَبِحَ*** الشَّيْءُ فَهُوَ ***أَصْبَحُ*** وَهِيَ ***صَبْحَاءُ***.
وَ ***الصُّحْرَةُ***: وَهِيَ غُبْرَةٌ فِي حُمْرَةٍ خَفِيفَةٍ إِلَىٰ بَيَاضٍ قَلِيلٍ، يُقَالُ: هَذَا جِسْمٌ ***أَصْحَرُ*** وَالْمُؤَنَّثُ ***صَحْرَاءُ***.
وَ ***الصُّحْمَةُ***: وَهِيَ سَوَادٌ إِلَىٰ صُفْرَةٍ، يُقَالُ: هَذَا ثَوْبٌ ***أَصْحَمُ*** وَهَذِهِ مُلَاءَةٌ ***صَحْمَاءُ***.

◆ أَبَتِ، مَا هَذَا كُلُّهُ!! أَلْوَانٌ مُفْرَدَةٌ وَأَلْوَانٌ مُرَكَّبَةٌ، وَحُمْرَةٌ إِلَىٰ بَيَاضٍ، وَبَيَاضٌ إِلَىٰ حُمْرَةٍ، وَصُفْرَةٌ إِلَىٰ سَوَادٍ، وَسَوَادٌ إِلَىٰ صُفْرَةٍ، وَهَكَذَا ...

◇ إِنَّهَا لُغَةُ الْقُرْآنِ، لُغَةُ الْعُلُومِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ مِثْلَمَا هِيَ لُغَةُ الْفُنُونِ وَالآدَابِ.

* * *

◆ أَبَتِ، أَرْجُو أَلَّا يَكُونَ الْوَقْتُ قَدْ ضَاقَ عَنْ طُرْفَةِ الْيَوْمِ.

◇ إِذَا ضَاقَ فَالْحَاحُكَ يُوَسِّعُهُ.

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ وَلَا تَتَمَهَّلْ .

◇ رُوِيَ أَنَّ كُثَيِّرَ عَزَّةَ دَخَلَ يَوْمًا عَلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : نَشَدْتُكَ اللَّهَ ، هَلْ رَأَيْتَ أَشَدَّ مِنْكَ حُبًّا ؛ فَقَالَ :

نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ... بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي بَعْضِ الْفَلَوَاتِ[١] ؛ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ قَدْ نَصَبَ حَبَائِلَهُ لِلصَّيْدِ ، فَقُلْتُ لَهُ :

مَا أَجْلَسَكَ هَا هُنَا ؟ .

قَالَ : أَهْلَكَنِي وَأَهْلِيَ الْجُوعُ ، فَنَصَبْتُ حَبَائِلِي لِأُصِيبَ لَهُمْ وَلِنَفْسِي مَا يَكْفِينَا سَحَابَةَ[٢] يَوْمِنَا .

قُلْتُ : أَرَأَيْتَ إِنْ أَقَمْتُ مَعَكَ فَأَصَبْنَا صَيْدًا ؛ أَتَجْعَلُ لِي مِنْهُ جُزْءًا ؟ .

قَالَ : نَعَمْ .

فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ وَقَعَتْ ظَبْيَةٌ[٣] فِي الشَّرَكِ الَّذِي نَصَبَهُ ؛ فَخَرَجْنَا مُبْتَدِرَيْنَ[٤] ؛ فَأَسْرَعَ إِلَيْهَا ، فَحَلَّهَا ، وَأَطْلَقَهَا .

فَقُلْتُ : مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَذَا ؟! .

قَالَ : دَخَلَتْنِي لَهَا رِقَّةٌ لِشَبَهِهَا بِلَيْلَىٰ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

اِذْهَبِي فِي كَلَاءَةِ[٥] الرَّحْمَنِ ... أَنْتِ مِنِّي فِي ذِمَّةٍ وَأَمَانِ

لَا تَخَافِي بِأَنْ تُهَاجِي بِسُوءٍ[٦] ... مَا تَغَنَّىٰ الْحَمَامُ فِي الْأَغْصَانِ

تَرْهَبِينِي[٧] !! وَالْجِيدُ مِنْكِ لِلَيْلَىٰ ... وَالْحَشَا وَالْبُغَامُ وَالْعَيْنَانِ !!

* * *

(١) الفلوات : الصحاري ، والخلاء من الأرض ، مفردها فلاة .
(٢) سحابة يومنا : طول يومنا .
(٣) الظبية : جنس من الغزلان ، وهي من الحيوانات ذوات الأظلاف .
(٤) مبتدرين : مسرعين يريد كل منا أن يسبق الآخر .
(٥) الكلاءة : الحفظ والصون والرعاية .
(٦) أي لن يسبب لك أحد هيجًا ولا خوفًا من خطر .
(٧) ترهبيني : تخافين مني .

الْجَلْسَةُ الْعِشْرُونَ

لُغَةُ الْحَضَارَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ حَدَّثْتَنِي عَنْ أَيَادِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَىٰ اللُّغَةِ ، وَمَا تَرَكَهُ فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الْآثَارِ .

◇ أَنَا مَا حَدَّثْتُكَ إِلَّا عَنْ بَعْضِ آثَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اللُّغَةِ .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّ هُنَاكَ آثَارًا أُخْرَىٰ غَيْرَ تَوْحِيدِ لُغَةِ عَرَبِ الْجَنُوبِ مَعَ لُغَةِ عَرَبِ الشَّمَالِ ، وَغَيْرَ سِيَادَةِ لَهْجَةِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ سَائِرِ لَهَجَاتِ الْعَرَبِ ، وَغَيْرَ نَشْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْأَصْقَاعِ الْمُمْتَدَّةِ مِنْ أَوَاسِطِ آسْيَا إِلَىٰ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ ؟! .

◇ هَذِهِ بَعْضُ آثَارِ الْقُرْآنِ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ .

◆ بَعْضُهَا !! .

◇ نَعَمْ بَعْضُهَا يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَاذَا عَنِ الْآثَارِ الْأُخْرَىٰ ؟! .

◇ إِنَّ أَعْظَمَ أَثَرٍ تَرَكَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ، هُوَ أَنَّهُ حَوَّلَهَا مِنْ لُغَةِ قَبَائِلَ تَرْعَىٰ الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ ، إِلَىٰ لُغَةِ أُمَّةٍ تَبْنِي الْحَضَارَةَ وَتَسُوسُ الْأُمَمَ .

◆ عَفْوَكَ لَمْ أَفْهَمْ مَا عَنَيْتَهُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْدِيدِ ... أَتُرِيدُ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي أَضَافَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَىٰ اللُّغَةِ مِنْ أَمْثَالِ الْإِيمَانِ ، وَالْكُفْرِ ، وَالنِّفَاقِ ، وَالشِّرْكِ ، وَالْإِسْلَامِ ، مِمَّا يُورِدُهُ مُؤَرِّخُو الْأَدَبِ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَلَىٰ أَثَرِ الْقُرْآنِ فِي اللُّغَةِ .

◇ مَا أَرَدْتُ هَذَا يَا بُنَيَّ إِطْلَاقًا ، فَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُهُ مُؤَرِّخُو الْأَدَبِ لَا يُعَدُّ شَيْئًا بِجَانِبِ الْأَثَرِ الْكَبِيرِ الَّذِي أَحْدَثَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي اللُّغَةِ ؛ حِينَ نَقَلَهَا مِنْ لُغَةِ بَدَاوَةٍ إِلَىٰ لُغَةِ حَضَارَةٍ .

◆ وَكَيْفَ ؟! .

◇ لَقَدْ كَانَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ مُحَدَّدَةً بِحُدُودِ الْحَيَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ ... كَانَ أَقْصَىٰ مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ هُوَ الْحَيَاةُ الْبَدَوِيَّةُ بِصَحْرَائِهَا وَأَجْوَائِهَا ، وَنَبَاتِهَا وَإِنْسَانِهَا .

◆ وَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ؟! .

◇ وَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ؛ حَمَّلَ هَذِهِ اللُّغَةَ مَضْمُونَ الدِّينِ الْجَدِيدِ كُلَّهُ ، بِمَا فِيهِ مِنْ خُلُوصِ الْعَقِيدَةِ ، وَدِقَّةِ التَّشْرِيعِ ، وَسُمُوِّ التَّوْجِيهِ ؛ مَعَ مَا انْبَثَقَ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ ، وَالْفِكْرِيَّةِ ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ .

◆ حَقًّا ، إِنَّهُ لَأَثَرٌ كَبِيرٌ . [بِصَوْتٍ خَافِتٍ نَوْعًا مَا]

◇ وَقَدْ عَبَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ـ يَا بُنَيَّ ـ أَجْمَلَ تَعْبِيرٍ، وَسَاقَهُ فِي أَعْذَبِ بَيَانٍ، وَأَجْزَلِ أُسْلُوبٍ.

◆ كَلَامٌ سَلِيمٌ.

◇ وَهَذِهِ الْيَدُ الَّتِي أَسْدَاهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ؛ هِيَ الَّتِي مَكَّنَتْهَا مِنَ التَّعْبِيرِ عَنِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي نَشَأَتْ فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ مِنْ تَفْسِيرٍ وَأُصُولٍ وَفِقْهٍ، وَنَحْوٍ وَصَرْفٍ وَعَرُوضٍ، وَقِرَاءَاتٍ، وَبَلَاغَةٍ، وَغَيْرِهَا وَغَيْرِهَا، وَيَسَّرَتْ لَهَا أَنْ تُمِدَّ هَذِهِ الْعُلُومَ بِآلَافِ الْمُصْطَلَحَاتِ الدَّقِيقَةِ الْمُعَبِّرَةِ.

◆ إِنَّهَا لَيَدٌ طُولَىٰ أَسْدَاهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ.

◇ وَتَبْدُو لَكَ هَذِهِ الْيَدُ أَكْثَرَ وَأَظْهَرَ، إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْوَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي خَطَاهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِاللُّغَةِ هِيَ الَّتِي مَكَّنَتْهَا فِيمَا بَعْدُ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنْ ثَقَافَاتِ الْيُونَانِ، وَالْهُنُودِ، وَالْفُرْسِ، وَيَسَّرَتْ لَهَا اسْتِيعَابَ مَضْمُونِ هَذِهِ الْحَضَارَاتِ بِمَا فِيهَا مِنْ فَلْسَفَةٍ، وَطِبٍّ، وَحِكْمَةٍ، وَمَنْطِقٍ.

◆ وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ حَضَارَةِ الْإِسْلَامِ.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ أَثَرًا آخَرَ تَرَكَهُ الْقُرْآنُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ.

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ؟.

◇ هُوَ أَنَّهُ هَذَّبَهَا مِنْ حُوشِيِّ اللَّفْظِ وَغَرِيبِ الْكَلَامِ.

◆ هَذَّبَهَا مِنْ حُوشِيِّ الْكَلَامِ وَغَرِيبِهِ!! وَكَيْفَ؟.

◇ إِنَّ فِي وُسْعِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَجْلَىٰ وُقُوفٍ إِذَا أَنْتَ اسْتَمَعْتَ إِلَىٰ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا أَبُو ذُؤَيْبٍ:

فَوَرَدْنَ وَالْعَيُّوقُ[1] مَقْعَدَ رَابِئِ الضُّـ[2]

ـرَبَاءِ[2] خَلْفَ النَّجْمِ لَا يَتَتَلَّعُ[3]

فَشَرِبْنَ ثُمَّ سَمِعْنَ حِسًّا دُونَهُ

شَرَفُ الْحِجَابِ وَرَيْبُ قَرْعٍ يَقْرَعُ[4]

فَنَكِرْنَهُ فَنَفَرْنَ وَامْتَرَسَتْ بِهِ

عَوْجَاءُ هَادِيَةٌ وَهَادٍ جُرْشُعُ[5]

◆ حَسْبُكَ أَبَتِ حَسْبُكَ ! مَا هَذَا الَّذِي تُنْشِدُنِيهِ ؟! أَمِنْ لُغَةِ الْإِنْسِ أَمْ مِنْ لُغَةِ الْجِنِّ ؟!! .

◇ بَلْ مِنْ لُغَةِ الْإِنْسِ ، وَمِنْ جَيِّدِ الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي تَخْتَارُهُ كُتُبُ الْأَدَبِ وَتَصْطَفِيهِ .

◆ وَلَكِنَّهُ مَحْشُوٌّ بِالْغَرِيبِ الَّذِي لَا نَفْهَمُهُ .

◇ هَذَا الْغَرِيبُ الَّذِي لَا تَفْهَمُهُ - يَا بُنَيَّ - هُوَ الَّذِي اسْتَبْعَدَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ ، فَجَاءَتْ حُلْوَةَ اللَّفْظِ جَزْلَةَ التَّعْبِيرِ ؛ تَخْتَالُ فِي أُسْلُوبٍ رَشِيقٍ

---

(١) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثّريا لا يتقدمها ، ويطلع قبل الجوزاء .

(٢) الرابئ : المراقب ، والضرباء : جمع ضروب ، وهو ضارب قداح الميسر .

(٣) لا يتتلع : لا يتقدم .

(٤) دونه شرف الحجاب : أي دون ذلك الحس شرف الحجاب يريد حجاب الصائد ؛ لأنه يحتجب عن الطرائد بشيء . والشرف : ما ارتفع من الأرض . والحجاب مرتفع يكون في الحَرَّة عند منقطعها . وريب قرع يقرع : أي سمعن ما يريبهن من قرع قوس ، وصوت وتر ، ونحو ذلك .

(٥) نكِرْنه : أي نكِرت الحمر الصائد . امترست به : مرت ناحيته . الهادية : المتقدمة والهادي كذلك . جُرْشع : منتفخ الجنبين ، ويريد بالهادي الفحل وبالهادية الأتان .

(٥) يقول الشاعر : إن هناك صائدًا لحمر الوحش قد وردن الماء في وقت طلوع نجم العيوق ، وكان العيوق خلف نجم الثريا لا يتقدمه وهو في مكانه هذا يشبه الإنسان الذي يراقب اللاعبين بالميسر ، ثم سمعت حمر الوحش حِسّ الصائد ، فنفرن ولاذت الأنثى الهوجاء الطويلة العنق بذكر مثلها منتفخ الجنبين . [انظر كتاب « شعر الطرد » للمؤلف ، الفصل الثالث : شعر الصيد قبل ظهور الطرديات] .

لَا يُكَدِّرُهُ لَفْظٌ تَنْبُو عَنْهُ الْأَسْمَاعُ ، وَلَا يَشُوبُهُ تَعْبِيرٌ تَنْفِرُ مِنْهُ الْأَذْوَاقُ .

◆ أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ آثَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ .

◇ بَلْ لَا تَزَالُ هُنَاكَ آثَارٌ أُخْرَىٰ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ ضَاقَ لَوَقَفْتُكَ عَلَيْهَا .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ غَيْرَ « مَهْمُوزَةٍ » ، وَيَهْمِزُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ خَطَأً .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ وَقَعَ مِنْكَ مَوْقِعًا حَسَنًا .

◆ مَوْقِعًا حَسَنًا فَحَسْبُ !!! إِنَّ هَذِهِ التَّصْوِيبَاتِ تَقَعُ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ إِخْوَتِكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَلَّمَكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ وَنَفَعَكُمْ بِمَا يُعَلِّمُكُمْ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

◆ وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ ، أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا آخَرَ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ ؛ لِتَعْصِمَ بِصَوَابِهِ عَنِ الْخَطَإِ لِسَانَكَ ، وَتَزِينَ بِصِحَّتِهِ بَيَانَكَ .

◆ إِذَنْ هَاتِهِ مَشْكُورًا غَيْرَ مَأْمُورٍ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ غَيْرَ « مَهْمُوزٍ » وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُكْثِرُونَ اللَّحْنَ فِيهِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ مَهْمُوزًا قَوْلَهُمْ :
اخْتَلَيْتُ بِفُلَانٍ سَاعَةً وَأَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِمَا فِي نَفْسِي ، وَقَوْلَهُمْ : اخْتَلَىٰ الْوَزِيرُ بِالضَّيْفِ الْكَبِيرِ وَنَظَرَا فِي بَعْضِ الشُّئُونِ .

◆ أَهُنَاكَ خَطَأٌ فِي اسْتِعْمَالِ اخْتَلَيْتُ بِفُلَانٍ ، وَاخْتَلَىٰ الْوَزِيرُ بِالضَّيْفِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَهُوَ لَحْنٌ غَرِيبٌ عَنِ اللُّغَةِ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ دَوَرَانِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الصَّحَفِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ .

◆ وَمَا الصَّوَابُ ؟ .

◇ الصَّوَابُ يَا بُنَيَّ ، أَنْ تَسْتَعْمِلَ كَلِمَةَ خَلَا فِي مَوْضِعِ اخْتَلَىٰ ؛ حَيْثُ يُقَالُ : خَلَوْتُ بِفُلَانٍ ، وَخَلَا الْوَزِيرُ بِالضَّيْفِ .

◆ وَصِيغَةُ « اخْتَلَىٰ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ !؟ .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ ، تَقُولُ : اخْتَلَىٰ فُلَانٌ النَّبَاتَ أَيِ احْتَشَّهُ ، وَتَقُولُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمَجَازِ : فُلَانٌ يَخْتَلِي الرُّءُوسَ أَيْ يَقْطَعُهَا .

◆ لُقِّيتَ الْخَيْرَ وَالْبِرَّ يَا أَبَتِ جَزَاءَ مَا سَدَّدْتَ وَأَرْشَدْتَ .

◇ وَوُقِّيتَ الْخَطَأَ يَا بُنَيَّ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنَّ فِي النَّفْسِ شَوْقًا إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ ، فَأَيْنَ مِنِّي حُلْوُ جَنَاهَا وَطِيبُ شَذَاهَا ؟ .

◇ هُمَا مِنْكَ دَانِيَانِ قَرِيبَانِ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ رَوْضُهُ ؟ .

◇ مَا هُوَ بِشَاعِرٍ وَاحِدٍ وَإِنَّمَا هُمْ شُعَرَاءُ .

◆ شُعَرَاءُ !! .

◇ نَعَمْ شُعَرَاءُ كُثُرٌ ، تَدَاوَلُوا مَعْنًى وَاحِدًا ؛ فَجَنَيْتُ لَكَ مِنْ رَوْضِ كُلٍّ مِنْهُمْ زَهْرَةً .

◆ وَمَا الْمَعْنَىٰ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي تَدَاوَلُوهُ ؟ .

◇ هُوَ الْأَمْرُ بِاخْتِيَارِ الْإِخْوَانِ ، وَاصْطِفَاءِ الْأَقْرَانِ وَالْأَخْدَانِ[1] .

◆ وَمَا الَّذِي قِيلَ فِي ذَلِكَ ؟ .

◇ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنِّي لَأَنْتَقِي الْإِخْوَانَ كَمَا أَنْتَقِي أَطَايِبَ التَّمْرِ ، ثُمَّ أَنْشَدَ لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ :

إِمْحَضْ[2] مَوَدَّتَكَ الْكَرِيمَ فَإِنَّمَا يَرْعَىٰ ذَوِي الْأَحْسَابِ كُلُّ كَرِيمِ

وَإِخَاءُ أَشْرَافِ الرِّجَالِ مُرُوءَةٌ وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ إِخَاءِ لَئِيمِ

---

(١) الأخدان : الأصدقاء .

(٢) امحض : أخلص .

◆ صَدَقَ ، وَاللَّهِ صَدَقَ ، فَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ إِخَاءِ اللَّئِيمِ .

◇ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ لِوَلَدِهِ : يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَعَدَاوَةَ الرِّجَالِ ، فَإِنَّهَا لَنْ تُعْدِمَكَ مَكْرَ حَلِيمٍ أَوْ مُفَاجَأَةَ لَئِيمٍ .

وَرُوِيَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

وَأَكْثِرْ مِنَ الْإِخْوَانِ مَا اسْطَعْتَ إِنَّهُمْ

عِمَادٌ إِذَا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وَظُهُورُ[1]

وَلَيْسَ كَثِيرًا أَلْفُ خِلٍّ وَصَاحِبٍ

وَإِنَّ عَدُوًّا وَاحِدًا لَكَثِيرُ

◆ مَا أَجْمَلَ هَذَا الْكَلَامَ !! .

◇ وَسُئِلَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : أَيُّ الْكُنُوزِ خَيْرٌ ؟ ...

فَقَالَ : أَمَّا بَعْدَ تَقْوَىٰ اللَّهِ ، فَالصَّدِيقُ الصَّالِحُ .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَلَيْكُمْ بِإِخْوَانِ الصِّدْقِ ؛ فَاكْتَسِبُوهُمْ ... فَهُمْ زَيْنٌ فِي الرَّخَاءِ ، وَعُدَّةٌ عِنْدَ الْبَلَاءِ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو الْعَوْفِيِّ أَنَّهُ قَالَ : اِصْحَبْ مَنْ إِنْ صَحِبْتَهُ زَانَكَ ، وَإِنْ خَدَمْتَهُ صَانَكَ ، وَإِنْ أَصَابَتْكَ خَصَاصَةٌ مَانَكَ[2] ، وَإِنْ رَأَىٰ مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا ، وَإِنْ رَأَىٰ مِنْكَ سَقْطَةً[3] سَتَرَهَا ، ثُمَّ أَنْشَدَ :

إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْـ ـبَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقَلُّهْ

لَيْسَ مَنْ يُظْهِرُ الْمَوَدَّةَ إِفْكًا[4] وَإِذَا قَالَ خَالَفَ الْقَوْلَ فِعْلُهْ

---

(١) ظهور : جمع ظهر وهو خلاف البطن ، وكأن الشاعر يريد أن الإخوان يحملون عنك أثقالك ، كما يحملها ظهرك .

(٢) مانك : أي أعانك بما تحتاج من مؤنة .

(٣) سقطة : هفوة .

(٤) إفكًا : زيفًا وزورًا .

وَصْلُهُ لِلصَّدِيقِ يَوْمٌ وَيَوْمٌ يُضْمِرُ الْهَجْرَ ثُمَّ يَنْبَتُّ حَبْلُهْ[1]

وَأَحَقُّ الرِّجَالِ أَنْ يَغْفِرَ الذَّنْـ ـبَ لِإِخْوَانِهِ الْمُوَفَّرُ عَقْلُهْ[2]

◆ حَقًّا إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا.

◇ وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً.

* * *

◆ أَبَتِ، تَدُورُ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ كَثِيرًا كَلِمَاتٌ: الْفَأْفَأَةُ، وَالتَّمْتَمَةُ، وَاللَّجْلَجَةُ؛ أَفَهِيَ أَلْفَاظٌ مُتَرَادِفَةٌ؟ أَمْ إِنَّ لِكُلِّ لَفْظٍ مَعْنَاهُ الْخَاصَّ بِهِ؟.

◇ مَسْأَلَةُ التَّرَادُفِ يَا بُنَيَّ، لَا تَكَادُ تُوجَدُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؛ فَالْأَلْفَاظُ الَّتِي تَبْدُو لَكَ مُتَرَادِفَةً لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ بَيْنَهَا فُرُوقٌ فِي الْمَعْنَىٰ؛ مَهْمَا كَانَتْ هَذِهِ الْفُرُوقُ دَقِيقَةً ضَئِيلَةً...

هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

◆ وَالثَّانِيَةُ؟!!.

◇ وَالثَّانِيَةُ يَا بُنَيَّ: هِيَ أَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي أَوْرَدْتَهَا إِنَّمَا هِيَ مِنْ عُيُوبِ اللِّسَانِ وَالْكَلَامِ، وَقَدْ وَضَعَ الْعَرَبُ لِمَحَاسِنِ النُّطْقِ وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ أَلْفَاظًا خَاصَّةً بِكُلِّ حَالَةٍ، كَمَا وَضَعُوا لِعُيُوبِ الْكَلَامِ أَلْفَاظًا خَاصَّةً بِكُلِّ عَيْبٍ أَيْضًا.

◆ وَمَا الَّذِي قَالُوهُ فِي مَحَاسِنِ النُّطْقِ وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ؟.

◇ قَالُوا: إِذَا كَانَ الرَّجُلُ حَادَّ اللِّسَانِ قَادِرًا عَلَىٰ الْكَلَامِ، فَهُوَ: *ذَرِبُ اللِّسَانِ*، وَ*فَتِيقُ الْكَلَامِ*.

---

(١) ينبت حبله: ينقطع، والحبل هنا هو المودة.

* فَإِذَا كَانَ جَيِّدَ اللِّسَانِ ، فَهُوَ : **لَسِنٌ** .

فَإِذَا كَانَ يَضَعُ لِسَانَهُ حَيْثُ أَرَادَ ، فَهُوَ : **ذَلِيقٌ** .

فَإِذَا كَانَ مَعَ حِدَّةٍ لِسَانِهِ بَلِيغًا ، فَهُوَ : **مِسْلَاقٌ** .

فَإِذَا كَانَ لَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ وَلَا تَشُوبُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ ، فَهُوَ : **مِصْقَعٌ** .

فَإِذَا كَانَ لِسَانَ الْقَوْمِ وَالْمُتَكَلِّمَ عَنْهُمْ ، فَهُوَ : **مِدْرَهٌ** .

◆ هَذِهِ مَحَاسِنُ النُّطْقِ وَفَصَاحَةُ اللِّسَانِ ، فَمَاذَا عَنْ عُيُوبِ الْكَلَامِ ؟ .

◇ قَالَتِ الْعَرَبُ :

اللُّكْنَةُ : عُقْدَةٌ فِي اللِّسَانِ ، وَعُجْمَةٌ فِي الْكَلَامِ .

وَ ***اللُّثْغَةُ*** : أَنْ يَجْعَلَ الرَّجُلُ الرَّاءَ لَامًا وَالسِّينَ ثَاءً فِي كَلَامِهِ .

وَ ***الْفَأْفَأَةُ*** : أَنْ يَتَرَدَّدَ بِالْفَاءِ .

وَ ***التَّمْتَمَةُ*** : أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي التَّاءِ .

وَ ***اللَّجْلَجَةُ*** : أَنْ يُدْخِلَ الرَّجُلُ الْكَلَامَ بَعْضَهُ فِي بَعْضٍ .

وَ ***الْخَنْخَنَةُ*** : أَنْ يَتَكَلَّمَ مِنْ لَدُنْ أَنْفِهِ .

◆ شَكَرَ اللَّهُ لَكَ وَأَجْزَلَ أَجْرَكَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ . اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، طَالَ بَقَاؤُكَ ، أَيْنَ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ؟ .

◇ فِي مُتَنَاوَلِ يَدَيْكَ ... رَوَى الْبَيْهَقِيُّ أَنَّ الْمَأْمُونَ جَلَسَ يَوْمًا لِلْمَظَالِمِ(١) ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ بِرُقْعَةٍ يَتَظَلَّمُ فِيهَا مِنْهُ ، وَيَدَّعِي أَنَّ لَهُ قِبَلَهُ(٢) ثَلَاثِينَ أَلْفَ

---

(١) المظالم : جمع مفرده مظلمة ، أي جلس ليقضي بين الناس فيما بينهم من مظالم .

(٢) قِبَلَه : أي في ذمته .

دِينَارٍ ، فَأَنْكَرَهَا الْمَأْمُونُ هِيَ وَقِصَّتَهَا ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ :
إِذَنْ أَدْعُوكَ إِلَىٰ الْحَاكِمِ الَّذِي نَصَّبْتَهُ لِرَعِيَّتِكَ .
قَالَ الْمَأْمُونُ : نَعَمْ ، ثُمَّ نَادَىٰ : يَا غُلَامُ ، عَلَيَّ بِيَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَ .
فَإِذَا هُوَ قَدْ مَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا يَحْيَىٰ ، اِقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ .
قَالَ : لَا أَفْعَلُ .
قَالَ : وَلِمَ ؟ .
قَالَ : لِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَجْعَلْ دَارَهُ مَجْلِسَ قَضَائِي .
قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ .
قَالَ : فَإِنِّي أَبْدَأُ بِالْعَامَّةِ ؛ لِيُصْبِحَ الْمَجْلِسُ لِلْقَضَاءِ .
قَالَ : افْعَلْ ؛ فَفَتَحَ الْبَابَ ، وَقَعَدَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الدَّارِ وَدَعَا النَّاسَ ، وَفَصَلَ فِيمَا شَجَرَ(١) بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ دَعَا الرَّجُلَ وَقَالَ لَهُ :
مَا تَقُولُ ؟ .
قَالَ : أَقُولُ أَنْ تَدْعُوَ بِخَصْمِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُونِ .
فَنَادَىٰ الْمُنَادِي عَلَيْهِ ، فَإِذَا الْمَأْمُونُ قَدْ خَرَجَ فِي رِدَاءٍ وَقَمِيصٍ وَنَعْلٍ رَقِيقٍ وَمَعَهُ غُلَامٌ يَحْمِلُ مُصَلًّىٰ(٢) حَتَّىٰ وَقَفَ عَلَىٰ يَحْيَىٰ وَهُوَ جَالِسٌ ؛ فَقَالَ لَهُ : اِجْلِسْ .
فَطَرَحَ الْغُلَامُ الْمُصَلَّىٰ لِيَجْلِسَ عَلَيْهِ الْمَأْمُونُ .
فَقَالَ لَهُ يَحْيَىٰ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، سَاوِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَصْمِكَ فِي شَرَفِ الْمَجْلِسِ .
فَأَمَرَ ... فَطُرِحَ لِلرَّجُلِ مُصَلًّىٰ أَيْضًا ؛ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ يَحْيَىٰ : مَا تَقُولُ ؟ .
فَقَالَ : لِي عَلَىٰ هَذَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

---

(١) شجر بينهم : ما حدث بينهم من خلاف .
(٢) مُصلًى : أي سَجّادة .

قَالَ : وَمَنْ هٰذَا ؟ .

قَالَ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُونُ .

فَقَالَ لَهُ يَحْيَىٰ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ سَمِعْتَ مَا يَقُولُ .

قَالَ : سَلْهُ مَا وَجْهُهَا[١] ؟ ... فَأَعَادَ الرَّجُلُ قِصَّةَ الدَّعْوَىٰ .

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : مَا أَعْرِفُ لَهُ حَقًّا .

فَأَقْبَلَ عَلَىٰ الرَّجُلِ وَقَالَ : قَدْ سَمِعْتَ ، أَلَكَ بَيِّنَةٌ[٢] ؟ .

قَالَ : لَا .

قَالَ : فَمَا تُرِيدُ ؟ .

قَالَ : مَا يُوجِبُهُ الشَّرْعُ لِمَنْ عَدِمَ الْبَيِّنَةَ .

قَالَ يَحْيَىٰ : وَيْحَكَ ... لَقَدْ لَجَجْتَ[٣] فِي طَلَبِ الْيَمِينِ[٤] مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَأْمُونِ :

أَتَحْلِفُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ .

قَالَ : إِي وَاللَّهِ ، وَلَا أُعِينُ رَجُلًا عَلَىٰ ظُلْمِهِ ؛ فَأُعْطِيَهُ مَا لَا يَجِبُ لَهُ ... فَاسْتَحْلَفَهُ غَمُوسًا[٥] فَحَلَفَ .

فَمَا إِنْ فَرَغَ الْمَأْمُونُ مِنْ يَمِينِهِ ؛ حَتَّىٰ وَقَفَ يَحْيَىٰ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ : مَا أَوْقَفَكَ ؟ .

قَالَ : إِنِّي كُنْتُ فِي حَقِّ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ حَتَّىٰ أَخَذْتُهُ ، وَلَيْسَ الْآنَ مِنْ حَقِّي أَنْ أَتَصَدَّرَ عَلَيْكَ .

* * *

---

(١) ما وجهها : ما سببها ؟ .

(٢) البيِّنة : دليل علىٰ الدعوىٰ .

(٣) لججت : أكثرت الطلب .

(٤) اليمين : الحلف والقسم .

(٥) اليمين الغموس : هي اليمين الكاذبة تغمس صاحبها في الإثم .

الْجَلْسَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ

الْأَلْفَاظُ وَالْمَعَانِي

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ وَقَفْتَنِي فِيمَا مَضَىٰ عَلَىٰ آثَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَأَيَادِيهِ عَلَيْهَا .

◇ أَنَا مَا وَقَفْتُكَ إِلَّا عَلَىٰ بَعْضِ آثَارِ الْقُرْآنِ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّ لِلْقُرْآنِ آثَارًا أُخْرَىٰ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ غَيْرَ تَسْوِيدِ لَهْجَةِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ لَهَجَاتِ الْعَرَبِ ، وَغَيْرَ تَوْحِيدِ لُغَةِ عَرَبِ الْجَنُوبِ مَعَ لُغَةِ عَرَبِ الشَّمَالِ ، وَغَيْرَ تَصْفِيَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَنَقْلِهَا مِنْ لُغَةِ بَدَاوَةٍ إِلَىٰ لُغَةِ حَضَارَةٍ ؟!! .

◇ لَيْسَتْ هَذِهِ إِلَّا بَعْضَ آثَارِ الْقُرْآنِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَاذَا عَنْ بَعْضِهَا الْآخَرِ ؟ .

◇ إِنَّ مِنْ أَجَلِّ أَيَادِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ يَا بُنَيَّ ، أَنَّهُ اخْتَطَّ لَهَا أُسْلُوبًا

فَرِيدًا يَجْمَعُ الْقُوَّةَ وَالْجَزَالَةَ[1]؛ إِلَىٰ الرَّوْنَقِ وَالطَّلَاوَةِ؛ مَعَ وُضُوحِ الدَّلَالَةِ وَبُلُوغِ الْقَصْدِ مِنْ أَقْرَبِ السُّبُلِ.

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ.

◇ وَهُوَ إِلَىٰ ذَٰلِكَ أُسْلُوبٌ لَا حَشْوَ فِيهِ وَلَا فُضُولَ؛ فَالْأَلْفَاظُ عَلَىٰ قَدْرِ الْمَعَانِي كَأَنَّمَا رُسِمَتْ لَهَا رَسْمًا، وَقُدِّرَتْ لَهَا تَقْدِيرًا.

◆ أَحْبِبْ بِأُسْلُوبِ الْقُرْآنِ مِنْ أُسْلُوبٍ، وَأَجْمِلْ بِبَيَانِهِ مِنْ بَيَانٍ.

◇ ثُمَّ إِنَّهُ أُسْلُوبٌ لَا يَعِزُّ[2] عَلَىٰ الْفَهْمِ، وَلَا يَنْبُو عَنِ الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا هُوَ يَدْنُو مِنَ الْأَفْهَامِ حَتَّىٰ لَيُخَالِطَهَا، وَيَقْرُبُ مِنَ الْقُلُوبِ حَتَّىٰ لَيَمَسَّ شِغَافَهَا.

◆ كَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَٰلِكَ وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ!!.

◇ وَهُوَ الْأُسْلُوبُ السَّهْلُ الْمُمْتَنِعُ، تَسْتَعْذِبُهُ الْأَفْوَاهُ حِينَ تَنْطِقُهُ، وَتَلَذُّهُ الْآذَانُ حِينَ تَسْمَعُهُ، وَتَرْتَاحُ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ حِينَ تُصْغِي إِلَيْهِ.

◆ مَا أَجْمَلَ تَصْوِيرَكَ لِأُسْلُوبِ الْقُرْآنِ يَا أَبَتِ!!.

◇ هَٰذَا بَعْضُ فَضْلِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ يَا وَلَدِي؛ فَمَا جَمَالُ أَسَالِيبِ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ جَمِيعًا؛ إِلَّا وَمْضَةٌ مِنْ سَنَاهُ وَقَبْضَةٌ مِنْ ضِيَاهُ.

◆ مَتَّعَنَا اللَّهُ بِالْقُرْآنِ، وَنَوَّرَ قُلُوبَنَا بِهُدَاهُ، وَزَيَّنَ أَلْسِنَتَنَا بِبَيَانِهِ.

◇ آمِينَ، اللَّهُمَّ آمِينَ... إِنَّ أُسْلُوبَ الْقُرْآنِ هَٰذَا هُوَ الَّذِي طَبَعَ عَرَبِيَّتَنَا بِطَابَعِهِ، وَوَسَمَهَا بِمَيَاسِمِهِ، وَخَلَعَ عَلَيْهَا مِنْ حُلَلِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ مَا مَيَّزَهَا عَنْ لُغَاتِ

---

(١) الجزالة: العظمة واستحكام القوة.

(٢) لا يعز: لا يصعب.

الْبَشَرِ ، وَرَفَعَ قَدْرَهَا فِي الْعَالَمِينَ .

◆ وَهَلْ أَحَسَّتِ الشُّعُوبُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ رَوْعَةَ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لَقَدْ فَتَحَ الْعَرَبُ بِسُيُوفِهِمُ الْبُلْدَانَ ، وَفَتَحَ الْقُرْآنُ بِهَدْيِهِ وَبَيَانِهِ الْقُلُوبَ ... فَإِذَا أَهْلُ الْأَمْصَارِ الْمَفْتُوحَةِ ؛ مُنْقَادُونَ لِهُدَاهُ ، مَفْتُونُونَ بِأُسْلُوبِهِ .

◆ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَىٰ الْعَرَبِ وَلُغَةِ الْعَرَبِ .

◇ وَيَبْدُو لَكَ هَذَا الْفَضْلُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ أَهْلَ الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ هَجَرُوا أَلْسِنَتَهُمْ إِلَىٰ لِسَانِ الْقُرْآنِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْ لُغَاتِهِمْ إِلَىٰ لُغَتِهِ ... فَإِذَا لُغَةُ الْعَرَبِ عَلَىٰ كُلِّ شَفَةٍ ، وَإِذَا بَيَانُهُمْ عَلَىٰ كُلِّ لِسَانٍ .

◆ إِنَّهَا لَمُعْجِزَةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ أَنْ تَهْجُرَ هَذِهِ الْأَقْوَامُ لُغَاتِهَا إِلَىٰ لُغَتِهِ .

◇ وَتَتَجَلَّىٰ لَكَ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ أَوْفَرَ وَأَظْهَرَ ؛ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ فَرِيقًا كَبِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ الْأَقْوَامِ الَّتِي أَسْلَمَتْ عَلَىٰ يَدِ الْعَرَبِ ؛ قَدْ بَلَغَ بِهِمُ الْحِرْصُ عَلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ جَنَّدُوا عُقُولَهُمْ وَبَذَلُوا جُهُودَهُمْ ؛ لِيَضَعُوا الْقَوَاعِدَ الَّتِي تَحْمِي لُغَةَ الْقُرْآنِ مِنْ عُجْمَةِ لُغَاتِهِمْ ، وَتَصُونُ بَيَانَ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لَحْنِ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ أَئِمَّةُ الْبَيَانِ ، وَأَعْلَامُ الْفِكْرِ وَالْأَدَبِ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَنْ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ سِيبَوَيْهِ ، وَأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ مِنَ النُّحَاةِ ... وَابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَبَدِيعِ الزَّمَانِ الْهَمَذَانِيِّ ، وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْخَوَارَزْمِيِّ ، وَابْنِ الْعَمِيدِ ، وَالصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ مِنَ الْكُتَّابِ ... وَبَشَّارٍ ، وَابْنِ الرُّومِيِّ ، وَمِهْيَارٍ ، وَالْأَرَّجَانِيِّ ، وَالطُّغْرَائِيِّ ، وَالْأَبِيوَرْدِيِّ مِنَ الشُّعَرَاءِ ... وَالْغَزَالِيِّ ، وَالْفَارَابِيِّ ، وَابْنِ سِينَا ، وَالزَّمَخْشَرِيِّ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ وَالْبُلَغَاءِ .

◆ إِنَّهُ لَأَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ .

◇ وَلَوْ رُحْتُ أُعَدِّدُ لَكَ أَسْمَاءَ النُّجُومِ الَّتِي لَمَعَتْ فِي فَلَكِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ ؛ لَطَالَ بِيَ الْمَقَالُ ، وَلَضَاقَ بِكَ الْمَقَامُ .

◆ لَا شَكَّ فِي أَنَّ هُنَاكَ سِرًّا فِي هَذِهِ اللُّغَةِ أَغْرَىٰ بِهَا هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الْأَعْلَامَ ، وَجَعَلَهُمْ يَعْدِلُونَ عَنْ بَلَاغَتِهِمْ إِلَىٰ بَلَاغَتِهَا ، وَيَمِيلُونَ عَنْ فَصَاحَتِهِمْ إِلَىٰ فَصَاحَتِهَا .

◇ مَا هُوَ بِسِرٍّ وَاحِدٍ يَا بُنَيَّ ، وَإِنَّمَا هِيَ أَسْرَارٌ ، فَلَقَدْ قَرَأَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ الْقُرْآنَ فِي قَوَارِعِهِ[1] وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا ، وَقَرَءُوهُ فِي رَقَائِقِهِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا ... فَوَجَدُوا الْأُسْلُوبَ مُطَّرِدًا فِي دِقَّةِ الْإِفْهَامِ ، وَرَوْعَةِ الْأَدَاءِ ، مَعَ مُطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَىٰ الْحَالِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ قَرَءُوا مَثَلًا فِي وَصْفِ السَّاعَةِ وَأَهْوَالِهَا قَوْلَهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾[2] .

◆ اللَّهُمَّ قِنَا شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ! .

◇ آمِينَ ! ... وَقَرَءُوا يَا بُنَيَّ ، قَوْلَهُ تَعَالَىٰ وَهُوَ يُلَاطِفُ نَبِيَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَيَقُولُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ : ﴿ **وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ**

---

(١) القوارع : مفردها قارعة ، وهي ما يهز النفس ويروّعها.

(٢) سورة الحج من الآية ١ - ٢.

يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1].

قَرَءُوا هَذِهِ الآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ يَا بُنَيَّ، كَمَا قَرَءُوا تِلْكَ؛ فَمَا وَجَدُوا هُنَا أَوْ هُنَاكَ كَلِمَةً مُتَوَعِّرَةً وَلَا لَفْظًا مُقْتَسَرًا[2]، وَإِنَّمَا وَجَدُوا رَوْعَةَ الأُسْلُوبِ وَجَزَالَتَهُ، وَعُذُوبَةَ الْبَيَانِ وَنَصَاعَتَهُ، مَعَ اسْتِيفَاءِ الْمَعَانِي وَالْمُلَاءَمَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّعْبِيرِ.

◆ لَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الأُسْلُوبَ تَرَكَ آثَارَهُ فِي شِعْرِ الشُّعَرَاءِ وَنَثْرِ الْكُتَّابِ.

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ، إِنَّ هَذَا الأُسْلُوبَ الْفَرِيدَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ سَابِقَةٌ وَلَا لَاحِقَةٌ هُوَ الَّذِي طَمَحَتْ إِلَيْهِ أَنْظَارُ الأُدَبَاءِ؛ فَعَلَىٰ نَهْجِهِ صَاغَ الْخُطَبَاءُ وَالشُّعَرَاءُ وَالْكُتَّابُ آثَارَهُمْ، وَمِنْ مَعِينِ بَيَانِهِ اسْتَقَوْا بَيَانَهُمْ ... فَاتَّسَمَ أَدَبُهُمْ بِالْجَزَالَةِ، وَالرَّصَانَةِ، وَالْحَلَاوَةِ.

◆ ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْثِرُونَ مِنَ الاقْتِبَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟.

◇ هُدِيتَ إِلَىٰ الصَّوَابِ يَا بُنَيَّ، إِنَّهُمْ كَانُوا يَحْرِصُونَ عَلَىٰ أَنْ يَزْدَانَ كَلَامُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ لَآلِئِ الْقُرْآنِ، فَتَجِدُ الْعِبَارَةَ مِنْهُ بَلِ اللَّفْظَةَ حِينَ تَأْتِي فِي سِيَاقِ كَلَامِ كَاتِبٍ أَوْ خَطِيبٍ أَوْ شَاعِرٍ؛ تُضِيءُ كَأَنَّهَا الْكَوْكَبُ السَّاطِعُ.

◆ أَهَذِهِ هِيَ كُلُّ آثَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؟.

◇ هَذِهِ أَبْرَزُ آثَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي لُغَةِ الضَّادِ، أَمَّا جَمِيعُ آثَارِهِ؛ فَذَلِكَ مَا لَا يَتَّسِعُ لَهُ الْمَقَامُ.

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ كِفَاءَ مَا أَبَنْتَ وَأَوْضَحْتَ.

---

(١) سورة الضحىٰ.
(٢) مقتسرًا: أي غريبًا يضطر إليه قائله فيأتي به قسرًا وكرهًا.

◇ وَجَعَلَكَ اللَّهُ أَنْتَ وَإِخْوَتَكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ ذَادَةً عَنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ، إِنَّهُ أَعَزُّ مَنْ سُئِلَ وَأَكْرَمُ مَنْ أَجَابَ.

◆ آمِينَ.

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ.

* * *

◆ أَبَتِ، كُنْتَ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ غَيْرَ «مَهْمُوزَةٍ»، وَيَهْمِزُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ خَطَأً.

◇ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَقْوِيمٌ لِلِسَانِكَ وَتَصْحِيحٌ لِبَيَانِكَ.

◆ كُنْ مُطْمَئِنًّا؛ فَلَوْلَا شُعُورِي بِجَزِيلِ فَائِدَتِهِ مَا اسْتَزَدْتُكَ مِنْهُ.

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَنَفَعَكَ، وَنَفَعَ بِكَ.

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ.

◇ هُنَاكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَى وَزْنِ «أَفْعَلْتُ» وَيَقَعُ فِيهَا اللَّحْنُ كَثِيرًا؛ فَتُسْتَعْمَلُ عَلَى وَزْنِ «فَعَلْتُ» خَطَأً.

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا؟.

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِهِمْ: خَزَاهُ اللَّهُ بِمَعْنَى أَهَانَهُ وَفَضَحَهُ، وَالصَّوَابُ: أَخْزَاهُ اللَّهُ.

◆ عَفْوَكَ أَبَتِ، وَلَكِنَّ صِيغَةَ «خَزَاهُ» مَسْمُوعَةٌ، كَثِيرَةُ الدَّوَرَانِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ.

◇ نَعَمْ إِنَّهَا مَسْمُوعَةٌ وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ، تَقُولُ: خَزَاهُ، يَخْزِيهِ. بِمَعْنَى سَاسَهُ

يَسُوسُهُ .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ .

◇ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ : مَسَكْتُ الشَّيْءَ أَمْسِكُهُ ، وَالصَّوَابُ : أَمْسَكْتُ الشَّيْءَ أُمْسِكُهُ ، وَعَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ** ﴾[1] .

◆ طَيِّبٌ طَيِّبٌ .

◇ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَا بُنَيَّ قَوْلُهُمْ : صَحَتِ السَّمَاءُ بِمَعْنَىٰ انْقَشَعَ عَنْهَا الْغَيْمُ ، وَالصَّوَابُ : أَصْحَتِ السَّمَاءُ فَهِيَ مُصْحِيَةٌ .

◆ وَصِيغَةُ « صَحَا » مَا شَأْنُهَا ؟ .

◇ صِيغَةُ « صَحَا » يَا بُنَيَّ تُسْتَعْمَلُ مَعَ الْإِنْسَانِ ؛ فَتَقُولُ : صَحَا النَّائِمُ وَصَحَا السَّكْرَانُ .

◆ إِذَنْ يُقَالُ : أَصْحَتِ السَّمَاءُ ، وَصَحَا النَّائِمُ .

◇ بُورِكَ فِيكَ .
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَا بُنَيَّ قَوْلُهُمْ : حَصَرَ الْمَرَضُ فُلَانًا بِمَعْنَىٰ مَنَعَهُ مِنَ السَّفَرِ أَوْ مِنْ أَيَّةِ حَاجَةٍ ، وَالصَّوَابُ : أَحْصَرَ الْمَرَضُ فُلَانًا .

◆ لَعَلَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ** ﴾[2] .

---

(١) سورة الملك الآية ٢١.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٦.

◇ هُوَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ هُوَ كَذَلِكَ . لَا زِلْتَ مُوَفَّقًا إِلَىٰ الصَّوَابِ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَمَا آنَ لَنَا أَنْ نَتَفَيَّأَ ظِلَالَ رَوْضَةِ الشِّعْرِ ؛ فَقَدْ لَفَحَنَا هَجِيرُ الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ الَّذِي قَطَعْنَاهُ .

◇ مَا شَوْقِي إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ بِأَقَلَّ مِنْ شَوْقِكَ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنُلِمُّ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ .

◆ هَذِهِ كُنْيَتُهُ ، فَمَا اسْمُهُ ؟ .

◇ نَعَمْ هَذِهِ كُنْيَتُهُ ، أَمَّا اسْمُهُ فَإِسْمَاعِيلُ بْنُ الْقَاسِمِ .

◆ وَكَيْفَ نَشَأَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ وَأَيْنَ ؟ .

◇ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ يَا بُنَيَّ مَوْلًى مِنَ الْمَوَالِي ، وُلِدَ عِنْدَ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَنَشَأَ فِي « الْكُوفَةِ » ، وَاشْتَغَلَ بِصِنَاعَةِ أَبِيهِ ، فَجَعَلَ يَحْمِلُ الْجِرَارَ الَّتِي يَصْنَعُهَا أَبُوهُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ، وَيَدُورُ بِهَا فِي الْكُوفَةِ وَيَبِيعُ مِنْهَا .

◆ وَمِنْ أَيْنَ لَهُ الشِّعْرُ ؟ .

◇ أَحَسَّ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ مُنْذُ حَدَاثَةِ سِنِّهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ نَظْمِ الشِّعْرِ ، وَكَانَ الشِّعْرُ يَوْمَئِذٍ دِيوَانَ النَّاسِ وَمَوْضُوعَ أَحَادِيثِهِمْ يَتَنَاشَدُونَهُ حَيْثُمَا اجْتَمَعُوا ، وَيَتَذَاكَرُونَهُ

أَيْنَمَا وُجِدُوا .

◆ وَمَا أَوَائِلُ شِعْرِهِ ؟ .

◇ يَقُولُ الرُّوَاةُ : إِنَّ أَبَا الْعَتَاهِيَةِ كَانَ يَدُورُ بِجِرَارِهِ ذَاتَ يَوْمٍ ؛ فَمَرَّ بِفِتْيَانٍ جُلُوسٍ يَتَذَاكَرُونَ الشِّعْرَ وَيَتَنَاشَدُونَهُ ؛ فَوَضَعَ جِرَارَهُ عَنْ ظَهْرِهِ ، ثُمَّ سَلَّمَ وَقَالَ : يَا فِتْيَانُ ، أَرَاكُمْ تَتَذَاكَرُونَ الشِّعْرَ فَأَقُولُ مِنْهُ شَطْرًا وَتُجِيزُونَهُ[1] ؛ فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَلَكُمْ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ ؛ فَهَزِئُوا مِنْهُ وَسَخِرُوا لَكِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا أَنْ قَبِلُوا رَهْنَهُ ، فَقَالَ :

سَاكِنِي الْأَجْدَاثِ[2] أَنْتُمْ ....

فَلَمَّا أَعْيَاهُمُ الْأَمْرُ هَزِئَ مِنْهُمْ وَقَالَ :

سَاكِنِي الْأَجْدَاثِ أَنْتُمْ مِثْلُنَا بِالْأَمْسِ كُنْتُمْ

لَيْتَ شِعْرِي مَا صَنَعْتُمْ أَرَبِحْتُمْ أَمْ خَسِرْتُمْ

فَأَتَمَّهَا قَصِيدَةً ، وَقَدْ خَجِلَ الْفِتْيَانُ مِنْ عَجْزِهِمْ ، وَأَذَاعُوا خَبَرَهُ بِالْكُوفَةِ ، فَجَعَلَ أُدَبَاؤُهَا وَطُلَّابُ الشِّعْرِ مِنْ فِتْيَانِهَا يَأْتُونَهُ إِلَىٰ دُكَّانِهِ يَسْتَنْشِدُونَهُ فَيُنْشِدُهُمْ أَشْعَارَهُ ، فَيَأْخُذُونَ مَا تَكَسَّرَ مِنَ الْخَزَفِ فَيَكْتُبُونَهَا فِيهِ .

◆ وَكَيْفَ اتَّصَلَ بِالْخُلَفَاءِ فِي « بَغْدَادَ » ؟ .

◇ وَفَدَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ عَلَىٰ « بَغْدَادَ » فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ الْمَهْدِيِّ ، وَأَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا

فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

---

(١) تجيزونه : أي تكملونه .

(٢) الأجداث : القبور .

وَلَوْ رَامَهَا[1] أَحَدٌ غَيْرُهُ   لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

وَكَانَ بَشَّارٌ حَاضِرًا ، فَقَالَ لِجَارٍ لَهُ : « انْظُرْ وَيْحَكَ أَمَا طَارَ الْخَلِيفَةُ عَنْ سَرِيرِهِ طَرَبًا » .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ ؟ .

◇ إِنَّهَا آخِرُ قَصِيدَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ قَبْلَ وَفَاتِهِ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ يَقُولُ :

إِلَهِي لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي   مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي

وَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي   لِعَفْوِكَ - إِنْ فَعَلْتَ - وَحُسْنَ ظَنِّي

وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْخَطَايَا   وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضْلٍ وَمَنِّ

إِذَا فَكَّرْتُ فِي نَدَمِي عَلَيْهَا   عَضَضْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي

أُجَنُّ بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا جُنُونًا   وَأَقْطَعُ طُولَ عُمْرِي بِالتَّمَنِّي

وَلَوْ أَنِّي صَدَقْتُ الزُّهْدَ فِيهَا   قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهْرَ الْمِجَنِّ

يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي   لَشَرُّ النَّاسِ ، إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

* * *

◆ أَبَتِ ، جَاءَ فِي قَصِيدَةِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ قَوْلُهُ عَنِ الدُّنْيَا :

وَلَوْ أَنِّي صَدَقْتُ الزُّهْدَ فِيهَا   قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهْرَ الْمِجَنِّ

فَمَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : « قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهْرَ الْمِجَنِّ » ؟ .

---

(١) رامها : أرادها .

◇ «الْمِجَنُّ» يَا بُنَيَّ، هُوَ التُّرْسُ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ الْمُتَحَارِبُونَ ضَرَبَاتِ السُّيُوفِ وَرَمْيَاتِ السِّهَامِ.
أَمَّا قَوْلُهُ: ***قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهْرَ الْمِجَنِّ***، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ إِظْهَارِ الْعَدَاوَةِ وَتَغْيِيرِ الْمَوَدَّةِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَرْءَ لَا يَقْلِبُ ظَهْرَ الْمِجَنِّ لِصَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا نَازَلَهُ وَنَاجَزَهُ.
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَا بُنَيَّ قَوْلُهُمْ: ***لَبِسَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ جِلْدَ النَّمِرِ***، وَقَوْلُهُمْ: ***لَبِسَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ جِلْدَ الْأَسَدِ***، وَقَوْلُهُمْ: ***لَبِسَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ جِلْدَ الْأَرْقَمِ***[1]... فَكُلُّهَا كِنَايَاتٌ عَنْ إِظْهَارِ الْعَدَاوَةِ.
وَلِلْعَرَبِ يَا بُنَيَّ، مِنْ رَائِعِ الْكِنَايَاتِ مَا يَنِمُّ عَلَىٰ لُطْفِ الْإِشَارَةِ، وَالِاكْتِفَاءِ بِالتَّلْمِيحِ عَنِ التَّصْرِيحِ.

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا؟.

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِهِمْ: ***قَرَعَ فُلَانٌ سِنَّهُ*** كِنَايَةً عَنِ النَّدَمِ.
وَرَكِبَ فُلَانٌ جَنَاحَيْ نَعَامَةٍ كِنَايَةً عَنِ السُّرْعَةِ.
وَلَوَتِ اللَّيَالِي كَفَّ فُلَانٍ عَلَىٰ الْعَصَا كِنَايَةً عَنِ الشَّيْخُوخَةِ وَالْهَرَمِ.
وَفُلَانٌ لَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ كِنَايَةً عَنْ كَثْرَةِ أَسْفَارِهِ.
وَفُلَانٌ نَفَخَ شِدْقَيْهِ كِنَايَةً عَنِ التَّكَبُّرِ.
وَوَرِمَ أَنْفُ فُلَانٍ كِنَايَةً عَنِ الْغَضَبِ.
وَمِنْ لَطِيفِ الْكِنَايَاتِ يَا بُنَيَّ، قَوْلُ الشَّاعِرِ فِي هِجَاءِ قَوْمٍ بِالْبُخْلِ:

بِيضُ الْمَطَابِخِ لَا تَشْكُو إِمَاؤُهُمُ ... طَبْخَ الْقُدُورِ وَلَا غَسْلَ الْمَنَادِيلِ

وَقَوْلُ آخَرَ فِي هِجَاءِ رَجُلٍ بِالْبُخْلِ أَيْضًا:

فَتًى مُخْتَصَرُ الْمَأْكُولِ ... وَالْمَشْرُوبِ وَالْعِطْرِ
نَقِيُّ الْكَأْسِ وَالْقَصْعَةِ ... وَالْمِنْدِيلِ وَالْقِدْرِ

---
(١) الأرقم: أخبث الحيات.

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ فَقَدْ كَفَيْتَ وَشَفَيْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَمَا آنَ لَنَا أَنْ نُلِمَّ بِطُرْفَةِ الْجَلْسَةِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ هَاكَهَا :
كَانَ أَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ الطَّائِيُّ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قَوْمِهِ ، وَكَانَ الْمُقَدَّمَ فِيهِمْ ، فَوَفَدَ هُوَ وَحَاتِمٌ الطَّائِيُّ عَلَىٰ مَلِكِ الْعَرَبِ عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ ؛ فَأَرَادَ الْمَلِكُ أَنْ يَخْتَبِرَهُمَا ؛ فَدَعَا أَوْسًا وَقَالَ لَهُ : أَأَنْتَ أَفْضَلُ أَمْ حَاتِمٌ ؟ .
فَقَالَ : أَبَيْتَ اللَّعْنَ[1] ، لَوْ مَلَكَنِي حَاتِمٌ أَنَا وَوُلْدِي وَعَشِيرَتِي ؛ لَوَهَبَنَا[2] فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَأَيْنَ أَنَا مِنْ حَاتِمٍ ؟!! .
ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ حَاتِمًا وَقَالَ لَهُ : أَأَنْتَ أَفْضَلُ ، أَمْ أَوْسٌ ؟ .
فَقَالَ : أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، إِنَّمَا ذُكِرْتُ[3] بِأَوْسٍ ، وَلَوَاحِدٌ مِنْ وُلْدِهِ أَفْضَلُ مِنِّي .

* * *

---

(١) أبيت اللعن : من أدعية الجاهلية ، معناه وقيت أسباب اللعنة .
(٢) لوهبنا : لتصدق بنا علىٰ من يطلب منه العطاء .
(٣) ذُكرت بأوس : أي كان أوس سبب شهرتي .

الْإِنْسِجَامُ الصَّوْتِيِ وَبِنَاءُ الْأَلْفَاظِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ قَدْ تَكَلَّمْتَ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ كَلَامًا مَلَأَ نَفْسِي إِجْلَالًا لِلُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَجَعَلَنِي أَذْهَبُ بِالْإِعْجَابِ بِهَا كُلَّ مَذْهَبٍ .

◇ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ؛ فَهْوَ الَّذِي يَسَّرَ لِي قَوْلَ مَا يَنْفَعُ ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَكَ لِلِانْتِفَاعِ بِمَا يُقَالُ .

◆ وَكُنْتَ ـ دَامَ عَطَاؤُكَ ـ وَعَدْتَ بِأَنْ تَنْتَقِلَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ وَخَصَائِصِهِ ؛ إِلَىٰ الْكَلَامِ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَصَائِصِهَا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَمَنْهَجُ الْبَحْثِ يَقُودُ إِلَىٰ ذَلِكَ ، إِذِ الْأَصْلُ أَنْ يُبْدَأَ بِالْبَسِيطِ ، ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَىٰ الْمُرَكَّبِ .

◆ لِهَذَا آثَرْتَ أَنْ تَبْدَأَ بِخَصَائِصِ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَنْ تَنْتَقِلَ مِنْهَا إِلَىٰ خَصَائِصِ الْكَلِمَةِ .

◇ ثُمَّ أَنْتَقِلُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - مِنْ خَصَائِصِ الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ خَصَائِصِ الْجُمْلَةِ، وَمِنْهَا إِلَىٰ خَصَائِصِ الصِّيَاغَةِ الْعَامَّةِ وَهَكَذَا...

◆ وَالْآنَ مَا أَبْرَزُ خَصَائِصِ الْأَلْفَاظِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؟.

◇ لَنْ أُجِيبَكَ عَلَىٰ سُؤَالِكَ حَتَّىٰ تُقَدِّمَ الثَّمَنَ.

◆ إِذَا كُنْتُ أَمْلِكُهُ فَلَنْ أَتَرَدَّدَ فِي تَقْدِيمِهِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، فَمَا هُوَ؟.

◇ هُوَ أَنْ تُوجِزَ لِي الْقَوْلَ فِي أَهَمِّ خَصَائِصِ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ وَمَزَايَاهُ.

◆ لَقَدْ طَلَبْتَ يَسِيرًا، إِنَّ أَبْرَزَ مَا امْتَازَتْ بِهِ الْأَبْجَدِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ هُوَ أَنَّهَا اسْتَخْدَمَتِ الْجِهَازَ الصَّوْتِيَّ عِنْدَ الْإِنْسَانِ أَوْفَىٰ اسْتِخْدَامٍ وَأَكْمَلَهُ، فَحَظِيَتْ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْحُرُوفِ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ.

◇ جَيِّدٌ جَيِّدٌ.

◆ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَبْجَدِيَّةَ اسْتَعْمَلَتْ مَدْرَجًا صَوْتِيًّا رَحْبًا؛ يَمْتَدُّ مِنْ أَقْصَىٰ الْحَلْقِ إِلَىٰ الشَّفَتَيْنِ مِمَّا لَا مَثِيلَ لَهُ عِنْدَ الْآخَرِينَ، وَقَدْ تَوَزَّعَتْ فِي هَذَا الْمَدْرَجِ الْوَاسِعِ تَوَزُّعًا عَادِلًا؛ مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ تَمَايُزِ[1] مَخَارِجِ الْحُرُوفِ، وَوُضُوحِ أَصْوَاتِهَا.

◇ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ.

◆ كَمَا أَنَّكَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ بَدَأْتَ الْكَلَامَ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّ فَصَاحَةَ الْكَلِمَةِ تُقَاسُ بِسُهُولَةِ نُطْقِهَا عَلَىٰ اللِّسَانِ، وَحَلَاوَةِ وَقْعِهَا فِي الْآذَانِ، وَتَيْسِيرِ فَهْمِهَا عَلَىٰ الْأَذْهَانِ... وَسَبَبُ سُهُولَةِ نُطْقِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ جُلَّ

---

(١) التمايز: انفصال الشيء عن سواه وعدم تداخله فيه.

أَلْفَاظِهَا قَدْ بُنِيَتْ فِي الْأَصْلِ مِنْ ثَلَاثَةِ حُرُوفٍ ، وَأَنَّ الرُّبَاعِيَّ قَلِيلٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَأَنَّ الْخُمَاسِيَّ أَقَلُّ مِنْهُ وَأَنْدَرُ .

◇ بُورِكَ فِيكَ يَا بُنَيَّ بُورِكَ فِيكَ ، لَا زِلْتَ مُوَفَّقًا إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ .

◆ آمِينَ آمِينَ ، اللَّهُمَّ آمِينَ .

◇ مَا دُمْتَ قَدْ قَدَّمْتَ الثَّمَنَ فَإِلَيْكَ مَا طَلَبْتَ ، إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ : الِانْسِجَامَ الصَّوْتِيَّ بَيْنَ حُرُوفِهَا ، وَالتَّآلُفَ الْمُوسِيقِيَّ فِي بِنَائِهَا .

◆ عَفْوَكَ ، لَمْ أَفْهَمْ مَا عَنَيْتَهُ بِالِانْسِجَامِ الصَّوْتِيِّ وَالتَّآلُفِ الْمُوسِيقِيِّ .

◇ أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ : إِنَّ الْعَرَبَ رَاعَوْا عِنْدَ بِنَاءِ الْأَلْفَاظِ التَّلَاؤُمَ بَيْنَ أَصْوَاتِ الْحُرُوفِ ، وَتَجَنَّبُوا الْجَمْعَ بَيْنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ .

◆ وَمَتَىٰ تَكُونُ الْحُرُوفُ مُتَنَافِرَةً ، وَكَيْفَ تَتَنَافَرُ ؟ .

◇ لِتَنَافُرِ الْحُرُوفِ - يَا بُنَيَّ - أَكْثَرُ مِنْ حَالَةٍ ، وَفِي رَأْسِ هَذِهِ الْحَالَاتِ اجْتِمَاعُ الْحُرُوفِ ذَوَاتِ الْمَخَارِجِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ ، فَلَقَدْ رَفَضَ الْعَرَبُ بِنَاءَ الْكَلِمَاتِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي الْمَخْرَجِ ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّكَلُّفِ فِي النُّطْقِ ، وَالنُّبُوِّ عَنِ الذَّوْقِ ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْفَصَاحَةِ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ الْجَمْعِ بَيْنَ السِّينِ وَالصَّادِ ، وَالصَّادِ وَالسِّينِ ، وَالطَّاءِ وَالتَّاءِ ، وَالتَّاءِ وَالطَّاءِ .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّنَا لَا نَجِدُ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَمُعْجَمَاتِهَا مَادَّةَ « صَسَّ » أَوْ « طَتَّ » أَوْ مَا شَاكَلَهُمَا .

◇ بُورِكَ فِيكَ يَا بُنَيَّ بُورِكَ فِيكَ ، نَعَمْ ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ وَأَمْثَالَهَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ، لِمَا فِيهَا مِنْ تَنَافُرِ الْحُرُوفِ وَالْمَشَقَّةِ فِي النُّطْقِ ، وَإِذَا وَقَعَ لِأَحَدِهِمْ لَفْظٌ مِنْ ذَلِكَ اسْتُنْكِرَ عَلَيْهِ ، وَنُبِّهَ إِلَىٰ نُبُوِّهِ ، وَخُرُوجِهِ عَنْ سَنَنِ الْعَرَبِ فِي الْفَصَاحَةِ .

◆ أَوَقَعَ هَذَا بِالْفِعْلِ ! وَأُنْكِرَ عَلَىٰ صَاحِبِهِ ، أَمْ إِنَّهُ مُجَرَّدُ افْتِرَاضٍ ؟ .

◇ لَقَدْ وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ ، بَلْ إِنَّهُ وَقَعَ مِنْ شَيْخِ الشُّعَرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

◆ تُرِيدُ امْرَأَ الْقَيْسِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَلَقَدْ أُخِذَ عَلَىٰ امْرِئِ الْقَيْسِ قَوْلُهُ : « غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ[1] إِلَىٰ الْعُلَا » إِلَىٰ آخِرِ الْبَيْتِ . وَلَعَلَّكَ أَدْرَكْتَ مَوْطِنَ الثِّقَلِ وَالتَّنَافُرِ فِي قَوْلِهِ هَذَا .

◆ إِنَّهُ مِنَ الْوُضُوحِ بِحَيْثُ لَا تُخْطِئُهُ أُذُنٌ ، وَلَا يُسِيغُهُ ذَوْقٌ ، إِنَّهُ يَبْدُو فِي كَلِمَةِ « مُسْتَشْزِرَاتٌ » .

◇ أَصَبْتَ يَا بُنَيَّ أَصَبْتَ ؛ فَإِنَّ كَلِمَةَ « مُسْتَشْزِرَاتٌ » قَدْ جَمَعَتْ كُلًّا مِنَ السِّينِ وَالتَّاءِ ، وَالشِّينِ وَالزَّايِ ، وَكُلُّهَا حُرُوفٌ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَخَارِجِ مُتَرَاكِبَةٌ فِي النُّطْقِ ، مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ ثِقَلِهَا عَلَىٰ اللِّسَانِ ، وَقُبْحِ وَقْعِهَا فِي الْآذَانِ .

◆ حَقًّا إِنَّهَا لَقَبِيحَةٌ ثَقِيلَةٌ .

◇ وَلِقُبْحِهَا وَثِقَلِهَا اسْتَنْكَرَهَا الْعَرَبُ يَا بُنَيَّ ، وَأَبَوْا أَنْ يَصُوغُوا أَمْثَالَهَا .

◆ أَلِلتَّنَافُرِ الْحُرُوفِ حَالَةٌ غَيْرُ هَذِهِ الْحَالَةِ ؟ .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ نَعَمْ ؛ فَكَمَا يَتَأَتَّىٰ التَّنَافُرُ مِنَ اجْتِمَاعِ الْحُرُوفِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي

---

(١) الغدائر : واحدتها غديرة وهي الذؤابة المضفورة من شعر الرأس ، ومستشزرات : أي مرتفعات .

الْمَخْرَجِ ؛ يَتَأَتَّى مِنَ اجْتِمَاعِ الْحُرُوفِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي الْجَرْسِ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ « قَجْ » وَ« جَقْ » وَ« كَقْ » وَ« قَكْ » .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّنَا لَا نَجِدُ مَوَادَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي مُعْجَمَاتِ اللُّغَةِ ؟ .

◇ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَهَا فِي الْأَغْلَبِ وَإِذَا وَجَدْتَ بَعْضَهَا ؛ فَسَوْفَ تَرَىٰ أَنَّهُ وُلِدَ مَيِّتًا ، ذَلِكَ لِأَنَّ لُطْفَ ذَوْقِ الْبَدَوِيِّ ، وَرَهَافَةَ حِسِّهِ اللُّغَوِيِّ ؛ جَعَلَاهُ يَنْفِرُ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ، فَأَمَاتَهَا وَأَقْبَرَهَا فِي الْمَهْدِ .

◆ وَلَكِنْ ، هَلِ انْفَرَدَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِخَاصَّةِ الِانْسِجَامِ الصَّوْتِيِّ فِي بِنَاءِ أَلْفَاظِهَا ، أَمْ أَنَّ هَذِهِ الْخَاصَّةَ شَائِعَةٌ عَامَّةٌ فِي سَائِرِ لُغَاتِ الْأُمَمِ ؟! .

◇ أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَحِيفَ[1] عَلَىٰ لُغَاتِ الْأُمَمِ أَوْ أَنْتَقِصَ مِنْ مَزَايَاهَا بِدَافِعٍ مِنَ التَّعَصُّبِ لِلُغَتِي الْقَوْمِيَّةِ ، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُؤَكِّدَ لَكَ بِأَنَّ الْمُنْصِفِينَ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ ؛ يُؤَكِّدُونَ بِأَنَّ هَذِهِ الْخَاصَّةَ لَمْ تَتَوَافَرْ لِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ كَمَا تَوَافَرَتْ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَمْ تَبْلُغْ فِي أَيٍّ مِنْهَا كَمَا بَلَغَتْهُ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ .

◆ أَبَتِ ، أَهُنَاكَ مَزِيَّةٌ أُخْرَىٰ لِلَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ غَيْرُ هَذِهِ الْمَزِيَّةِ ؟ .

◇ هُنَاكَ مَزَايَا أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ ، وَلَكِنْ يَضِيقُ عَنْهَا الْمَقَامُ الْآنَ .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ ، بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

---

(١) أحيف : أظلم ، أو أجور علىٰ الحق .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ وَقَفْتَنِي عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » غَيْرَ أَنَّهُ يَكْثُرُ فِيهَا اللَّحْنُ ؛ فَتُسْتَعْمَلُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » .

◇ نَعَمْ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَآمُلُ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَفَدْتَ مِنْهُ فِي تَقْوِيمِ لِسَانِكَ وَتَهْذِيبِ بَيَانِكَ .

◆ الْفَائِدَةِ .

◇ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ .

◆ وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ يُضَافُ إِلَىٰ سَابِقِهِ ، أَمْ إِنَّكَ سَوْفَ تُمِدُّنِي بِشَيْءٍ آخَرَ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ بَلْ مَا زَالَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ مَشْكُورًا مِنِّي ؛ مَأْجُورًا مِنَ اللَّهِ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ يُكْثِرُونَ مِنَ اللَّحْنِ فِيهِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلُهُمْ :
عِنْتُ فُلَانًا بِمَعْنَىٰ سَاعَدْتُهُ ، وَالصَّوَابُ : أَعَنْتُهُ فَهُوَ مُعَانٌ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « عِنْتُهُ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ !؟ .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ ، تَقُولُ : عِنْتُهُ إِذَا أَصَبْتَهُ بِعَيْنٍ ، فَهُوَ مَعِينٌ وَمَعْيُونٌ .

◆ أَعُوذُ بِاللَّهِ ! .

◇ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَا بُنَيَّ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : عَيِيتُ بِالْأَمْرِ بِمَعْنَىٰ صَعُبَ عَلَيَّ وَشَقَّ وَهُوَ خَطَأٌ .

◆ خَطَأٌ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ إِنَّهُ خَطَأٌ ، وَصَوَابُهُ : أَعْيَيْتُ فِي الْأَمْرِ وَالْمَشْيِ إِعْيَاءً ، وَأَنَا مُعْيٍ ، وَلَا يُقَالُ عَيَّانُ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « عَيِيتُ » الدَّائِرَةِ عَلَىٰ كُلِّ شَفَةٍ وَلِسَانٍ !!؟ .

◇ صِيغَةُ « عَيِيتُ » الدَّائِرَةُ عَلَىٰ كُلِّ شَفَةٍ وَلِسَانٍ كَمَا تَقُولُ مَوْجُودَةٌ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ تَقُولُ : عَيِيتُ بِالْمَنْطِقِ إِذَا لَمْ تُحْسِنْهُ وَتُوَفَّقْ إِلَيْهِ ، وَفُلَانٌ عَيِيٌّ وَعَيٌّ : أَيْ عَاجِزٌ عَنْ أَدَاءِ الْكَلَامِ وَإِحْسَانِ النُّطْقِ .

◆ جُزِيتَ الْخَيْرَ .

◇ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : قَبَرْتُهُ بِمَعْنَىٰ دَفَنْتُهُ وَصَيَّرْتُ لَهُ قَبْرًا يُدْفَنُ فِيهِ ، وَالصَّوَابُ : أَقْبَرْتُهُ .

◆ أَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ** ﴾[١] .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لَا زِلْتَ مُوَفَّقًا إِلَىٰ الصَّوَابِ .

◆ آمِينَ .

---

(١) سورة عبس الآية ٢١.

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ.

* * *

◆ أَبَتِ، إِنَّ فِي النَّفْسِ حَنِينًا إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ، وَشَوْقًا إِلَىٰ طِيبِ شَذَاهَا.

◇ مَا حَنِينُكَ إِلَيْهَا بِأَشَدَّ مِنْ حَنِينِي، وَلَا شَوْقُكَ بِأَعْظَمَ مِنْ شَوْقِي.

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ؟.

◇ ابْنُ مَعْمَعَةَ الْحِمْصِيُّ.

◆ ابْنُ مَعْمَعَةَ الْحِمْصِيُّ!! ...
أَرَاكَ تُغْرِبُ فِي اخْتِيَارِ الشُّعَرَاءِ وَتُوغِلُ.

◇ أَنَا لَا أُغْرِبُ - يَا بُنَيَّ - وَلَا أُوغِلُ، وَإِنَّمَا أَجِدُ أَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ أُولَئِكَ الشُّعَرَاءَ الْمَغْمُورِينَ؛ كَمَا نَعْرِفُ الْمَشْهُورِينَ ...
إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ ابْنَ مَعْمَعَةَ وَأَمْثَالَهُ، كَمَا نَعْرِفُ أَبَا الطَّيِّبِ وَأَمْثَالَهُ.

◆ وَمَتَىٰ وُجِدَ ابْنُ مَعْمَعَةَ وَأَيْنَ نَشَأَ؟.

◇ ابْنُ مَعْمَعَةَ يَا بُنَيَّ شَاعِرٌ مِنْ بَلْدَةِ «مَنْبِجَ» فِي شَمَالِيِّ الشَّامِ.

◆ «مَنْبِجُ» الَّتِي مِنْهَا الْبُحْتُرِيُّ؟!.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ، وَقَدْ عَاشَ فِي أَوَاخِرِ دَوْلَةِ بَنِي حَمْدَانَ، وَاتَّصَلَ بِأُمَرَائِهَا وَمَدَحَهُمْ.

◆ وَمَا سَبَبُ نِسْبَتِهِ إِلَىٰ «حِمْصَ»؟.

◇ السَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُ كَانَ خَطِيبًا لِجَامِعِ «حِمْصَ»؛ فَنُسِبَ إِلَيْهَا، وَقَدْ كَانَ

شَاعِرًا حُلْوَ الشِّعْرِ، خَفِيفَ الظِّلِّ، عَذْبَ الدُّعَابَةِ.

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ؟.

◇ قَصِيدَةٌ قَالَهَا فِي وَصْفِ الدِّيكِ.

◆ فِي وَصْفِ الدِّيكِ!!.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ، لَقَدِ اتَّخَذَ الشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ الدِّيكِ وَسِيلَةً إِلَىٰ مُدَاعَبَةِ أَبِي الْمَعَالِي الْحَمْدَانِيِّ، وَطَلَبِ نَوَالِهِ(١).

◆ وَمَاذَا قَالَ فِيهَا؟.

◇ قَالَ يَحْكِي لِأَبِي الْمَعَالِي قِصَّتَهُ مَعَ دِيكِهِ:

لِيَ دِيكٌ حَضَنْتُهُ وَهْوَ فِي الْبَيْـ(م)
ـضَةِ مِنْ مَنْصِبٍ كَرِيمِ الْخِيمِ(٢)

يَأْكُلُ الْعَفْوَ(٣) كَيْفَ شَاءَ مِنَ الْمَا(م)
لِ كَأَكْلِ الْوَصِيِّ مَالَ الْيَتِيمِ

وَهْوَ عِنْدِي فِي صُورَةِ الْوَلَدِ الْبَـ(م)
ـرِّ وَفِي صُورَةِ الشَّقِيقِ الْحَمِيمِ

أَبْيَضُ اللَّوْنِ أَفْرَقُ الطَّرْفِ(٤) نَظَّا(م)
رٌ بِعَيْنٍ كَأَنَّهَا عَيْنُ رِيمِ(٥)

---

(١) نواله: عطاؤه.
(٢) الخيم: الأصل والطبيعة والسجية.
(٣) العفو: ما بقي من أي شيء.
(٤) أفرق الطرف: لعله يقصد حاد البصر أو جميل العيون.
(٥) الريم: الغزال.

وَعَلَىٰ نَحْرِهِ وِشَاحَانِ مِنْ شَـــذْ(م)

رٍ(١) بَـهِـيـجٍ وَلُـؤْلُـؤٍ مَـنْـظُـومِ

رَافِعٌ رَايَةً مِنَ الذَّهَبِ الْمُشْـــ(م)

ـــرِقِ يَسْعَىٰ بِهَا كَسَعْيِ الظَّلِيمِ

وَلَهُ خِنْجَرَانِ مِنْ قَصَبِ السَّا(م)

قَيْنِ، قَدْ رُكِّبَا لِحِفْظِ الْحَرِيمِ

وَعَلَيْهِ مِنْ رِيشِهِ طَيْلَسَانٌ(٢)

صِيغَ مِنْ صَنْعَةِ اللَّطِيفِ الْحَكِيمِ

وَجَمِيعُ الدُّيُوكِ تَشْهَدُ فِي حِمْـــ(م)

ـــصَ لَهُ بِالْجَلَالِ وَالتَّعْظِيمِ

يَتَجَاوَبْنَ بِالصِّيَاحِ مُشِيرَا(م)

تٍ إِلَيْهِ فِي ذَاكَ بِالتَّسْلِيمِ

فَإِذَا مَا رَأَيْتَهُ بَيْنَ خَمْسٍ

مِنْ دَجَاجَاتِهِ كِبَارِ الْجُسُومِ(٣)

قُلْتَ مَلْكٌ يَخْدِمْنَهُ فَتَيَاتٌ

يَتَهَادَيْنَ بَيْنَ زِنْجٍ وَرُومِ

وَتَرَىٰ عُرْفَهُ فَتَحْسَبُهُ التَّا(م)

جَ عَلَىٰ رَأْسِ كِسْرَوِيٍّ كَرِيمِ

---

(١) الشذر: القطع، ولعله يعني قطع فضة أو ذهب.
(٢) الطيلسان: كساء أخضر غالي الثمن تلبسه الخاصّة.
(٣) الجسوم: الأجسام.

ثَاقِبُ الْعِلْمِ بِالْمَوَاقِيتِ لَيْلًا

وَنَهَارًا، وَحَاذِقٌ بِالنُّجُومِ

وَيَحُثُّ الْجِيرَانَ حَوْلِي عَلَىٰ الْبِـ(م)

ـرِّ كَحَثِّ الْمُدِيرِ كَأْسَ النَّدِيمِ[1]

وَلَهُ أَيُّهَا الأَمِيرُ عَلَيَّ الْـ(م)

ـعَهْدُ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ الْقَدِيمِ

أَنَّهُ آمِنٌ مِنَ السُّوءِ عِنْدِي

غَيْرَ يَوْمِ الْمَنِيَّةِ الْمَحْتُومِ

وَقَدِ احْتَجْتُ أَنْ أُضَحِّيَ بِالْعِيـ(م)

ـدِ بِهِ حَاجَةَ الأَدِيبِ الْعَدِيمِ

وَبَنَاتِي يَقُلْنَ: يَا أَبَتَانَا

أَنْتَ فِي ذَاكَ بَيْنَ غَدْرٍ وَلُومِ

وَتَرَاهُنَّ حَوْلَهُ يَتَبَاكَيْـ(م)

ـنَ بِدَمْعٍ لِفَقْدِهِ مَسْجُومِ[2]

وَعَزِيزٌ سُؤَالُ مَنْ يَفْتَدِيهِ

فَافْدِهِ مُنْعِمًا بِذِبْحٍ عَظِيمِ

عِشْتَ فِي الْعِزِّ مَا دعَا اللَّهَ دَاعٍ

أَبَدًا بَيْنَ زَمْزَمٍ وَالْحَطِيمِ

---

(١) النديم: هو المسامر على الشراب.

(٢) مسجوم: مسكوب.

◆ حقًّا إنَّهُ لَشَاعِرٌ خَفِيفُ الظِّلِّ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ نَالَ مِنْ أَمِيرِهِ بُغْيَتَهُ.

◇ وَأَكْثَرَ مِنْ بُغْيَتِهِ، فَقَدْ كَانَتْ لِبَنِي حَمْدَانَ عَلَىٰ الْأَدَبِ وَأَهْلِهِ أَيَادٍ تُذْكَرُ فَتُشْكَرُ.

* * *

◆ أَبَتِ، أَيُعَدُّ هَذَا الْمَسْلَكُ الَّذِي سَلَكَهُ ابْنُ مَعْمَعَةَ فِي طَلَبِ نَوَالِ الْأَمِيرِ مِنْ بَابِ الْهَزْلِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْجِدُّ؟.

◇ كَلَّا يَا بُنَيَّ مَا هُوَ مِنْ بَابِ الْهَزْلِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْجِدُّ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ بَرَاعَةِ الطَّلَبِ.

◆ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَابَيْنِ طَالَ بَقَاؤُكَ؟.

◇ الْهَزْلُ الْمُرَادُ بِهِ الْجِدُّ: هُوَ أَنْ يُضَمِّنَ الْمُتَكَلِّمُ كَلَامَهُ، سَوَاءٌ أَكَانَ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا، أَنْ يُضَمِّنَهُ نِكَاتًا هَزْلِيَّةً رَائِعَةً.

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا؟.

◇ مِنْ مِثْلِ قَوْلِ أَحَدِ الشُّعَرَاءِ:

أَنْزَلَنَا الدَّهْرُ عَلَىٰ مَعْشَرٍ   تَغِرُّ[1] بِالنَّاسِ أَحَادِيثُهُمْ

فَمَا أَكَلْنَا مِنْ ضِيَافَاتِهِمْ   مَا أَكَلَتْ مِنَّا بَرَاغِيثُهُمْ

هذَا هُوَ الْهَزْلُ الْمُرَادُ بِهِ الْجِدُّ يَا بُنَيَّ.

◆ وَمَا بَرَاعَةُ الطَّلَبِ؟.

◇ بَرَاعَةُ الطَّلَبِ - يَا بُنَيَّ -: هِيَ أَنْ يُلَوِّحَ الْمُتَكَلِّمُ بِالطَّلَبِ فِي لَفْظٍ مُهَذَّبٍ

---

(١) تغر: تخدع.

رَشِيقٍ ؛ مُوَضِّحًا لِمَا يَقْصِدُهُ مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ ظَاهِرٍ ، فَيُدْرِكُ الْمَمْدُوحُ مَا يَبْغِي الْمُتَكَلِّمُ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ[1]
سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

وَمِنْ أَمْثَالِ قَصِيدَةِ ابْنِ مَعْمَعَةَ ؛ فَهِيَ نَمُوذَجٌ بَارِعٌ لِبَرَاعَةِ الطَّلَبِ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ ؛ فَقَدْ شَفَيْتَ وَكَفَيْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ... أَرْجُو أَلَّا تَنْسَاهَا .

◇ إِذَا نَسِيتُهَا أَنَا فَلَنْ تَنْسَاهَا أَنْتَ .

◆ إِذَنْ هَاتِهَا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْخَيْرَ .

◇ جَاءَ فِي الْعِقْدِ الْفَرِيدِ أَنَّ عَمَارَةَ بْنَ حَمْزَةَ دَخَلَ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ؛ فَرَفَعَ الْمَنْصُورُ قَدْرَهُ ، وَأَدْنَىٰ مَجْلِسَهُ ، وَكَانَ عَمَارَةُ ذَا عِزَّةٍ وَنَفْسٍ أَبِيَّةٍ وَثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ ...

فَقَامَ رَجُلٌ مَدْفُوعٌ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ مُنَافِسِي عَمَارَةَ ، وَقَالَ :

مَظْلُومٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ الْمَنْصُورُ : وَمَنْ ظَلَمَكَ ؟ .

قَالَ : عَمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ ؛ غَصَبَنِي ضَيْعَتِي[2] .

---

(١) الفطانة : شدة الفهم لما يلمح به .

(٢) الضيعة : الأرض مزروعة .

فَقَالَ الْمَنْصُورُ : يَا عَمَارَةُ ، قُمْ فَاقْعُدْ مَعَ خَصْمِكَ .

فَقَالَ عَمَارَةُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا هُوَ لِي بِخَصْمٍ ، إِنْ كَانَتِ الضَّيْعَةُ لَهُ ؛ فَلَسْتُ أُنَازِعُهُ فِيهَا ... وَإِنْ كَانَتْ لِي ؛ فَقَدْ وَهَبْتُهَا لَهُ ...

وَلَا أَنْزِلُ عَنْ مَنْزِلٍ شَرَّفَنِي بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ ضَيْعَةٍ .

* * *

الْجَلْسَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ

حِصْنُ اللُّغَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ قَدْ بَدَأْتَ الْكَلَامَ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ عَاجَلَكَ الْوَقْتُ عَنْ إِتْمَامِ مَا بَدَأْتَ .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ، غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ أَذْكُرُ عَلَىٰ وَجْهِ الضَّبْطِ مَا الَّذِي قُلْتُهُ وَمَا الَّذِي أَرْجَأْتُهُ .

◆ الْأَمْرُ يَسِيرٌ ، فَأَنَا أُذَكِّرُكَ بِمَا قُلْتَ ، وَأَنْتَ ـ دَامَ عِزُّكَ ـ تُتِمُّ مِنْ حَيْثُ انْتَهَيْنَا .

◇ كَلَامٌ طَيِّبٌ ، هَاتِ مَا عِنْدَكَ لِأُضِيفَ إِلَيْهِ مَا عِنْدِي .

◆ كُنْتَ قُلْتَ ـ أَجْزَلَ اللَّهُ أَجْرَكَ ـ إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَلَّىٰ فِي أَلْفَاظِهَا كَمَا تَجَلَّتْ فِي حُرُوفِهَا ، وَإِنَّ أَبْرَزَ مَا امْتَازَتْ بِهِ اللَّفْظَةُ الْعَرَبِيَّةُ ذَلِكَ الِانْسِجَامُ الصَّوْتِيُّ بَيْنَ حُرُوفِهَا ، وَالتَّآلُفُ الْمُوسِيقِيُّ فِي بِنَائِهَا .

◇ أَحْسَنْتَ ، أَحْسَنْتَ .

◆ لِذَا رَفَضَ الْعَرَبُ بِنَاءَ الْكَلِمَاتِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي الْمَخْرَجِ كَالسِّينِ وَالصَّادِ، كَمَا رَفَضُوا الْجَمْعَ بَيْنَ الْحُرُوفِ الْمُتَشَابِهَةِ فِي الْأَصْوَاتِ مِنْ أَمْثَالِ: جَقْ، وَقَكْ، وَكَقْ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّكَلُّفِ فِي النُّطْقِ، وَالنُّبُوِّ عَنِ الذَّوْقِ.

◇ بُورِكَ فِيكَ، بُورِكَ فِيكَ، مِثْلُكَ يَكُونُ طُلَّابُ الْعِلْمِ.

◆ الْفَرَسُ مِنَ الْفَارِسِ.

◇ الْآنَ غَدَا فِي وُسْعِنَا أَنْ نَسْتَأْنِفَ مَا بَدَأْنَا، وَأَنْ نَصِلَ مَا قَطَعْنَا.
إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَا بُنَيَّ؛ ثَبَاتَ أَصْوَاتِ حُرُوفِهَا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ اخْتِلَافِ النَّاطِقِينَ بِهَا، وَتَعَدُّدِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ.

◆ ثَبَاتُ أَصْوَاتِ حُرُوفِهَا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ!! لَمْ أَفْهَمْ مَا عَنَيْتَهُ بِثَبَاتِ أَصْوَاتِ الْحُرُوفِ.

◇ أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ - يَا بُنَيَّ -: إِنَّ أَصْوَاتَ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ؛ تُنْطَقُ الْيَوْمَ كَمَا كَانَتْ تُنْطَقُ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا لَمْ تَتَغَيَّرْ أَصْوَاتُهَا، وَلَمْ تَتَبَدَّلْ نَبَرَاتُهَا فِي يَسِيرٍ أَوْ كَثِيرٍ.

◆ أَهَذِهِ خَاصَّةٌ مِنْ خَصَائِصِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَمْ إِنَّهُ أَمْرٌ عَامٌّ شَائِعٌ فِي سَائِرِ اللُّغَاتِ؟.

◇ بَلْ هِيَ خَاصَّةٌ مِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ اللُّغَةِ انْفَرَدَتْ بِهَا مِنْ دُونِ اللُّغَاتِ؛ فَلَمْ يُعْرَفْ مِثْلُ هَذَا الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي حُرُوفِ أَيَّةِ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ الْأَرْضِ.

◆ وَمَا السِّرُّ فِي ذَلِكَ؟ طَالَ بَقَاؤُكَ.

◇ السِّرُّ فِي ذَلِكَ - يَا بُنَيَّ - يَكْمُنُ فِي الْقُرْآنِ.

◆ الْقُرْآنُ !! .

◇ نَعَمْ ، الْقُرْآنُ - يَا بُنَيَّ - فَلَقَدْ عُنِيَ الْمُسْلِمُونَ مُنْذُ نَزَلَتْ أَوَّلُ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا بِنُطْقِ أَلْفَاظِهِ ، وَضَبْطِ أَصْوَاتِهِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ مَخَارِجِ حُرُوفِهِ عِنَايَةً لَمْ يَعْرِفْهَا التَّارِيخُ .

◆ لَكِنَّ عُلَمَاءَ اللُّغَاتِ مِنَ الْأُورُبِّيِّينَ يَقُولُونَ : إِنَّ تَبَدُّلَ أَصْوَاتِ الْحُرُوفِ فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ أَمْرٌ حَتْمِيٌّ ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَغَيَّرَ أَصْوَاتُ الْحُرُوفِ عِنْدَ الْأُمَمِ مِنْ جِيلٍ إِلَىٰ جِيلٍ .

◇ إِنَّهَا إِحْدَىٰ النَّظَرِيَّاتِ الْخَاطِئَةِ الَّتِي يُقَرِّرُهَا عُلَمَاءُ اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيُّونَ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا مَنْشَأُ هَذَا الْخَطَإِ ؟ .

◇ مَنْشَأُ هَذَا الْخَطَإِ يَا بُنَيَّ ، الِاسْتِقْرَاءُ[1] النَّاقِصُ .

◆ الِاسْتِقْرَاءُ النَّاقِصُ !! وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ بَنَىٰ عُلَمَاءُ اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيُّونَ نَظَرِيَّتَهُمْ هَذِهِ عَلَىٰ مَا وَجَدُوهُ فِي لُغَاتِهِمْ ، وَهِيَ لُغَاتٌ تَبَدَّلَتْ خِلَالَ الْعُصُورِ تَبَدُّلًا كَبِيرًا ، فَزَعَمُوا أَنَّ الْحُرُوفَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَزَحْزَحَ عَنْ مَخَارِجِهَا قَلِيلًا قَلِيلًا قَلِيلًا فِي كُلِّ جِيلٍ ، فَإِذَا تَتَابَعَتِ الْأَجْيَالُ وَتَعَاقَبَتِ السُّنُونَ ازْدَادَ بُعْدُهَا عَنْ مَخَارِجِهَا الْأَصْلِيَّةِ فَتَغَيَّرَتْ تَغَيُّرًا كَبِيرًا ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَقَعْ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَا بُنَيَّ .

◆ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ ذَلِكَ بِفَضْلِ الْقُرْآنِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْيَوْمَ بِاللَّفْظِ وَالصَّوْتِ وَالْفَصْلِ ،

---

(١) الاستقراء : تتبع الجزئيات للوصول إلىٰ نتيجة كلية ، وهو نوعان كامل وناقص . ✂

وَالْوَصْلِ، وَالْوَقْفِ وَالْمَدِّ؛ كَمَا كَانَ يُقْرَأُ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.
نَقْرَؤُهُ دُونَ أَنْ نُخِلَّ بِلَفْظٍ، أَوْ حَرْفٍ، أَوْ هَمْسٍ، أَوْ نَبْرَةٍ، مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ نَزَلَ، وَسَيَبْقَىٰ كَذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

◆ وَمَنْ يَكْفُلُ لَنَا بَقَاءَهُ كَذَلِكَ عَلَىٰ مَرِّ الدُّهُورِ؟.

◇ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَا بُنَيَّ، أَلَمْ يَقُلْ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[1].

◆ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ، أَعْظِمْ بِهَا مِنْ كَفَالَةٍ. وَلَكِنْ مَا الْآثَارُ الَّتِي تَرَتَّبَتْ عَلَىٰ ثَبَاتِ أَصْوَاتِ الْحُرُوفِ فِي اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ؟.

◇ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ يَا بُنَيَّ، أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ بَقِيَتْ فَصِيحَةً صَحِيحَةً صَافِيَةً مُنْذُ ذَلِكَ الزَّمَنِ السَّحِيقِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَهُوَ أَمْرٌ انْفَرَدَتْ بِهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ بَيْنِ لُغَاتِ الْأَرْضِ.

◆ وَمِنْ هَذِهِ الْآثَارِ أَيْضًا؟.

◇ وَمِنْ هَذِهِ الْآثَارِ أَيْضًا الْإِبْقَاءُ عَلَىٰ وَحْدَةِ الْعَرَبِ، وَصِيَانَتُهُمْ مِنَ التَّمَزُّقِ وَالتَّفَرُّقِ؛ فَلَقَدْ أُتِيحَ لِي أَنْ أَزُورَ جَنَاحَيِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ: مَشْرِقَهُ وَمَغْرِبَهُ، وَأَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَىٰ عَوَامِّ النَّاسِ وَخَوَاصِّهِمْ؛ فَكُنَّا إِذَا بَاعَدَتْ بَيْنَنَا اللَّهَجَاتُ الْمَحَلِّيَّةُ قَرَّبَتْ بَيْنَنَا فُصْحَىٰ الْقُرْآنِ... فَتَتَخَاطَبُ الْأَلْسِنَةُ مَعَ الْأَلْسِنَةِ، وَتَتَصَافَحُ الْقُلُوبُ مَعَ الْقُلُوبِ.

◆ أَمَا كُنْتَ تَجِدُ صُعُوبَةً فِي التَّخَاطُبِ وَالتَّفَاهُمِ؟.

(١) سورة الحجر الآية ٩.

◇ كُنتُ إِذَا شَعَرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الصُّعُوبَةِ ؛ أَفْزَعُ إِلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ ... فَيُصْبِحُ الْحَزْنُ[1] سَهْلًا ، وَالْبَعِيدُ قَرِيبًا .

◆ حَتَّىٰ مَعَ عَوَامِّ النَّاسِ ؟!! .

◇ حَتَّىٰ مَعَ الْعَوَامِّ - يَا بُنَيَّ - فَالْمُسْلِمُ الَّذِي يَقْطُنُ الرُّقْعَةَ الْمُمْتَدَّةَ بَيْنَ الْخَلِيجِ وَالْمُحِيطِ - أَيًّا كَانَتْ دَرَجَةُ ثَقَافَتِهِ - يَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي صَلَوَاتِهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، يَقْرَؤُهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَيَقْرَؤُهُ جَمَاعَةً وَفَرْدًا ، وَيَقْرَؤُهُ فَرْضًا وَتَطَوُّعًا ...

◆ وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ فِي الْخُطَبِ ، وَالْإِذَاعَاتِ ، وَالْمَوَاسِمِ ، وَالْحَفَلَاتِ أَيْضًا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَإِنَّ مَنْ يَقْرَءُونَ كِتَابًا وَاحِدًا ؛ لَا يَصْعُبُ عَلَيْهِمُ التَّفَاهُمُ وَالتَّخَاطُبُ بِلُغَةِ ذَلِكَ الْكِتَابِ .

◆ أَبَتِ ، كَأَنِّي بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَقَدْ غَدَا سُورًا لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَىٰ ؛ يَدْفَعُ عَنْهَا كُلَّ أَذًى ، وَيَرُدُّ عَنْهَا كُلَّ عَادِيَةٍ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ؛ فَبَيْنَمَا كَانَتْ لُغَاتُ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ تَتَشَعَّبُ خِلَالَ التَّارِيخِ إِلَىٰ لَهَجَاتٍ ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ اللَّهَجَاتُ تَدْرِيجِيًّا إِلَىٰ لُغَاتٍ ... كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُذِيبُ لَهَجَاتِ الْعَرَبِ وَيَصْهَرُهَا فِي لَهْجَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفُصْحَىٰ وَاحِدَةٍ .

◆ وَهَكَذَا مَضَتْ لُغَاتُ الْأَقْوَامِ فِي طُرُقٍ شَتَّىٰ ، وَمَضَتْ لُغَتُنَا فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ أَبَتِ ، أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَمْ إِنَّ هُنَاكَ خَصَائِصَ

---

(١) الحَزْن : الصعب الغليظ .

أُخرَىٰ ؟ .

◇ بَلْ هُنَاكَ خَصَائِصُ أَكْبَرُ وَأَخْطَرُ ، وَلَوْلَا ضِيقُ الْوَقْتِ لَوَقَفْتُكَ عَلَىٰ طَرَفٍ مِنْهَا .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ إِذَا يَسَّرَ اللَّهُ وَقَدَّرَ ، إِذَا يَسَّرَ اللَّهُ وَقَدَّرَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَيَكْثُرُ فِيهَا اللَّحْنُ ؛ فَتُسْتَعْمَلُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » .

◇ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدِ انْتَفَعْتَ بِهِ وَأَفَدْتَ مِنْهُ .

◆ إِنَّ كَلَامَكَ كَالْغَيْثِ أَيْنَمَا وَقَعَ نَفَعَ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَّمَكَ مَا يَنْفَعُكَ .

◆ آمِينَ ، اللَّهُمَّ آمِينَ .
وَالْآن أَبَقِيَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ ، أَمْ إِنَّكَ قَدْ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا آخَرَ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ عِصْمَةٍ لِلِّسَانِ وَتَزْيِينٍ لِلْبَيَانِ .

◆ إِذَنْ هَاتِهِ مَشْكُورًا غَيْرَ مَأْمُورٍ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُكْثِرُونَ اللَّحْنَ فِيهِ ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » قَوْلَهُمْ : أَشْجَانِي الْأَمْرُ يُشْجِينِي بِمَعْنَىٰ أَحْزَنَنِي يَحْزُنُنِي ، وَالصَّوَابُ : شَجَانِي الْأَمْرُ يَشْجُونِي شَجْوًا .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ «أَشْجَانِي»؟! أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي اللُّغَةِ؟.

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ؛ تَقُولُ: أَشْجَاهُ يُشْجِيهِ بِمَعْنَىٰ أَغَصَّهُ.

◆ إِذَنْ يُقَالُ: شَجَاهُ يَشْجُوهُ شَجْوًا بِمَعْنَىٰ أَحْزَنَهُ، وَأَشْجَاهُ يُشْجِيهِ إِشْجَاءً بِمَعْنَىٰ أَغَصَّهُ.

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَمِنْ عَكْسِ هَذَا - يَا بُنَيَّ - قَوْلُهُمْ: سَفَرَ الصُّبْحُ بِمَعْنَىٰ لَاحَ وَأَشْرَقَ، وَهُوَ خَطَأٌ صَوَابُهُ: أَسْفَرَ الصُّبْحُ.

◆ لَعَلَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾[1].

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ، لَا زِلْتَ مُوَفَّقًا إِلَىٰ كُلِّ صَوَابٍ.

◆ وَلَكِنْ مَاذَا عَنْ صِيغَةِ «سَفَرَ» الْكَثِيرَةِ الدَّوَرَانِ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ؟!! أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي اللُّغَةِ؟!.

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ؛ تَقُولُ: سَفَرْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ أَسْفِرُ سِفَارَةً؛ إِذَا سَعَيْتَ بَيْنَهُمْ بِالصُّلْحِ.

◆ وَمِنْ هُنَا أُطْلِقَ عَلَىٰ الرَّجُلِ الَّذِي يُمَثِّلُ دَوْلَتَهُ لَدَىٰ دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ اسْمُ «سَفِيرٍ» أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَكَذَلِكَ. وَتَقُولُ أَيْضًا: سَفَرَتِ الْمَرْأَةُ نِقَابَهَا تَسْفِرُهُ سَفْرًا، بِمَعْنَىٰ أَزَالَتْهُ وَأَسْقَطَتْهُ.

---

(١) سورة المدثر من الآية ٣٢ - ٣٥.

◆ إِذَنْ يُقَالُ : أَسْفَرَ الصُّبْحُ بِمَعْنَىٰ لَاحَ وَأَشْرَقَ ، أَمَّا سَفَرَ فَتُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَىٰ السَّعْيِ بَيْنَ الْقَوْمِ بِالصُّلْحِ ، كَمَا تُسْتَعْمَلُ فِي إِزَالَةِ نِقَابِ الْمَرْأَةِ عَنْ وَجْهِهَا .

◇ أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ ، أَحْسَنْتَ .

◆ أَبَتِ ، أَمَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ آخَرُ ؟ .

◇ بَلْ فِيهِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ ، وَلَوْلَا خَشْيَةُ الْإِمْلَالِ لَزِدْتُكَ مِنْهَا ... فَإِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ أَيْنَ رَوْحُهَا وَرَيْحَانُهَا ، وَجَنَّةُ نَعِيمِهَا ؟ .

◇ هِيَ مِنْكَ دَانِيَةٌ قَرِيبَةٌ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ الْأَمِيرُ أَمِينٌ نَاصِرُ الدِّينِ .

◆ أَهُوَ قَدِيمٌ أَمْ مُحْدَثٌ ؟ .

◇ بَلْ هُوَ مُحْدَثٌ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَتَىٰ وُلِدَ وَأَيْنَ وُجِدَ ؟ .

◇ وُلِدَ الْأَمِيرُ أَمِينٌ نَاصِرُ الدِّينِ سَنَةَ أَلْفٍ وَثَمَانِمِائَةٍ وَخَمْسٍ وَسَبْعِينَ لِلْمِيلَادِ ، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ أَلْفٍ وَتِسْعِمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ .

◆ أَيْ مُنْذُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةٍ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَقَدْ وُلِدَ فِي بَلْدَةِ « كَفَرْ مَتَّىٰ » فِي « لُبْنَانَ » ، وَأُولِعَ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ بِحُبِّ الْعَرَبِيَّةِ وَأَدَبِهَا ، وَعَكَفَ عَلَىٰ دِرَاسَةِ أُصُولِهَا وَمَصَادِرِهَا ... حَتَّىٰ بَلَغَ فِي ذَلِكَ شَأْوًا[1] بَعِيدًا بَوَّأَهُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَعْظَمَ مَكَانَةٍ ، وَوَضَعَهُ بَيْنَهُمْ فِي مَقَامِ الصَّدَارَةِ .

◆ وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ الْإِمَارَةُ ؟ .

◇ الْأَمِيرُ أَمِينٌ نَاصِرُ الدِّينِ يَا بُنَيَّ ، يَنْتَمِي إِلَىٰ « تَنُوخَ »[2]، وَقَدْ نَزَلَ أَجْدَادُهُ التَّنُوخِيُّونَ « لُبْنَانَ » مُنْذُ زَمَنٍ سَحِيقٍ ، وَتَوَلَّوْا إِمَارَتَهُ قُرُونًا طَوِيلَةً ، وَمِنْ هُنَا خُلِعَ عَلَيْهِمْ لَقَبُ الْإِمَارَةِ .

◆ وَهَلْ كَانَ أَمِيرًا فِي الشِّعْرِ ؛ كَمَا هُوَ أَمِيرٌ فِي الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ ؟ .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ أَمِيرًا فِي الشِّعْرِ ، بَلْ إِنَّ عُلَمَاءَ « لُبْنَانَ » وَأُدَبَاءَهَا أَطْلَقُوا عَلَيْهِ لَقَبَ « أَمِيرِ الدَّوْلَتَيْنِ » .

◆ وَمَا هَاتَانِ الدَّوْلَتَانِ ؟ .

◇ إِنَّهُمَا دَوْلَتَا الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ .

◆ لَقَدْ شَوَّقْتَنِي إِلَىٰ سَمَاعِ شِعْرِهِ ، فَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي اصْطَفَيْتَهَا مِنْ دِيوَانِهِ ؟ .

◇ إِنَّهَا لَقَصِيدَةٌ مِنْ عُيُونِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ تَفِيضُ بِالْحِكْمَةِ ، وَالتَّجْرِبَةِ ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

---

(١) الشأو : الأمد والغاية ، والهمة العالية .
(٢) تنوخ : إحدىٰ القبائل العربية .

◇ يَقُولُ :

حَذَارِ فَلَيْسَ لِلنُّعْمَىٰ دَوَامٌ وَلَيْسَ لِهَذِهِ الدُّنْيَا ذِمَامُ[1]

وَكَمْ فِي الْحَادِثَاتِ لَنَا عِظَاتٌ يُقَصِّرُ عَنْ بَلَاغَتِهَا الْكَلَامُ

وَكَمْ من مَعْشَرٍ كَانُوا عِظَامًا أَزَالَتْ مَجْدَهُمْ نُوَبٌ عِظَامُ[2]

نَبَتْ بِهِمُ الْقُصُورُ مُشَيَّدَاتٍ فَأَمْسَوْا وَالْعَرَاءُ لَهُمْ مُقَامُ

وَكَمْ بَاغٍ شَدِيدِ الْحَوْلِ أَضْحَىٰ كَمَا سَامَ[3] الْوَرَىٰ خَسْفًا يُسَامُ

حَذَارِ فَإِنَّ لِلزَّمَنِ انْقِلَابًا عَلَىٰ الْعَاتِي نَوَازِلُهُ جِسَامُ

سَلُوا النَّعْمَاءَ هَلْ تَبْقَىٰ لِرَهْطٍ إِذَا بَطِرُوا وَطَالَ لَهُمْ عُرَامُ[4]

وَلَيْسَتْ تُبْطِرُ النُّعْمَىٰ كِرَامًا وَلَكِنْ يَبْطَرُ الْقَوْمُ اللِّئَامُ

وَمَنْ يُرْهِفْ حُسَامًا لَانْتِقَامٍ يُعَمِّمْ رَأْسَهُ ذَاكَ الْحُسَامُ

وَمَنْ يَطْوِ الضُّلُوعَ عَلَىٰ فَسَادٍ فَمَا فِي الصَّالِحَاتِ لَهُ مَرَامُ

☆ ☆ ☆

يَدُلُّ عَلَىٰ جَمَالِ النَّفْسِ فِعْلٌ لَهُ ذِكْرٌ كَمَا نَفَحَ الْخُزَامُ[5]

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا مَلَقٍ[6] خَبِيثًا فَصَاحِبُ كُلِّ ذِي مَلَقٍ يُلَامُ

وَلَا تَحْفِلْ بِفَحَّاشٍ زَنِيمٍ[7] فَلَوْلَا الْفُحْشُ مَا عُرِفَ الطَّغَامُ

وَلَا يَسْتَنْزِلَنَّكَ عَنْ وَقَارٍ مُزَاحٌ أَوْ شَرَابٌ أَوْ غَرَامُ

☆ ☆ ☆

---

(١) الذِمَام : العهد والموثق .

(٢) نُوَب عِظام : نائبات عظيمة .

(٣) سام : قهر وغلب .

(٤) العرام : الكثرة والشدة والغلبة .

(٥) نفح الخزام : رائحة الخزام وهو نبت طيب الريح .

(٦) الملق : النفاق .

(٧) الزنيم : المشبوه في نسبه وأخلاقه .

أَرَىٰ الْأَمْوَاتَ خَيْرًا مِنْ أُنَاسٍ   لَهُمْ خَلْفٌ وَلَيْسَ لَهُمْ أَمَامُ
إِذَا لَايَنْتَهُمْ فَهُمْ أُسُودٌ   وَإِنْ خَاشَنْتَهُمْ فَهُمْ نَعَامُ

◆ مَا أَرْوَعَ هَذَا الْكَلَامَ يَا أَبَتِ وَمَا أَبْرَعَهُ، صَدَقَ مَنْ قَالَ:
إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا.

* * *

◆ أَبَتِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَا تَحْفِلْ بِفَحَّاشٍ زَنِيمٍ   فَلَوْلَا الْفُحْشُ مَا عُرِفَ الطَّغَامُ

فَمَا الْمُرَادُ بِالطَّغَامِ طَالَ بَقَاؤُكَ؟.

◇ جَاءَ فِي الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ أَنَّ ***الطَّغَامَ*** أَوْغَادُ النَّاسِ، وَقَدْ حَفِلَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِطَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ الْمَوْضُوعَةِ لِأَشْرَافِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ.

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا؟.

◇ قَالُوا فِي وَصْفِ الشَّرِيفِ مِنَ النَّاسِ: فُلَانٌ ***رَفِيعُ الْمَنْزِلَةِ***، ***عَالِي الذُّرْوَةِ***، ***سَامِي الْمَرْتَبَةِ***، ***جَلِيلُ الْقَدْرِ***، ***عَظِيمُ الْخَطَرِ***، ***عَرِيضُ الْجَاهِ***، ***عَالِي الْكَعْبِ***.
وَقَالُوا أَيْضًا: فُلَانٌ ***سَيِّدُ قَوْمِهِ***، وَ ***غُرَّتُهُمْ***، وَ ***عَمِيدُهُمْ***، وَ ***فَتَاهُمْ***.
وَقَالُوا أَيْضًا: هَؤُلَاءِ ***نَوَاصِي قَوْمِهِمْ***، وَ ***وُجُوهُهُمْ***، وَ ***عَرَانِينُهُمْ***، وَ ***هَامَاتُهُمْ***، وَ ***كُبَرَاؤُهُمْ***، وَ ***مَلَأُهُمْ***.
وَقَالُوا أَيْضًا...

◆ مَا شَاءَ اللَّهُ، مَا شَاءَ اللَّهُ!!.

◇ قَالُوا أَيْضًا يَا بُنَيَّ: ***طَالَ*** فُلَانٌ قَوْمَهُ، وَ ***بَذَّهُمْ***، وَ ***سَادَهُمْ***، وَ ***فَضَلَهُمْ***،

وَ رَجَحَهُمْ ، وَ زَانَهُمْ .

وَقَالُوا : رَجُلٌ **عِصَامِيٌّ** إِذَا شَرُفَ بِنَفْسِهِ ، وَرَجُلٌ **عِظَامِيٌّ** إِذَا شَرُفَ بِآبَائِهِ .

◆ مَا هَذَا كُلُّهُ مَا هَذَا كُلُّهُ ؟ .

◇ إِنَّهُ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ لُغَةِ الْقُرْآنِ لَا أَكْثَرَ !! .

* * *

◆ أَبَتِ ، أَرَىٰ عَقَارِبَ السَّاعَةِ تَحُثُّ الْخُطَىٰ ، وَأَنَا لَمْ أُمَتِّعِ النَّفْسَ بَعْدُ بِطُرْفَةِ الْجَلْسَةِ .

◇ مَاذَا عَلَيْكَ لَوْ أَرْجَأْتَهَا إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ ، وَلَكَ عَلَيَّ بَدَلَ الطُّرْفَةِ طُرْفَتَانِ بَلْ ثَلَاثٌ .

◆ أَنَا أُومِنُ بِالْحِكْمَةِ الَّتِي تَقُولُ : عُصْفُورٌ فِي الْيَدِ خَيْرٌ مِنْ عَشْرَةٍ عَلَىٰ الشَّجَرَةِ .

◇ طَيِّبٌ لَا بَأْسَ .

حَفِلَتْ كُتُبُ الْأَدَبِ يَا بُنَيَّ ، بِطَائِفَةٍ رَائِعَةٍ مِنَ الْأَجْوِبَةِ الْحَاضِرَةِ الْمُسْكِتَةِ ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَالَ لِنُصَيْبٍ الشَّاعِرِ - وَكَانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ - قَالَ لَهُ :

هَلْ لَكَ فِي الشَّرَابِ ؟ .

فَقَالَ : الشَّعْرُ مُفَلْفَلٌ وَاللَّوْنُ أَسْوَدُ ، وَإِنَّمَا قَرِينِي[1] إِلَيْكَ عَقْلِي ، فَهَبْهُ لِي .

◆ رَائِعٌ .

◇ وَقِيلَ لِنُصَيْبٍ هَذَا مَرَّةً : أَنْتَ لَا تَهْجُو لِكَوْنِكَ لَا تُحْسِنُ الْهِجَاءَ .

فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، أَتُرَانِي لَا أُحْسِنُ أَنْ أَجْعَلَ مَكَانَ عَافَاكَ اللَّهُ ، أَخْزَاكَ اللَّهُ .

---

(١) قريني : صاحبي .

◆ مَا هَذِهِ الْبَدِيهَةُ الْحَاضِرَةُ !! .

◇ وَقِيلَ لَهُ : إِنَّكَ مَدَحْتَ فُلَانًا فَحَرَمَكَ ، فَاهْجُهُ .
فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا يَنْبَغِي أَنْ أَهْجُوَهُ ، وَ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ أَهْجُوَ نَفْسِي حِينَ مَدَحْتُهُ .
فَقَالُوا لَهُ : وَاللَّهِ إِنَّ قَوْلَكَ هَذَا أَشَدُّ مِنَ الْهِجَاءِ .

* * *

الْجَلْسَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

الدَّلَالَاتُ الْمُوسِيقِيَّةُ وَاللُّغَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - شَرَعْتَ فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّهَا تَتَجَلَّىٰ فِي ذَلِكَ الِانْسِجَامِ الصَّوْتِيِّ بَيْنَ حُرُوفِهَا ، وَالتَّآلُفِ الْمُوسِيقِيِّ فِي بِنَائِهَا .

◇ نَعَمْ ... اللَّهُمَّ نَعَمْ .

◆ كَمَا تَتَجَلَّىٰ أَيْضًا فِي ثَبَاتِ أَصْوَاتِ حُرُوفِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ ؛ لِذَا فَهِيَ تُنْطَقُ الْيَوْمَ كَمَا كَانَتْ تُنْطَقُ قَبْلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ... ذَلِكَ كَذَلِكَ .

◆ ثُمَّ إِنَّ الْوَقْتَ عَاجَلَكَ عَنِ اسْتِكْمَالِ حَدِيثِكَ ؛ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأْتَهُ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً ... حُبًّا وَكَرَامَةً ... إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَا بُنَيَّ ، هُوَ مَا حَفِلَتْ بِهِ مِنَ الدَّلَالَاتِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي تُسَاعِدُ عَلَىٰ تَصْوِيرِ الْمَعْنَىٰ ،

وَتَجْسِيدِهِ ، وَ إِبْرَازِهِ .

◆ عَفْوَكَ ، فَأَنَا لَمْ أَفْهَمْ مَا عَنَيْتَهُ بِالدَّلَالَاتِ الصَّوْتِيَّةِ ، وَلَمْ أُدْرِكِ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ أَصْوَاتِ الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا .

◇ الْحَقُّ مَعَكَ يَا بُنَيَّ ، الْحَقُّ كُلُّهُ مَعَكَ ... أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ : إِنَّ اللَّفْظَةَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَهَا دَلَالَتَانِ ...

◆ دَلَالَتَانِ !! .

◇ نَعَمْ دَلَالَتَانِ : إِحْدَاهُمَا وَضْعِيَّةٌ لُغَوِيَّةٌ تَكْشِفُ عَنْهَا الْمُعْجَمَاتُ ، وَالْأُخْرَىٰ مُوسِيقِيَّةٌ يُشِعُّهَا اللَّفْظُ نَفْسُهُ وَيُوحِي بِهَا جَرْسُهُ الْمُوسِيقِيُّ .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، فَمَا زَالَ فِي الْكَلَامِ شَيْءٌ مِنَ الْغُمُوضِ ، فَعَاجِلْنِي بِالْمِثَالِ ؛ فَهُوَ يَتَكَفَّلُ بِإِزَالَةِ الْإِشْكَالِ .

◇ الْأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُسْعِفُنَا فِي هَذَا الْمَجَالِ بِفَيْضٍ مِنَ الْأَمْثِلَةِ عَلَىٰ هَذِهِ الْخَاصَّةِ الْفَرِيدَةِ مِنْ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ كَلِمَةِ « اِثَّاقَلْتُمْ » فِي قَوْلِهِ عَلَتْ كَلِمَتُهُ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ** ﴾[1] !!؟ .

فَإِنَّ الْجَرْسَ الْمُوسِيقِيَّ لِلَّفْظَةِ « اِثَّاقَلْتُمْ » يُصَوِّرُ لَكَ الْجِسْمَ الْمُثَّاقِلَ الَّذِي يَرْفَعُهُ الرَّافِعُونَ فِي جَهْدٍ ، وَيَنْهَضُ بِهِ النَّاهِضُونَ فِي عَنَاءٍ ، ثُمَّ يَسْقُطُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لِفَرْطِ ثِقَلِهِ .

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٨.

◆ ثُمَّ هُوَ يُصَوِّرُ مَدَىٰ تَثَاقُلِهِمْ عَنْ تَلْبِيَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْجِهَادِ؛ حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُمْ مَشْدُودُونَ إِلَىٰ الأَرْضِ مُسَمَّرُونَ فِيهَا.

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ، هَا أَنْتَ ذَا قَدْ بَدَأْتَ تُدْرِكُ الْمُرَادَ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْمُوسِيقِيَّةِ لِلأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

◆ إِنَّهَا لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ، وَلَا يَحْتَاجُ إِدْرَاكُهَا إِلَّا إِلَىٰ الأُذُنِ الْمُوسِيقِيَّةِ الْمُرْهَفَةِ، وَالْحِسِّ الْبَيَانِيِّ الدَّقِيقِ.

◇ وَتَتَّضِحُ لَكَ هَذِهِ الدَّلَالَةُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ لَوْ أَنَّكَ اسْتَبْدَلْتَ بِكَلِمَةِ «اثَّاقَلْتُمْ» كَلِمَةَ «تَثَاقَلْتُمْ»، فَسَتَرَىٰ أَنَّ الْجَرْسَ قَدْ خَفَّ، وَأَنَّ الأَثَرَ الْمَنْشُودَ مِنَ الْكَلِمَةِ قَدْ ضَاعَ.

◆ أَمَا مِنْ مِثَالٍ آخَرَ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ؟، فَكَثْرَةُ الأَمْثِلَةِ تُرَسِّخُ الْفِكْرَةَ وَتُثَبِّتُهَا.

◇ بَلْ مِئَةُ مِثَالٍ، اِقْرَأْ قَوْلَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا**﴾[1].
اِقْرَإِ الآيَةَ الْكَرِيمَةَ السَّابِقَةَ يَا بُنَيَّ، وَقِفْ عِنْدَ كَلِمَةِ «لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ» وَأَصِخْ بِسَمْعِكَ إِلَىٰ جَرْسِهَا الْمُوسِيقِيِّ وَقُلْ مَا الَّذِي تَجِدُهُ عِنْدَ سَمَاعِهَا؟.

◆ إِنَّ الْجَرْسَ الْمُوسِيقِيَّ لِكَلِمَةِ «لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ» يَرْسُمُ صُورَةَ التَّبْطِئَةِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّكَ تَرَىٰ بِعَيْنَيْ سَمْعِكَ صُورَةَ هَذَا الْمُتَبَاطِئِ.

◇ ثُمَّ إِنَّ اللِّسَانَ - يَا بُنَيَّ - لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَتَبَاطَأَ فِي نُطْقِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ تَبَاطُؤًا يُمَثِّلُ تَبَاطُؤَ ذَلِكَ الَّذِي دُعِيَ إِلَىٰ الْجِهَادِ، فَتَثَاقَلَ عَنْ إِجَابَةِ الدَّاعِي.

---

(١) سورة النساء من الآية ٧١ - ٧٢.

◆ إِنَّ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَسَابِقَتِهَا لَمِثَالَيْنِ رَائِعَيْنِ عَلَىٰ الدَّلَالَاتِ الْمُوسِيقِيَّةِ لِلْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◇ وَهَاكَ مِثَالًا ثَالِثًا لَا يَقِلُّ عَنْ سَابِقَيْهِ دِقَّةً وَرَوْعَةً ، اِقْرَأْ قَوْلَهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ فِي وَصْفِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا** ﴾[1] .

اِقْرَإِ الْآيَةَ السَّابِقَةَ يَا بُنَيَّ ، وَقِفْ عِنْدَ كَلِمَةِ « يَصْطَرِخُونَ » وَتَأَمَّلْ جَرْسَهَا ، وَدَلَالَةَ صَوْتِهَا ، وَقُلْ لِي مَاذَا تَجِدُ ؟ .

◆ مَاذَا أَجِدُ ؟ ... أَجِدُ ذَلِكَ الْجَرْسَ الشَّدِيدَ شِدَّةَ الصُّرَاخِ الَّذِي يُطْلِقُهُ الْمُعَذَّبُونَ وَيُرَدِّدُونَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فِي جَهَنَّمَ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

◇ وَنَجِدُ أَيْضًا فِي جَرْسِ كَلِمَةِ « يَصْطَرِخُونَ » صُورَةَ تِلْكَ الْحَنَاجِرِ الْمُكْتَظَّةِ بِالْأَصْوَاتِ الْخَشِنَةِ ، كَمَا نَجِدُ فِيهَا ظِلَّ الْإِهْمَالِ لِهَذَا الِاصْطِرَاخِ الَّذِي لَا يَهْتَمُّ بِهِ أَحَدٌ وَلَا يُلَبِّيهِ أَحَدٌ .

◆ وَنَلْمَحُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ صُورَةَ ذَلِكَ الْعَذَابِ الْغَلِيظِ الشَّدِيدِ الَّذِي « يَصْطَرِخُونَ » مِنْهُ فَلَا يَجِدُونَ صَرِيخًا ، وَيَسْتَغِيثُونَ مِنْهُ فَلَا يَظْفَرُونَ بِمُغِيثٍ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ . فَاللَّفْظَةُ الْعَرَبِيَّةُ - كَمَا رَأَيْتَ - لَا تَقْتَصِرُ دَلَالَتُهَا عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُعْجَمِيِّ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا تَحْمِلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الصَّوْتِيَّةِ مَا يَكُونُ أَحْيَانًا أَقْوَىٰ مِنَ الدَّلَالَةِ الْمُعْجَمِيَّةِ وَأَبْيَنَ .

◆ وَلَكِنْ أَتَقْتَصِرُ هَذِهِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ الِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ ، أَمْ إِنَّهَا شَائِعَةٌ فِي اسْتِعْمَالَاتِ الشُّعَرَاءِ وَالْأُدَبَاءِ أَيْضًا ؟ .

---

(١) سورة فاطر الآية ٣٧.

◇ بَلْ هِيَ شَائِعَةٌ عَامَّةٌ ـ يَا بُنَيَّ ـ لَكِنَّهَا تَبْدُو فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أَعْلَىٰ صُوَرِهَا وَأَبْدَعِ حَالاَتِهَا.

◆ لَعَلَّ فِي ذَلِكَ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ، اسْتَمِعْ إِلَىٰ لَفْظَتَيْ «الصَّاخَّةِ» وَ«الطَّامَّةِ» وَهُمَا مُسْتَعْمَلَتَانِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ تَجِدْ أُولاَهُمَا تَخْرِقُ صِمَاخَ[1] أُذُنِكَ فِي عُنْفِ جَرْسِهَا، وَتَجِدْ فِي الثَّانِيَةِ دَوِيًّا وَطَنِينًا يَطِمُّ وَيَعُمُّ حَتَّىٰ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ الطُّوفَانُ الَّذِي يَغْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ.

◆ ظَاهِرَةٌ رَائِعَةٌ ...

◇ وَتَبْدُو لَكَ رَوْعَةُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ وَقِيمَتُهَا إِذَا وَضَعْتَ لَفْظَتَيْ «الصَّاخَّةِ» وَ«الطَّامَّةِ» الْمُسْتَعْمَلَتَيْنِ فِي الْقِيَامَةِ بِجَانِبِ «الرَّوْحِ» وَ«الرَّيْحَانِ» الْمُسْتَعْمَلَتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ مَثَلًا.

◆ حَقًّا إِنَّ عُنْفَ الْجَرْسِ الْمُنْبَعِثِ مِنَ الْكَلِمَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ تُقَابِلُهُ رِقَّةُ الْجَرْسِ الْمُنْبَعِثِ مِنَ الْكَلِمَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ.

◇ بُورِكَ فِيكَ يَا بُنَيَّ، بُورِكَ فِيكَ، وَكِلْتَا الْحَالَتَيْنِ تَدُلُّ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، كَمَا تُشِيرُ إِلَىٰ سِرٍّ مِنْ أَسْرَارِ بَلاَغَةِ الْقُرْآنِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

◆ أَبَتِ، أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ، أَمْ إِنَّ هُنَاكَ خَصَائِصَ أُخْرَىٰ؟.

◇ بَلْ هُنَاكَ خَصَائِصُ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ، وَلَوْلاَ ضِيقُ الْوَقْتِ لَوَقَفْتُكَ عَلَىٰ طَرَفٍ مِنْهَا.

◆ إِذَنْ إِلَى الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ.

---

(١) الصِّمَاخُ: قناة الأذن التي تفضي إلىٰ طبلته.

◇ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، بِمَشِيئَةِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَيَكْثُرُ فِيهَا اللَّحْنُ ؛ فَتُسْتَعْمَلُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ أَفَدْتَ مِنْهُ فِي تَقْوِيمِ لِسَانِكَ وَتَهْذِيبِ بَيَانِكَ .

◆ كُلَّ الْفَائِدَةِ .

◇ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ .

◆ وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ يُضَافُ إِلَىٰ سَابِقِهِ ، أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي جَدِيدًا لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ بَلْ مَا زَالَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ لَا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عَنْ سَابِقِهِ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ بِهِ ، وَلَكَ الشُّكْرُ وَالْأَجْرُ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ يُكْثِرُونَ مِنَ اللَّحْنِ فِيهِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلَهُمْ : هَمَّنِي الْأَمْرُ بِمَعْنَىٰ أَقْلَقَنِي وَأَثَارَ اهْتِمَامِي ، وَهُوَ خَطَأٌ صَوَابُهُ : أَهَمَّنِي الْأَمْرُ فَهْوَ مُهِمٌّ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « هَمَّنِي » ، أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي اللُّغَةِ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا هُوَ ؟ .

◇ تَقُولُ : هَمَّنِي الْمَرَضُ بِمَعْنَىٰ أَذَابَنِي ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لِمَا أُذِيبَ مِنْ سَنَامِ الْإِبِلِ : الْهَامُومُ .

◆ وَعَلَىٰ هَذَا ، أَيُقَالُ : أَمْرٌ هَامٌّ أَمْ أَمْرٌ مُهِمٌّ ؟ .

◇ الصَّوَابُ يَا بُنَيَّ أَنْ يُقَالَ : هَذَا أَمْرٌ مُهِمٌّ لَا أَمْرٌ هَامٌّ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ .

◇ وَمِنْ ذَلِكَ الْبَابِ أَيْضًا يَا بُنَيَّ قَوْلُهُمْ : غَاثَ فُلَانٌ فُلَانًا بِمَعْنَىٰ أَعَانَهُ وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ : أَغَاثَ فُلَانٌ فُلَانًا .

◆ وَكَلِمَةُ « غَاثَ » الْكَثِيرَةُ الدَّوَرَانِ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ أَمَا لَهَا وُجُودٌ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ ، تَقُولُ : غَاثَ اللَّهُ الْبِلَادَ يُغِيثُهَا غَيْثًا إِذَا أَنْزَلَ بِهَا الْغَيْثَ ، وَقَدْ غِيثَتِ الْأَرْضُ تُغَاثُ ، وَهِيَ أَرْضٌ مَغِيثَةٌ .

◆ أَمَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ لِلرَّجُلِ إِذَا ذَهَبَ مَالُهُ : خَلَفَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِمَعْنَىٰ عَوَّضَكَ عَنْهُ ، وَهُوَ خَطَأٌ صَوَابُهُ : أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

◆ وَلَكِنَّ صِيغَةَ « خَلَفَ » اللَّهُ عَلَيْكَ مَسْمُوعَةٌ كَثِيرًا ، أَفَلَهَا وَجْهٌ ؟ .

◇ نَعَمْ لَهَا وَجْهٌ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا وَجْهُ اسْتِعْمَالِهَا طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ وَجْهِ اسْتِعْمَالِهَا أَرَىٰ مِنَ الْفَائِدَةِ أَنْ أَلْفِتَ نَظَرَكَ إِلَىٰ أَنَّ فِي مَكْتَبَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ طَائِفَةً مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي سُمِّيَتْ بِكُتُبِ الْفُرُوقِ .

◆ وَمَا الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ طَالَ بَقَاؤُكَ ، وَمَا الْمُرَادِ بِالْفُرُوقِ ؟ .

◇ الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ يَا بُنَيَّ ، إِيقَافُ الدَّارِسِينَ عَلَىٰ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ مَعَانِي الأَلْفَاظِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي النُّطْقِ ، وَقَدْ تَنَاوَلَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ[1] الْفَرْقَ بَيْنَ « خَلَفَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَأَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْكَ » .

◆ وَمَاذَا تَقُولُ هَذِهِ الْكُتُبُ فِي هَذَا الشَّأْنِ ؟ .

◇ جَاءَ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ يَا بُنَيَّ : يُقَالُ لِلرَّجُلِ : أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، إِذَا ذَهَبَ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ . أَمَّا إِذَا هَلَكَ أَبُوهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ مَنْ لَا يَسْتَعِيضُهُ فَيُقَالُ لَهُ : خَلَفَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، أَيْ : كَانَ خَلِيفَةً عَلَيْكَ مِنْ مُصَابِكَ الَّذِي أُصِبْتَ بِهِ .

◆ مَا أَعْظَمَ هَذِهِ اللُّغَةَ ! وَمَا أَشَدَّ دِقَّتَهَا فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ !! .

◇ إِنَّهَا لُغَةُ الْقُرْآنِ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهَا اللُّغَةُ الَّتِي وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَمَعْنًى .

◆ أَبَتِ ، أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ؟؟ .

◇ بَقِيَتْ فِيهِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ يَا بُنَيَّ ، وَلَوْلَا ضِيقُ الْوَقْتِ لَزِدْتُكَ مِنْهَا .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنَّ فِي النَّفْسِ حَنِينًا إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ وَطِيبِ شَذَاهَا .

---

(١) مثل كتاب « فقه اللغة » للثعالبي ، و« المخصص » لابن سيده ، و« الألفاظ » ، و« الأضداد » لابن السكيت ، و« البارع في اللغة » ، و« الأمالي » لأبي علي القالي .

◇ مَا حَنِينُكَ إِلَيْهَا بِأَشَدَّ مِنْ حَنِينِي .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنُلِمُّ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ إِنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ شُعَرَاءِ الْمُنْصِفَاتِ ؟ .

◆ وَاحِدٌ مِنْ شُعَرَاءِ الْمُنْصِفَاتِ !! وَمَا الْمُنْصِفَاتُ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ إِنَّهَا قَصَائِدُ مُشَهَّرَاتٌ[1] لَا يَلِيقُ بِرَاوٍ مِنْ رُوَاةِ الشِّعْرِ أَلَّا يَحْفَظَهَا وَيَرْوِيَهَا عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِ الْجَاحِظِ .

◆ وَمَا مَوْضُوعُ هَذِهِ الْمُنْصِفَاتِ دَامَ عِزُّكَ ؟ .

◇ كَانَ مِنْ شَأْنِ الشُّعَرَاءِ الْعَرَبِ يَا بُنَيَّ ، أَنْ يُسَجِّلُوا حَوَادِثَ قَبَائِلِهِمْ ، وَأَنْ يَفْخَرُوا بِانْتِصَارَاتِهَا ، وَأَنْ يَعْتَذِرُوا عَنْ هَزِيمَتِهَا ، وَكَانَ الشَّاعِرُ إِذَا انْتَصَرَ قَوْمُهُ إِمَّا أَنْ يَمْلَأَ الدُّنْيَا فَخْرًا بِنَفْسِهِ وَبِقَوْمِهِ ، وَنِكَايَةً وَسُخْرِيَةً بِعَدُوِّهِ الْمُنْهَزِمِ ، وَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَارِسًا مَرَّةً وَاحِدَةً ... وَإِمَّا أَنْ يُكَفْكِفَ مِنْ كِبْرِيَاءِ الْغَالِبِ وَيُخَفِّفَ مِنْ غُرُورِهِ ، وَيُنْصِفَ عَدُوَّهُ الْمُنْهَزِمَ وَيَذْكُرَ شَجَاعَتَهُ وَجُرْأَتَهُ ؛ فَيَكُونُ فَارِسًا مَرَّتَيْنِ .

◆ حَقًّا إِنَّهُ يَكُونُ فَارِسًا مَرَّةً ؛ لِأَنَّهُ انْتَصَرَ عَلَىٰ عَدُوِّهِ ، وَفَارِسًا مَرَّةً أُخْرَىٰ ؛ لِأَنَّهُ انْتَصَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأَنْصَفَ عَدُوَّهُ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ... وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَنْجَلِي الْمَعَارِكُ يَا بُنَيَّ ، عَنْ جَيْشَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا غَالِبٌ أَوْ مَغْلُوبٌ ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا قَتْلَىٰ كِرَامٌ وَأَسْرَىٰ أَبْطَالٌ .

---

(١) مُشهّرات : مشهورة شهرة لا تنكر .

◆ وَهُنَا يَأْتِي الْإِنْصَافُ أَيْضًا أَلَيْسَ كَذَٰلِكَ ؟ .

◇ بَلَىٰ يَا بُنَيَّ ؛ فَالْإِنْصَافُ يَجْعَلُ الْبُطُولَةَ تُقَدِّرُ الْبُطُولَةَ ، وَالرُّجُولَةَ تُكْبِرُ الرُّجُولَةَ . وَلِلْعَرَبِ قَصَائِدُ أَنْصَفَ قَائِلُوهَا أَعْدَاءَهُمْ ، وَقَدْ دُعِيَتْ هَٰذِهِ الْقَصَائِدُ بِالْمُنْصِفَاتِ ، وَجُمِعَتْ أَخِيرًا فِي كِتَابٍ خَاصٍّ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الْمُنْصِفُ الَّذِي سَنَقِفُ عَلَىٰ مُنْصِفَتِهِ ؟ .

◇ إِنَّهُ عَبْدُ الشَّارِقِ بْنُ الْعُزَّىٰ الْجُهَنِيُّ .

◆ لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ .

◇ إِنَّهُ لَكَذَٰلِكَ ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلَةِ « جُهَيْنَةَ » ، وَقَدْ دُعِيَ بِعَبْدِ الشَّارِقِ لِأَنَّ « الشَّارِقَ » كَانَ صَنَمًا مِنْ أَصْنَامِ قَوْمِهِ .

◆ وَمَا مُنَاسَبَةُ قَصِيدَتِهِ أَوْ مُنْصِفَتِهِ ؟ .

◇ مُنَاسَبَتُهَا مَعْرَكَةٌ طَاحِنَةٌ دَارَتْ بَيْنَ « جُهَيْنَةَ » قَبِيلَةِ الشَّاعِرِ وَبَيْنَ قَبِيلَةِ « بَهْثَةَ » ، وَقَدْ كَانَ حَصَادُهَا ثَمَانِيَةَ قَتْلَىٰ أَرْبَعَةً مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، وَكَانَ « جُوَيْنٌ » أَخُو الشَّاعِرِ فِي عِدَادِ الْمَقْتُولِينَ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي مُنْصِفَتِهِ هَٰذِهِ ؟ .

◇ يَقُولُ :

أَلَا حُيِّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا (1)

نُحَيِّيهَا وَإِنْ بَخِلَتْ عَلَيْنَا

(١) رُدَيْنا : اسم امرأة يخاطبها الشاعر .

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا

عَلَىٰ أَضَمَاتِنَا[1]، وَقَدِ احْتَوَيْنَا

وَأَرْسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رَسُولًا

فَقَالَ: أَلَا انْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا

وَدَسُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً

فَلَمْ نَغْدِرْ بِفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا

فَجَاءُوا عَارِضًا بَرِدًا[2] وَجِئْنَا

كَمِثْلِ السَّيْلِ نَرْكَبُ وَازِعَيْنَا[3]

تَنَادَوْا يَالَ بُهْثَةَ إِذْ لَقُونَا

فَقُلْنَا: أَحْسِنُوا قَوْلًا جُهَيْنَا

سَمِعْنَا نَبْأَةً[4] عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ

فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا[5]:

فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا

أَنَخْنَا لِلْكَلَاكِلِ[6] فَارْتَمَيْنَا

وَلَمَّا لَمْ نَدَعْ سَهْمًا وَرُمْحًا

مَشَيْنَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا

---

(١) أَضَمَاتنا: الأحقاد المطوية في الصدور.

(٢) عارضًا بردًا: مطرًا خفيفًا باردًا.

(٣) الوازع في الحرب: الموكل بالصفوف ينظمها بتقديم أو تأخير.

(٤) سمعنا نبأة: أي صوتًا يدعو للحرب.

(٥) ارعوينا: رجعنا عن إتمام المعركة، تعقلًا منا.

(٦) أناخ البعير: أبركه، والكلاكل: مقدمات صدور الإبل. مفردها: كلكل.

فَـمَـنْ يَـرَنَـا يَـقُـلْ سَـيْـلٌ أَتِـيٌّ
نَـكُـرُّ عَـلَـيْـهِـمُ، وَهُـمُ عَـلَـيْنَا
شَـدَدْنَـا شَـدَّةً فَـقَـتَـلْـتُ مِـنْـهُـمْ
ثَـلَاثَـةَ فِـتْـيَـةٍ وَأَسَـرْتُ قَـيْنَا
وَشَـدُّوا شَـدَّةً أُخْـرَىٰ فَـجَـرُّوا
بِـأَرْجُـلِ مِـثْـلِـهِـمْ وَرَمَـوْا «جُـوَيْـنَـا»
وَكَانَ أَخِي «جُوَيْنٌ» ذَا حِفَاظٍ[1]
وَكَـانَ الْـقَـتْـلُ لِـلْـفِـتْـيَـانِ زَيْـنَـا
فَـآبُـوا بِـالـرِّمَـاحِ مُـكَـسَّـرَاتٍ
وَأُبْـنَـا بِـالـسُّـيُـوفِ قَـدِ انْـحَـنَـيْنَا

◆ مَا هَذَا الْإِنْصَافُ فِي دُنْيَا يَقِلُّ فِيهَا الْإِنْصَافُ !! إِنَّ هَذِهِ الْمُنْصِفَاتِ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُرْوَىٰ، وَحَرِيَّةٌ بِأَنْ تُحْفَظَ.

◇ وَمِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ حَضَّ الْأَقْدَمُونَ عَلَىٰ رِوَايَتِهَا وَحِفْظِهَا يَا بُنَيَّ.

* * *

◆ أَبَتِ، قَالَ عَبْدُ الشَّارِقِ فِي مُنْصِفَتِهِ:

وَلَـمَّـا أَنْ تَـوَاقَـفْـنَـا قَـلِـيـلًا أَنَـخْـنَـا لِـلْـكَـلَاكِـلِ فَـارْتَـمَـيْنَا

فَمَا الْغَرَضُ مِنْ إِيرَادِ «أَنْ» فِي قَوْلِهِ: وَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا، مَعَ أَنَّ الْمَعْنَىٰ يَسْتَقِيمُ بِدُونِهَا ؟!.

◇ «أَنْ» هَذِهِ يَا بُنَيَّ، حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الزِّيَادَةِ، وَقَدْ دَأَبَ الْعَرَبُ عَلَىٰ زِيَادَةِ

---
(١) ذا حِفَاظ: محافظة على كريم الأخلاق.

بَعْضِ حُرُوفِ الْمَعَانِي فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْكَلَامِ لِأَغْرَاضٍ بَلَاغِيَّةٍ أَهَمُّهَا تَقْوِيَةُ الْمَعْنَىٰ وَتَوْكِيدُهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: وَلَمَّا *أَنْ* تَوَاقَفْنَا ... إِلَىٰ آخِرِ الْبَيْتِ.

◆ وَلَعَلَّ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلَهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ: ﴿**فَلَمَّا *أَن* جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ**﴾[1].

◇ نَعَمْ إِنَّهُ مِنْهُ، نَعَمْ إِنَّهُ مِنْهُ ... وَمِنْ حُرُوفِ الزِّيَادَةِ «*الْبَاءُ*» أَيْضًا يَا بُنَيَّ، فَهِيَ تُزَادُ فِي خَبَرِ «لَيْسَ» وَ«مَا» حَيْثُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**أَلَسْتُ *بِرَبِّكُمْ***﴾[2] وَقَالَ أَيْضًا: ﴿**وَمَا اللَّهُ *بِغَافِلٍ* عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[3].

◆ «*فَالْبَاءُ*» فِي كِلْتَا الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ أُتِيَ بِهَا لِتَوْكِيدِ الْمَعْنَىٰ وَتَقْوِيَتِهِ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟.

◇ بَلَىٰ يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَكَذَلِكَ، وَتُزَادُ هَذِهِ «*الْبَاءُ*» أَيْضًا مَعَ الْمَفْعُولِ بِهِ لِلْغَرَضِ نَفْسِهِ؛ فَتَقُولُ أَلْقَىٰ فُلَانٌ *بِرَحْلِهِ* بَدَلًا مِنْ أَلْقَىٰ فُلَانٌ رَحْلَهُ.

◆ لَعَلَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ: ﴿**وَلَا تُلْقُوا *بِأَيْدِيكُمْ* إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾[4].

◇ نَعَمْ إِنَّهُ مِنْهُ، وَتُزَادُ هَذِهِ «*الْبَاءُ*» أَيْضًا فِي التَّوْكِيدِ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ نَحْوَ جَاءَ فُلَانٌ *بِنَفْسِهِ* أَوْ *بِعَيْنِهِ*.

◆ فَيَكُونُ تَوْكِيدًا عَلَىٰ تَوْكِيدٍ.

◇ وَتُزَادُ «*اللَّامُ*» يَا بُنَيَّ، فِي الْمَفْعُولِ بِهِ لِتَقْوِيَةِ الْعَامِلِ نَحْوَ قَوْلِكَ: سَاءَنِي ضَرْبُكَ *لِفُلَانٍ*.

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٦.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٧٤.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٥.

◆ وَمَاذَا تُدْعَىٰ هَذِهِ «اللَّامُ» ؟.

◇ تُدْعَىٰ : لَامُ التَّقْوِيَةِ ... وَمِنْ حُرُوفِ الزِّيَادَةِ أَيْضًا «إِنْ» الْمَكْسُورَةُ الْهَمْزَةِ السَّاكِنَةُ النُّونِ ، حَيْثُ تُزَادُ بَعْدَ «مَا» النَّافِيَةِ نَحْوَ : مَا إِنْ سَمِعْنَا بِمِثْلِ فُلَانٍ .

◆ وَلَكِنَّ النَّاسَ يَنْطِقُونَهَا مَفْتُوحَةً فَيَقُولُونَ : مَا أَنْ سَمِعْنَا بِمِثْلِ فُلَانٍ .

◇ إِنَّ هَذَا النُّطْقَ الَّذِي أَوْرَدْتَهُ مِنْ ضُرُوبِ الْخَطَإِ الشَّائِعَةِ ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَيْهِ وَاجِبٌ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ ؛ فَقَدْ كَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، رَعَاكَ اللَّهُ ، أَيْنَ طُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ، لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَهَا .

◇ مَا نَسِيتُهَا يَا بُنَيَّ ، مَا نَسِيتُهَا .

◆ إِذَنْ عَجِّلْ بِهَا عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ .

◇ لَمَّا تُوُفِّيَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاسْتُخْلِفَ ابْنُهُ يَزِيدُ مِنْ بَعْدِهِ ... اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ بَابِهِ ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ الْجَمْعِ بَيْنَ التَّهْنِئَةِ وَالتَّعْزِيَةِ ... حَتَّىٰ أَتَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ السَّلُولِيُّ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، آجَرَكَ اللَّهُ عَلَىٰ الرَّزِيَّةِ[1] وَبَارَكَ لَكَ فِي الْعَطِيَّةِ ، وَأَعَانَكَ عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ .
فَقَدْ رُزِئْتَ عَظِيمًا ، وَأُعْطِيتَ جَسِيمًا ، فَاشْكُرِ اللَّهَ عَلَىٰ مَا أُعْطِيتَ ، وَاصْبِرْ لَهُ عَلَىٰ مَا رُزِيتَ .
لَقَدْ فَقَدْتَ خَلِيفَةَ اللَّهِ ، وَمُنِحْتَ خِلَافَةَ اللَّهِ ...
فَفَارَقْتَ جَلِيلًا وَوُهِبْتَ جَزِيلًا ، فَأَوْرَدَكَ اللَّهُ مَوَارِدَ السُّرُورِ ، وَوَفَّقَكَ لِصَالِحِ الْأُمُورِ .

* * *

---

(١) الرَّزِيَّة : المصيبة .

الْجَلْسَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ

السِّعَةُ الْمُعْجَمِيَةِ لِلُّغَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ دَامَ عِزُّكَ ـ شَرَعْتَ فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّهَا تَتَجَلَّىٰ فِي ذَلِكَ الِانْسِجَامِ الصَّوْتِيِّ بَيْنَ حُرُوفِهَا ، وَالتَّآلُفِ الْمُوسِيقِيِّ فِي بِنَائِهَا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ .

◆ كَمَا تَتَجَلَّىٰ أَيْضًا فِي ثَبَاتِ حُرُوفِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ ؛ لِذَا فَهِيَ تُنْطَقُ الْيَوْمَ كَمَا كَانَتْ تُنْطَقُ قَبْلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا .

◇ نَعَمْ إِنَّهَا لَكَذَلِكَ ، إِنَّهَا لَكَذَلِكَ .

◆ ثُمَّ قُلْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ إِنَّ لِلَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ دَلَالَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا وَضْعِيَّةٌ لُغَوِيَّةٌ تَكْشِفُ عَنْهَا الْمُعْجَمَاتُ ، وَالْأُخْرَىٰ مُوسِيقِيَّةٌ يُشِعُّهَا اللَّفْظُ نَفْسُهُ ، وَيُوحِي بِهَا جَرْسُهُ الْمُوسِيقِيُّ .

◇ نَعَمْ ، اللَّهُمَّ نَعَمْ .

◆ ثُمَّ إِنَّ الْوَقْتَ عَاجَلَكَ عَنِ اسْتِكْمَالِ حَدِيثِكَ ، فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأْتَهُ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بُنَيَّ ، حُبًّا وَكَرَامَةً ... لَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ غِنَىٰ أَلْفَاظِهَا وَوَفْرَةَ مَادَّتِهَا عَلَىٰ وَجْهٍ لَمْ يَتَوَافَرْ لِأَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ الْيَوْمَ .

◆ عَفْوَكَ ، أَتُرِيدُ بِوَفْرَةِ مَادَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَثْرَةَ الْأَلْفَاظِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْمَعْنَىٰ الْوَاحِدِ ؟ .

◇ أُرِيدُ كَثْرَةَ أَلْفَاظِهَا بِصُورَةٍ عَامَّةٍ ، وَكَثْرَةَ الْأَلْفَاظِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْمَعْنَىٰ الْوَاحِدِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ .

◆ وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ أَرَدْتُ أَنْ أَتَسَاءَلَ عَنْ فَائِدَةِ هَذِهِ الْكَثْرَةِ الْكَبِيرَةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، إِنَّ بَعْضَهُمْ يَجِدُ فِيهَا تَكْرَارًا لَا دَاعِيَ لَهُ ، وَعِبْئًا يُثْقِلُ كَاهِلَ الْمُتَعَلِّمِينَ .

◇ إِذَا كَانَتِ الْفَاقَةُ خَيْرًا مِنَ الْغِنَىٰ ، وَالضِّيقُ خَيْرًا مِنَ السَّعَةِ ؛ تَكُونُ وَفْرَةُ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَمْرًا مُسْتَكْرَهًا وَعِبْئًا مُسْتَثْقَلًا .

إِنَّ غِنَىٰ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - يَا بُنَيَّ - وَسَعَةَ مُعْجَمِهَا ؛ هُمَا اللَّذَانِ أَتَاحَا لِلْأَفْذَاذِ مِنْ شُعَرَائِنَا وَالْمُبْدِعِينَ مِنْ كُتَّابِنَا أَنْ يَتَخَيَّرُوا مِنْ هَذِهِ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ مَا يُعَبِّرُونَ بِهِ عَنْ أَغْرَاضِهِمْ ؛ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ وَأَعْذَبِ بَيَانٍ ... إِنَّ الْأَدِيبَ مِنْ أُدَبَائِنَا يَا بُنَيَّ ، يُشْبِهُ صَانِعَ الْحُلِيِّ ؛ فَهُوَ يَضَعُ هَذِهِ الْكُنُوزَ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَلْفَاظِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ يَخْتَارُ لِحِلْيَتِهِ مِنْ مَكْنُونَاتِهَا مَا يُلَائِمُهَا حَجْمًا ، وَشَكْلًا ، وَلَوْنًا ، وَبَرِيقًا ، وَإِشْعَاعًا .

◆ إِنَّهُ لَتَشْبِيهٌ رَائِعٌ يَا أَبَتِ .

◇ لَوْلَا غِنَىٰ أَلْفَاظِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَتَنَوُّعُهَا لَمَا تَيَسَّرَ لِأَحَدٍ مِنَّا التَّشْبِيهُ الرَّائِعُ، وَلَا التَّعْبِيرُ الدَّقِيقُ، وَلَا الْأُسْلُوبُ الْمُشْرِقُ الْأَنِيقُ.
بَلْ إِنَّ وَفْرَةَ الْأَلْفَاظِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْمَعْنَىٰ الْوَاحِدِ قَدْ يَسَّرَتْ لِخُطَبَائِنَا الْمُفَوَّهِينَ وَمُحَدِّثِينَا الْبَارِعِينَ أَنْ يُكَرِّرُوا الْمَعْنَىٰ الْوَاحِدَ فِي صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْقَوْلِ، فَيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ وَأَقْوَىٰ فِي الْأَدَاءِ.

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا؟.

◇ الْأَمْثِلَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ - يَا بُنَيَّ -؛ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَشَمَائِلِ أَصْحَابِهَا؛ فَقَالَ:
مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَوَادًا فَهْوَ دَخِيلٌ...
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي الزُّبَيْرِ شُجَاعًا فَهْوَ لَزِيقٌ...
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِ الْمُغِيرَةِ تَيَّاهًا فَهْوَ سَنِيدٌ.

◆ وَمَا مَعْنَىٰ سَنِيدٌ؟.

◇ إِنَّ كُلًّا مِنْ دَخِيلٍ، وَلَزِيقٍ، وَسَنِيدٍ بِمَعْنَىٰ دَعِيٍّ.

◆ وَمَا الدَّعِيُّ طَالَ بَقَاؤُكَ؟.

◇ الدَّعِيُّ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، وَيَلْتَصِقُ بِغَيْرِ ذَوِيهِ.

◆ هَذِهِ أَلْفَاظٌ أَرْبَعَةٌ لِمَعْنَىٰ وَاحِدٍ.

◇ بَلْ إِنَّ لِهَذَا الْمَعْنَىٰ أَكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ أَلْفَاظٍ أُخْرَىٰ، وَلَوْلَا هَذِهِ الثَّرْوَةُ الْفَرِيدَةُ الَّتِي تَمْلِكُهَا لُغَتُنَا لَمَا خَلَصَ كَلَامُ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ التَّكْرَارِ،

وَلَمَا ارْتَفَعَ إِلَىٰ هَذَا الْمُسْتَوَىٰ مِنَ الْبَيَانِ وَالْحُسْنِ .

◆ أَمَا مِنْ مِثَالٍ آخَرَ ؟ .

◇ الأَمْثِلَةُ عَلَىٰ هَذَا يَا بُنَيَّ ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ ، وَأَوْفَرُ مِنْ أَنْ تُسْتَقْصَىٰ ، وَقِصَّةُ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ مِنْ أَبْلَغِ مَا يُرْوَىٰ فِي هَذَا الصَّدَدِ .

◆ وَمَا قِصَّتُهُ ؟ .

◇ كَانَ وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ - يَا بُنَيَّ - أَلْثَغَ فِي الرَّاءِ ، وَكَانَ خَطِيبًا جَدِلًا[1] يَتَصَدَّىٰ لِمَجَالِسِ الْمُنَاظَرَةِ وَالْعِلْمِ ، وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ أَسْقَطَ الرَّاءَ مِنْ كَلَامِهِ ؛ فَلَمْ يَذْكُرْ كَلِمَةً فِيهَا رَاءٌ فِي خُطْبَةٍ أَوْ مَجْلِسٍ أَوْ مَقَالَةٍ .

◆ أَسْقَطَ الرَّاءَ مِنْ كَلَامِهِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَمَا سُمِعَ عَنْهُ أَنَّهُ أَوْرَدَ كَلِمَةً فِيهَا رَاءٌ .

◆ وَكَيْفَ تَمَّ لَهُ ذَلِكَ مَعَ كَثْرَةِ تَرَدُّدِ حَرْفِ الرَّاءِ فِي الْكَلَامِ ؟! .

◇ كَانَ يَسْتَبْعِدُ كُلَّ لَفْظَةٍ فِيهَا رَاءٌ ، وَيَسْتَعْمِلُ مَكَانَهَا أُخْرَىٰ مِمَّا لَا رَاءَ فِيهِ .

◆ إِنَّ وَاصِلًا هَذَا أُعْجُوبَةٌ مِنْ أَعَاجِيبِ الدُّنْيَا .

◇ بَلْ إِنَّ اللُّغَةَ الَّتِي أَتَاحَتْ لَهُ ذَلِكَ هِيَ أُعْجُوبَةٌ مِنْ أَعَاجِيبِ اللُّغَاتِ .

◆ وَهَلْ يَرْوِي الرُّوَاةُ شَيْئًا مِنْ أَقْوَالِهِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ بَشَّارَ بْنَ بُرْدٍ هَجَا وَاصِلًا هِجَاءً لَاذِعًا مُرًّا ؛

---

(١) جَدِلًا : مُتقنًا للجدل والحوار والمناظرة .

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ وَاصِلٍ ، وَقَالَ :

« أَمَا لِهَٰذَا الأَعْمَىٰ الْمُلْحِدِ الْمُشَنَّفِ[1] الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي مُعَاذٍ مَنْ يَقْتُلُهُ !! وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الْغِيلَةَ[2] مِنْ سَجَايَا الْغَالِيَةِ ؛ لَبَعَثْتُ إِلَيْهِ مَنْ يَبْعَجُ بَطْنَهُ فِي جَوْفِ مَنْزِلِهِ » .

◆ هَٰذَا الْكَلَامُ كُلُّهُ لَا رَاءَ فِيهِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُ لَا رَاءَ فِي هَٰذَا الْكَلَامِ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهِ تُرَادِفُهَا لَفْظَةٌ أُخْرَىٰ فِيهَا رَاءٌ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ قَالَ : الأَعْمَىٰ وَلَمْ يَقُلِ الضَّرِيرُ ، وَقَالَ : الْمُلْحِدُ وَلَمْ يَقُلِ الْكَافِرُ ، وَقَالَ : الْمُشَنَّفُ وَلَمْ يَقُلِ الْمُرَعَّثُ ، وَقَالَ : الْمُكَنَّىٰ بِأَبِي مُعَاذٍ وَلَمْ يَقُلْ : بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ ، وَقَالَ : الْغَالِيَةُ وَلَمْ يَقُلِ : الرَّافِضَةُ ، وَقَالَ : لَبَعَثْتُ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَقُلْ لأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ ، وَقَالَ يَبْعَجُ بَطْنَهُ ، وَلَمْ يَقُلْ : يَبْقُرُ بَطْنَهُ ، وَقَالَ : فِي جَوْفِ مَنْزِلِهِ ، وَلَمْ يَقُلْ فِي عُقْرِ دَارِهِ .

◆ خَبَرٌ طَرِيفٌ حَقًّا .

◇ وَلَٰكِنَّ طَرَافَتَهُ تُشِيرُ إِلَىٰ ظَاهِرَةٍ لُغَوِيَّةٍ كُبْرَىٰ ... تُشِيرُ إِلَىٰ سَعَةِ لُغَةِ الْعَرَبِ وَثَرَاءِ مُعْجَمِهَا ، وَهَٰذِهِ الثَّرْوَةُ الْفَرِيدَةُ يَا بُنَيَّ ، هِيَ الَّتِي أَتَاحَتْ لِلشَّاعِرِ أَنْ يَخْتَارَ مِنْهَا مَا يُلَائِمُ أَوْزَانَهُ وَقَوَافِيَهُ ، وَمَكَّنَتْ لِلنَّاثِرِ أَنْ يَصْطَفِيَ مِنْ كُنُوزِهَا مَا يُوَائِمُ أَسْجَاعَهُ وَمَعَانِيَهُ ، وَيَسَّرَتْ لِلْعَالِمِ أَنْ يَنْتَقِيَ مِنْ مَكْنُونَاتِهَا مَا يُؤَدِّي بِهِ مُصْطَلَحَاتِهِ الْعِلْمِيَّةَ .

---

(١) المشنف : هو المرعث وهو من يعلق في أذنيه رعثًا أو شنافًا وهو القرط .

(٢) الغيلة : الاغتيال أي القتل .

◆ أَبَتِ ، أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَمْ إِنَّ لَهَا خَصَائِصَ أُخْرَىٰ ؟ .

◇ لَيْسَتْ هَذِهِ كُلَّ خَصَائِصِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَا جُلَّهَا ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ خَصَائِصُ أُخْرَىٰ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا أَوْرَدْنَاهُ ، وَلَوْلَا خَشْيَةُ الْإِطَالَةِ وَضِيقُ الْمَقَامِ لَوَقَفْتُكَ عَلَىٰ طَرَفٍ مِنْهَا .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَيَكْثُرُ فِيهَا اللَّحْنُ ؛ فَتُسْتَعْمَلُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » .

◇ نَعَمْ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ وَقَعَ مِنْكَ مَوْقِعًا حَسَنًا .

◆ مَوْقِعًا حَسَنًا فَحَسْبُ !! إِنَّ هَذِهِ التَّصْوِيبَاتِ تَقَعُ مِنْ نَفْسِي مَوْقِعَ الْغَيْثِ مِنَ التُّرْبَةِ الْعَطْشَىٰ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ أَنْتَ وَإِخْوَتَكَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

◆ وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ ؟ ... أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا

لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟.

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي ذَلِكَ الْبَابِ شَيْءٌ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ.

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ بِهِ مَشْكُورًا غَيْرَ مَأْمُورٍ.

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ يُكْثِرُونَ مِنَ اللَّحْنِ فِيهِ ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلَهُمْ : دَانَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا بَاعَهُ بِدَيْنٍ وَهُوَ خَطَأٌ ، وَصَوَابُهُ : أَدَانَ فُلَانٌ فُلَانًا.

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « دَانَ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي اللُّغَةِ ؟!.

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ يَا بُنَيَّ.

◆ وَمَا مَعْنَاهَا ؟.

◇ تَقُولُ : دَانَ فُلَانٌ فُلَانًا بِمَا فَعَلَ إِذَا جَازَاهُ.

◆ طَيِّبٌ.

◇ وَتَقُولُ أَيْضًا : دَانَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ إِذَا كَانَ فِي طَاعَتِهِ.

◆ إِذَنْ يُقَالُ : أَدَانَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا بَاعَهُ بِدَيْنٍ ، وَدَانَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا جَازَاهُ.

◇ حَسَنٌ.

◆ وَدَانَ فُلَانٌ لِفُلَانٍ إِذَا دَخَلَ فِي طَاعَتِهِ.

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ... وَمِنْ عَكْسِ هَذَا قَوْلُهُمْ : أَرْجَعْتُ فُلَانًا إِلَىٰ مَكَانِهِ بِمَعْنَىٰ أَعَدْتُهُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ خَطَأٌ ، وَصَوَابُهُ : رَجَعْتُ فُلَانًا إِلَىٰ مَكَانِهِ.

◆ لَعَلَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ : ﴿ **فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ** ﴾[1].

◇ لَا زِلْتَ مُوَفَّقًا إِلَىٰ الصَّوَابِ ، نَعَمْ إِنَّهُ مِنْهُ .

◆ أَبَتِ ، أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ؟ .

◇ لَقَدْ بَقِيَتْ فِيهِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ يَا بُنَيَّ ، وَلَوْلَا ضِيقُ الْوَقْتِ لَزِدْتُكَ مِنْهَا .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنِّي لَفِي شَوْقٍ إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ ؛ فَمَا الَّذِي ادَّخَرْتَهُ لَنَا الْيَوْمَ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ مِنْ شِعْرِ « الصِّمَّةِ الْقُشَيْرِيِّ » .

◆ الصِّمَّةُ !! أَهَذَا اسْمُهُ أَمْ هُوَ لَقَبٌ أُطْلِقَ عَلَيْهِ ؟ .

◇ بَلْ هُوَ اسْمُهُ ، يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا مَعْنَىٰ الصِّمَّةِ ؟ .

◇ الصِّمَّةُ - يَا بُنَيَّ - الرَّجُلُ الشُّجَاعُ ، وَالْأَسَدُ أَيْضًا .

◆ أَجَاهِلِيٌّ شَاعِرُنَا هَذَا أَمْ إِسْلَامِيٌّ ؟ .

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٣.

◇ بَلْ هُوَ إِسْلَامِيٌّ مِنْ شُعَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ .

◆ وَأَيْنَ نَشَأَ الصِّمَّةُ يَا أَبَتِ ؟ .

◇ وُلِدَ الصِّمَّةُ وَنَشَأَ فِي بَوَادِي نَجْدٍ ، وَهُوَ شَاعِرٌ مُقِلٌّ ، وَلَكِنَّهُ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ قِلَّةِ شِعْرِهِ يُزَاحِمُ كِبَارَ الشُّعَرَاءِ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ ؛ فَلَا يَكَادُ يَخْلُو كِتَابٌ قَدِيمٌ مِنِ اسْمِهِ .

◆ وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ رَائِعَةٌ حَفِظَهَا لَهُ تَارِيخُ الْأَدَبِ ، وَأُعْجِبَ بِهَا النُّقَّادُ ، وَتَنَافَسَ الرُّوَاةُ فِيهَا ؛ فَتَنَاقَلُوهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ .

◆ وَمَا قَصِيدَتُهُ هَذِهِ الَّتِي تَنَافَسَ فِيهَا الرُّوَاةُ ؟ .

◇ إِنَّ لِقَصِيدَتِهِ قِصَّةً يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهَا .

◆ وَمَا قِصَّتُهَا طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ كَانَ مِنْ خَبَرِ الصِّمَّةِ - يَا بُنَيَّ - أَنَّهُ تَقَدَّمَ إِلَىٰ عَمِّهِ يَخْطُبُ مِنْهُ ابْنَتَهُ « رَيَّا » ؛ فَاشْتَطَّ[1] عَلَيْهِ أَبُوهَا فِي الْمَهْرِ ، وَغَالَىٰ فِي الطَّلَبِ ؛ فَسَأَلَ الصِّمَّةُ أَبَاهُ أَنْ يُعِينَهُ ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِ الْعَوْنَ ، عِنْدَ ذَلِكَ اتَّجَهَ الشَّاعِرُ إِلَىٰ عَشِيرَتِهِ ؛ فَسَأَلَهَا أَنْ تُعِينَهُ ؛ فَأَعْطَتْهُ مَا طَلَبَهُ عَمُّهُ مِنَ الْإِبِلِ صَدَاقًا لِابْنَتِهِ ؛ فَأَتَىٰ عَمَّهُ بِالْإِبِلِ ؛ فَقَالَ عَمُّهُ :

لَا أَقْبَلُهَا إِلَّا مِنْ مَالِ أَبِيكَ .

◆ وَلِمَاذَا ؟ .

---

(١) فاشتط عليه في المهر : اشترط عليه شروطًا قاسية ، وطلب مهرًا عاليًا .

◇ لَا لِشَيْءٍ ، إِنَّهَا بَقِيَّةٌ مِنْ جَاهِلِيَّةٍ .

◆ ثُمَّ مَاذَا ؟ .

◇ ثُمَّ عَاوَدَ الشَّاعِرُ أَبَاهُ ، فَمَنَعَهُ وَلَمْ يُعْطِهِ ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَبِيهِ وَعَمِّهِ ؛ قَطَعَ عُقُلَ[1] الْإِبِلِ ، وَأَطْلَقَهَا فِي الْفَلَاةِ ؛ فَعَادَ كُلُّ بَعِيرٍ إِلَىٰ أَهْلِهِ .

◆ وَهُوَ !! .

◇ أَمَّا هُوَ ، فَامْتَطَىٰ بَعِيرَهُ ، وَتَحَمَّلَ رَاحِلًا[2] حَتَّىٰ لَحِقَ بِبِلَادِ الشَّامِ ؛ فَقَالَتْ بِنْتُ عَمِّهِ « رَيَّا » لَمَّا رَأَتْهُ رَاحِلًا : تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَتًى بَاعَهُ أَبُوهُ وَعَمُّهُ بِأَبْعِرَةٍ .

◆ ثُمَّ مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ؟! .

◇ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ - يَا بُنَيَّ - أَنَّهُ أَقَامَ بِالشَّامِ ، وَكَانَ كُلَّمَا طَالَ بِهِ الْمُقَامُ اشْتَدَّ بِهِ الْحَنِينُ ، وَاسْتَبَدَّ بِهِ النَّدَمُ عَلَىٰ مَا فَعَلَ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ ثَمَرَةِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ قَصِيدَتُهُ الَّتِي حَفِظَهَا الرُّوَاةُ ، وَتَنَاقَلَتْهَا كُتُبُ الْأَدَبِ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ يَقُولُ مُخَاطِبًا نَفْسَهُ :

حَنَنْتَ إِلَىٰ رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ
مَزَارَكَ مِنْ « رَيَّا » وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعًا
وَتَجْزَعَ إِنْ دَاعِي الصَّبَابَةِ[3] أَسْمَعَا

(١) عُقُل الإبل : ما يقيد به البعير ومفردها عقال .
(٢) تَحَمّل راحلًا : مبتعدًا عن دياره . (٣) الصبابة : الهوىٰ والمحبة .

بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُسْرَىٰ فَلَمَّا زَجَرْتُهَا

عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا[1] مَعَا

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحِمَىٰ ثُمَّ أَنْثَنِي

عَلَىٰ كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَىٰ بِرَوَاجِعٍ

عَلَيْكَ ، وَلَكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

أَلَا يَا خَلِيلَيَّ اللَّذَيْنِ تَوَاصَيَا

بِلَوْمِيَ إِلَّا أَنْ أُطِيعَ وَأَتْبَعَا

قِفَا وَدِّعَا نَجْدًا وَمَنْ كُلَّ بِالْحِمَىٰ

وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوَدَّعَا

فَإِنِّي وَجَدْتُ اللَّوْمَ لَا يُذْهِبُ الْهَوَىٰ

وَلَكِنْ وَجَدْتُ الْيَأْسَ أَجْدَىٰ وَأَنْفَعَا

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْعَامِرِيَّةِ قَبْلَهَا

وَلَا مِثْلَهَا يَوْمَ ارْتَحَلْنَا مُوَدِّعَا

شَكَوْتُ إِلَيْهَا مَا أُلَاقِي مِنَ الْجَوَىٰ[2]

وَخَشْيَةَ شَعْبِ الْحَيِّ أَنْ يَتَصَدَّعَا

فَمَا كَلَّمَتْنَا غَيْرَ رَجْعٍ[3] وَإِنَّمَا

تَرَقْرَقَتِ الْعَيْنَانِ مِنْهَا لِتَدْمَعَا

---

(١) أسبلتا : سكبتا الدمع .

(٢) الجوىٰ : لذعة الحب والهيام .

(٣) الرجع : صدىٰ الصوت .

كَأَنَّكَ بِدْعٌ لَمْ تَرَ الْبَيْنَ قَبْلَهَا

وَلَمْ تَكُ بِالأُلَّافِ قَبْلُ مُفَجَّعَا

فَلَيْتَ جِمَالَ الْحَيِّ يَوْمَ تَرَحَّلُوا

بِذِي سَلَمٍ أَمْسَتْ مَزَاحِيفَ ظُلَّعَا[1]

فَيُصْبِحْنَ لَا يُحْسِنَّ مَشْيًا بِرَاكِبٍ

وَلَا السَّيْرَ فِي نَجْدٍ وَإِنْ كَانَ مَهْيَعَا[2]

أَتَجْزَعُ وَالْحَيَّانِ لَمْ يَتَفَرَّقَا

فَكَيْفَ إِذَا دَاعِي التَّفَرُّقِ أَسْمَعَا

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي

وَجِعْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لِيتًا وَأَخْدَعَا[3]

* * *

◆ أَبَتِ، يَكْثُرُ فِي الشِّعْرِ تَسْكِينُ الْهَاءِ مِنْ هُوَ، وَهِيَ... أَفَهَذَا خَاصٌّ بِالشِّعْرِ أَمْ هُوَ عَامٌّ يَقَعُ فِي الشِّعْرِ وَغَيْرِهِ؟.

◇ بَلْ هُوَ عَامٌّ يَا بُنَيَّ يَكُونُ فِي النَّثْرِ كَمَا يَكُونُ فِي الشِّعْرِ.

◆ وَهَلْ وَضَعَ الْعَرَبُ لَهُ ضَوَابِطَ وَقَوَاعِدَ، أَوْ إِنَّهُمْ أَطْلَقُوهُ؟.

◇ بَلْ وَضَعُوا لَهُ ضَوَابِطَ وَسَنُّوا لَهُ قَوَاعِدَ.

◆ وَمَاذَا قَالُوا فِي ذَلِكَ طَالَ عُمْرُكَ؟.

---

(١) مزاحيف ظلعا: كسيحة تزحف علىٰ الأرض، والظلع: مرض في خف البعير.
(٢) المهيع: البَيِّنُ مِنَ الطُّرُقِ.
(٣) الليت: صفحة العنق، والأخدع: عرق في جانب العنق.

◇ قَالُوا : يَجُوزُ تَسْكِينُ « الْهَاءِ » مِنْ هُوَ وَهِيَ ؛ إِذَا وَقَعَتْ بَعْدَ « الْوَاوِ » ، وَ« الْفَاءِ » .

◆ إِذَا وَقَعَتْ بَعْدَ « الْوَاوِ » ، وَ« الْفَاءِ » ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[1]. وَقَوْلُهُ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَّبِّهِ﴾[2].

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَنْ تَتَمَهَّلَ لِأَتَمَكَّنَ مِنْ تَقْيِيدِ تِلْكَ الشَّوَارِدِ مِنَ الْقَوَاعِدِ .

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ ، وَأَجَازُوا أَيْضًا تَسْكِينَ « الْهَاءِ » مِنْ هُوَ وَهِيَ ؛ إِذَا جَاءَتْ بَعْدَ « اللَّامِ » الْوَاقِعَةِ فِي خَبَرِ إِنَّ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[3] بِتَسْكِينِ الْهَاءِ .

◆ أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ الْأَمَاكِنِ الَّتِي يَجُوزُ فِيهَا تَسْكِينُ « هَاءِ » هُوَ وَهِيَ ، أَمْ إِنَّ هُنَاكَ أَمَاكِنَ أُخْرَىٰ ؟ .

◇ بَلْ هُنَاكَ مَكَانٌ آخَرُ لَكِنَّهُ سُمِعَ قَلِيلًا عَنِ الْعَرَبِ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ لَقَدْ وَرَدَ تَسْكِينُ « هَاءِ » كُلٍّ مِنْ هُوَ وَهِيَ قَلِيلًا ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

---

(١) سورة البروج الآية ١٤. (٢) سورة الزمر الآية ٢٢. (٣) سورة آل عمران الآية ٦٢.

◇ مِنْ مِثْلِ قَوْلِنَا : *أَهُوَ* الَّذِي فَعَلَ هَذَا ؟ ، *أَهِيَ* الَّتِي قَدِمَتْ ؟ .

◆ وَلَكِنَّهَا تَبْدُو فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَقِيلَةً عَلَىٰ اللِّسَانِ .

◇ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يُسِغْهَا الْعَرَبُ ، وَلَمْ تَرِدْ عَنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ قَدْ أَطْرَفْتَنِي فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَجْوِبَةِ الْمُسْكِتَةِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَكَاءِ الْقَلْبِ وَحُضُورِ الْبَدِيهَةِ ؛ أَفَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ؟ .

◇ لَقَدْ حَفِلَتْ كُتُبُ الْأَدَبِ وَالنَّوَادِرِ وَالْأَخْبَارِ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْأَجْوِبَةِ الْمُسْكِتَةِ ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ « الْجَعْدَ » وَكَانَ مَشْهُورًا بِالزَّنْدَقَةِ[1] وَضَعَ تُرَابًا وَمَاءً فِي قَارُورَةٍ مُدَّةً ؛ فَاسْتَحَالَ دُودًا وَهَوَامَّ[2]... فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :
إِنِّي خَلَقْتُ ذَلِكَ لِأَنِّي كُنْتُ سَبَبًا فِي تَكْوِينِهِ .
فَبَلَغَ ذَلِكَ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ آلِ الْبَيْتِ ؛ فَقَالَ :
لِيَقُلِ الْجَعْدُ ـ إِنْ كَانَ خَلَقَ تِلْكَ الدُّودَاتِ ـ كَمْ عَدَدُهَا ؟ وَكَمِ الذُّكْرَانُ مِنْهَا ؟ وَكَمِ الْإِنَاثُ ؟ وَكَمْ وَزْنُ كُلٍّ مِنْهَا ؟ .
وَلْيَأْمُرِ الَّتِي تَسْعَىٰ إِلَىٰ هَذِهِ الْجِهَةِ أَنْ تَرْجِعَ إِلَىٰ غَيْرِهَا .
وَلَمَّا بَلَغَ الْجَعْدَ هَذَا الْكَلَامُ بُهِتَ[3] ، وَخَسِئَ ، وَخَجِلَ .

* * *

---

(١) الزندقة : الإلحاد والشك في وجود إله خلق العالم .
(٢) الهوام : الحشرات كالذباب وغيره .
(٣) بُهت الرجل : أُخذ بالحجة فشحب لونه .

خَاصِيَةُ الِاشْتِقَاقِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - دَامَ عِزُّكَ - تَكَلَّمْتَ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللَّفْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَقُلْتَ : إِنَّهَا تَتَجَلَّىٰ فِي ذَلِكَ الِانْسِجَامِ الصَّوْتِيِّ بَيْنَ حُرُوفِهَا ، وَالتَّآلُفِ الْمُوسِيقِيِّ فِي بِنَائِهَا .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ كَمَا تَتَجَلَّىٰ فِي اشْتِمَالِ كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا عَلَىٰ دَلَالَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا وَضْعِيَّةٌ لُغَوِيَّةٌ تَكْشِفُ عَنْهَا الْمُعْجَمَاتُ ، وَالْأُخْرَىٰ مُوسِيقِيَّةٌ يُشِعُّهَا اللَّفْظُ نَفْسُهُ ، وَيُوحِي بِهَا جَرْسُهُ الْمُوسِيقِيُّ .

◇ زَادَكَ اللَّهُ فَهْمًا .

◆ ثُمَّ قُلْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - : إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ غِنَىٰ أَلْفَاظِهَا ، وَوَفْرَةُ مَادَّتِهَا ؛ مِمَّا أَتَاحَ لِلْأَفْذَاذِ مِنْ أُدَبَائِنَا وَالْعَبَاقِرَةِ مِنْ عُلَمَائِنَا أَنْ يُعَبِّرُوا عَنْ

أَغْرَاضِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ وَأَعْذَبِ بَيَانٍ .

◇ نَعَمْ ، وَأَلْفُ نَعَمْ .

◆ ثُمَّ عَاجَلَكَ الْوَقْتُ عَنِ اسْتِكْمَالِ حَدِيثِكَ ؛ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأْتَهُ ؟ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً - يَا بُنَيَّ - حُبًّا وَكَرَامَةً .
إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَا بُنَيَّ ، أَنَّهَا لُغَةٌ قَامَتْ عَلَىٰ الِاشْتِقَاقِ الَّذِي أَغْنَىٰ مَادَّتَهَا ، وَضَبَطَ نِظَامَهَا ، وَيَسَّرَ الْقِيَاسَ فِي أَحْكَامِهَا ، وَجَعَلَهَا لُغَةً وَلُودًا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

◆ الِاشْتِقَاقُ !! وَمَا الْمُرَادُ بِالِاشْتِقَاقِ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ الْمُرَادُ بِالِاشْتِقَاقِ - يَا بُنَيَّ - أَنَّ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَمَّعُ فِي طَوَائِفَ ، وَلِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ أُسْرَةٌ تَنْتَمِي إِلَيْهَا ، وَحُرُوفٌ مُشْتَرَكَةٌ تَتَوَافَرُ فِي جَمِيعِ أَفْرَادِهَا ، وَمَعْنًى عَامٌّ مُشْتَرَكٌ تَلْتَقِي عِنْدَهُ ، ثُمَّ تَنْفَرِدُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ الْأُسْرَةِ بِصِيغَةٍ خَاصَّةٍ تُمَيِّزُهَا مِنْ أَخَوَاتِهَا ، وَبِمَعْنًى خَاصٍّ نَاشِئٍ عَنْ صِيغَتِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، فَأَنَا لَمْ أَسْتَوْعِبْ مَعْنَىٰ الِاشْتِقَاقِ اسْتِيعَابًا يُرْكَنُ إِلَيْهِ .

◇ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ، لَا بَأْسَ ، أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ : إِنَّ الْكَلِمَاتِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا تَعِيشُ فُرَادَىٰ مُنْعَزِلَاتٍ ، وَإِنَّمَا تَعِيشُ فِي قَبَائِلَ وَأُسَرٍ .

◆ أَيْ كَمَا كَانَ يَعِيشُ الْعَرَبُ أَصْحَابُ هَذِهِ اللُّغَةِ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، ذَلِكَ كَذَلِكَ ... فَكَمَا كَانَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْقَبِيلَةِ الْعَرَبِيَّةِ رَوَابِطُ نَسَبٍ مُشْتَرَكَةٍ ؛ فَإِنَّ بَيْنَ أَفْرَادِ لُغَتِهِمْ مِنَ الِاشْتِرَاكِ وَالتَّرَابُطِ مِثْلَ مَا بَيْنَ

أَفْرَادِ قَبَائِلِهِمْ .

◆ أَخَذَ يَتَّضِحُ لِي مَعْنَىٰ الِاشْتِقَاقِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَالْمِثَالُ يَزِيدُهُ وُضُوحًا .

◇ إِلَيْكَ الْمِثَالَ يَا بُنَيَّ ... خُذْ مَادَّةَ « كَتَبَ » وَاسْتَقْصِ مَا اشْتُقَّ مِنْهَا ، وَمَا وَلَدَتْهُ مِنْ أَلْفَاظٍ تَجِدْ كُلًّا مِنْ : كَتَبَ ، وَيَكْتُبُ ، وَاكْتُبْ ، وَكِتَابَةٌ ، وَكَاتِبٌ ، وَمَكْتُوبٌ ، وَمَكْتَبٌ ، وَكِتَابٌ ، وَمَكْتَبَةٌ ، وَكُتَّابٌ ، ثُمَّ تَجِدِ الْفِعْلَيْنِ كَاتَبَ وَاسْتَكْتَبَ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهُمَا ... تَأَمَّلْ أَفْرَادَ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْكَبِيرَةِ يَا بُنَيَّ ، ثُمَّ قُلْ لِي : مَا السِّمَاتُ الْمَادِّيَّةُ وَالصِّفَاتُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ أَفْرَادِهَا ؟ .

◆ إِنَّ مَنْ يَتَأَمَّلْ هَذِهِ الطَّائِفَةَ الْكَبِيرَةَ مِنَ الْأَلْفَاظِ ؛ يَجِدْهَا قَدِ اشْتَرَكَتْ جَمِيعُهَا فِي حُرُوفٍ ثَلَاثَةٍ هِيَ : الْكَافُ ، وَالتَّاءُ ، وَالْبَاءُ .

◇ وَأَيْضًا .

◆ وَيَجِدْهَا قَدِ اشْتَرَكَتْ أَيْضًا فِي الْمَعْنَىٰ الْعَامِّ لِلْكِتَابَةِ .

◇ ثُمَّ يَجِدْ أَنَّ كُلًّا مِنْهَا قَدِ انْفَرَدَتْ عَنْ أَخَوَاتِهَا بِمَعْنًى مُسْتَقِلٍّ نَاشِئٍ عَنْ صِيغَتِهَا ، فَصِيغَةُ « كَاتِبٌ » تَدُلُّ عَلَىٰ مَنْ يَقُومُ بِالْكِتَابَةِ ، بَيْنَمَا تَدُلُّ صِيغَةُ « مَكْتُوبٌ » عَلَىٰ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْكِتَابَةُ ، وَهَكَذَا ...

◆ وَنُلَاحِظُ أَمْرًا آخَرَ .

◇ وَمَا هُوَ ؟ .

◆ نُلَاحِظُ أَنَّ الْحُرُوفَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي اشْتَرَكَتْ فِيهَا هَذِهِ الْأَلْفَاظُ قَدْ جَاءَتْ مُرَتَّبَةً فِيهَا جَمِيعًا ؛ فَالْكَافُ أَوَّلًا ثُمَّ التَّاءُ ثُمَّ الْبَاءُ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَمِنْ هُنَا قَالُوا : إِنَّ الِاشْتِقَاقَ هُوَ تَوْلِيدُ

الْأَلْفَاظِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ بِشُرُوطٍ ثَلَاثَةٍ .

◆ وَمَا هِيَ ؟ .

◇ أَوَّلُهَا : الِاشْتِرَاكُ فِي ثَلَاثَةِ حُرُوفٍ ، وَثَانِيهَا : أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحُرُوفُ الثَّلَاثَةُ مُرَتَّبَةً فِي جَمِيعِ الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَقَّةِ .

◆ وَثَالِثُهَا ؟ .

◇ وَثَالِثُهَا : أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَقَّةِ قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ مِنَ الْمَعْنَىٰ .

◆ وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟! .

◆ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عَمَّا إِنْ كَانَتْ مَزِيَّةُ الِاشْتِقَاقِ هَذِهِ خَاصَّةً بِلُغَتِنَا ، أَمْ هِيَ عَامَّةٌ فِي سَائِرِ اللُّغَاتِ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ خَاصَّةٌ مِنْ خَصَائِصِ لُغَةِ الْقُرْآنِ امْتَازَتْ بِهَا عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ .

◆ عَجِيبٌ !! .

◇ وَمَا وَجْهُ الْعَجَبِ يَا بُنَيَّ ؟! .

◆ وَجْهُ الْعَجَبِ هُوَ مَا يَقُولُهُ عُلَمَاءُ اللُّغَاتِ مِنْ أَنَّ لُغَاتِ الْأَرْضِ جَمِيعًا قَدْ نَشَأَتْ نَشْأَةً وَاحِدَةً ، وَتَكَوَّنَتْ وَفْقَ نَوَامِيسَ وَقَوَانِينَ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ تَأْتِي اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فَتَنْفَرِدُ بِخَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ ، وَتَمْتَازُ بِهَا عَلَىٰ جَمِيعِ اللُّغَاتِ !! .

◇ إِنَّكَ حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ إِنَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ مِنْ وَحْدَةِ مَنْشَإِ اللُّغَاتِ وَتَطَوُّرِهَا وَفْقَ نَوَامِيسَ ثَابِتَةٍ أَمْرٌ لَا مِرْيَةَ فِيهِ ... وَلَكِنَّ عُلَمَاءَ اللُّغَاتِ فَاتَهُمْ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لِسَبَبٍ خَاصٍّ قَدْ حَافَظَتْ عَلَىٰ أَلْفَاظِهَا مُحَافَظَةً لَا نَظِيرَ لَهَا فِي تَارِيخِ لُغَاتِ الْأَرْضِ ، لِذَا فَهِيَ تُنْطَقُ الْيَوْمَ كَمَا كَانَتْ تُنْطَقُ قَبْلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا ، بَيْنَمَا تَبَدَّلَتْ أَلْفَاظُ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ عَبْرَ الْقُرُونِ تَبَدُّلًا أَزَالَ مَعَالِمَهَا الْأَصْلِيَّةَ ، وَبَاعَدَ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ مُبَاعَدَةً كُبْرَىٰ مَحَتْ كُلَّ صِلَةٍ بَيْنَهَا .

◆ وَمَا السَّبَبُ الْخَاصُّ الَّذِي جَعَلَ لُغَتَنَا تُحَافِظُ عَلَىٰ أَصْوَاتِ أَلْفَاظِهَا ؛ بَيْنَمَا تَبَدَّلَتْ أَصْوَاتُ الْأَلْفَاظِ فِي لُغَاتِ الْأَرْضِ ؟ .

◇ لَا أَظُنُّكَ تَجْهَلُ السَّبَبَ يَا بُنَيَّ ... إِنَّهُ الْقُرْآنُ ، فَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْيَوْمَ بِاللَّفْظِ وَالصَّوْتِ ، وَالْفَصْلِ وَالْوَصْلِ ، وَالْوَقْفِ وَالْمَدِّ ؛ كَمَا كَانَ يُقْرَأُ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

◆ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

◇ نَقْرَؤُهُ دُونَ أَنْ نُخِلَّ بِلَفْظٍ أَوْ حَرْفٍ ، أَوْ هَمْسٍ ، أَوْ نَبْرَةٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ نَزَلَ ، وَسَيَبْقَىٰ كَذَلِكَ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .
وَمِنْ هُنَا بَقِيَتْ مُفْرَدَاتُ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُحْتَفِظَةً بِسِمَاتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَىٰ أَصْلِهَا ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ انْتِمَائِهَا ... بَيْنَمَا ابْتَعَدَتْ أَلْفَاظُ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ عَنْ أُصُولِهَا ؛ حَتَّىٰ غَلَبَتْ عَلَيْهَا الْفَرْدِيَّةُ ، وَحُرِمَتْ مِنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ .

◆ وَمَا مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ الَّذِي حَظِيَتْ بِهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ؟ .

◇ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ كَثِيرَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَوْلَا ضِيقُ الْوَقْتِ لَوَقَفْتُكَ عَلَىٰ طَرَفٍ مِنْهَا .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَيَكْثُرُ فِيهَا اللَّحْنُ ؛ فَتُسْتَعْمَلُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » .

◇ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ أَفَدْتَ مِنْهَا فِي تَقْوِيمِ لِسَانِكَ .

◆ كُلَّ الْفَائِدَةِ ، كُلَّ الْفَائِدَةِ .

◇ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ .

◆ وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ، أَمْ إِنَّكَ قَدْ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تُضِيفَهُ إِلَىٰ سَابِقِهِ .

◆ إِذَنْ هَاتِهِ مَشْكُورًا مَأْجُورًا .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ يُكْثِرُونَ اللَّحْنَ فِيهِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلَهُمْ : شَادَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ بِمَعْنَىٰ نَوَّهَ بِهِ ، وَأَعْلَىٰ ذِكْرَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَشَادَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « شَادَ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا هُوَ ؟ .

◇ تَقُولُ : شَادَ فُلَانٌ الْبِنَاءَ بِمَعْنَىٰ جَصَّصَهُ .

◆ وَمَا الْمُرَادُ بِتَجْصِيصِ الْبِنَاءِ ؟ .

◇ التَّجْصِيصُ يَا بُنَيَّ : طِلَاءُ الْبِنَاءِ بِالْجِصِّ .

◆ إِذَنْ يُقَالُ : أَشَادَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ إِذَا نَوَّهَ بِهِ .

◇ نَعَمْ .

◆ وَيُقَالُ : شَادَ فُلَانٌ الْبِنَاءَ بِمَعْنَىٰ طَلَاهُ بِالْجِصِّ .

◇ وَاسْتِعْمَالُ أَيَّةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الصِّيغَتَيْنِ فِي مَعْنَىٰ الْأُخْرَىٰ خَطَأٌ ، وَخُرُوجٌ عَلَىٰ كَلَامِ الْعَرَبِ .
وَمِنَ الْخَطَإِ أَيْضًا اسْتِعْمَالُ شَادَ بِمَعْنَىٰ « بَنَىٰ » فَكَثِيرًا مَا يَقُولُ الْكَاتِبُونَ : شَادَ فُلَانٌ الْبِنَاءَ بِمَعْنَىٰ بَنَاهُ وَأَعْلَاهُ ، وَهُوَ ـ كَمَا عَلِمْتَ ـ خَطَأٌ ؛ لِأَنَّ مَعْنَىٰ شَادَ الْبِنَاءَ طَلَاهُ بِالْجِصِّ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ كِفَاءَ مَا صَوَّبْتَ وَسَدَّدْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، إِنِّي لَفِي شَوْقٍ إِلَىٰ رَوْضَةِ الشِّعْرِ .

◇ مَا شَوْقُكَ إِلَيْهَا بِأَعْظَمَ مِنْ شَوْقِي .

◆ إِذَنْ هَيَّا بِنَا إِلَىٰ طِيبِ شَذَاهَا ، وَحُلْوِ جَنَاهَا .

◇ هَيَّا بِنَا .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ مَا هُوَ بِشَاعِرٍ وَاحِدٍ ، وَإِنَّمَا هُمْ شُعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ .

◆ صَيْدٌ ثَمِينٌ .

◇ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ .

◆ وَمَنْ هَؤُلَاءِ الشُّعَرَاءُ الثَّلَاثَةُ ؟ .

◇ هُمْ : زَيْدُ الْخَيْلِ ، وَحَاتَمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَأَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَالثَّلَاثَةُ مِنْ سَادَاتِ طَيِّئٍ .

◆ تُرِيدُ بِحَاتَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ : حَاتَمًا الطَّائِيَّ الْجَوَادَ الْمَعْرُوفَ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَأُرِيدُ بِزَيْدِ الْخَيْلِ ذَلِكَ الشَّاعِرَ الْمُخَضْرَمَ الَّذِي عُرِفَ بِوَصْفِ الْخَيْلِ ، وَالَّذِي دَعَاهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ...

◆ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

◇ دَعَاهُ بِزَيْدِ الْخَيْرِ[1] .

◆ وَمَا الْمَوْضُوعُ الَّذِي طَرَقَهُ هَؤُلَاءِ الْفُرْسَانُ الثَّلَاثَةُ ؟ .

◇ الْفَخْرُ .

◆ وَمَا الَّذِي قَالُوهُ ؟ .

---

(١) زيد الخير : انظره في كتاب « صور من حياة الصحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي .

◇ إِنَّ لِلَّذِي قَالُوهُ قِصَّةً .

◆ وَمَا هِيَ ؟ .

◇ كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِ مُلُوكِ الْيَمَنِ تُدْعَىٰ « مَاوِيَّةَ » ، وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَكَمَالٍ ، وَحَسَبٍ وَمَالٍ ، وَقَدْ آلَتْ عَلَىٰ نَفْسِهَا أَلَّا تَتَزَوَّجَ إِلَّا مِنْ كَرِيمٍ ، وَلَئِنْ خَطَبَهَا لَئِيمٌ ؛ لَتَجْدَعَنَّ أَنْفَهُ فَتَحَامَاهَا[1] النَّاسُ .

◆ ثُمَّ مَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا ؟ .

◇ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهَا أَنِ انْتَدَبَ لَهَا زَيْدُ الْخَيْلِ ، وَحَاتِمٌ الطَّائِيُّ ، وَأَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ وَهُمْ أَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَارْتَحَلُوا إِلَيْهَا مَعًا يَطْلُبُونَ يَدَهَا ؛ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهَا قَالَتْ : مَرْحَبًا بِكُمْ ... مَا الَّذِي جَاءَ بِكُمْ ؟ .

قَالُوا : جِئْنَا زُوَّارًا خُطَّابًا .

قَالَتْ : أَكْفَاءٌ كِرَامٌ .

ثُمَّ أَنْزَلَتْهُمْ فِي مَضَارِبِهَا[2]، وَفَرَّقَتْ بَيْنَهُمْ ، وَأَسْبَغَتْ لَهُمُ الْقِرَىٰ[3] وَزَادَتْ فِيهِ ... فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي بَعَثَتْ بَعْضَ جَوَارِيهَا مُتَنَكِّرَةً فِي زِيِّ سَائِلَةٍ تَتَعَرَّضُ لَهُمْ ؛ فَدَفَعَ إِلَيْهَا زَيْدٌ وَأَوْسٌ شِطْرَ مَا مَعَهُمَا ، فَلَمَّا صَارَتْ إِلَىٰ رَحْلِ حَاتِمٍ دَفَعَ إِلَيْهَا جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْ نَفَقَتِهِ ، وَحَمَّلَهَا جَمِيعَ مَا قُدِّمَ إِلَيْهِ مِنْ قِرًى وَإِكْرَامٍ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ دَخَلَ عَلَيْهَا السَّادَةُ الثَّلَاثَةُ ، فَقَالَتْ :

لِيَصِفْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ نَفْسَهُ فِي شِعْرٍ .

فَابْتَدَرَ زَيْدُ الْخَيْلِ ، وَقَالَ :

---

(١) فتحاماها الناس : تحاشوا القرب منها ، ورفضوا أن يخطبوها لأنفسهم .

(٢) مضاربها : مساكن قومها وخيامهم .

(٣) القِرىٰ : ما يقدم للضيف من طعام .

هَلَّا سَأَلْتِ بَنِي ذُبْيَانَ مَا حَسَبِي
عِنْدَ الطِّعَانِ إِذَا مَا احْمَرَّتِ الْحَدَقُ
وَجَاءَتِ الْخَيْلُ مُحْمَرًّا بَوَادِرُهَا[1]
بِالْمَاءِ يَسْفَحُ مِنْ لَبَّاتِهَا[2] الْعَرَقُ
وَالْجَارُ يَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ خَاذِلَهُ
إِنْ نَابَ دَهْرٌ لِعَظْمِ الْجَارِ مُعْتَرِقُ[3]
هَذَا الثَّنَاءُ فَإِنْ تَرْضَيْ فَرَاضِيَةٌ
أَوْ تَسْخَطِي ؛ فَإِلَىٰ مَنْ تُعْطَفُ الْعُنُقُ ؟

وَقَالَ أَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ :

إِنَّكَ تَعْلَمِينَ أَنَّا أَكْرَمُ أَحْسَابًا وَأَشْهَرُ أَفْعَالًا ، مِنْ أَنْ نَصِفَ أَنْفُسَنَا لَكِ ، وَأَنَا الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّاعِرُ :

إِلَىٰ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأْمٍ
لِيَقْضِيَ حَاجَتِي ، وَلَقَدْ قَضَاهَا
فَمَا وَطِئَ الْحَصَىٰ مِثْلُ ابْنِ سُعْدَىٰ
وَلَا لَبِسَ النِّعَالَ وَلَا احْتَذَاهَا

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

فَإِنْ تَنْكِحِي مَاوِيَّةَ الْخَيْرِ حَاتِمًا
فَمَا مِثْلُهُ فِينَا وَلَا فِي الْأَعَاجِمِ

---

(١) البوادر : ما بين المنكب والعنق .
(٢) لباتها : أعالي صدورها .
(٣) اعترق العظم : أي أكل ما عليه من لحم ولم يبق عليه شيئًا .

فَتًى لَا يَزَالُ الدَّهْرَ أَكْبَرَ هَمِّهِ

فِكَاكُ أَسِيرٍ أَوْ مَعُونَةُ غَارِمِ

وَإِنْ تَنْكِحِي زَيْدًا فَفَارِسُ قَوْمِهِ

إِذَا الْحَرْبُ يَوْمًا أَقْعَدَتْ كُلَّ قَائِمِ

وَإِنْ تَنْكِحِينِي تَنْكِحِي غَيْرَ فَاجِرٍ

وَلَا جَارِفٍ[1] جَرْفَ الْعَشِيرَةِ هَادِمِ

وَلَا مُتَّقٍ يَوْمًا إِذَا الْحَرْبُ شَمَّرَتْ

بِأَنْفُسِهَا نَفْسِي كَفِعْلِ الْأَشَائِمِ[2]

فَأَيَّ فَتًى أَهْدَىٰ لَكِ اللَّـهُ فَاقْبَلِي

فَإِنَّا كِرَامٌ مِنْ رُءُوسٍ أَكَارِمِ

ثُمَّ أَنْشَأَ حَاتِمٌ يَقُولُ:

أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ

وَيَبْقَىٰ مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

أَمَاوِيَّ إِنِّي لَا أَقُولُ لِسَائِلِي

إِذَا جَاءَ يَوْمًا: حَلَّ فِي مَالِيَ النَّذْرُ[3]

وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا

أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرُ

---

(١) جارف: هادم ما بنته العشيرة.

(٢) الأشائم: جمع أشأم، أي كثير الشؤم علىٰ نفسه وعلىٰ قومه.

(٣) النذر: ما يفرضه الإنسان علىٰ نفسه متطوعًا.

أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ مَالٌ بَذَلْتُهُ
فَأَوَّلُهُ شُكْرٌ، وَآخِرُهُ ذِكْرُ

وَمَا ضَرَّ جَارًا - يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ - فَاعْلَمِي
يُجَاوِرُنِي أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ سِتْرُ

بِعَيْنَيَّ عَنْ حَارَاتِ قَوْمِيَ غَفْلَةٌ
وَفِي السَّمْعِ مِنِّي عَنْ أَحَادِيثِهَا وَقْرُ

◆ وَمَنِ الْمَحْظُوظُ الَّذِي فَازَ بِهَا ؟.

◇ بَلْ هِيَ الْمَحْظُوظَةُ يَا بُنَيَّ ؛ فَقَدْ فَازَتْ بِحَاتِمِ الطَّائِيِّ ، فَذُكِرَتْ بِهِ ، وَلَوْلَاهُ لَطَوَاهَا النِّسْيَانُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَسْمَحُ !! .

◇ هَاتِهِ وَلَا تَتَحَرَّجْ .

◆ أَبَتِ ، تُجْمَعُ كَلِمَةُ « أَخٍ » تَارَةً عَلَىٰ *إِخْوَةٍ* ، وَتُجْمَعُ تَارَةً أُخْرَىٰ عَلَىٰ *إِخْوَانٍ* .
أَفَلِهَذَا الْمُفْرَدِ جَمْعَانِ ؟! .
أَمْ إِنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ *إِخْوَةٍ* وَ *إِخْوَانٍ* مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ ؟ .

◇ إِنَّ هُنَاكَ فَرْقًا كَبِيرًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْجَمْعَيْنِ مِنْ حَيْثُ الْمَدْلُولُ يَا بُنَيَّ ؟ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ يُجْمَعُ « الْأَخُ » مِنَ الْأَبِ وَالْأُمِّ عَلَىٰ *إِخْوَةٍ* ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ : **﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ، وَهُمْ لَهُ**

مُنكِرُونَ ﴾(1).

◆ طَيِّبٌ .

◇ وَتُجْمَعُ كَلِمَةُ «الْأَخِ» بِمَعْنَىٰ الصَّدِيقِ عَلَىٰ *إِخْوَانٍ*، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ** *إِخْوَانًا* ﴾(2).

◆ عَلَىٰ ذَلِكَ نَقُولُ : هَؤُلَاءِ *إِخْوَةٌ* إِذَا كَانُوا إِخْوَةً فِي النَّسَبِ .

◇ نَعَمْ .

◆ وَنَقُولُ : هَؤُلَاءِ *إِخْوَانٌ* إِذَا كَانُوا أَصْدِقَاءَ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ... بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - دَامَ عِزُّكَ - قَدْ أَطْرَفْتَنِي فِي جَلْسَةٍ سَابِقَةٍ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَجْوِبَةِ الْمُسْكِتَةِ ، أَفَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ؟ .

◇ لَقَدْ حَفِلَتْ كُتُبُ الْأَدَبِ وَالنَّوَادِرِ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْأَجْوِبَةِ الْمُسْكِتَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ ذَكَاءِ الْقَلْبِ وَحُضُورِ الْبَدِيهَةِ ، مِنْ ذَلِكَ : أَنَّ زَوْجَةَ يَحْيَىٰ بْنِ طَلْحَةَ قَالَتْ لِزَوْجِهَا :

مَا رَأَيْتُ أَلْأَمَ مِنْ أَصْحَابِكَ ... إِذَا أَيْسَرْتَ لَزِمُوكَ ، وَإِذَا أَعْسَرْتَ تَرَكُوكَ .

فَقَالَ : هَذَا مِنْ كَرَمِ أَخْلَاقِهِمْ يَأْتُونَنَا فِي حَالِ الْقُوَّةِ مِنَّا عَلَيْهِمْ ، وَيُفَارِقُونَنَا فِي حَالِ الضَّعْفِ مِنَّا عَنْهُمْ .

* * *

(1) سورة يوسف الآية ٥٨.

(2) سورة آل عمران الآية ١٠٣.

مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - دَامَ عِزُّكَ - تَكَلَّمْتَ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّهَا تَتَجَلَّىٰ أَعْظَمَ مَا تَتَجَلَّىٰ فِي خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي أَغْنَتْ مَادَّتَهَا ، وَضَبَطَتْ نِظَامَهَا ، وَيَسَّرَتِ الْقِيَاسَ فِي أَحْكَامِهَا ، وَجَعَلَتْهَا لُغَةً وَلُودًا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

◇ ذَٰلِكَ كَذَٰلِكَ يَا بُنَيَّ ، ذَٰلِكَ كَذَٰلِكَ .

◆ ثُمَّ عَرَّفْتَ الِاشْتِقَاقَ بِأَنَّهُ : تَوْلِيدُ الْأَلْفَاظِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ شَرِيطَةَ أَنْ تَشْتَرِكَ الْأَلْفَاظُ الْمُشْتَقَّةُ مِنْ مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي ثَلَاثَةِ حُرُوفٍ ، وَأَنْ تَكُونَ هَٰذِهِ الْحُرُوفُ الثَّلَاثَةُ مُرَتَّبَةً فِي جَمِيعِ الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَقَّةِ ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَقَّةِ قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ مِنَ الْمَعْنَىٰ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، مِثْلُكَ يَكُونُ طُلَّابُ الْعِلْمِ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ هَمَمْتَ بِالْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ الَّذِي امْتَازَتْ بِهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ

عَلَىٰ سَائِرِ لُغَاتِ الْأَرْضِ ؛ فَعَاجَلَكَ الْوَقْتُ عَنْ ذَلِكَ .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ .

◆ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ مَشْكُورًا مَأْجُورًا بِبَيَانِ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ الَّذِي حَظِيَتْ بِهِ لُغَتُنَا الشَّرِيفَةُ مِنْ دُونِ سَائِرِ اللُّغَاتِ ؟ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بُنَيَّ ، حُبًّا وَكَرَامَةً ... إِنَّ أَوَّلَ مَزِيَّةٍ مِنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ هِيَ أَنَّهُ جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَنْتَظِمُ فِي أُسَرٍ ذَاتِ سِمَاتٍ مُشْتَرَكَةٍ وَاضِحَةٍ ؛ تَبْدُو فِي الْمَبْنَىٰ وَفِي الْمَعْنَىٰ أَيْضًا ، فَهِيَ مِنْ حَيْثُ الْمَبْنَىٰ تَشْتَرِكُ فِي حُرُوفٍ ثَلَاثَةٍ ، وَهِيَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَعُمَّهَا مَعْنًى عَامٌّ مُشْتَرَكٌ .

◆ حَسَنٌ ، حَسَنٌ .

◇ ثُمَّ تَبْقَىٰ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْمُشْتَقَّةُ مُحْتَفِظَةً بِسِمَاتِهَا هَذِهِ ؛ تَدُورُ مَعَهَا أَنَّىٰ دَارَتْ ، وَتَحْتَفِظُ بِهَا مَهْمَا امْتَدَّ بِهَا الْعُمْرُ .

◆ أَبَتِ عَفْوَكَ ، أَهَذِهِ مَزِيَّةٌ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا تُشَارِكُهَا فِيهَا اللُّغَاتُ الْأُخْرَىٰ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، إِنَّكَ لَوْ نَظَرْتَ إِلَىٰ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ لَوَجَدْتَ أَنَّ طَابَعَ الْفَرْدِيَّةِ غَالِبٌ عَلَيْهَا ، وَأَنَّ الْأُصُولَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَ مُشْتَقَّاتِهَا قَدْ ضَاعَتْ ، وَأَنَّ الْمَلَامِحَ الْمُتَشَابِهَةَ فِيهَا قَدْ زَالَتْ .

◆ أَبَتِ ، أَمَا مِنْ مِثَالٍ ؛ فَالْمِثَالُ يُوَضِّحُ الْقَاعِدَةَ كَمَا يُقَالُ .

◇ الْأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ يَا بُنَيَّ ، الْأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ ، خُذْ مَثَلًا كَلِمَتَيْ « أَخٌ » وَ« أُخْتٌ » اللَّتَيْنِ تَجِدُهُمَا فِي مَادَّةِ « أَخَوَ » فِي الْمُعْجَمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ انْظُرْ إِلَيْهِمَا فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ تَجِدْ أَنَّهُ لَا رَابِطَةَ بَيْنَهُمَا أَبَدًا ، فَأَخٌ تُقَابِلُهَا فِي الْفَرَنْسِيَّةِ كَلِمَةُ :

" Frere" وَأُخْتٌ تُقَابِلُهَا كَلِمَةُ : " Soeur" وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ.

◆ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَضْعَيْنِ؟.

◇ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَبِيرٌ يَا بُنَيَّ؛ فَوَاضِعُ مُعْجَمِنَا اتَّخَذَ الْمَادَّةَ أَسَاسًا لِعَمَلِهِ، ثُمَّ وَضَعَ تَحْتَ الْمَادَّةِ جَمِيعَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا وَتَنْبَثِقُ عَنْهَا.

◆ الْمِثَالَ الْمِثَالَ.

◇ خُذْ مَثَلًا مَادَّةَ « حَدَقَ » فَسَتَجِدُ تَحْتَهَا: أَحْدَقَ، وَحَدَّقَ، وَحَدِيقَةٌ، وَحَدَقَةُ الْعَيْنِ، وَكُلُّهَا تَشْتَرِكُ بِالْحَاءِ وَالدَّالِ وَالْقَافِ، وَكُلُّهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الْإِحَاطَةِ وَالْإِحْدَاقِ.

◆ وَوَاضِعُو مُعْجَمَاتِ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ، مَاذَا فَعَلُوا؟.

◇ لَقَدْ بَنَوْا مُعْجَمَاتِهِمْ عَلَىٰ أَسَاسٍ فَرْدِيٍّ لَا تَرَابُطَ فِيهِ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ. فَأَنْتَ سَتَجِدُ الْكَلِمَاتِ: " Write" وَ" Book" وَ" Disk" وَ" Library" سَتَجِدُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَمَاكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْمُعْجَمِ الْإِنْكِلِيزِيِّ مَعَ أَنَّهَا جَمِيعًا ذَاتُ دَلَالَةٍ عَلَىٰ الْكِتَابَةِ وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا، فَـ" Write" كَتَبَ، وَ" Book" كِتَابٌ، وَ" Disk" مَكْتَبٌ، وَ" Library" مَكْتَبَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ فَسَوْفَ تَجِدُهَا مُوَزَّعَةً فِي أَرْجَاءِ الْمُعْجَمِ؛ لَا تَرْبِطُ بَيْنَهَا رَابِطَةٌ وَلَا يَجْمَعُ بَيْنَهَا جَامِعٌ.

◆ لَقَدْ عَنَّ لِي سُؤَالٌ فَهَلْ تَسْمَحُ؟.

◇ وَهَلِ اجْتَمَعْنَا هُنَا إِلَّا لِتَسْأَلَ وَأُجِيبَ!!.

◆ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْ عَدَدِ مَوَادِّ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؟.

◇ لَيْسَ فِي وُسْعِ أَحَدٍ أَنْ يُجِيبَكَ عَلَىٰ سُؤَالِكَ هَذَا إِجَابَةً دَقِيقَةً مُحَدَّدَةً، وَلَكِنَّ

الَّذِي يُمْكِنُ قَوْلُهُ هُوَ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ ...

◆ لِابْنِ مَنْظُورٍ .

◇ نَعَمْ لِابْنِ مَنْظُورٍ الْإِفْرِيقِيِّ ، وَهُوَ أَوْسَعُ مُعْجَمٍ عَرَبِيٍّ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ ، قَدْ حَوَىٰ ثَمَانِينَ أَلْفَ مَادَّةٍ .

◆ ثَمَانُونَ أَلْفَ مَادَّةٍ !! .

◇ نَعَمْ ، وَتَحْتَ كُلِّ مَادَّةٍ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ حَسَبَ غِنَىٰ الْمَادَّةِ وَفَقْرِهَا ، حَيْثُ تَتَرَاوَحُ كَلِمَاتُ كُلِّ مَادَّةٍ بَيْنَ الْعَشَرَةِ وَالْعِشْرِينَ .

◆ مَا هَذِهِ الثَّرْوَةُ !! مَا هَذَا الْغِنَىٰ !! .

◇ عَلَىٰ أَنَّ عُلَمَاءَ اللُّغَةِ يُقَرِّرُونَ أَنَّ الَّذِي فَاتَ ابْنَ مَنْظُورٍ كَثِيرٌ جِدًّا .

◆ أَبَتِ ، أَرَانِي قَدْ أَخْرَجْتُكَ بِسُؤَالِي هَذَا عَمَّا كُنَّا فِيهِ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ، فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ فَعُدْتَ إِلَىٰ إِكْمَالِ مَا بَدَأْتَهُ ؟ .

◇ يَبْدُو لِي أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ ضَاقَ عَنْ إِتْمَامِ مَا بَدَأْنَاهُ ؛ فَإِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَيَكْثُرُ فِيهَا اللَّحْنُ ؛ فَتُسْتَعْمَلُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » .

◇ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ وَقَعَ مِنْكَ مَوْقِعًا حَسَنًا .

◆ مَوْقِعًا حَسَنًا فَحَسْبُ ...
لَقَدْ وَقَعَ مِنِّي مَوْقِعَ الْمَاءِ الْبَرُودِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي .

◇ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ .

◆ وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ ، أَمْ إِنَّكَ قَدْ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكَّرَاتِي ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تُضِيفَهُ إِلَىٰ سَابِقِهِ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِهِ جُزِيتَ الْخَيْرَ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ يُكْثِرُونَ اللَّحْنَ فِيهِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلَهُمْ : هَدَيْتُ فُلَانًا هَدِيَّةً وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَهْدَيْتُ فُلَانًا هَدِيَّةً فَهِيَ مُهْدَاةٌ إِلَيْهِ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « هَدَيْتُ » ؟ .

◇ صِيغَةُ « هَدَيْتُ » مَوْجُودَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ تَقُولُ : هَدَيْتُ فُلَانًا الطَّرِيقَ هِدَايَةً ، وَتَقُولُ : هَدَيْتُهُ إِلَىٰ الدِّينِ ، وَلِلدِّينِ هُدًى .

◆ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾[1].

---

(١) سورة الإنسان الآية ٣.

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَيُقَالُ : هَدَيْتُ الْعَرُوسَ إِلَىٰ زَوْجِهَا أَهْدِيهَا إِلَيْهِ هِدَاءً فَهِيَ مَهْدِيَّةٌ وَهَدِيٌّ .

◆ إِذَنْ يُقَالُ : هَدَاهُ إِلَىٰ الْأَمْرِ هِدَايَةً بِمَعْنَىٰ أَرْشَدَهُ إِلَيْهِ .

◇ نَعَمْ .
وَيُقَالُ : أَهْدَاهُ الشَّيْءَ أَيْ جَعَلَهُ هَدِيَّةً لَهُ .
وَيُقَالُ أَيْضًا : أَهْدَىٰ الْهَدْيَ إِلَىٰ بَيْتِ اللَّهِ بِمَعْنَىٰ سَاقَهُ وَقَدَّمَهُ إِلَيْهِ .

◆ عفْوَكَ أَبَتِ ، « الْهَدْيَ » أَمِ « الْهَدِيَّ » ؟ .

◇ الْهَدْيُ وَالْهَدِيُّ يَا بُنَيَّ ، هُمَا لُغَتَانِ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ ، وَقَدْ قَرَأَ الْقُرَّاءُ جَمِيعًا بِهِمَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ **حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ** ﴾ ، وَ﴿ **حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدِيُّ مَحِلَّهُ** ﴾[1].

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي كُلَّ خَيْرٍ .

◇ آمِينَ .

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا أُحْرَمَ مِنْ رَوْحِهَا وَرَيْحَانِهَا .

◇ لَنْ تُحْرَمَ مِنْهُمَا بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَلْمَمْتَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ مُصْطَفَىٰ صَادِقِ الرَّافِعِيُّ .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٦.

◆ الْكَاتِبُ الْمَعْرُوفُ صَاحِبُ وَحْيِ الْقَلَمِ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، الْكَاتِبُ الْمَعْرُوفُ صَاحِبُ وَحْيِ الْقَلَمِ ، وَتَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ ، وَإِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَالْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ .

◆ وَلَكِنْ ...

◇ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ إِنَّ الرَّافِعِيَّ كَاتِبٌ وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ ؟ .

◆ ذَلِكَ مَا أَرَدْتُ قَوْلَهُ .

◇ الْحَقُّ مَعَكَ يَا بُنَيَّ ؛ فَقَدْ غَطَّتْ شَخْصِيَّةُ الرَّافِعِيِّ الْكَاتِبِ عَلَىٰ شَخْصِيَّةِ الرَّافِعِيِّ الشَّاعِرِ ، حَتَّىٰ كَادَتْ تُخْفِيهَا وَتَطْمِسُ مَعَالِمَهَا .

◆ وَهَلْ تَرَكَ الرَّافِعِيُّ آثَارًا فِي الشِّعْرِ كَمَا تَرَكَ آثَارًا فِي النَّثْرِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لَقَدْ تَرَكَ دِيوَانًا كَبِيرًا يَقَعُ فِي ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ ، وَهُوَ مَطْبُوعٌ مُتَدَاوَلٌ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ شِعْرِهِ ؟ .

◇ مَا هِيَ بِقَصِيدَةٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ نَشِيدٌ .

◆ نَشِيدٌ !! .

◇ نَعَمْ نَشِيدٌ يَا بُنَيَّ ، وَضَعَهُ « لِلشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ » شَبَابِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ السَّلَامِ .

◆ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

◇ لِيُنْشِدُوهُ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَتَمَثَّلُوا مَعَانِيَهُ فِي عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ.

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِي نَشِيدِهِ هَذَا ؟!.

◇ يَقُولُ:

رَبَّنَا إِيَّاكَ نَدْعُو رَبَّنَا   آتِنَا النَّصْرَ الَّذِي وَعَدْتَنَا

إِنَّنَا نَبْغِي رِضَاكَ، إِنَّنَا   مَا ارْتَضَيْنَا غَيْرَ مَا تَرْضَىٰ لَنَا

أَنْفُسًا طَاهِرَةً طُهْرَ الْحَرَمْ

تَمْلَأُ التَّارِيخَ مَجْدًا وَكَرَمْ

وَافِيَاتٍ بِالْعُهُودِ وَالذِّمَمْ

رَاقِيَاتٍ لِلْمَعَالِي وَالْهِمَمْ

☆ ☆ ☆

الْعُلَا إِنَّ الْعُلَا وَاجِبَاتُ الْمُسْلِمِ

خَيْرُ عَالَمٍ خَلَا كَانَ فِينَا يَنْتَمِي

لِلْعُلَا فَإِنَّنَا أُمَّةُ التَّقَدُّمِ

لِلْعُلَا وَهَا أَنَا بِحَيَاتِي وَدَمِي

☆ ☆ ☆

يَا شَبَابَ الْعَالَمِ الْمُحَمَّدِي   يَنْقُصُ الْكَوْنَ شَبَابٌ مُهْتَدِي

فَأَرُوهُ دِينَكُمْ لِيَقْتَدِي   دِينَ عَقْلٍ وَضَمِيرٍ وَيَدِ

يَا شَبَابَ الْعَزَمَاتِ الْمُبْرَمَهْ(١)

عَرِّفُوا الْكَوْنَ الْعُلَا وَالْمَكْرُمَهْ

---

(١) العزمات المبرمة: الجد والصبر والثقة في الفوز.

عَرَفُوا الْكَوْنَ الْهُدَىٰ وَالْمَرْحَمَةْ

عَرَفُوا الْكَوْنَ النُّفُوسَ الْمُسْلِمَةْ

☆ ☆ ☆

فِي ضَمِيرِي دَائِمًا صَوْتُ النَّبِيِّ   آمِرًا : جَاهِدْ ، وَكَابِدْ ، وَاتْعَبِ

صَائِحًا : غَالِبْ ، وَطَالِبْ ، وَادْأَبِ   صَارِخًا : كُنْ أَبَدًا حُرًّا أَبِي

كُنْ سَوَاءً مَا اخْتَفَىٰ وَمَا عَلَنْ

كُنْ قَوِيًّا بِالضَّمِيرِ وَالْبَدَنْ

كُنْ عَزِيزًا بِالْعَشِيرِ وَالْوَطَنْ

كُنْ عَظِيمًا فِي الشُّعُوبِ وَالزَّمَنْ

رَبِّ بِالْإِسْلَامِ قَدْ هَدَيْتَنِي   رَبِّ مِنْ نُورِكَ قَدْ آتَيْتَنِي

فَعَلَيَّ الْعَهْدُ مَا أَحْيَيْتَنِي   أَحْرُسُ الْكَنْزَ الَّذِي وَهَبْتَنِي

أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ مَوْتَ الْبَطَلْ

ثَابِتًا أَحْيَا بِقَلْبٍ مِنْ جَبَلْ

نَيِّرًا أَحْيَا بِرُوحٍ مِنْ شُعَلْ

جَاهِدًا أَحْيَا بِجِسْمٍ وَعَمَلْ

◆ مَا أَعْظَمَ هَذَا النَّشِيدَ !! .

◇ نَشِيدٌ عَظِيمٌ لِشَبَابٍ عَظِيمٍ لَوْ وَعَىٰ مَعَانِيَهُ ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ ؛ فَأَرْجُو أَنْ يَتَّسِعَ وَقْتُكَ لِلْإِجَابَةِ عَنْهُ .

◇ عَجِّلْ بِهِ وَأَوْجِزْ .

◆ أَبَتِ ، بَعْضُ الْكُتَّابِ يَقُولُ : جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ وَجُمَادَىٰ الثَّانِيَةُ ، وَبَعْضُهُم يَقُولُ : جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ وَجُمَادَىٰ الْآخِرَةُ ، أَفَيَجُوزُ الْأَمْرَانِ ، أَمْ إِنَّ أَحَدَ التَّعْبِيرَيْنِ صَوَابٌ وَالْآخَرُ خَطَأٌ ؟ أَفْتِنِي فِي هَذَا .

◇ يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ : جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ وَجُمَادَىٰ الثَّانِيَةُ ، لَكِنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ، وَجُمَادَىٰ الْآخِرَةُ .

◆ أَيَعْنِي هَذَا أَنَّ قَوْلَهُمْ جُمَادَىٰ الثَّانِيَةُ خَطَأٌ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ... فَنَحْنُ نَأْخُذُ لُغَتَنَا عَنِ الْعَرَبِ ، وَعَلَىٰ سَنَنِهِمْ نَسِيرُ .

◆ طَيِّبٌ .

◇ وَيَقُولُونَ أَيْضًا : رَبِيعٌ الْأَوَّلُ وَرَبِيعٌ الثَّانِي ، وَهُوَ خَطَأٌ أَيْضًا ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : رَبِيعٌ الْأَوَّلُ ، وَرَبِيعٌ الْآخِرُ .

◆ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ، وَجُمَادَىٰ الْآخِرَةُ ؟ .

◇ نَعَمْ ، ثُمَّ إِنَّ الْعَرَبَ أَوْجَبُوا فِي كُلٍّ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ وَرَبِيعِ الْآخِرِ أَنْ يُسْبَقَا بِلَفْظَةِ شَهْرٍ حَيْثُ يُقَالُ : شَهْرُ رَبِيعٍ الْأَوَّلُ ، وَشَهْرُ رَبِيعٍ الْآخِرُ .

◆ وَلِمَاذَا ؟ .

◇ لِيُفَرِّقُوا بَيْنَ رَبِيعِ الشُّهُورِ ، وَرَبِيعِ الْفُصُولِ .

◆ عَلَىٰ هَذَا يُقَالُ : جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ، وَجُمَادَىٰ الْآخِرَةُ ... كَمَا يُقَالُ : شَهْرُ رَبِيعٍ الْأَوَّلُ ، وَشَهْرُ رَبِيعٍ الْآخِرُ .

◇ وَلَا يُقَالُ غَيْرُ ذَلِكَ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي أَكْرَمَ الْجَزَاءِ .

◇ آمِينَ .

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ أَرْجُو أَلَّا تَكُونَ قَدْ نَسِيتَهَا .

◇ إِذَا نَسِيتُهَا أَنَا فَلَنْ تَنْسَاهَا أَنْتَ .

◆ إِذَنْ عَجِّلْ بِهَا ؛ عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ .

◇ رُوِيَ عَنِ الْفَضْلِ بْنِ مُوسَىٰ الشَّيْبَانِيِّ أَنَّهُ قَالَ :
كَانَ صَيَّادٌ يَصْطَادُ الْعَصَافِيرَ فِي يَوْمِ رِيحٍ ، فَجَعَلَتِ الرِّيَاحُ تُثِيرُ الْغُبَارَ فَيَدْخُلُ فِي عَيْنَيْهِ ؛ فَتَذْرِفَانِ الدُّمُوعَ .
وَكَانَ كُلَّمَا صَادَ عُصْفُورًا كَسَرَ جَنَاحَهُ وَأَلْقَاهُ فِي مِخْلَاةٍ[1] كَانَتْ مَعَهُ .
فَقَالَ عُصْفُورٌ لِصَاحِبِهِ :
مَا أَرْأَفَهُ عَلَيْنَا ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ !! .
فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : لَا تَنْظُرْ إِلَىٰ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَىٰ عَمَلِ يَدَيْهِ .

* * *

---

(١) المخلاة : كيس من القماش يحتفظ فيها بالأشياء وتحمل .

الْجَلْسَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ

لُغَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ قَوَاعِدِيَّةٌ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - تَكَلَّمْتَ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّهَا تَتَجَلَّىٰ أَعْظَمَ مَا تَتَجَلَّىٰ فِي خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي أَغْنَتْ مَادَّتَهَا ، وَضَبَطَتْ نِظَامَهَا ، وَيَسَّرَتِ الْقِيَاسَ فِي أَحْكَامِهَا ، وَجَعَلَتْهَا لُغَةً وَلُودًا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

◇ إِنَّهَا لَكَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهَا لَكَذَلِكَ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ - دَامَ عِزُّكَ - أَخَذْتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّ أَوَّلَ مَزَايَاهُ هُوَ أَنَّهُ جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَنْتَظِمُ فِي أُسَرٍ وَمَجْمُوعَاتٍ ذَاتِ سِمَاتٍ وَاضِحَةٍ فِي الْمَبْنَىٰ وَالْمَعْنَىٰ ، تَدُورُ مَعَ الْكَلِمَاتِ الْمُشْتَقَّةِ كَيْفَمَا دَارَتْ ، وَتَسِيرُ مَعَهَا أَنَّىٰ سَارَتْ ؛ بَيْنَمَا غَلَبَتِ الْفَرْدِيَّةُ عَلَىٰ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

◆ وَقَدْ يَسَّرَ ذَلِكَ لِعُلَمَائِنَا أَنْ يَضَعُوا مُعْجَمَاتِنَا عَلَىٰ أَسَاسِ الْمَوَادِّ ؛ بَيْنَمَا وُضِعَتْ

مُعْجَمَاتُ الْآخَرِينَ عَلَىٰ أَسَاسٍ فَرْدِيٍّ لَا تَرَابُطَ فِيهِ .

◇ مَا شَاءَ اللَّهُ ، زَادَكَ اللَّهُ عِلْمًا وَفَهْمًا .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ هَمَمْتَ بِإِتْمَامِ الْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ؛ فَعَاجَلَكَ الْوَقْتُ عَنِ اسْتِكْمَالِ مَا أَخَذْتَ فِيهِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأْتَهُ وَلَكَ الْفَضْلُ وَالشُّكْرُ !! .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بُنَيَّ ، حُبًّا وَكَرَامَةً ...
لَعَلَّ أَعْظَمَ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ هُوَ أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً قَوَاعِدِيَّةً .

◆ لُغَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ قَوَاعِدِيَّةٌ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَالْمَرْءُ حِينَ يَعْرِفُ الْمَادَّةَ الْأَصْلِيَّةَ لِلْأُسْرَةِ اللُّغَوِيَّةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَلِّدَ مِنْهَا طَائِفَةً كُبْرَىٰ مِنَ الْكَلِمَاتِ ؛ بِحَيْثُ تَدُلُّ كُلُّ كَلِمَةٍ عَلَىٰ مَعْنًى مُسْتَقِلٍّ .

◆ وَكَيْفَ يَتِمُّ ذَلِكَ ؟ .

◇ يَتِمُّ ذَلِكَ بِسُهُولَةٍ عَجِيبَةٍ لَا تَتَمَتَّعُ بِهَا أَيَّةُ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ ؛ فَحَسْبُ الْمَرْءِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ حُرُوفَ الْمَادَّةِ الثَّلَاثَةَ ، وَأَنْ يُدْخِلَ عَلَيْهَا بَعْضَ حُرُوفِ الزِّيَادَةِ وَفْقَ قَوَاعِدَ مُحَدَّدَةٍ ؛ حَتَّىٰ يَحْصُلَ عَلَىٰ طَائِفَةٍ كُبْرَىٰ مِنَ الْكَلِمَاتِ ؛ ذَوَاتِ الدَّلَالَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ .

◆ الْمِثَالَ الْمِثَالَ .

◇ خُذْ مَثَلًا عَلَىٰ ذَلِكَ مَادَّةَ « نَشَرَ » ، فَأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوَلِّدَ مِنْهَا الْأَفْعَالَ الثَّلَاثَةَ : نَشَرَ ، وَيَنْشُرُ ، وَانْشُرْ .
كَمَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوَلِّدَ مِنْهَا اسْمَ الْفَاعِلِ « نَاشِرٌ » ، وَاسْمَ الْمَفْعُولِ « مَنْشُورٌ » ، وَاسْمَ الْآلَةِ « مِنْشَارٌ » ، وَاسْمَ الْمَكَانِ « مَنْشَرٌ » ، وَهَكَذَا ...

◆ حَسَنٌ حَسَنٌ .

◇ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوَلِّدَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْحُرُوفِ الْأَصْلِيَّةِ الثَّلَاثَةِ لِلْمَادَّةِ وَمِنْ بَعْضِ حُرُوفِ الزِّيَادَةِ ؛ بِدَلَالَةِ بَعْضِ الْقَوَاعِدِ الَّتِي لَا تَزِيدُ عَلَىٰ بِضْعَةِ أَسْطُرٍ !! .

◆ وَمَا حُرُوفُ الزِّيَادَةِ ؟ .

◇ حُرُوفُ الزِّيَادَةِ عَشَرَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَهِيَ : الْهَمْزُ وَالتَّاءُ ، وَالْأَلِفُ وَالسِّينُ ، وَاللَّامُ وَالْمِيمُ ، وَالنُّونُ وَالْهَاءُ ، وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ ، وَقَدْ جَمَعَهَا الْعُلَمَاءُ فِي كَلِمَةِ « سَأَلْتُمُونِيهَا » .

◆ عَظِيمٌ ، عَظِيمٌ جِدًّا ، حَقًّا إِنَّ الاشْتِقَاقَ جَعَلَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً قَوَاعِدِيَّةً .

◇ بَيْنَمَا سَادَ الشُّذُوذُ وَالْفَرْدِيَّةُ اللُّغَاتِ الْحَيَّةَ الْأُخْرَىٰ ، وَفِي طَلِيعَتِهَا اللُّغَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ .

◆ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَالدَّارِسُ لِلُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ يُدْرِكُهُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ .

◇ ثُمَّ إِنَّ الاشْتِقَاقَ كَمَا يُعِينُ الْمَرْءَ عَلَىٰ التَّوْلِيدِ ، يُعِينُهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَىٰ إِدْرَاكِ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ الَّتِي ابْتَعَدَتْ عَنِ الْأُسْرَةِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ تأمَّلْ ـ مَثَلًا ـ الْمَجْمُوعَةَ التَّالِيَةَ : عَقَلَ ، عِقَالٌ ، اعْتِقَالٌ ، عَقْلٌ ... تَجِدْهَا عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ التَّبَايُنِ الظَّاهِرِيِّ بَيْنَ مَعَانِيهَا يُفَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَيُلْقِي الْمَعْنَىٰ الْمُشْتَرَكُ نُورًا عَلَىٰ مَدْلُولِ كُلٍّ مِنْهَا ... فَالْعَقْلُ : هُوَ الَّذِي يَعْقِلُ الْمَرْءَ عَنِ الْخَطَإِ ، وَالْعِقَالُ : هُوَ الَّذِي يَعْقِلُ الشَّمْلَةَ عَلَىٰ الرَّأْسِ ، وَيَعْقِلُ الدَّابَّةَ مِنْ أَنْ تَشْرُدَ ، وَهَكَذَا ...

◆ وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟ .

◆ وَلَكِنَّ ، هُنَاكَ بَعْضَ الْمَجْمُوعَاتِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَجِدَ أَيَّةَ صِلَةٍ بَيْنَهَا .

◇ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟! .

◆ مِنْ مِثْلِ الْجَارِ ، وَالْجَوْرِ ، فَالْجَارُ هُوَ الَّذِي يَسْكُنُ إِلَىٰ جَانِبِكَ ، وَالْجَوْرُ هُوَ الظُّلْمُ .

◇ حَتَّىٰ هَذِهِ الْمَجْمُوعَاتِ الَّتِي خُيِّلَ إِلَيْكَ أَنَّهُ لَا تَرَابُطَ بَيْنَهَا ، لَوْ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ فِيهَا ؛ لَوَقَفْتَ عَلَىٰ الْوَشَائِجِ (١) الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَهَا .

◆ وَمَا الْوَشَائِجُ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْجَارِ وَالْجَوْرِ ؟! .

◇ إِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ الْجَارِ بِمَعْنَىٰ الْمُلَاصِقِ ، وَإِلَىٰ الْجَوْرِ بِمَعْنَىٰ الظُّلْمِ نَظْرَةً تَارِيخِيَّةً مُتَّصِلَةً بِحَيَاةِ أَصْحَابِ هَذِهِ اللُّغَةِ ؛ اسْتَبَانَتْ لَكَ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

---

(١) الوشائج : جمع الوشيجة ، وهي القرابة المشتبكة المتصلة .

◇ الْجَارُ يَا بُنَيَّ ، هُوَ مَنْ يَدْخُلُ فِي حِمَايَةِ الْقَبِيلَةِ ؛ لِيَسْكُنَ فِي « جِوَارِهَا » ، وَالْقَبِيلَةُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَكُونُ قَدْ « أَجَارَتْهُ » بِمَعْنَىٰ رَفَعَتْ عَنْهُ الْجَوْرَ وَالظُّلْمَ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْهَمْزَةَ إِذَا دَخَلَتْ عَلَىٰ الْفِعْلِ أَفَادَتْهُ مَعْنَىٰ السَّلْبِ .

◆ مَعْنَىٰ السَّلْبِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَجَارَ : مَعْنَاهَا ظَلَمَ ، وَأَجَارَ : مَعْنَاهَا أَزَالَ الظُّلْمَ ، وَعَتَبَ : مَعْنَاهَا أَوْقَعَ الْعَتْبَ عَلَيْهِ ، وَأَعْتَبَ : مَعْنَاهَا أَزَالَ الْعَتْبَ ، وَمِثْلُهُمَا : شَكَىٰ ، وَأَشْكَىٰ ، وَنَحْوُهَا .

◆ أَبَتِ ، أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ، أَمْ إِنَّ لِلِاشْتِقَاقِ مَزَايَا أُخْرَىٰ ؟ .

◇ بَلْ إِنَّ لِلِاشْتِقَاقِ مَزَايَا أُخْرَىٰ لَا تَقِلُّ عَمَّا أَوْرَدْنَاهُ ، وَلَكِنَّ ضِيقَ الْوَقْتِ يَحُولُ دُونَ إِيرَادِهَا الْآنَ .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَيَكْثُرُ فِيهَا اللَّحْنُ ؛ فَتُسْتَعْمَلُ خَطَأً عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » .

◇ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ أَفَدْتَ مِنْهُ فِي تَقْوِيمِ لِسَانِكَ ، وَتَهْذِيبِ بَيَانِكَ .

◆ كُلَّ الْفَائِدَةِ .

◇ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ .

◆ وَالْآنَ ، أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ ، شَيْءٌ أَمْ إِنَّكَ قَدْ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؟ .

◇ بَلْ أَعْدَدْتُ لَكَ شَيْئًا جَدِيدًا لَا يَقِلُّ عَنْ سَابِقِهِ أَهَمِّيَّةً وَفَائِدَةً .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِهِ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ، وَدَامَ عَطَاؤُكَ .

◇ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَفْعَالِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ « وَاوِيَّةً » وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا « يَائِيَّةً » .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِمْ : جَفَيْتُ فُلَانًا بِالْيَاءِ بِمَعْنَىٰ تَرَكْتُهُ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ ، وَهُوَ خَطَأٌ وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : جَفَوْتُ فُلَانًا « بِالْوَاوِ » ؛ فَأَنَا أَجْفُوهُ ، وَهُوَ مَجْفُوٌّ .

◆ أَبَتِ ، أَرْجُو أَنْ تَتَمَهَّلَ حَتَّىٰ يُتَاحَ لِي تَقْيِيدُ هَذِهِ الْفَوَائِدِ .

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ يَا بُنَيَّ ، لَكَ مَا طَلَبْتَ ... وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : حَنَيْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ بِالْيَاءِ بِمَعْنَىٰ عَطَفْتُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : حَنَوْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ « بِالْوَاوِ » ؛ فَأَنَا أَحْنُو عَلَيْهِ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « حَنَيْتُ » الْيَائِيَّةِ !! أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا مَعْنَاهَا ؟ .

◇ تَقُولُ : حَنَيْتُ الْعُودَ بِمَعْنَىٰ أَمَلْتُهُ .

◆ إِذَنْ يُقَالُ : حَنَوْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ بِمَعْنَىٰ عَطَفْتُ عَلَيْهِ ، وَحَنَيْتُ ظَهْرِي بِمَعْنَىٰ أَمَلْتُهُ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : هَجَيْتُ فُلَانًا « بِالْيَاءِ » بِمَعْنَىٰ ذَمَمْتُهُ ، وَهُوَ خَطَأٌ وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : هَجَوْتُ فُلَانًا « بِالْوَاوِ » ؛ فَهُوَ مَهْجُوٌّ .

◆ وَلَكِنَّ صِيغَةَ « هَجَيْتُ » شَائِعَةٌ كَثِيرَةُ الدَّوَرَانِ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ !! .

◇ إِنَّ شُيُوعَ الْخَطَإِ لَا يَجْعَلُ مِنْهُ صَوَابًا ، كَمَا أَنَّ شُيُوعَ الرَّذِيلَةِ لَا يَجْعَلُ مِنْهَا فَضِيلَةً .

◆ ذَلِكَ حَقٌّ لَا مِرَاءَ فِيهِ .

◇ أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُرِيَكَ الْحَقَّ حَقًّا وَأَنْ يَرْزُقَكَ اتِّبَاعَهُ .

◆ آمِينَ .

◇ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، إِنَّ فِي النَّفْسِ لَشَوْقًا إِلَيْهَا وَحَنِينًا .

◇ مَا شَوْقُكَ إِلَيْهَا بِأَعْظَمَ مِنْ شَوْقِي ، وَلَا حَنِينُكَ إِلَيْهَا بِأَشَدَّ مِنْ حَنِينِي .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ الْيَوْمَ ؟ .

◇ إِنَّهُ لَبِيدٌ .

◆ أَهُوَ الشَّاعِرُ الْمُخَضْرَمُ[1] الَّذِي قَالَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا شَاءَ أَنْ يَقُولَ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ لَمْ يَقُلْ إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا هُوَ قَوْلُهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي

حَتَّىٰ كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالًا[2]؟!!

◇ نَعَمْ إِنَّهُ الشَّاعِرُ الْمُخَضْرَمُ الَّذِي ذَكَرْتَ ، لَكِنَّ مَا أَشَرْتَ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بَيْتَهُ السَّابِقَ غَيْرُ صَحِيحٍ .

◆ هَذَا مَا كُنَّا دَرَسْنَاهُ ، وَالْعُهْدَةُ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ غَيْرِي .

◇ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتَهُ عَنْ لَبِيدٍ مَعْرُوفٌ شَائِعٌ ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ غَيْرُ ذَلِكَ ؛ فَدِيوَانُهُ الَّذِي طُبِعَ حَدِيثًا فِي « الْكُوَيْتِ » يَقْلِبُ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ شَطْرٍ كَبِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ الَّذِي قَالَهُ فِي الْإِسْلَامِ .

◆ عَظِيمٌ ، عَظِيمٌ .

◇ وَهُوَ شِعْرٌ يَفِيضُ بِمَعَانِي الْإِسْلَامِ الرَّائِعَةِ ، وَمِثَالِيَّتِهِ الرُّوحِيَّةِ السَّامِيَةِ ... لَقَدْ تَغَلْغَلَ الْإِسْلَامُ فِي ضَمِيرِ الشَّاعِرِ ؛ فَاتَّجَهَ فِي شِعْرِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ ، وَالْوَجَلُ يَمْلَأُ نَفْسَهُ ، وَاسْتِشْعَارُ الْخَوْفِ مِنْهُ ، وَالرَّغْبَةُ فِيهِ تَمْلَأُ قَلْبَهُ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ لَامِيَّتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

إِنَّ تَقْوَىٰ رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ[3] وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

(١) المخضرم : الذي عاش عصرين ، وهو هنا عاش عصر الجاهلية وعصر الإسلام .
(٢) السربال : القميص ، وكل ما يلبس يسمىٰ سربالاً .
(٣) النفل : هنا بمعنىٰ الغنيمة أو الربح الوفير .

أَحْـمَـدُ اللَّـهَ فَـلَا نِـدَّ لَـهُ   بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَىٰ   نَاعِمَ الْبَالِ ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلْ
فَاكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا   إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي[1] بِالْأَمَلْ

إِلَىٰ آخِرِ هَذِهِ اللَّامِيَّةِ الرَّائِعَةِ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ شِعْرِهِ ؟..

◇ مَا هِيَ بِقَصِيدَةٍ اخْتَرْتُهَا مِنْ شِعْرِهِ ، وَ إِنَّمَا هُمَا مَقْطُوعَتَانِ طَرِيفَتَانِ قِيلَتَا حَوْلَهُ .

◆ وَمَا هُمَا طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِمَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تُلِمَّ بِقِصَّتِهِمَا .

◆ وَمَا قِصَّتُهُمَا ؟ .

◇ كَانَ لَبِيدٌ يَا بُنَيَّ ، سَيِّدًا كَبِيرًا مِنْ سَادَاتِ رَبِيعَةَ ، وَكَرِيمًا مُطْعِمًا مِنْ أَجْوَادِ الْعَرَبِ وَشُجْعَانِهِمْ .
وَقَدْ نَذَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَلَّا تَهِبَّ الصَّبَا[2] إِلَّا وَأَطْعَمَ ، وَظَلَّ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ .

◆ رَائِعٌ ...

◇ وَقَدْ كَانَتْ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ جَفْنَتَانِ[3] يَغْدُو بِهِمَا وَيَرُوحُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَىٰ مَسْجِدِ قَوْمِهِ وَيُطْعِمُهُمْ .
ثُمَّ هَبَّتِ الصَّبَا يَوْمًا وَهُوَ مُقِيمٌ بِالْكُوفَةِ ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ قَدْ كَبِرَتْ سِنُّهُ ،

---

(١) يزري : يعيبه ويبعده .
(٢) الصبا : ريح تهب من جهة الشرق .   (٣) الجفنة : قصعة الطعام الكبيرة .

وَأَمْلَقَ[1]؛ فَعَلِمَ بِذَلِكَ وَالِي «الْكُوفَةِ» الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَخَطَبَ النَّاسَ؛ فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ... إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ [وَهِيَ كُنْيَةُ لَبِيدٍ] وَهَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِ؛ فَأَعِينُوا أَخَاكُمْ عَلَىٰ نَذْرِهِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْعَلُ.

ثُمَّ نَزَلَ الْوَلِيدُ عَنِ الْمِنْبَرِ؛ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مِائَةَ بَكْرَةٍ[2]، وَبَعَثَ النَّاسُ إِلَيْهِ؛ فَاجْتَمَعَتْ عِنْدَهُ أَلْفُ رَاحِلَةٍ؛ فَقَضَىٰ نَذْرَهُ... وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ الْوَلِيدُ مَعَ النُّوقِ الْمِائَةِ هَذِهِ الأَبْيَاتَ:

أَرَىٰ الْجَزَّارَ يَشْحَذُ شَفْرَتَيْهِ ... إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُ أَبِي عَقِيلِ
أَغَرُّ الْوَجْهِ أَصْيَدُ عَامِرِيٌّ[3] ... طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَفَىٰ ابْنُ الْجَعْفَرِيِّ بِحَلْفَتَيْهِ ... عَلَىٰ الْعِلَّاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ
بِنَحْرِ الْكُومِ[4] إِذْ سَحَبَتْ عَلَيْهِ ... ذُيُولُ صَبًا تَجَاذَبُ بِالأَصِيلِ

فَلَمَّا بَلَغَتْ أَبْيَاتُهُ لَبِيدًا، قَالَ لِابْنَتِهِ: أَجِيبِيهِ... فَلَعَمْرِي لَقَدْ عِشْتُ بُرْهَةً وَمَا أَعْيَا بِجَوَابِ شَاعِرٍ، فَقَالَتِ ابْنَتُهُ:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُ أَبِي عَقِيلٍ ... دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
أَشَمَّ الأَنْفِ أَصْيَدَ عَبْشَمِيًّا[5] ... أَعَانَ عَلَىٰ مُرُوءَتِهِ لَبِيدَا
بِأَمْثَالِ الْهِضَابِ كَأَنَّ رَكْبًا ... عَلَيْهَا مِنْ بَنِي حَامٍ[6] قُعُودَا
أَبَا وَهْبٍ جَزَاكَ اللَّـهُ خَيْرًا ... نَحَرْنَاهَا فَأَطْعَمْنَا الثَّرِيدَا

---

(١) أملق: افتقر.
(٢) البكرة: الناقة.
(٣) أصيد عامري: الأصيد: هو كل ذي حول وطول من ذوي السلطان، وعامري: منسوب إلىٰ بني عامر.
(٤) الكوم: النوق السمينة.
(٥) عبشميا: منسوب إلىٰ قبيلة عبد شمس.
(٦) بني حام: هو أحد أبناء نوح الثلاثة: سام، وحام، ويافث.

فَعُدْ ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّي - لَا أَبَا لَكَ - أَنْ تَعُودَا
فَقَالَ لَبِيدٌ لِابْنَتِهِ : أَحْسَنْتِ يَا بُنَيَّةُ ، لَوْلَا أَنَّكِ اسْتَطْعَمْتِهِ[1].
فَقَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ لَا يُسْتَحَىٰ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ سُوقَةً[2] مَا فَعَلْتُ .
فَقَالَ : يَا بُنَيَّةُ ، وَأَنْتِ فِي هَذِهِ أَشْعَرُ .

◆ مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَا أَبَتِ ، حَاكِمُهُمْ وَمَحْكُومُهُمْ فِي الْبِرِّ وَالْخَيْرِ سَوَاءٌ !! .

◇ بِذَلِكَ سَادُوا ، وَبِذَلِكَ شَادُوا يَا بُنَيَّ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كَثِيرًا مَا يَرِدُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْبُلَغَاءِ قَوْلُهُمْ : ***شَكَرْتُ لِـفُلَانٍ*** صَنِيعَهُ[3]، وَقَوْلُهُمْ ***شَكَرْتُ فُـلَانًا*** عَلَىٰ صَنِيعِهِ ؛ أَفَهُمَا لُغَتَانِ ؟ ... أَمْ إِنَّ إِحْدَاهُمَا أَفْصَحُ مِنَ الْأُخْرَىٰ ؟ .

◇ تَقُولُ الْعَرَبُ : ***شَكَرْتُ لِـفُلَانٍ*** وَ ***أَشْكُرُ لِـفُلَانٍ*** ، وَهِيَ اللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ ، وَعَلَيْهَا قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿ ***أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ*** ﴾[4].

◆ وَمَاذَا عَنْ ***شَكَرْتُ فُـلَانًا*** ، وَ ***اشْكُرْ فُـلَانًا*** ؟ .

◇ إِنَّهَا لُغَةٌ جَائِزَةٌ ، وَلَكِنَّ اللُّغَةَ الْفَصِيحَةَ هِيَ الَّتِي وَافَقَتْ كَلَامَ اللَّهِ ، وَمَا يُقَالُ عَنْ ***شَكَرَ لَهُ وَشَكَرَهُ*** ، يُقَالُ أَيْضًا عَنْ ***نَصَحَ لَهُ وَنَصَحَهُ*** .

◆ أَيْ إِنَّ اللُّغَةَ الْفَصِيحَةَ أَنْ يُقَالَ : ***نَصَحْتُ لَهُ*** ، لَا نَصَحْتُهُ ؟ .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ : ***سَخَرْتُ مِنْهُ*** ، وَهَذِهِ هِيَ اللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ أَيْضًا .

---

(١) استطعمته : طلبت منه الإطعام.
(٢) سوقة : واحد من الرعية وأوساط الناس.
(٣) صنيعه : فعله الحسن.
(٤) سورة لقمان الآية ١٤.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ ﴿فَإِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾[1].

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي كُلَّ خَيْرٍ.

◇ آمِينَ.

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ.

* * *

◆ أَبَتِ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ، أَرْجُو أَلَّا يَضِيعَ حَقِّي فِيهَا.

◇ مَا مَاتَ حَقٌّ وَرَاءَهُ مُطَالِبٌ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ الْمُطَالِبُ أَنْتَ.

◆ إِذَنْ عَجِّلْ لِي بِهَا عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ.

◇ مِنْ طُرَفِ أَشْعَبَ أَنَّهُ ...

◆ أَبَتِ، عَفْوَكَ، أَكَانَ أَشْعَبُ شَخْصِيَّةً حَقِيقِيَّةً؛ أَمْ إِنَّهُ شَخْصِيَّةٌ أُسْطُورِيَّةٌ تُنْسَبُ إِلَيْهَا شَتَّى الطُّرَفِ؟.

◇ بَلْ هُوَ شَخْصِيَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ، وَاسْمُهُ أَشْعَبُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَكَانَ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يَقُولُونَ: تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا مُلَحَ[2] أَشْعَبَ وَخُبْزَ أَبِي الْغَيْثِ، وَكَانَ أَبُو الْغَيْثِ يَصْنَعُ الْخُبْزَ بِالْمَدِينَةِ. وَقَدْ نَشَأَ أَشْعَبُ فِي حِجْرِ عَائِشَةَ بِنْتِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

◆ وَمَا الَّذِي اخْتَرْتَهُ مِنْ طَرَائِفِهِ؟.

---

(١) سورة هود الآية ٣٨.

(٢) المُلَح: جمع مفرده ملحة، وهي الطرفة أو الكلام يتفكه به.

◇ رُوِيَ أَنَّ زَوْجَةَ أَشْعَبَ سَأَلَتْهُ خَاتَمًا ، وَقَالَتْ لَهُ : أَذْكُرُكَ بِهِ .
فَقَالَ لَهَا : اذْكُرِي أَنَّكِ سَأَلْتِنِي وَمَنَعْتُكِ .
وَقِيلَ لَهُ : كَمْ كَانَ عَدَدُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ .
فَقَالَ : ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا .
وَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ أَطْمَعَ مِنْكَ ؟ .
قَالَ : نَعَمْ كَلْبَةُ آلِ فُلَانٍ ، فَقَدْ رَأَتْ رَجُلَيْنِ يَمْضُغَانِ عِلْكًا ، فَتَبِعَتْهُمَا فَرْسَخَيْنِ ؛ تَظُنُّ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ شَيْئًا .

* * *

الْجَلْسَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

تَوْلِيدُ الْأَلْفَاظِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ تَكَلَّمْتَ عَلَىٰ خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ، حَيْثُ أَغْنَىٰ الِاشْتِقَاقُ مَادَّةَ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَضَبَطَ نِظَامَهَا ، وَيَسَّرَ الْقِيَاسَ فِي أَحْكَامِهَا ، وَجَعَلَ مِنْهَا لُغَةً وَلُودًا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

◇ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ - دَامَ عِزُّكَ - أَخَذْتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّ أَوَّلَ مَزَايَاهُ أَنَّهُ جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَنْتَظِمُ فِي أُسَرٍ وَمَجْمُوعَاتٍ ؛ بَيْنَمَا غَلَبَتِ الْفَرْدِيَّةُ عَلَىٰ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

◆ وَقَدْ يَسَّرَ ذَلِكَ لِعُلَمَائِنَا أَنْ يَضَعُوا مُعْجَمَاتِنَا عَلَىٰ أَسَاسِ الْمَوَادِّ ، بَيْنَمَا وُضِعَتْ

مُعْجَمَاتُ الْآخَرِينَ عَلَىٰ أَسَاسٍ فَرْدِيٍّ لَا تَرَابُطَ فِيهِ .

◇ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، زَادَكَ اللَّهُ عِلْمًا وَفَهْمًا .

◆ ثُمَّ أَضَفْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ مَزِيَّةً أُخْرَىٰ مِنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ، هِيَ أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً قَوَاعِدِيَّةً .

◇ مِثْلُكَ يَكُونُ طُلَّابُ الْعِلْمِ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ هَمَمْتَ بِإِتْمَامِ الْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ؛ فَعَاجَلَكَ الْوَقْتُ عَنِ اسْتِكْمَالِ مَا أَخَذْتَ فِيهِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأْتَهُ ؟ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بُنَيَّ ، حُبًّا وَكَرَامَةً ... لَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ هُوَ أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَائِنًا حَيًّا نَامِيًا مُتَوَالِدًا ؛ قَادِرًا عَلَىٰ سَدِّ حَاجَاتِ الْأُمَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ فِي شَتَّىٰ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، فَأَنَا لَمْ أَسْتَوْعِبْ مَا قُلْتَهُ آنِفًا اسْتِيعَابًا حَسَنًا .

◇ أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ - يَا بُنَيَّ - : إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ هُوَ أَنَّهُ كَانَ - عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ - الْوَسِيلَةَ الرَّائِعَةَ الْبَارِعَةَ لِتَوْلِيدِ الْأَلْفَاظِ الْمُتَنَوِّعَةِ ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْمَعَانِي الَّتِي تَجِدُّ فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ أَنْتَ تَعْلَمُ - يَا بُنَيَّ - أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ أُمَّةً أُمِّيَّةً مَحْدُودَةَ

الْمَعَارِفِ ، لَا حَظَّ لَهَا مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّنْظِيمِ .

◆ ذَلِكَ أَمْرٌ مَعْلُومٌ .

◇ وَلَمَّا أَكْرَمَهَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ جَدَّتْ لَدَيْهَا مَعَارِفُ ، وَشُرِّعَتْ لَهَا شَرَائِعُ ، وَأَقَامَتْ حَيَاتَهَا عَلَىٰ نُظُمٍ ، وَوُضِعَتْ بِجُهُودِهَا عُلُومٌ وَفُنُونٌ .

◆ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .

◇ وَقَدِ احْتَاجَ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَىٰ أَلْفَاظٍ جَدِيدَةٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنْهُ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ : الدَّوَاوِينِ ، وَالْعُمَّالِ ، وَالْقُضَاةِ ، وَالْوُلَاةِ فِي الْحُكْمِ .
وَمِنْ أَمْثَالِ : الْكَفَالَةِ ، وَالْوَكَالَةِ ، وَالْمُؤَجِّرِ ، وَالْمُسْتَأْجِرِ فِي الْفِقْهِ .
وَمِنْ أَمْثَالِ : الْفَاعِلِ ، وَالْمَفْعُولِ ، وَالْحَالِ ، وَالتَّمْيِيزِ فِي النَّحْوِ .
وَمِنْ أَمْثَالِ : الِاسْتِعَارَةِ ، وَالْكِنَايَةِ فِي الْبَلَاغَةِ .
وَمِنْ أَمْثَالِ : النَّاسِخِ ، وَالْمَنْسُوخِ ، وَالْمُجْمَلِ ، وَالْمُفَصَّلِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ ، إِلَىٰ آخِرِ مَا هُنَالِكَ مِنْ عَشَرَاتِ آلَافِ الْمَعَانِي الْجَدِيدَةِ الَّتِي احْتَاجَتْ إِلَىٰ عَشَرَاتِ آلَافِ الْأَلْفَاظِ الْجَدِيدَةِ .

◆ وَمِنْ أَيْنَ أُتِيَ بِالْأَلْفَاظِ لِهَذَا السَّيْلِ مِنَ الْمَعَانِي ؟! .

◇ أُتِيَ بِهَا عَنْ طَرِيقِ الِاشْتِقَاقِ ... نَعَمْ عَنْ طَرِيقِ الِاشْتِقَاقِ يَا بُنَيَّ ، فَالِاشْتِقَاقُ هُوَ الَّذِي وَلَّدَ الْأَلْفَاظَ اللَّازِمَةَ لِهَذِهِ الْمَعَانِي الطَّارِئَةِ ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُحْوِجِ الْعَرَبَ إِلَىٰ الْأَخْذِ مِنْ لُغَاتِ الْآخَرِينَ ، أَوِ الْوُقُوفِ مَوْقِفَ الْعَاجِزِ عَنِ اسْتِيعَابِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ .

◆ قَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَزِيَّةُ أَعْظَمَ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَتَبْدُو لَكَ هَذِهِ الْمَزِيَّةُ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْضَحَ إِذَا تَتَبَّعْتَ تَارِيخَ الْمُسْلِمِينَ الْحَضَارِيَّ ، وَبَلَغْتَ الْعَصْرَ الْعَبَّاسِيَّ ، وَوَقَفْتَ عَلَىٰ تَفَتُّحِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ عُلُومِ « الْيُونَانِ » وَ« السُّرْيَانِ » ، وَحِكْمَةِ الْهُنُودِ ، وَأَدَبِ « الْفُرْسِ » ، وَكَيْفَ اسْتَطَاعَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ تَفْتَحَ صَدْرَهَا لِهَذِهِ الْمَعَارِفِ كُلِّهَا ، وَأَنْ تَسْتَوْعِبَهَا فِي سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ .

◆ وَذَلِكَ بِفَضْلِ الِاشْتِقَاقِ أَيْضًا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَلَقَدِ اسْتَطَاعَ الِاشْتِقَاقُ أَنْ يُوَلِّدَ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ الْحَيَّةِ النَّامِيَةِ ؛ الْآلَافَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ وَالْأَلْفَاظِ .

◆ أَبَتِ ، وَمَاذَا عَنِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ وَالتَّقَدُّمِ الصِّنَاعِيِّ الْمُذْهِلِ .

◇ إِنَّ اللُّغَةَ الَّتِي وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ وَعُلُومَهُ ، وَاسْتَوْعَبَتْ مَنْطِقَ « الْيُونَانِ » وَفَلْسَفَتَهُمْ ، وَحِكْمَةَ الْهُنُودِ وَأَدَبَهُمْ ؛ قَادِرَةٌ الْيَوْمَ بِمَا فِيهَا مِنْ عَنَاصِرَ حَيَّةٍ نَامِيَةٍ ، وَبِاعْتِمَادِهَا عَلَىٰ الِاشْتِقَاقِ أَنْ تَفِيَ بِحَاجَةِ عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ .

◆ وَلَكِنْ مَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَقُولُونَ : إِنَّ هَذِهِ دَعْوَىٰ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهَا دَلِيلٌ .

◇ بَلْ عَلَيْهَا أَكْثَرُ مِنْ دَلِيلٍ .

◆ هَلَّا تَفَضَّلْتَ فَأَوْرَدْتَ دَلِيلًا وَاحِدًا ؟ .

◇ إِلَيْكَ مَا طَلَبْتَ ، إِلَيْكَ الدَّلِيلَ ... بَعْدَ أَنْ هَبَطَتْ مَرْكَبَةُ الْفَضَاءِ الْأَمْرِيكِيَّةُ عَلَىٰ سَطْحِ الْقَمَرِ بِأَقَلَّ مِنْ شَهْرٍ ، وَقَبْلَ أَنْ تَصْحُوَ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ دَهْشَتِهَا ؛ كَتَبَ

الْأَدِيبُ الْعَالِمُ الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ زَكِيٌّ بَحْثًا عِلْمِيًّا مُسْتَفِيضًا فِي مَجَلَّةِ الْعَرَبِيِّ عَنْ هَذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ .

◆ لَقَدْ قَرَأْتُ الْبَحْثَ وَاسْتَمْتَعْتُ بِمَا جَاءَ فِيهِ .

◇ وَقَرَأَهُ مَعَكَ الْآلَافُ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاسْتَمْتَعُوا بِهِ وَانْتَفَعُوا مِنْهُ أَيْضًا ... لَقَدْ كَتَبَ الدُّكْتُورُ زَكِيٌّ هَذَا الْمَبْحَثَ الْعِلْمِيَّ الدَّقِيقَ بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ فُصْحَىٰ ، وَعَبَّرَ عَنْ حَقَائِقِهِ وَدَقَائِقِهِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ... كَمَا لَوْ كُنَّا نَحْنُ الَّذِي صَنَعْنَا الْمَرْكَبَةَ وَصَعَدْنَا إِلَىٰ الْقَمَرِ ، لَا الْأَمْرِيكَانُ .

◆ ذَلِكَ دَلِيلٌ لَا يَجْحَدُهُ إِلَّا مُكَابِرٌ .

◇ لَقَدْ عَبَّرَ الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ زَكِيٌّ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مُعْتَمِدًا عَلَىٰ أَصَالَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَغَزَارَتِهَا ، مُسْتَفِيدًا مِنْ خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الْعَجِيبَةِ ، مُجْتَهِدًا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، فَهُوَ لَمْ يَجْمَعْ لِذَلِكَ مَجْمَعًا لُغَوِيًّا ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ بِأَحَدٍ عَلَىٰ وَضْعِ الْمُصْطَلَحَاتِ أَوِ ابْتِدَاعِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي كَتَبَ بِهَا بَحْثَهُ .

◆ أَبَتِ ، أَهَذِهِ هِيَ كُلُّ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ، أَمْ إِنَّ لِلِاشْتِقَاقِ مَزَايَا أُخْرَىٰ ؟ .

◇ بَلْ هَذِهِ بَعْضُ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ الَّذِي امْتَازَتْ بِهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ .

◆ وَمَاذَا عَنِ الْمَزَايَا الْأُخْرَىٰ ؟ .

◇ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ ضَاقَ ، فَمَاذَا عَلَيْنَا لَوْ أَرْجَأْنَا الْحَدِيثَ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ كَمَا تَشَاءُ .

◇ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ نَعَمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ « وَاوِيَّةً » وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا « يَائِيَّةً » .

◇ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ وَعَيْتَهُ وَأَفَدْتَ مِنْهُ .

◆ كُنْ مُطْمَئِنًّا ؛ فَقَدْ وَعَيْتُهُ أَحْسَنَ وَعْيٍ وَأَفَدْتُ مِنْهُ أَكْمَلَ فَائِدَةٍ .

◇ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ؛ فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

◆ وَالْآنَ ، أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ، أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا ؟ .

◇ بَلْ بَقِيَتْ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِهَا ، وَلَكَ الشُّكْرُ وَالْأَجْرُ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَفْعَالِ « وَاوِيًّا » ، وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ « يَائِيًّا » قَوْلَهُمْ : غَذَيْتُ فُلَانًا بِمَعْنَىٰ أَطْعَمْتُهُ ، وَهُوَ خَطَأٌ وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : غَذَوْتُ فُلَانًا ، فَأَنَا أَغْذُوهُ ، وَهُوَ مَغْذُوٌّ .

◆ عَلَىٰ رِسْلِكَ ، مِنْ فَضْلِكَ ، عَلَىٰ رِسْلِكَ .

◇ حَاضِرٌ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : عَنَيْتُ لِفُلَانٍ بِمَعْنَىٰ خَضَعْتُ لَهُ ، وَهُوَ

خَطَأٌ وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : عَنَوْتُ لِفُلَانٍ ، كَمَا يُقَالُ : عَنَوْتُ فِي بَنِي فُلَانٍ إِذَا أَصْبَحْتُ فِيهِمْ عَانِيًا .

◆ وَمَا الْعَانِي ؟ .

◇ الْعَانِي : هُوَ الْأَسِيرُ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « عَنَيْتُ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا مَعْنَاهَا ؟ .

◇ تَقُولُ : عَنَيْتُ فُلَانًا بِكَلَامِي أَعْنِيهِ بِهِ فَهْوَ مَعْنِيٌّ ؛ بِمَعْنَىٰ قَصَدْتُهُ بِكَلَامِي أَقْصِدُهُ بِهِ فَهْوَ مَقْصُودٌ .

◆ عَلَىٰ هَذَا تَكُونُ صِيغَةُ عَنَوْتُ « الْوَاوِيَّةُ » بِمَعْنَىٰ خَضَعْتُ ، وَصِيغَةُ عَنَيْتُ « الْيَائِيَّةُ » بِمَعْنَىٰ قَصَدْتُ . *

◇ نَعَمْ ، اللَّهُمَّ نَعَمْ .

◆ وَأَيْضًا ...

◇ حَسْبُكَ الْيَوْمَ يَا بُنَيَّ حَسْبُكَ ؛ فَمَا قَلَّ وَقَرَّ[1] خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَفَرَّ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، أَيْنَ مِنِّي طِيبُ جَنَاهَا ؟ .

◇ إِنَّهُ مِنْكَ دَانٍ قَرِيبٌ .

---

(١) قرّ : ثبت واستقر .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ إِنَّهُ فُؤَادُ الْخَطِيبُ .

◆ تَرَدَّدَ اسْمُ هَذَا الشَّاعِرِ عَلَىٰ سَمْعِي كَثِيرًا وَلَكِنِّي لَا أَعْرِفُ عَنْهُ إِلَّا الْقَلِيلَ .

◇ إِنَّ ذَلِكَ لَمُؤْسِفٌ يَا بُنَيَّ ، فَمِنْ حَقِّ فُؤَادِ الْخَطِيبِ أَنْ يَدُورَ اسْمُهُ عَلَىٰ كُلِّ شَفَةٍ ، وَأَنْ يَتَرَدَّدَ ذِكْرُهُ عَلَىٰ كُلِّ لِسَانٍ ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ .

◆ وَلِمَ خَصَصْتَ هَذَا الْبَلَدَ مِنْ دُونِ الْبُلْدَانِ ؟ .

◇ لِأَنَّ فُؤَادًا الْخَطِيبَ خَصَّهُ بِأَرْوَعِ قَوَافِيهِ ، وَقَالَ فِيهِ وَفِي رِجَالَاتِهِ أَعْذَبَ أَغَانِيهِ .

◆ وَمَتَىٰ وُلِدَ الشَّاعِرُ وَأَيْنَ نَشَأَ ؟ .

◇ وُلِدَ فُؤَادٌ الْخَطِيبُ عَامَ أَلْفٍ وَثَمَانِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ فِي قَرْيَةِ « شُحَيْمٍ » مِنْ أَعْمَالِ جَبَلِ « لُبْنَانَ » .

◆ إِذَنْ هُوَ لُبْنَانِيُّ الْأَصْلِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّهُ لُبْنَانِيُّ الْأَصْلِ لَكِنَّهُ سُعُودِيُّ الْجِنْسِيَّةِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ نَشَأَ الشَّاعِرُ فِي « لُبْنَانَ » وَبِهَا تَعَلَّمَ ، ثُمَّ طَوَّفَ[1] فِي بِلَادِ الْعَرَبِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يُطَوِّفَ ؛ فَأَمَّ « فِلَسْطِينَ » وَعُلِّمَ فِي مَدَارِسِهَا ، وَالْتَجَأَ إِلَىٰ « مِصْرَ »

---

(١) طوّف : تجول .

وَأَقَامَ فِي حِمَاهَا ، وَرَحَلَ إِلَىٰ « السُّودَانِ » وَدَرَّسَ فِي كُلِّيَّاتِهَا ... وَكَانَ يُرْسِلُ قَصَائِدَهُ الْغُرَّ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ ؛ يَسْتَنْهِضُ بِهَا الْهِمَمَ الْوَانِيَةَ وَيُوقِظُ الْقُلُوبَ الْغَافِيَةَ ... مِمَّا لَفَتَ إِلَيْهِ الْمَغْفُورَ لَهُ جَلَالَةَ الْمَلِكِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَاسْتَدْعَاهُ إِلَىٰ « الرِّيَاضِ » وَجَعَلَهُ مُسْتَشَارًا لَهُ ، ثُمَّ عَيَّنَهُ وَزِيرًا مُفَوَّضًا لِلْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ فِي « أَفْغَانِسْتَانَ » ثُمَّ سَفِيرًا ، وَبَقِيَ هُنَاكَ حَتَّىٰ وَافَاهُ الْأَجَلُ الْمَحْتُومُ .

◆ وَمَتَىٰ كَانَتْ وَفَاتُهُ ؟ .

◇ تُوُفِّيَ فُؤَادُ الْخَطِيبُ فِي الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ عَامَ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتَّةٍ وَسَبْعِينَ .

◆ أَيْ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا فَقَطْ[١] .

◆ وَهَلْ تَرَكَ دِيوَانًا مَطْبُوعًا ؟ .

◇ لَقَدْ تَرَكَ دِيوَانًا مَخْطُوطًا حَافِلًا بِأَرْوَعِ الشِّعْرِ ، وَظَلَّ الدِّيوَانُ قَابِعًا فِي ظُلُمَاتِ خِزَانَتِهِ ؛ حَتَّىٰ أَخْرَجَهُ لِلنُّورِ صَدِيقُهُ الْوَفِيُّ مَعَالِي الشَّيْخِ مُحَمَّدِ سُرُورِ الصَّبَّانِ ، فَطَبَعَهُ عَلَىٰ نَفَقَتِهِ وَفَاءً مِنْهُ لِصَدِيقِهِ الرَّاحِلِ .

◆ جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا .

◇ آمِينَ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ دِيوَانِهِ ؟

◇ هِيَ قَصِيدَةٌ قَالَهَا فِي وَصْفِ « الطَّائِفِ » عَرُوسِ الْمَمْلَكَةِ .

---

(١) أي منذ إذاعة هذه الحلقة .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟

◇ أَنَا فِي الطَّائِفِ أَسْتَوْحِي الشُّعُورْ

إِنَّ فِي «الطَّائِفِ» بَعْثًا وَنُشُورْ
أَحْيَتِ الأَحْدَاقَ فِي نَرْجِسِهَا[١]
وَأَعَادَتْ فِي الأَقَاحِيِّ[٢] الثُّغُورْ
وَلَقَدْ حَدَّثَنِي رُمَّانُهَا
أَنَّهُ كَانَ نُهُودًا فِي الصُّدُورْ
وَرَوَىٰ لِي الْبَانُ[٣] عَنْ أَعْطَافِهِ
أَنَّهُ كَانَ قُدُودًا وَخُصُورْ
فَلَوِ اجْتَازَتْ بِهَا الرُّوحُ لَمَا
كُنْتَ إِلَّا بَيْنَ وِلْدَانٍ وَحُورْ
نَثَرَتْ فِي أَرْضِهَا حَصْبَاؤُهَا
دُرَرًا تَنْجُمُ مِنْهَا وَشُذُورْ
وَمَشَىٰ الْجَدْوَلُ فِي أَرْجَائِهَا
كَوْثَرًا يَسْبَحُ فِيهَا وَيَمُورْ[٤]
كُلَّمَا اسْتَضْحَكَ عَنْ لُؤْلُؤَةٍ
هَتَفَتْ فِي فَنَنِ الأَيْكِ[٥] الطُّيُورْ

---

(١) النرجس : نوع من الزهر .
(٢) الأقاحي : نوع من الزهر أيضًا .
(٣) البان : شجر صحراوي يشتهر بالاعتدال والليونة .
(٤) يمور : يسيل .
(٥) فنن الأيك : أغصان الشجر .

قُلْ لِمَنْ أَلْهَمَهَا تَسْبِيحَهَا
هَكَذَا الْجَنَّةُ وَالْعَبْدُ الشَّكُورْ
سَبِّحِي أَيَّتُهَا الطَّيْرُ لَهُ
وَامْلَئِي الدَّوْحَةَ شَدْوًا وَحُبُورْ
جَمَعَ الْمُلْتَفُّ[1] مِنْ أَغْصَانِهَا
كُنُسَ[2] الْغِزْلَانِ فِيهَا وَالْخُدُورْ
تَلْعَبُ الرِّيحُ وَقَدْ مَرَّتْ بِهَا
مِثْلَمَا يَلْعَبُ بِالْقَلْبِ السُّرُورْ
فَسَلِ «الطَّائِفَ» عَنْ أَيَّامِنَا
تَنْطِقِ الدَّارُ وَأَبْرَاجُ الْقُصُورْ
وَالْمُرُوجُ الْخُضْرُ فِي رَأْدِ الضُّحَىٰ[3]
لَبِسَتْ ثَوْبَيْنِ مِنْ نَوْرٍ وَنُورْ
أَشْرَقَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا وَرَنَتْ
نَحْوَنَا الْأَنْجُمُ كَالْأَعْيُنِ صُورْ
مَرْحَبًا بِالْفَجْرِ وَالصَّوْتِ الَّذِي
قَرَعَ السَّمْعَ بَشِيرًا بِالْبُكُورْ
وَلَقَدْ خَطَّتْ يَدُ اللَّهِ عَلَىٰ
صَفْحَةِ الْكَوْنِ مِنَ الْخَلْقِ سُطُورْ

---

(١) الملتف : المتشابك .
(٢) الكُنُس : منازل الغزلان .
(٣) رَأْد الضحىٰ : وقت الضحىٰ .

فَـدَعِ الـنَّـوْمَ وَإِنْ لَـجَّ الْـكَـرَىٰ
فَـغَـدًا تَـشْـبَـعُ نَـوْمًـا بِـالْـقُـبُـورْ
تُـطْـبِـقُ الْأَجْـفَـانُ فِـي ظُـلْـمَـتِـهَـا
وَهْـيَ لَا تَـعْـرِفُ لِـلصُّـبْـحِ سُـفُـورْ[1]

◆ مَا أَعْذَبَ هَذَا الشِّعْرَ وَمَا أَرَقَّ شَمَائِلَهُ !! .

◇ إِنَّهُ صُورَةٌ مِنْ عُذُوبَةِ « الطَّائِفِ » وَرِقَّةِ شَمَائِلِهَا ؛ فَكَمَا يَكُونُ الْمُصَوِّرُ تَكُونُ الصُّورَةُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَأْذَنُ ؟ .

◇ وَهَلِ اجْتَمَعْنَا هُنَا إِلَّا لِتَسْأَلَ وَأُجِيبَ ؟ .

◆ تَدُورُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْكُتَّابِ عِبَارَةُ « سَقَطَ فِي يَدِ فُلَانٍ » ؛ فَيَقُولُونَ مَثَلًا : نَزَلَتْ نَازِلَةٌ بِفُلَانٍ فَسَقَطَ فِي يَدِهِ .
فَمَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ هَذَا ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ أُوَضِّحَ لَكَ مَعْنَىٰ هَذِهِ الْعِبَارَةِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أُصَحِّحَ لَكَ نُطْقَهَا .

◆ وَهَلْ فِي نُطْقِهَا خَطَأٌ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَالْفِعْلُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ دَائِمًا ، وَلِذَا كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ : « نَزَلَتْ نَازِلَةٌ بِفُلَانٍ فَسُقِطَ فِي يَدِهِ » بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ .

◆ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ صِحَّةِ نُطْقِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ ؛ فَمَا مَعْنَاهَا ؟ .

---

(١) سفور : ظهور .

◇ عِبَارَةُ *سُقِطَ فِي يَدِ فُلَانٍ* مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلنَّادِمِ عَلَىٰ فِعْلِهِ ، وَمَعْنَاهُ نَدِمَ .

◆ نَدِمَ ؟! .

◇ نَعَمْ نَدِمَ .

◆ وَمَا عَلَاقَةُ السُّقُوطِ فِي الْيَدِ بِالنَّدَمِ ؟! .

◇ عَلَاقَةُ هَذَا الْمَثَلِ بِالنَّدِمِ هِيَ أَنَّ مِنْ شَأْنِ الَّذِي يَشْتَدُّ نَدَمُهُ وَحَسْرَتُهُ أَنْ يَعُضَّ يَدَهُ غَمًّا وَكَمَدًا ؛ فَتَصِيرَ يَدُهُ مَسْقُوطًا فِيهَا ، حَيْثُ سَقَطَ فِيهَا فَمُهُ .

◆ وَهَلْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ فَقَدْ تَحَدَّثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَيْفَ اتَّخَذُوا مِنْ ذَهَبِهِمْ عِجْلًا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؛ فَقَالَ : ﴿**وَلَمَّا *سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ* وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ؛ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[1].

◆ أَجْزَلَ اللَّهُ مَثُوبَتَكَ جَزَاءَ مَا شَفَيْتَ وَوَفَّيْتَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْيَوْمِ أَرْجُو أَلَّا يَضِيقَ عَنْهَا الْوَقْتُ .

◇ مَا رَأْيُكَ لَوْ جَعَلْتَهَا دَيْنًا فِي ذِمَّتِي ؛ وَلَكَ فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ بَدَلَ الطُّرْفَةِ طُرْفَتَانِ .

◆ أَبَتِ ، أَنَا أُومِنُ بِالْحِكْمَةِ الَّتِي تَقُولُ : عُصْفُورٌ فِي الْيَدِ خَيْرٌ مِنْ عَشَرَةٍ عَلَىٰ الشَّجَرَةِ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٩.

◇ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ حِكْمَتُكَ ؛ فَإِلَيْكَ مَا طَلَبْتَ ...

أَمَرَ زِيَادٌ بِضَرْبِ عُنُقِ رَجُلٍ ؛ فَقَالَ : أَيُّهَا الأَمِيرُ إِنَّ لِي بِكَ حُرْمَةً .

قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ .

قَالَ : إِنَّ أَبِي جَارُكَ بِالْبَصْرَةِ .

قَالَ : وَمَنْ أَبُوكَ ؟ .

قَالَ : يَا مَوْلَايَ إِنِّي نَسِيتُ اسْمَ نَفْسِي ؛ فَكَيْفَ لَا أَنْسَىٰ اسْمَ أَبِي .

فَرَدَّ زِيَادٌ كُمَّهُ عَلَىٰ فَمِهِ وَضَحِكَ ، وَعَفَا عَنْهُ .

وَرُوِيَ أَنَّ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ بَنَىٰ قَصْرًا .

وَقَالَ : انْظُرُوا مَنْ عَابَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَأَصْلِحُوهُ ، وَأَعْطُوهُ دِرْهَمَيْنِ .

فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : إِنَّ فِي هَذَا الْقَصْرِ عَيْبَيْنِ .

قَالَ : وَمَا هُمَا ؟ .

قَالَ : يَمُوتُ الْمَلِكُ . وَيَخْرَبُ الْقَصْرُ .

قَالَ : صَدَقْتَ .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَتَرَكَ الدُّنْيَا .

* * *

الْجَلْسَةُ الثَّلَاثُونَ

إِدْرَاكُ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ الْمَجْهُولَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ سُقْتَ الْحَدِيثَ عَنْ خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ، حَيْثُ أَغْنَتْ مَادَّتَهَا ، وَضَبَطَتْ نِظَامَهَا ، وَيَسَّرَتِ الْقِيَاسَ فِي أَحْكَامِهَا ، وَجَعَلَتْ مِنْهَا لُغَةً وَلُودًا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

◇ إِنَّهُ لَكَذَلِكَ - يَا بُنَيَّ - إِنَّهُ لَكَذَلِكَ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ - دَامَ عِزُّكَ - أَخَذْتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّهُ جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَنْتَظِمُ فِي أُسَرٍ وَمَجْمُوعَاتٍ ، بَيْنَمَا غَلَبَتِ الْفَرْدِيَّةُ عَلَىٰ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

◆ وَقَدْ يَسَّرَ ذَلِكَ لِعُلَمَائِنَا أَنْ يَضَعُوا مُعْجَمَاتِنَا عَلَىٰ أَسَاسِ الْمَوَادِّ ، بَيْنَمَا وُضِعَتْ مُعْجَمَاتُ الْآخَرِينَ عَلَىٰ أَسَاسٍ فَرْدِيٍّ لَا تَرَابُطَ فِيهِ .

◇ مَا شَاءَ اللَّهُ ، زَادَكَ اللَّهُ عِلْمًا وَفَهْمًا .

◆ ثُمَّ أَضَفْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ مَزِيَّتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ، أُولَاهُمَا : أَنَّ الِاشْتِقَاقَ جَعَلَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً قَاعِدِيَّةً ، وَثَانِيَتُهُمَا ... وَثَانِيَتُهُمَا ...

◇ وَثَانِيَتُهُمَا : أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَائِنًا حَيًّا نَامِيًا ؛ قَادِرًا عَلَىٰ سَدِّ حَاجَاتِ الْأُمَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ فِي شَتَّىٰ مَجَالَاتِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، ثُمَّ إِنَّكَ هَمَمْتَ بِإِتْمَامِ الْحَدِيثِ عَنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ؛ فَعَاجَلَكَ الْوَقْتُ عَنِ اسْتِكْمَالِ مَا أَخَذْتَ فِيهِ .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأْتَهُ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً - يَا بُنَيَّ - حُبًّا وَكَرَامَةً ... إِنَّ مِنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ الَّذِي اخْتُصَّتْ بِهِ هَذِهِ اللُّغَةُ الْكَرِيمَةُ يَا بُنَيَّ ، هُوَ أَنَّهُ يَدُلُّنَا عَلَىٰ أُصُولِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا ، وَيُمَكِّنُنَا مِنْ رَبْطِ الْكَلِمَةِ بِبَنَاتِ أُسْرَتِهَا ؛ وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ لَنَا مَعْنَاهَا ، وَيَتَيَسَّرُ لَنَا فَهْمُهَا .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، فَأَنَا لَمْ أَسْتَوْعِبْ مَا قُلْتَهُ .

◇ أَرَدْتُ ، يَا بُنَيَّ ، أَنْ أَقُولَ : إِنَّ الِاشْتِقَاقَ سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ فَهْمِ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ ، وَالتَّفَقُّهِ فِيهَا ، وَالدُّخُولِ إِلَىٰ عَالَمِهَا الْخَاصِّ ؛ فَكَثِيرًا مَا تَبْقَىٰ الْكَلِمَةُ غَامِضَةَ الدَّلَالَةِ حَتَّىٰ تَرُدَّهَا إِلَىٰ أَصْلِهَا الَّذِي اشْتُقَّتْ مِنْهُ .

◆ الْمِثَالَ الْمِثَالَ ؛ فَهْوَ الَّذِي يُزِيلُ الْإِشْكَالَ .

◇ إِلَيْكَ الْمِثَالَ يَا بُنَيَّ ، خُذِ الْكَلِمَاتِ التَّالِيَةَ : الرِّبَا ، الرَّبْوَةُ ، التَّرْبِيَةُ ، الْمُرَبِّي ؛

تَجِدْ أَنَّهَا جَمِيعًا مُشْتَقَّةٌ مِنْ مَادَّةِ « رَبَوَ » .

◆ نَعَمْ .

◇ وَأَنْتَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ مَادَّةَ « رَبَوَ » تَعْنِي الزِّيَادَةَ ؛ قَادَكَ هَذَا إِلَىٰ إِدْرَاكِ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي اشْتُقَّتْ مِنْهَا ، فَهِيَ جَمِيعًا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الزِّيَادَةِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ الرِّبَا ـ كَمَا تَعْلَمُ ـ هُوَ الزِّيَادَةُ الْمُحَرَّمَةُ فِي الْمَالِ ، وَرَبَا الْمَالُ يَرْبُو : زَادَ يَزِيدُ ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَتْ كَلِمَتُهُ : ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾(١) أَيْ يَزِيدُهَا وَيُنَمِّيهَا .

◆ وَالرَّبْوَةُ ؟! .

◇ وَالرَّبْوَةُ ـ يَا بُنَيَّ ـ هِيَ الْمَكَانُ الزَّائِدُ فِي الِارْتِفَاعِ عَمَّا حَوْلَهُ .

◆ وَمَا عَلَاقَةُ التَّرْبِيَةِ بِهَذِهِ الْمَادَّةِ ؟ .

◇ وَالتَّرْبِيَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الزِّيَادَةِ أَيْضًا ، يُقَالُ : رَبَا الْوَلَدُ يَرْبُو أَيْ نَشَأَ يَنْشَأُ ، وَرَبَّىٰ فُلَانٌ الدَّابَّةَ أَيْ غَذَّاهَا وَجَعَلَهَا تَنْمُو وَتَرْبُو .

◆ وَالتَّرْبِيَةُ بِمَعْنَاهَا الِاصْطِلَاحِيِّ الشَّائِعِ الْيَوْمَ ، مَا عَلَاقَتُهَا بِهَذِهِ الْمَادَّةِ ؟ .

◇ إِنَّهَا وَثِيقَةُ الصِّلَةِ بِهَا يَا بُنَيَّ ، فَالتَّرْبِيَةُ بِمَعْنَاهَا الِاصْطِلَاحِيِّ التَّعْلِيمِيِّ تَعْنِي الْعَمَلَ عَلَىٰ نُمُوِّ النَّاشِئِ وَزِيَادَتِهِ فِي النَّوَاحِي الْجِسْمِيَّةِ ، وَالرُّوحِيَّةِ ، وَالْعَقْلِيَّةِ . فَالتَّرْبِيَةُ الدِّينِيَّةُ مَثَلًا تُعْنَىٰ بِتَعَهُّدِ النَّاشِئِ لِيَزْدَادَ وَيَنْمُوَ فِي مَجَالَاتِ الدِّينِ مَعْرِفَةً وَسُلُوكًا ، وَالتَّرْبِيَةُ الْبَدَنِيَّةُ تُعْنَىٰ بِجِسْمِ النَّاشِئِ لِيَزْدَادَ وَيَنْمُوَ نُمُوًّا حَسَنًا .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٦.

◆ وَالْمُرَبِّي ؟! .

◇ وَكَذَلِكَ الْمُرَبِّي ، فَهُوَ الرَّجُلُ الْمُخْتَصُّ الَّذِي يَعْمَلُ عَلَىٰ تَنْمِيَةِ النَّشْءِ ، وَالزِّيَادَةِ فِي قُوَاهُمُ الدِّينِيَّةِ ، وَالْعَقْلِيَّةِ ، وَالْجَسَدِيَّةِ .

◆ مَا أَرْوَعَ هَذِهِ اللُّغَةَ وَمَا أَعْمَقَ أَسْرَارَهَا !! .

◇ وَمِثْلُ مَادَّةِ « رَبَوَ » مَادَّةُ « شَرَفَ » فَأَنْتَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ مَعْنَاهَا : عَلَا وَارْتَفَعَ ؛ غَدَوْتَ قَادِرًا عَلَىٰ إِدْرَاكِ أَسْرَارِ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ التَّالِيَةِ : « أَشْرَفَ ، وَشَرُفَ ، وَالشَّرَفُ » فَالشَّرَفُ : هُوَ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَشْرَفَ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ رَاقَبَهُ وَأَطَلَّ عَلَيْهِ مِنْ عَلٍ ، وَشَرُفَ فُلَانٌ : عَلَا قَدْرُهُ وَحَسَبُهُ ، وَالشَّرَفُ الْعُلُوُّ فِي الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ وَالْقَدْرِ وَهَكَذَا ...

◆ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، فَقَدْ فَتَحْتَ عَيْنَيَّ عَلَىٰ سِرٍّ كَبِيرٍ مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ الْعَظِيمَةِ .

◇ عَلَىٰ هَذَا فَأَنْتَ قَدْ أَدْرَكْتَ مَعْنَىٰ قَوْلِنَا : إِنَّ الِاشْتِقَاقَ يَضَعُ أَيْدِيَنَا عَلَىٰ أُصُولِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا ، وَيُمَكِّنُنَا مِنْ رَبْطِ الْكَلِمَةِ بِبَنَاتِ أُسْرَتِهَا ، وَيُوَضِّحُ لَنَا مَعْنَاهَا ، وَيُيَسِّرُ فَهْمَهُ وَفِقْهَهُ .

◆ لَقَدْ أَدْرَكْتُهُ أَحْسَنَ الْإِدْرَاكِ ، وَوَعَيْتُهُ أَعْمَقَ الْوَعْيِ .

◇ وَهَذِهِ الْمَزِيَّةُ مِنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ تَقُودُنَا إِلَىٰ مَزِيَّةٍ أُخْرَىٰ ؛ جَدِيرَةٍ بِأَنْ يَعِيَهَا الْمُتَعَلِّمُونَ ، وَأَنْ يَنْتَفِعُوا بِهَا .

◆ وَمَا هِيَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - ؟ .

◇ إِنَّ لِلِاشْتِقَاقِ قِيمَةً تَعْلِيمِيَّةً تَرْبَوِيَّةً عَظِيمَةً ؛ فَالْمُتَعَلِّمُ الَّذِي يَعْرِفُ مَعْنَىٰ بِضْعِ

كَلِمَاتٍ مِنَ الْأُسْرَةِ يَسْتَطِيعُ بِوَسَاطَتِهَا أَنْ يَكْشِفَ عَنْ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي لَا يَعْرِفُهَا.

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا؟.

◇ هَبْ أَنَّكَ كُنْتَ تَقْرَأُ، ثُمَّ مَرَّتْ بِكَ كَلِمَةُ «غَالِيَةٌ» فِي وَصْفِ فِرْقَةٍ مِنَ الْفِرَقِ، وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ مَعْنَاهَا، فَفِي وُسْعِكَ أَنْ تَسْتَحْضِرَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَشْتَرِكُ مَعَهَا فِي الْحُرُوفِ الْأَصْلِيَّةِ مِنْ أَمْثَالِ «غَلَاءِ» الْأَسْعَارِ، وَغَلَاءِ الْأُجُورِ، وَغَلَاءِ الْمُهُورِ، أَيْ زِيَادَتِهَا زِيَادَةً فَاحِشَةً وَ«الْغُلُوِّ» فِي الْأُمُورِ بِمَعْنَىٰ التَّزَيُّدِ فِيهَا وَالْمُبَالَغَةِ، وَأَنْ تُدْرِكَ بِالتَّالِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفِرْقَةِ الْغَالِيَةِ الْفِرْقَةُ الْمُتَشَدِّدَةُ الْمُوغِلَةُ فِي التَّعَصُّبِ لِمَا تَعْتَقِدُ الْمُبَالَغَةَ فِي ذَٰلِكَ. *

◆ هَٰذَا يَعْنِي أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ بِوَسَاطَةِ الِاشْتِقَاقِ، وَمُلَاحَظَةِ الرَّابِطَةِ بَيْنَ مَعَانِي أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ؛ أَنْ نُدْرِكَ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ الْمَجْهُولَةِ بِدَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ الْمَعْلُومَةِ.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ، وَبِذَٰلِكَ نُوَفِّرُ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَعَلَىٰ أَبْنَائِنَا كَثِيرًا مِنَ الْجُهُودِ... إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُرَبِّينَ - يَا بُنَيَّ - يَلْفِتُونَ طُلَّابَهُمْ إِلَىٰ هَٰذِهِ الْخَاصَّةِ مِنْ خَصَائِصِ الِاشْتِقَاقِ، وَيُوَجِّهُونَهُمْ إِلَىٰ مُحَاوَلَةِ مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ الْمَجْهُولَةِ بِدَلَالَةِ الْكَلِمَاتِ الْمَعْلُومَةِ؛ الَّتِي تَشْتَرِكُ مَعَهَا فِي الْحُرُوفِ الْأَصْلِيَّةِ.

◆ إِنَّ هَٰذِهِ الْخَاصَّةَ مِنْ خَصَائِصِ الِاشْتِقَاقِ لَا تَقِلُّ عَنْ سَابِقَتِهَا أَهَمِّيَّةً وَخُطُورَةً.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ، ذَٰلِكَ لِأَنَّهَا خَاصَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ عَمَلِيَّةٌ.

◆ أَبَتِ، أَهَٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ، أَمْ إِنَّ لَهُ مَزَايَا أُخْرَىٰ؟!.

◇ بَلْ لَهُ مَزَايَا أُخْرَىٰ تَرْقَىٰ بِهَٰذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَىٰ مَرْتَبَةٍ لَمْ تَبْلُغْهَا أَيَّةُ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ.

◆ وَمَاذَا عَنِ الْمَزَايَا الْأُخْرَىٰ ؟ .

◇ يَبْدُو لِي أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ ضَاقَ ، فَمَاذَا عَلَيْنَا لَوْ أَرْجَأْنَا الْحَدِيثَ إِلَىٰ الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ ؟ .

◆ كَمَا تَشَاءُ .

◇ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ « وَاوِيَّةً » وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا « يَائِيَّةً » .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدِ انْتَفَعْتَ بِهِ فِي تَقْوِيمِ لِسَانِكَ وَتَهْذِيبِ بَيَانِكَ .

◆ كُلَّ الْفَائِدَةِ .

◇ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ .

◆ وَالْآنَ ، أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ أُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ، أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ بِهِ مَشْكُورًا غَيْرَ مَأْمُورٍ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَفْعَالِ « وَاوِيًّا » وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهِ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ « يَائِيًّا » قَوْلَهُمْ : دَنَيْتُ مِنْ فُلَانٍ بِمَعْنَىٰ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : دَنَوْتُ مِنْ فُلَانٍ أَدْنُو مِنْهُ دُنُوًّا .

◆ وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟! تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ إِنَّ صِيغَةَ « دَنَيْتُ » الْيَائِيَّةَ شَائِعَةٌ كَثِيرَةُ الدَّوَرَانِ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ .

◆ نَعَمْ ، نَعَمْ ذَلِكَ مَا أَرَدْتُ قَوْلَهُ .

◇ أَمَا آنَ لَنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ شُيُوعَ الْخَطَإِ لَا يَجْعَلُ مِنْهُ صَوَابًا ؟! .

◆ لَكَ الْحَقُّ ؛ فَشُيُوعُ الْخَطَإِ لَا يَقُومُ حُجَّةً عَلَىٰ تَصْوِيبِهِ .

◇ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : جَلَيْتُ الْإِنَاءَ ، وَجَلَيْتُ النُّحَاسَ وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : جَلَوْتُ الْإِنَاءَ ، وَجَلَوْتُ النُّحَاسَ .

◆ وَمَاذَا عَنِ « الْجَلَاءِ » بِمَعْنَىٰ الرَّحِيلِ عَنِ الْمَكَانِ أَوَاوِيٌّ هُوَ أَمْ يَائِيٌّ ؟ .

◇ بَلْ هُوَ « وَاوِيٌّ » أَيْضًا يَا بُنَيَّ ؛ تَقُولُ : جَلَوْتُ عَنِ الْبَلَدِ فَأَنَا أَجْلُو عَنْهُ جَلَاءً ، وَلَا يُقَالُ : جَلَيْتُ عَنِ الْبَلَدِ .

◆ مَا أَكْثَرَ مَا نَقَعُ فِيهِ مِنَ اللَّحْنِ ؟! .

◇ لَوْ أَخَذْنَا أَنْفُسَنَا بِشَيْءٍ مِنَ الْيَقَظَةِ وَالْحَزْمِ ، وَسُؤَالِ أَهْلِ الذِّكْرِ ؛ لَاسْتَقَامَ لِسَانُنَا وَصَحَّ بَيَانُنَا ، وَلَحَافَظْنَا عَلَىٰ نَصَاعَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ وَصَفَائِهَا ...
وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا يَا بُنَيَّ قَوْلُهُمْ : عَفَيْتُ عَنْ فُلَانٍ وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : عَفَوْتُ عَنْ فُلَانٍ ، فَأَنَا أَعْفُو عَنْهُ عَفْوًا .

◆ زِدْنِي مِنْ هَذِهِ الْفَوَائِدِ يَا أَبَتِ زِدْنِي ، زَادَكَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ .

◇ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ ضَاقَ فَإِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◇ نَعَمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، مَاذَا عَنْ رَوْضَةِ الشِّعْرِ ؟ .

◇ إِنَّهَا مُفَتَّحَةُ الْأَبْوَابِ أَمَامَكَ ؛ فَطُفْ بِرُبَاهَا وَاقْطِفْ مِنْ جَنَاهَا .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ إِنَّهُ : عُمَرُ بَهَاءِ الْأَمِيرِيُّ .

◆ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ إِنَّهُ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ ، وُلِدَ فِي أَوَاخِرِ الرُّبُعِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ فِي مَدِينَةِ « حَلَبَ » ، وَبِهَا تَلَقَّىٰ دِرَاسَتَهُ الِابْتِدَائِيَّةَ وَالثَّانَوِيَّةَ ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَىٰ « بَارِيسَ » لِدِرَاسَةِ الْحُقُوقِ .

◆ عَلَىٰ هَذَا ، فَهُوَ مُثَقَّفٌ بِالثَّقَافَتَيْنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ .

◇ وَهُوَ إِلَىٰ جَانِبِ ذَلِكَ أَحَدُ كِبَارِ الْعَامِلِينَ فِي الْحَقْلِ الْإِسْلَامِيِّ ؛ فَلَقَدْ أَمْضَىٰ زَهْرَةَ شَبَابِهِ مُنَافِحًا عَنِ الْإِسْلَامِ ، دَاعِيًا إِلَيْهِ .

◆ بُورِكَتْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ مِنْ دَعْوَةٍ ، وَبُورِكَ الدَّاعُونَ إِلَيْهَا مِنْ دُعَاةٍ .

◇ وَلَقَدْ تَبَوَّأَ[1] عَدَدًا مِنَ الْمَنَاصِبِ الْكَبِيرَةِ ؛ كَانَ فِي آخِرِهَا سَفِيرًا لِسُورِيَّةَ لَدَىٰ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ .

◆ أَلِلشَّاعِرِ دِيوَانٌ ؟ .

◇ بَلْ لَهُ دِيوَانَانِ أَحَدُهُمَا : « مَعَ اللَّهِ » وَيَشْتَمِلُ عَلَىٰ شِعْرِهِ الْإِلَهِيِّ ، وَثَانِيهُمَا : « أَلْوَانُ طَيْفٍ » .

◆ اسْمَانِ طَرِيفَانِ .

◇ لِدِيوَانَيْنِ طَرِيفَيْنِ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي اخْتَرْتَهَا مِنْ شِعْرِهِ ؟ .

◇ قَصِيدَةٌ قَالَ الشَّاعِرُ عَنْهَا : إِنَّهَا تَصْوِيرٌ لِإِطْلَالَةِ الْفَجْرِ وَإِشْرَاقَةِ النَّهَارِ ... ثُمَّ انْتِقَالٌ إِلَىٰ آفَاقٍ مِنَ النَّجْوَىٰ وَالشَّكْوَىٰ ، وَالْأَلَمِ وَالْأَمَلِ ...

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ هَذِهِ ؟ .

◇ يَقُولُ :

بَادِرِ الْفَجْرَ وَاشْتَمِلْ بِإِزَارِهْ ... وَتَمَتَّعْ بِالْحُسْنِ فِي أَغْوَارِهْ

وَدَعِ الْهَيْكَلَ التُّرَابِيَّ حِينًا ... وَاسْرِ بِالرُّوحِ فِي مَدَىٰ مِضْمَارِهْ

سَتَرَىٰ غُرَّةً لِيَوْمٍ جَدِيدٍ ... كَانَ فِي الْغَيْبِ وَانْبَرَىٰ مِنْ سِتَارِهْ

وَالضِّيَاءُ الْحَيْرَانُ يُضْفِي عَلَيْهِ ... حُلَّةً مِنْ لُجَيْنِهِ وَنُضَارِهْ[2]

أَرْهِفِ الْحِسَّ وَاسْتَمِعْ لِنَجَاوَىٰ ... الْفَجْرِ مَا بَيْنَ دِيكِهِ وَهَزَارِهْ[3]

---

(١) تبوأ : احتل .

(٢) اللجين : الفضة ، والنضار : الذهب .

(٣) الهزار : طائر مغرد .

وَتَأَمَّلْ فَيْضَ الْجَمَالِ عَلَىٰ الْوَادِي ... نَضِيرًا يَشِعُّ فِي أَسْحَارِهْ

وَالرَّوَابِي تَوَكَّأَتْ عَنْ يَمِينٍ ... وَشِمَالٍ وَاسْتَرْسَلَتْ فِي جِوَارِهْ

وَعَلَيْهَا مِنَ الصَّنَوْبَرِ تَاجٌ ... رَكَعَ الزَّهْرُ خَاشِعًا مِنْ وَقَارِهْ

يَا لَطِيبِ النَّسِيمِ هَفَّ عَلِيلًا ... يَسْتَثِيرُ الْحَفِيفَ مِنْ أَشْجَارِهْ

ثُمَّ يَسْرِي فِي رِقَّةٍ وَدَلَالٍ ... مُشْبَعًا بِالْأَرِيجِ مِنْ أَزْهَارِهْ

وَكَأَنِّي بِالشَّمْسِ غَارَتْ مِنَ الْوَادِي ... وَقَدْ لَاحَ زَاهِيًا فِي خِمَارِهْ

ثُمَّ أَلْقَىٰ عَبَاءَةَ اللَّيْلِ عَنْهُ ... فَتَبَدَّىٰ الْجَمَالُ بَعْدَ اسْتِتَارِهْ

إِيهِ «قِرْنَايِلٌ»(١) عَلَيْكِ سَلَامٌ ... مِنْ غَرِيبٍ مُرَزًّا(٢) فِي دِيَارِهْ

كُلَّمَا لَاحَ فِي سَمَائِكِ بَدْرٌ ... أَجَّ فِيهِ الْهَوَىٰ إِلَىٰ أَقْمَارِهْ

وَتَغَنَّىٰ فِي لَوْعَةٍ وَحَنِينٍ ... بِلُحُونِ الْمَاضِينَ مِنْ سُمَّارِهْ(٣)

لَيْتَ هَذَا الزَّمَانَ سَارَ سَوِيًّا ... وَتَخَلَّىٰ عَنْ جَوْرِهِ وَقِمَارِهْ

وَحَبَا رَاعِيَ الْمُرُوءَاتِ فِي الْجُلَّىٰ ... حُسَامًا يَصُولُ فِي بَتَّارِهْ

وَأَتَاحَ الْمَجَالَ لِلطَّامِحِ الْمِقْدَامِ ... يَبْنِي أَمْجَادَهُ بِبِدَارِهْ

غَيْرَ أَنَّ الزَّمَانَ سَارَ بِنَهْجٍ ... عَزَّ إِدْرَاكُنَا لِغَوْرِ قَرَارِهْ

ضَفَرَ الْغَارَ(٤) لِلْجَبَانِ وَأَقْصَىٰ ... عَنْ جَبِينِ الشُّجَاعِ إِكْلِيلَ غَارِهْ

◆ مَا أَرْوَعَ هَذَا الشِّعْرَ؟! فِيهِ حَرَارَةُ شَكْوَىٰ الْمُتَنَبِّي.

---

(١) قرنايل: قرية جبلية في لبنان.
(٢) مُرزّأ: مصاب بكثير من الأرزاء وهي المصائب.
(٣) سُمّاره: المسامرون والمؤتلفون في المجلس.
(٤) الغار: نبات عطري تضفر أغصانه كالتاج هدية للظافرين.

◇ وَفِيهِ بَرَاعَةُ وَصْفِ الْبُحْتُرِيِّ أَيْضًا .

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَأْذَنُ ؟ .

◇ هَاتِهِ وَلَا تَتَحَرَّجْ .

◆ كَثِيرًا مَا يُقَالُ : سَمَّيْتُهُ مُحَمَّدًا ، وَسَمَّيْتُهُ بِمُحَمَّدٍ .

◇ نَعَمْ .

◆ أَفَهُمَا اسْتِعْمَالَانِ جَائِزَانِ ، أَمْ إِنَّ أَحَدَهُمَا جَائِزٌ وَالْآخَرُ غَيْرُ جَائِزٍ ؟ .

◇ بَلْ هُمَا اسْتِعْمَالَانِ جَائِزَانِ ، فَهُنَاكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَفْعَالِ تَتَعَدَّىٰ بِنَفْسِهَا وَبِحَرْفِ الْجَرِّ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ قَوْلِنَا : ***اشْتَقْتُ*** فُلَانًا وَاشْتَقْتُ إِلَيْهِ ، وَ ***قَصَدْتُ*** فُلَانًا وَقَصَدْتُ إِلَيْهِ ، وَ ***بَلَغْتُ*** الْمَكَانَ وَبَلَغْتُ إِلَيْهِ ، وَ ***ظَفِرْتُ*** الشَّيْءَ وَظَفِرْتُ بِهِ ، وَ ***جَاوَزْتُ*** الْقَوْمَ وَجَاوَزْتُ فِيهِمْ ، وَ ***أَمْسَكْتُ*** الشَّيْءَ ، وَأَمْسَكْتُ بِهِ ، وَ ***حَلَلْتُ*** الْمَكَانَ وَحَلَلْتُ بِهِ ، وَ ***طَرَحْتُ*** الشَّيْءَ وَطَرَحْتُ بِهِ ، وَ ***كَنَّيْتُ*** فُلَانًا أَبَا سَعِيدٍ وَكَنَّيْتُهُ بِأَبِي سَعِيدٍ ، وَ ***سَمَّيْتُهُ*** فُلَانًا وَسَمَّيْتُهُ بِفُلَانٍ ، وَ ***زَوَّجْتُهُ*** فُلَانَةَ وَزَوَّجْتُهُ بِهَا وَمِنْهَا .

◆ أَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَتَعَدَّىٰ بِنَفْسِهَا وَبِحَرْفِ الْجَرِّ ؟ .

◇ هَذِهِ طَائِفَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا ، وَهُنَاكَ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ أَيْضًا .

◆ وَكَيْفَ الْوُصُولُ إِلَيْهَا ؟ .

◇ لَيْسَ هُنَاكَ كِتَابٌ - فِيمَا أَعْلَمُ - يُحْصِيهَا ، وَلَكِنَّ الْمَرْءَ الْبَاحِثَ يَسْتَطِيعُ اسْتِقْصَاءَهَا بِالْمُطَالَعَةِ وَالتَّسْجِيلِ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي كُلَّ خَيْرٍ .

◇ آمِينَ .

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْيَوْمِ أَرْجُو أَلَّا تَكُونَ قَدْ نَسِيتَهَا .

◇ إِذَا نَسِيتُهَا أَنَا فَلَنْ تَنْسَاهَا أَنْتَ ، وَعَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ فَأَنَا لَمْ أَنْسَهَا .

◆ إِذَنْ عَجِّلْ بِهَا عَجَّلَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ .

◇ هَذِهِ خُطْبَةٌ لِبَدِيعِ الزَّمَانِ الْهَمَذَانِيِّ صَاحِبِ الْمَقَامَاتِ الْمَشْهُورَةِ ؛ صَنَعَهَا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي لَا نَقْطَ فِيهَا ...

◆ مِنْ حُرُوفٍ لَا نَقْطَ فِيهَا !!! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَتَأَمَّلْهَا جَيِّدًا لِتُدْرِكَ بَرَاعَةَ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَبَلَاغَةَ بَدِيعِ الزَّمَانِ :
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَمْدُوحِ الْأَسْمَاءِ ، الْمَحْمُودِ الْآلَاءِ ، الْوَاسِعِ الْعَطَاءِ ، الْمَدْعُوِّ لِحَسْمِ اللَّأْوَاءِ[1] .
مَالِكِ الْأُمَمِ ، وَمُصَوِّرِ الرَّحِمِ ، وَمُكْرِمِ أَهْلِ السَّمَاحِ وَالْكَرَمِ ، وَمُهْلِكِ عَادٍ وَإِرَمَ .
أَدْرَكَ كُلَّ سِرٍّ عِلْمُهُ ، وَوَسِعَ كُلَّ مُصِرٍّ حِلْمُهُ ، وَعَمَّ كُلَّ عَالَمٍ طَوْلُهُ ، وَهَدَّ

(١) اللَّأْوَاء : ضيق المعيشة ، أو شدة المرض .

كُلَّ مَارِدٍ حَوْلَهُ.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ مُوَحِّدٍ مُسْلِمٍ، وَأَدْعُوهُ دُعَاءَ مُؤَمِّلٍ مُسَلِّمٍ.

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْعَادِلُ الصَّمَدُ... مَا هَدَرَ حَمَامٌ، وَسَرَحَ سَوَامٌ[1]، وَسَطَا حُسَامٌ.

اِعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ عَمَلَ الصُّلَحَاءِ، وَاكْدَحُوا لِمَعَادِكُمْ كَدْحَ الْأَصِحَّاءِ، وَارْدَعُوا أَهْوَاءَكُمْ رَدْعَ الْأَعْدَاءِ، وَأَعِدُّوا لِلرِّحْلَةِ إِعْدَادَ السُّعَدَاءِ.

وَادَّرِعُوا حُلَلَ الْوَرَعِ[2]، وَدَاوُوا عِلَلَ الطَّمَعِ، وَسَوُّوا أَوَدَ[3] الْعَمَلِ.

وَصَوِّرُوا لِأَوْهَامِكُمْ حُؤُولَ[4] الْأَحْوَالِ، وَحُلُولَ الْأَهْوَالِ، وَالْمَحُوا الدَّهْرَ وَلُؤْمَ كَرِّهِ وَسُوءَ مِحَالِهِ وَمَكْرِهِ.

كَمْ طَمَسَ مَعْلَمًا وَأَمَرَّ مَطْعَمًا، عَمَّ حُكْمُهُ الْمُلُوكَ وَالرَّعَاعَ، وَالْمَسُودَ وَالْمُطَاعَ، وَالْمَحْسُودَ وَالْحُسَّادَ، وَالْأَسَاوِدَ وَالْآسَادَ...

مَا مَوَّلَ[5] إِلَّا مَالَ، وَعَكَسَ الْآمَالَ، وَمَا وَصَلَ إِلَّا وَصَالَ[6] وَهَصَرَ الْأَوْصَالَ، وَلَا سَرَّ إِلَّا وَسَاءَ وَلَؤُمَ وَأَسَاءَ[7].

وَلَا أَصَحَّ إِلَّا وَلَّدَ الدَّاءَ[8]، وَرَوَّعَ الْأَوِدَّاءَ.

اللَّهَ اللَّهَ، رَعَاكُمُ اللَّهُ إِلَّا الْإِصْرَارُ وَحَمْلُ الْآصَارِ[9]... أَلَا رَحِمَ اللَّهُ امْرَءًا مَلَكَ هَوَاهُ، وَأَمَّ مَسَالِكَ هُدَاهُ.

* * *

(١) السوام: جمع سائمة وهي المواشي تسرح في المرعى.

(٢) أي كأن الورع كالحلل والدروع التي يتحصنون بها.

(٣) الأود: هو الاعوجاج.

(٤) حُؤُول الأحوال: تغيرها وتبدلها.

(٥) ما موّل: ما أكسب المرء مالاً.

(٦) إلّا وَصَال: عاد بالحرب على من كان يصله.

(٧) لؤم وأساء: اتصف باللؤم والإساءة.

(٨) وَلّد الدّاء: حوّل الصحة إلى مرض وسقم.

(٩) الآصار: الأحمال الثقيلة.

الْجَلْسَةُ الْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ

مَعْرِفَةُ الْأَصِيلِ مِنَ الدَّخِيلِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ وَعَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ بَسَطْتَ الْقَوْلَ فِي خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ، وَأَبَنْتَ كَيْفَ أَنَّ الِاشْتِقَاقَ أَغْنَىٰ مَادَّةَ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَضَبَطَ نِظَامَهَا ، وَيَسَّرَ الْقِيَاسَ فِي أَحْكَامِهَا ، وَجَعَلَ مِنْهَا لُغَةً وَلُودًا عَلَىٰ كَرِّ الْعُصُورِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ - دَامَ عِزُّكَ - تَكَلَّمْتَ عَلَىٰ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ ؛ فَقُلْتَ : إِنَّهُ جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَنْتَظِمُ فِي أُسَرٍ وَمَجْمُوعَاتٍ ، بَيْنَمَا غَلَبَتِ الْفَرْدِيَّةُ عَلَىٰ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ الْأُخْرَىٰ .

◇ بُورِكَ فِيكَ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ ؛ يَفْهَمُ وَيُفْهِمُ .

◆ كَمَا قُلْتَ أَيْضًا : إِنَّ الِاشْتِقَاقَ يَسَّرَ لِعُلَمَائِنَا أَنْ يَضَعُوا مُعْجَمَاتِنَا عَلَىٰ أَسَاسِ

الْأُسَرِ وَالْمَوَادِّ ؛ بَيْنَمَا وُضِعَتْ مُعْجَمَاتُ الْآخَرِينَ عَلَىٰ أَسَاسٍ فَرْدِيٍّ لَا تَرَابُطَ فِيهِ .

◇ مَا شَاءَ اللَّهُ ، مَا شَاءَ اللَّهُ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ أَضَفْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ مَزَايَا ثَلَاثًا ، أُولَاهَا : أَنَّ الِاشْتِقَاقَ جَعَلَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً ذَاتَ قَوَاعِدَ ، وَثَانِيَتُهَا : أَنَّهُ جَعَلَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ كَائِنًا حَيًّا نَامِيًا قَادِرًا عَلَىٰ سَدِّ حَاجَاتِ الْأُمَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ فِي شَتَّىٰ مَجَالَاتِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْآدَابِ . وَثَالِثَتُهَا ... وَثَالِثَتُهَا ... قُلْ مَعِي يَا طَوِيلَ الْعُمْرِ ...

◇ وَثَالِثَتُهَا : أَنَّ الِاشْتِقَاقَ يَضَعُ أَيْدِينَا عَلَىٰ أُصُولِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا ، وَيُيَسِّرُ لَنَا سُبُلَ فَهْمِ مَعَانِيهَا ، إِذْ كَثِيرًا مَا تَبْقَىٰ الْكَلِمَةُ غَامِضَةَ الدَّلَالَةِ حَتَّىٰ نَرُدَّهَا إِلَىٰ أَصْلِهَا الَّذِي اشْتُقَّتْ مِنْهُ .

◆ لَقَدْ تَذَكَّرْتُ ، تَذَكَّرْتُ جَيِّدًا ، وَقَدْ ضَرَبْتَ مِثَالًا عَلَىٰ ذَلِكَ بِكَلِمَاتِ الرِّبَا ، وَالرَّبْوَةِ ، وَالتَّرْبِيَةِ ، وَالْمُرَبِّي ، وَأَبَنْتَ كَيْفَ أَنَّهَا اشْتُقَّتْ مِنْ مَادَّةِ « رَبَوَ » ، وَكَيْفَ أَنَّهَا جَمِيعًا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الزِّيَادَةِ .

◇ أَحْسَنْتَ ، أَحْسَنْتَ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - هَمَمْتَ بِاسْتِكْمَالِ مَا أَخَذْتَ فِيهِ ؛ فَعَاجَلَكَ الْوَقْتُ .

◇ نَعَمْ ، يَا بُنَيَّ نَعَمْ .

◆ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأْتَ فِيهِ .

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ يَا بُنَيَّ ، لَكَ مَا طَلَبْتَ ... إِنَّ مِنْ مَزَايَا الِاشْتِقَاقِ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ يُمَكِّنُنَا مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَصِيلِ وَالدَّخِيلِ ، وَيُيَسِّرُ لَنَا سُبُلَ التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا .

◆ وَمَا الدَّخِيلُ ؟ طَالَ بَقَاؤُكَ .

◇ الدَّخِيلُ : هُوَ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي دَخَلَتْ إِلَىٰ مَتْنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ ، عَبْرَ الْقُرُونِ الطَّوِيلَةِ .

◆ وَهَلْ فِي اللُّغَةِ الْفُصْحَىٰ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا دَخِيلٌ وَرَدَ عَلَيْهَا مِنَ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ ؟! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، إِنَّ فِي اللُّغَةِ الْفُصْحَىٰ طَائِفَةً غَيْرَ قَلِيلَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الدَّخِيلَةِ الَّتِي نُقِلَتْ إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، فَهَضَمَتْهَا اللُّغَةُ الْفُصْحَىٰ وَتَمَثَّلَتْهَا ، وَجَعَلَتْهَا جُزْءًا مِنْهَا .

◆ وَهَلِ اسْتَعْمَلَ أُدَبَاؤُنَا هَذِهِ الْأَلْفَاظَ فِي أَدَبِهِمْ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لَقَدِ اسْتَعْمَلَهَا كُتَّابُنَا وَشُعَرَاؤُنَا وَفُصَحَاؤُنَا مُنْذُ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ إِلَىٰ الْيَوْمِ ، وَنَحْنُ نَقْرَؤُهَا وَكَثِيرٌ مِنَّا لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا دَخِيلَةٌ ؛ لِأَنَّ أَرْبَابَ هَذِهِ اللُّغَةِ لَمْ يُدْخِلُوا هَذِهِ الْأَلْفَاظَ إِلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ عَدَّلُوا فِيهَا وَبَدَّلُوا مِنْ صِيَغِهَا ... حَتَّىٰ غَدَتْ مُمَاثِلَةً لِلصِّيَغِ الْعَرَبِيَّةِ جَارِيَةً عَلَىٰ سَنَنِهَا .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ : الْكُوبِ ، وَالْفُنْدُقِ ، وَالْمَنْجَنِيقِ ، وَالْإِيوَانِ ، وَالْجِصِّ ، وَالْجُمَانِ ، وَالْكِيمْيَاءِ ، وَالْأُسْتَاذِ .

◆ الْأُسْتَاذُ !! حَتَّىٰ كَلِمَةُ الْأُسْتَاذِ دَخِيلَةٌ وَلَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ أَصِيلَةٍ ؟!! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، حَتَّىٰ كَلِمَةُ الْأُسْتَاذِ دَخِيلَةٌ مُعَرَّبَةٌ .

◆ مِنْ أَيَّةِ لُغَةٍ ؟ .

◇ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ ؛ فَالْفُرْسُ تَقُولُ لِلْمَاهِرِ بِصَنْعَتِهِ أُسْتَاذٌ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ تَحْتَ يَدَيْ هَذَا الصَّانِعِ الْمَاهِرِ صِبْيَةٌ يُعَلِّمُهُمُ الصَّنْعَةَ .

◆ وَكَيْفَ قَرَّرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ لَفْظَةَ أُسْتَاذٍ مَثَلًا دَخِيلَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ أَصِيلَةٍ ؟ .

◇ لَاحَظَ الْعُلَمَاءُ يَا بُنَيَّ أَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ لَمْ تُوجَدْ فِي نَصٍّ جَاهِلِيٍّ مِنْ شِعْرٍ أَوْ نَثْرٍ ، ثُمَّ إِنَّهَا لَمْ تَرِدْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، ثُمَّ إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عَرَبِيَّةً لَكَانَتْ مُشْتَقَّةً مِنْ مَادَّة « سَتَذَ » وَهَذِهِ الْمَادَّةُ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الْمُعْجَمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ الْآنَ بَدَأْتُ أُدْرِكُ أَثَرَ الِاشْتِقَاقِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْأَصِيلِ وَالدَّخِيلِ مِنَ الْأَلْفَاظِ .

◇ هَدَاكَ اللَّهُ لِكُلِّ خَيْرٍ .

◆ وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَنَا - نَحْنُ - مَعْرِفَةُ الْأَصِيلِ مِنَ الدَّخِيلِ ؟ .

◇ لَقَدْ تَكَفَّلَ عُلَمَاؤُنَا الْأَقْدَمُونَ بِذَلِكَ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ صَنَعُوا لَنَا مُعْجَمَاتٍ خَاصَّةً بِالدَّخِيلِ الْمَوْجُودِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ .

◆ مُعْجَمَاتٍ خَاصَّةً ... خَاصَّةً بِالدَّخِيلِ !!! .

◇ نَعَمْ يَا وَلَدِي نَعَمْ .

◆ وَمَا هَذِهِ الْمُعْجَمَاتُ ؟ .

◇ مِنْ هَذِهِ الْمُعْجَمَاتُ يَا بُنَيَّ كِتَابُ « الْمُعَرَّبُ مِنَ الْكَلَامِ الْأَعْجَمِيِّ » لِلْجَوَالِيقِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ ، وَكِتَابُ « شِفَاءُ الْغَلِيلِ فِيمَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنَ الدَّخِيلِ » لِلشِّهَابِ الْخَفَاجِيِّ ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ

عَشَرَاتِ الْكُتُبِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ هَذَا الْمَوْضُوعَ تَنَاوُلًا جُزْئِيًّا .

◆ هَذَا الْكَلَامُ جَدِيدٌ عَلَيَّ يَا أَبَتِ كُلَّ الْجِدَّةِ .

◇ قَدَّرْتُ ذَلِكَ وَتَوَقَّعْتُهُ .

◆ وَهُوَ يُثِيرُ فِي نَفْسِي أَكْثَرَ مِنْ مُشْكِلَةٍ .

◇ سَأَسُلُّ هَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ مِنْ نَفْسِكَ ؛ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ وَلَكِنْ ، أَلَمْ يَضَعْ عُلَمَاؤُنَا ضَوَابِطَ ؛ تُيَسِّرُ لِأَمْثَالِنَا تَمْيِيزَ الدَّخِيلِ مِنَ الْأَصِيلِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ بَلْ وَضَعُوا طَائِفَةً حَسَنَةً مِنَ الضَّوَابِطِ .

◆ فَمَاذَا قَالُوا ؟ .

◇ قَالُوا : إِنَّ الصَّادَ وَالْجِيمَ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي كَلِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ : الصَّوْلَجَانِ ، وَالْجِصِّ ، وَالصَّنْجَةِ ، وَنَحْوِهَا .

◆ نَعَمْ .

◇ وَقَالُوا أَيْضًا : إِنَّ الْجِيمَ وَالْقَافَ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي كَلِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ ، فَمَتَى جَاءَتَا فِي كَلِمَةٍ ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهَا دَخِيلَةٌ مُعَرَّبَةٌ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ كَلِمَةِ : الْجَوْقِ ، وَالْجَوْقَةِ .

◆ وَأَيْضًا .

◇ وَقَالُوا أَيْضًا : إِنَّهُ لَا يُوجَدُ لَدَىٰ الْعَرَبِ اسْمٌ فِيهِ نُونٌ بَعْدَهَا رَاءٌ ، فَإِذَا وَقَعْتَ عَلَىٰ اسْمٍ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُعَرَّبٌ دَخِيلٌ وَلَيْسَ بِعَرَبِيٍّ أَصِيلٍ .

◆ اسْمٌ فِيهِ نُونٌ بَعْدَهَا رَاءٌ !! مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ : نَرْجِسْ ، وَنَوْرَجٍ ، وَنَحْوِهِمَا .

◆ طَيِّبٌ .

◇ وَقَالُوا أَيْضًا : لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لَفْظٌ فِيهِ دَالٌ بَعْدَهَا زَايٌ .

◆ لَفْظٌ فِيهِ دَالٌ بَعْدَهَا زَايٌ !! مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ لَفْظَةِ « مُهَنْدِزٌ » .

◆ أَيُرِيدُونَ بِالْمُهَنْدِزِ الْمُهَنْدِسَ ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ؛ فَقَدْ أَبْدَلُوا الزَّايَ سِينًا ... هَذِهِ هِيَ أَبْرَزُ الضَّوَابِطِ الَّتِي وَضَعَهَا عُلَمَاءُ الْعَرَبِ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الدَّخِيلِ وَالْأَصِيلِ ، وَلَكِنَّهُمْ اعْتَمَدُوا مَعَ ذَلِكَ عَلَىٰ الِاشْتِقَاقِ أَيْضًا ؛ فَالْكَلِمَاتُ الَّتِي لَا مَادَّةَ لَهَا فِي الْمُعْجَمَاتِ تَكُونُ دَائِمًا مَحَلَّ نَظَرٍ ؛ إِذْ كَثِيرًا مَا تَكُونُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ دَخِيلَةً .

◆ يَبْدُو لِي أَنَّ أَمْرَ الدَّخِيلِ فِي الْعَرَبِيَّةِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الْإِيضَاحِ .

◇ حَقًّا إِنَّهُ لَكَذَلِكَ ، وَسَأَزِيدُهُ إِيضَاحًا فِي الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ

الْعَرَبِ « وَاوِيَّةً » وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا « يَائِيَّةً » .

◇ نَعَمْ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ وَقَعَ مِنْ نَفْسِكَ مَوْقِعًا حَسَنًا .

◆ مَوْقِعًا حَسَنًا فَحَسْبُ !! .

◇ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ .

◆ وَالْآنَ ، أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ أُضِيفَهُ إِلَى بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ، أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا ؟ .

◇ بَلْ أَعْدَدْتُ لَكَ شَيْئًا جَدِيدًا يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَفْعَالِ جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَهْمُوزَةً عَلَى وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا عَلَى وَزْنِ « فَعَلْتُ » مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِمْ : قَفَلْتُ الْبَابَ فَهُوَ مَقْفُولٌ ، وَذَلِكَ خَطَأٌ ...

◆ خَطَأٌ !!! .

◇ نَعَمْ خَطَأٌ يَا بُنَيَّ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَقْفَلْتُ الْبَابَ فَهُوَ مُقْفَلٌ . ×

◆ وَصِيغَةُ « قَفَلَ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ ؟ .

◆ وَمَا مَعْنَاهَا ؟ .

◇ يُقَالُ : « قَفَلَ » فُلَانٌ يَقْفُلُ قَفْلًا وَقُفُولًا إِذَا رَجَعَ مِنَ السَّفَرِ خَاصَّةً .

◆ مِنَ السَّفَرِ خَاصَّةً !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، فَهَذَا الْفِعْلُ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الرُّجُوعِ مِنَ السَّفَرِ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : غَلَقَ الْبَابَ .

◆ وَغَلَقَ الْبَابَ خَطَأٌ أَيْضًا ؟! .

◇ نَعَمْ إِنَّهَا خَطَأٌ أَيْضًا ، وَمَنْ أَجَازَهَا مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ قَالَ عَنْهَا : إِنَّهَا لُغَةٌ رَدِيئَةٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَغْلَقَ الْبَابَ فَهُوَ مُغْلَقٌ ، كَمَا يُقَالُ أَيْضًا : غَلَّقَ الْبَابَ فَهُوَ مُغَلَّقٌ .

◆ أَبَتِ ، عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ يُتَاحَ لِي تَسْجِيلُ هَذِهِ الْفَوَائِدِ .

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ يَا بُنَيَّ لَكَ مَا طَلَبْتَ ... وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : جَبَرْتُ فُلَانًا عَلَىٰ فِعْلِ كَذَا ... وَهُوَ خَطَأٌ أَيْضًا .

◆ مَا أَكْثَرَ أَخْطَاءَنَا !! .

◇ وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَجْبَرْتُ فُلَانًا عَلَىٰ فِعْلِ كَذَا ...

◆ وَصِيغَةُ « جَبَرْتُ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا مَعْنَاهَا أَجْزَلَ اللَّهُ ثَوَابَكَ ؟ .

◇ تَقُولُ: جَبَرْتُهُ مِنْ فَقْرٍ أَجْبُرُهُ جَبْرًا، وَتَقُولُ أَيْضًا: جَبَرْتُ عَظْمَ الْكَسِيرِ، فَانْجَبَرَ عَظْمُهُ.

◆ إِذَنْ يُقَالُ: أَجْبَرْتُهُ عَلَىٰ الْأَمْرِ بِمَعْنَىٰ حَمَلْتُهُ عَلَيْهِ، وَجَبَرْتُ كَسْرَهُ وَفَقْرَهُ بِمَعْنَىٰ أَعَنْتُهُ وَأَسْعَفْتُهُ.

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ.

◆ زِدْنِي مِنْ هَذِهِ الْفَوَائِدِ زَادَكَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ.

◇ حَسْبُكَ هَذَا الْيَوْمَ يَا بُنَيَّ؛ فَمَا قَلَّ وَقَرَّ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَفَرَّ.

* * *

◆ أَبَتِ وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ، إِنِّي لَفِي شَوْقٍ إِلَىٰ طِيبِ شَذَاهَا، وَحُلْوِ جَنَاهَا.

◇ هَلُمَّ إِلَيْهَا، وَتَمَلَّ مَا شِئْتَ مِنْ رَوْحِهَا وَرَيْحَانِهَا.

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ؟.

◇ كُثَيِّرٌ.

◆ صَاحِبُ عَزَّةَ؟.

◇ نَعَمْ صَاحِبُ عَزَّةَ يَا بُنَيَّ.

◆ وَمَا الزَّهْرَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ؟.

◇ مَقْطُوعَةٌ قَالَهَا عَلَىٰ الْبَدِيهَةِ(١)، قَالَهَا دِفَاعًا عَنْ نَفْسِهِ فِي مَوْقِفٍ لَهُ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ.

---

(١) علىٰ البديهة: ارتجالًا بدون إعداد مسبَق.

◆ وَمَا ذَلِكَ الْمَوْقِفُ ؟ .

◇ دَخَلَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ عَلَىٰ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَآهُ مِنْ قَبْلُ ... فَوَجَدَهُ ضَئِيلَ الْجِسْمِ قَلِيلَ الرُّوَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ كُثَيِّرٌ ؟!! .
قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
قَالَ : تَسْمَعَ بِالْمُعَيْدِيِّ[1] خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ .
فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : كُلُّ إِنْسَانٍ فِي مَحَلِّهِ رَحْبُ الْفِنَاءِ ، شَامِخُ الْبِنَاءِ ، عَالِي السَّنَاءِ ... وَأَنْشَدَ يَقُولُ :

تَرَىٰ الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ ... وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ[2] فَتَبْتَلِيهِ ... فَيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ
بُغَاثُ[3] الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَابًا ... وَلَمْ تَطُلِ الْبُزَاةُ وَلَا الصُّقُورُ
خَشَاشُ[4] الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاخًا ... وَأُمُّ الْبَازِ مِقْلَاةٌ نَزُورُ
ضِعَافُ الْأُسْدِ أَكْثَرُهَا زَئِيرًا ... وَأَصْرَمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
وَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ ... فَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
يُنَوَّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوَىٰ ... فَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرُ
فَمَا عِظَمُ الرِّجَالِ لَهُمْ بِزَيْنٍ ... وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ حَسَبٌ وَخِيرُ

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : قَاتَلَهُ اللَّهُ ، مَا أَطْوَلَ لِسَانَهُ ، وَأَمَدَّ عِنَانَهُ[5]، وَأَوْسَعَ جَنَانَهُ ، وَإِنِّي لَأَحْسَبُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ .

◆ مَا هَذِهِ الْبَدِيهَةُ الْمُوَاتِيَةُ ؟!! .

---

(١) المعيدي : رجل يضرب به المثل في الاشتهار بالعلم والأدب مع ضآلة جسمه ، وقبح صورته .
(٢) الطرير : ذو المنظر والرّواء والهيئة الحسنة .
(٣) البغاث : طائر بطيء الطيران .
(٤) خشاش الطير : الطيور الضعيفة كأنها الحشرات .
(٥) العنان : لجام الفرس .

◇ اسْتُثِيرَ فَثَارَ ، وَهُزَّ فَاهْتَزَّ ... فَكَانَ مِنْ ثَمَرَةِ ذَلِكَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ الْبَاقِيَاتُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَأْذَنُ ؟ .

◇ وَهَلِ اجْتَمَعْنَا هُنَا إِلَّا لِتَسْأَلَ وَأُجِيبَ ؟! هَاتِهِ ، هَاتِهِ .

◆ أَبَتِ ، حِينَ ذَكَّرْتُكَ بِرَوْضَةِ الشِّعْرِ وَسَأَلْتُكَ عَنْهَا ؛ قُلْتَ لِي : « هَلُمَّ إِلَيْهَا » ، فَمَا مَعْنَىٰ هَلُمَّ ؟ .

◇ **هَلُمَّ** يَا بُنَيَّ اسْمُ فِعْلِ أَمْرٍ بِمَعْنَىٰ أَقْبِلْ .

◆ وَكَيْفَ تُسْتَعْمَلُ **هَلُمَّ** ؟ .

◇ تُسْتَعْمَلُ **هَلُمَّ** بِصِيغَةٍ وَاحِدَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، حَيْثُ يَسْتَوِي فِيهَا الْمُفْرَدُ ، وَالْجَمْعُ ، وَالْمُذَكَّرُ ، وَالْمُؤَنَّثُ .

◆ وَعَلَىٰ هَذَا يُقَالُ : **هَلُمَّ** يَا أَحْمَدُ ، وَ **هَلُمَّ** يَا رَجُلَانِ ، وَ **هَلُمَّ** يَا قَوْمُ ، وَ **هَلُمَّ** يَا هِنْدُ ، وَ **هَلُمَّ** يَا فَتَيَاتُ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لَكِنَّ بَعْضَ النَّحْوِيِّينَ يَجْعَلُونَ **هَلُمَّ** فِعْلَ أَمْرٍ ، لَا اسْمَ فِعْلٍ .

◆ وَمَاذَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ ؟ .

◇ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنْ تُعَامَلَ **هَلُمَّ** مُعَامَلَةَ الْأَفْعَالِ ؛ حَيْثُ تُلْحَقُ بِهَا الضَّمَائِرُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ يُقَالُ : **هَلُمَّ** لِلْمُفْرَدِ الْمُذَكَّرِ ، وَ **هَلُمَّا** لِلْمُثَنَّىٰ ، وَ **هَلُمُّوا** لِلْجَمْعِ ، وَ **هَلُمِّي** لِلْمُفْرَدَةِ الْمُؤَنَّثَةِ ، وَ **هَلْمُمْنَ** لِجَمْعِ الْإِنَاثِ .

◆ وَلَكِنَّ **هَلْمُمْنَ** هَذِهِ ثَقِيلَةٌ عَلَىٰ اللِّسَانِ .

◇ قَدْ يَكُونُ هَذَا هُوَ السَّبَبَ فِي أَنَّ الْعَرَبَ قَالُوا : إِنَّ الْأَفْصَحَ اسْتِعْمَالُ **هَلُمَّ** بِلَفْظٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ أَنَّهَا اسْمُ فِعْلٍ ، وَلَيْسَتْ فِعْلًا .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي أَكْرَمَ الْجَزَاءِ .

◇ آمِينَ .

◆ اللَّهُمَّ آمِينَ .

* * *

◆ وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ ، أَرْجُو أَلَّا يَضِيقَ عَنْهَا الْوَقْتُ .

◇ هَاكَهَا ، فَأَنَا صِرْتُ أَحْسِبُ حِسَابًا لِإِلْحَاحِكَ عَلَيْهَا ...
جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَقَالَ لَهُ :
مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ مَاتَ وَتَرَكَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ .
فَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : غِلْمَانٌ ... إِنْ فَهَّمْنَاهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا ، وَإِنْ عَلَّمْنَاهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا ، قُلْ تَرَكَ أَبَاهُ وَأَخَاهُ .
فَقَالَ الرَّجُلُ : فَمَا لِأَبَاهُ وَأَخَاهُ ؟ .
فَقَالَ الْحَسَنُ : قُلْ لِأَبِيهِ وَأَخِيهِ .
فَقَالَ الرَّجُلُ : مَا هَذَا !! كُلَّمَا تَابَعْتُكَ خَالَفْتَنِي !! .

* * *

(١) الحسن البصري : انظره في كتاب « صور من حياة التابعين » للمؤلف .

الْجَلْسَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ

ضَوَابِطُ تَمْيِيزِ الدَّخِيلِ مِنَ الْأَصِيلِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَرِضَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - حَدَّثْتَنِي فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ عَنِ الدَّخِيلِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَهُوَ مَا يُدْعَىٰ بِالْمُعَرَّبِ أَيْضًا .

◆ وَقَدْ كُنْتَ وَقَفْتَنِي عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الضَّوَابِطِ ؛ الَّتِي تُيَسِّرُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ تَمْيِيزَ الدَّخِيلِ مِنَ الْأَصِيلِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ .

◇ لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ .

◆ ثُمَّ إِنَّكَ - دَامَ عِزُّكَ - هَمَمْتَ بِاسْتِكْمَالِ تِلْكَ الضَّوَابِطِ ؛ فَعَاجَلَكَ الْوَقْتُ عَنْ إِتْمَامِ مَا بَدَأْتَ فِيهِ .

◇ مَا أَزَالُ أَذْكُرُ ذَلِكَ .

◆ فَهَلَّا تَفَضَّلْتَ بِإِتْمَامِ مَا أَخَذْتَ فِيهِ ؟ .

◇ لَكَ مَا طَلَبْتَ ... وَلَكِنْ بِشَرْطٍ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ عُمْرُكَ ؟ .

◇ هُوَ أَنْ تَذْكُرَ لِي الضَّوَابِطَ السَّابِقَةَ ؛ حَتَّى أُضِيفَ إِلَيْهَا الضَّوَابِطَ اللَّاحِقَةَ .

◆ لَقَدْ طَلَبْتَ يَسِيرًا ... الضَّوَابِطُ الَّتِي وَضَعَهَا الْعَرَبُ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْأَصِيلِ وَالدَّخِيلِ ... الضَّوَابِطُ ... نَعَمْ تَذَكَّرْتُ ...
أَوَّلُ هَذِهِ الضَّوَابِطِ : أَنَّ الصَّادَ وَالْجِيمَ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي كَلِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ ؛ فَإِذَا وَجَدْنَا هَذَيْنِ الْحَرْفَيْنِ مُجْتَمِعَيْنِ فِي كَلِمَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ حَكَمْنَا بِأَنَّهَا مُعَرَّبَةٌ دَخِيلَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ أَصِيلَةٍ .

◇ مِنْ نَحْوِ مَاذَا ؟ .

◆ مِنْ نَحْوِ ... مِنْ نَحْوِ : الصَّوْلَجَانِ ، وَالْجِصِّ ، وَالصِّهْرِيجِ ، وَالصَّنْجِ .

◇ أَحْسَنْتَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .

◆ وَثَانِي هَذِهِ الضَّوَابِطِ - يَا طَوِيلَ الْعُمْرِ - : أَنَّ الْجِيمَ وَالْقَافَ ... نَعَمْ ، الْجِيمَ وَالْقَافَ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي كَلِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ أَيْضًا ، فَإِذَا جَاءَتَا فِي كَلِمَةٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ عَلِمْنَا أَنَّهَا دَخِيلَةٌ .

◇ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◆ مِنْ مِثْلِ : الْمَنْجَنِيقِ ، وَالْجَوْسَقِ ، وَالْجَوْقِ ، وَغَيْرِهَا .

◇ بُورِكْتَ ... بُورِكْتَ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ .

◆ وَثَالِثُ هَذِهِ الضَّوَابِطِ : أَنَّ كُلَّ اسْمٍ فِيهِ نُونٌ مَتْلُوَّةٌ بِرَاءٍ فَهُوَ دَخِيلٌ مُعَرَّبٌ نَحْوَ :

نَرْجِسٍ ... نَعَمْ نَرْجِسٍ ؛ فَقَدْ تَعَاقَبَتْ فِيهِ النُّونُ وَالرَّاءُ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ .

◇ وَمِثْلُ النَّرْجِسِ النَّرْدُ أَيْضًا .

◆ وَرَابِعُ هَذِهِ الضَّوَابِطِ : أَنَّهُ لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لَفْظٌ فِيهِ دَالٌ بَعْدَهَا زَايٌ نَحْوَ : مُهَنْدِزٌ .

◇ الَّتِي حُوِّلَتْ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ إِلَىٰ مُهَنْدِسٍ حَيْثُ أُبْدِلَتِ الزَّايُ سِينًا فَصَارَتْ مُهَنْدِسًا .

◆ هَذِهِ هِيَ جُمْلَةُ الضَّوَابِطِ الَّتِي وَقَفْتَنِي عَلَيْهَا فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ .

◇ نَعَمْ إِنَّهَا هِيَ .

◆ هَا أَنَا ذَا قَدْ وَفَّيْتُ بِالشَّرْطِ ؛ فَهَاتِ الْمَشْرُوطَ .

◇ حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بُنَيَّ ، حُبًّا وَكَرَامَةً ... إِنَّ مِنْ جُمْلَةِ الضَّوَابِطِ الَّتِي وَضَعَهَا الْعُلَمَاءُ لِتَمْيِيزِ الْأَصِيلِ مِنَ الدَّخِيلِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلَهُمْ : لَمْ يُورِدِ الثِّقَاتُ كَلِمَةً عَرَبِيَّةً مَبْنِيَّةً مِنْ بَاءٍ وَتَاءٍ وَسِينٍ ؛ فَإِذَا رَأَيْتَ ذَلِكَ فِي كَلِمَةٍ فَاحْكُمْ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا دَخِيلَةٌ وَلَيْسَتْ بِأَصِيلَةٍ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ : كَلِمَةِ الْبُسْتَانُ .

◆ وَالْبُسْتَانُ دَخِيلَةٌ أَيْضًا !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَالْبُسْتَانُ دَخِيلَةٌ أَيْضًا .

◆ وَمِنْ أَيَّةِ لُغَةٍ دَخَلَتْ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

◇ دَخَلَتْ إِلَيْهَا مِنَ اللُّغَةِ الْفَارِسِيَّةِ يَا بُنَيَّ .

◆ يَبْدُو أَنَّ هَذَا الدَّخِيلَ أَكْثَرُ مِمَّا قَدَّرْتُ .

◇ إِنَّهُ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ يَا بُنَيَّ ، وَآيَةُ كَثْرَتِهِ ، أَنَّهُ وُجِدَتْ لَهُ مُعْجَمَاتٌ خَاصَّةٌ بِهِ .

◆ وَمَتَىٰ دَخَلَتْ لَفْظَةُ الْبُسْتَانِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

◇ دَخَلَتْ إِلَيْهَا فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ .

◆ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ !! .

◇ نَعَمْ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ يَا بُنَيَّ ، وَاسْتُعْمِلَتْ فِي شِعْرِ الْجَاهِلِيِّينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ ، فَقَدْ قَالَ جَرِيرٌ يُشِيدُ بِأَعْمَالِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَيَهْجُو خُصُومَهُمْ وَحَاسِدِيهِمْ :

يَعُضُّونَ الْأَنَامِلَ أَنْ رَأَوْهَا   بَسَاتِينًا يُؤَازِرُهَا الْحَصِيدُ

ثُمَّ هُنَاكَ ضَابِطٌ آخَرُ لِتَمْيِيزِ الدَّخِيلِ مِنَ الْأَصِيلِ .

◆ وَمَا هُوَ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ أَسُوقَ لَكَ هَذَا الضَّابِطَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أَقِفَكَ عَلَىٰ خَاصَّةٍ مِنْ خَصَائِصِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ وَمَا هِيَ ؟ .

◇ قَسَّمَ الْعَرَبُ الْحُرُوفَ إِلَىٰ أَقْسَامٍ ... قَسَّمُوهَا إِلَىٰ حُرُوفٍ شَدِيدَةٍ ، وَحُرُوفٍ رِخْوَةٍ مَثَلًا ؛ فَمِنَ الْحُرُوفِ « الشَّدِيدَةِ » : الْقَافُ وَالطَّاءُ ... وَمِنَ الْحُرُوفِ « الرِّخْوَةِ » : السِّينُ وَالشِّينُ وَالْحَاءُ .

◆ نَعَمْ .

◇ وَمِنْ أَقْسَامِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا حُرُوفُ الذَّلَاقَةِ .

◆ الذَّلَاقَةُ ! وَمَا حُرُوفُ الذَّلَاقَةِ ؟ .

◇ حُرُوفُ الذَّلَاقَةِ سِتَّةٌ يَا بُنَيَّ ، ثَلَاثَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ وَهِيَ : الرَّاءُ ، وَالنُّونُ ، وَاللَّامُ .

◆ الرَّاءُ ، وَالنُّونُ ، وَاللَّامُ ! .

◇ نَعَمْ ، وَثَلَاثَةٌ أُخْرَىٰ تَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ الشَّفَتَيْنِ وَهِيَ : الْفَاءُ ، وَالتَّاءُ ، وَالْمِيمُ .

◆ وَلِمَ دُعِيَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ السِّتَّةُ بِحُرُوفِ الذَّلَاقَةِ ؟ .

◇ أَحْسَبُ أَنَّ هَذَا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ .

◆ لَعَلَّهُمْ دَعَوْهَا بِحُرُوفِ الذَّلَاقَةِ لِسُهُولَةِ انْذِلَاقِهَا مِنَ الْفَمِ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، نَعَمْ إِنَّهَا دُعِيَتْ حُرُوفَ الذَّلَاقَةِ ؛ لِخِفَّتِهَا فِي النُّطْقِ ، وَسُهُولَةِ انْذِلَاقِهَا مِنَ اللِّسَانِ .

◆ وَمَا عَلَاقَةُ حُرُوفِ الذَّلَاقَةِ هَذِهِ بِمَعْرِفَةِ الدَّخِيلِ وَالْأَصِيلِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ قَبْلَ أَنْ أُجِيبَكَ عَلَىٰ سُؤَالِكَ هَذَا لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أُذَكِّرَكَ بِأَمْرٍ آخَرَ ... لَا بُدَّ مِنْ أَنْ أُذَكِّرَكَ بِمَا قُلْنَاهُ فِيمَا مَضَىٰ مِنْ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ بُنِيَتْ فِي الْكَثِيرِ الْغَالِبِ مِنْ ثَلَاثَةِ حُرُوفٍ ، وَذَلِكَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ رَشَاقَتِهَا وَخِفَّتِهَا .

◆ نَعَمْ .

◇ وَأَنَّ الرُّبَاعِيَّ قَلِيلٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَأَنَّ الْخُمَاسِيَّ أَقَلُّ مِنْهُ وَأَنْدَرُ ، وَأَنَّ السُّدَاسِيَّ يَكَادُ يَكُونُ مَعْدُومًا .

◆ أَذْكُرُ ذَلِكَ تَمَامًا ، وَأَذْكُرُ أَنَّكَ قُلْتَ : إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَرْتَاحُوا إِلَىٰ مَا زَادَ عَلَىٰ الثَّلَاثَةِ لِثِقَلِهِ فِي النُّطْقِ .

◇ وَمِنْ هُنَا قَرَّرَ الْعَرَبُ أَنَّ كُلَّ لَفْظٍ رُبَاعِيٍّ أَوْ خُمَاسِيٍّ يَخْلُو مِنْ أَحَدِ حُرُوفِ الذَّلَاقَةِ السِّتَّةِ ؛ يُعَدُّ دَخِيلًا عَلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ .

◆ وَلِمَاذَا ؟ .

◇ لِأَنَّ فِطْرَةَ الْعَرَبِيِّ السَّلِيمَةَ ، وَحِسَّهُ اللُّغَوِيَّ الْمُرْهَفَ يَأْبَيَانِ عَلَيْهِ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ زَائِدَةٍ عَلَىٰ الثَّلَاثَةِ ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الذَّلَاقَةِ .

◆ مَا أَبْدَعَ هَذِهِ اللُّغَةَ وَمَا أَرْوَعَهَا !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ أَبَىٰ أَصْحَابُ هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ يَجْمَعُوا فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ثِقَلَيْنِ : ثِقَلَ كَثْرَةِ الْحُرُوفِ ، وَثِقَلَ خُلُوِّ الْكَلِمَةِ مِنْ أَحَدِ الْحُرُوفِ الْخَفِيفَةِ الرَّشِيقَةِ الْمَدْعُوَّةِ بِحُرُوفِ الذَّلَاقَةِ .

◆ كَلَامٌ بَدِيعٌ !.

◇ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالُوا : إِذَا جَاءَكَ لَفْظٌ رُبَاعِيٌّ أَوْ خُمَاسِيٌّ خَالِيًا مِنْ أَحَدِ حُرُوفِ الذَّلَاقَةِ الَّتِي هِيَ « الرَّاءُ ، وَالنُّونُ ، وَاللَّامُ ، وَالْفَاءُ ، وَالتَّاءُ ، وَالْمِيمُ » فَاعْلَمْ أَنَّهُ دَخِيلٌ عَلَىٰ كَلَامِ الْعَرَبِ وَلَيْسَ بِأَصِيلٍ .

◆ أَبَتِ ، يَبْدُو لِي أَنَّ أَمْرَ الدَّخِيلِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الْإِيضَاحِ .

◇ حَقًّا إِنَّهُ لَكَذَلِكَ ، وَسَأَزِيدُهُ إِيضَاحًا فِي الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◆ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

◇ نَعَمْ إنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَسَّرَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَهْمُوزَةً عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » ، وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ أَفَدْتَ مِنْهُ فِي تَقْوِيمِ لِسَانِكَ وَتَهْذِيبِ بَيَانِكَ .

◆ وَإِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ أَيْضًا ، وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ أُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ؛ أَمْ إِنَّكَ قَدْ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِهَا مَشْكُورًا مَأْجُورًا .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَفْعَالِ مَهْمُوزًا عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهِ ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلَهُمْ : حَمَيْتُ الْحَدِيدَ وَهُوَ خَطَأٌ ...

◆ خَطَأٌ !! .

◇ نَعَمْ خَطَأٌ يَا بُنَيَّ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَحْمَيْتُ الْحَدِيدَ فَهُوَ مُحْمِيٌّ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « حَمَيْتُ » ، أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا هُوَ ؟ .

◇ تَقُولُ : حَمَيْتُ الْمَكَانَ أَحْمِيهِ إِذَا ذُدْتَ عَنْهُ وَدَافَعْتَ عَنْ حِمَاهُ .

◆ إِذَنْ يُقَالُ : أَحْمَيْتُ الْحَدِيدَ بِمَعْنَىٰ رَفَعْتُ حَرَارَتَهُ ، وَحَمَيْتُ الْمَكَانَ بِمَعْنَىٰ ذُدْتُ عَنْهُ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : عَتَقْتُ الْعَبْدَ وَهُوَ خَطَأٌ .

◆ وَهَذَا خَطَأٌ أَيْضًا ؟!! .

◇ نَعَمْ هُوَ خَطَأٌ يَا بُنَيَّ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَعْتَقْتُ الْعَبْدَ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « عَتَقَ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا مَعْنَاهَا ؟ .

◇ يُقَالُ : عَتَقَ الشَّيْءُ يَعْتُقُ عَتْقًا وَعِتْقًا أَيْ كَرُمَ .
وَالْعِتْقُ : الشَّرَفُ ، وَخُلُوصُ الْأَصْلِ ، وَالْجَمَالُ أَيْضًا . وَكَانَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

◆ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

◇ كَانَ يُلَقَّبُ بِالْعَتِيقِ .

◆ وَأَيْضًا ؟ .

◇ حَسْبُكَ هَذَا الْيَوْمَ حَسْبُكَ هَذَا ، فَفِيهِ الْكِفَايَةُ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ قَدْ أَتْحَفْتَنِي بِقَصِيدَةٍ لِكُثَيِّرِ عَزَّةَ .

◇ تِلْكَ الَّتِي قَالَهَا حِينَ اقْتَحَمَتْهُ عَيْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ؛ فَوَجَدَتْهُ ضَئِيلَ الْجِسْمِ قَلِيلَ الرُّوَاءِ .

◆ نَعَمْ أَقْصِدُ تِلْكَ الْقَصِيدَةَ الَّتِي دَافَعَ فِيهَا الشَّاعِرُ عَنْ ضَآلَةِ جَسَدِهِ دِفَاعًا جَعَلَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ يَقُولُ : قَاتَلَهُ اللَّهُ مَا أَطْوَلَ لِسَانَهُ ، وَأَمَدَّ عِنَانَهُ ، وَأَوْسَعَ جَنَانَهُ ، إِنِّي لَأَحْسَبُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ .

◇ وَلَكِنْ مَا الَّذِي تَقْصِدُهُ مِنَ التَّذْكِيرِ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ ؟! .

◆ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عَمَّا إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ قَصَائِدُ أُخْرَىٰ فِي الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ تَطْرِقُ الْمَوْضُوعَ الَّذِي طَرَقَهُ كُثَيِّرُ عَزَّةَ ؟ .

◇ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي هَذَا الْغَرَضِ .

◆ مِنْ أَمْثَالِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ أَمْثَالِ تِلْكَ الْقَصِيدَةِ الَّتِي رَوَاهَا صَاحِبُ زَهْرِ الْآدَابِ لِشَاعِرٍ قَدِيمٍ ، وَالَّتِي قَالَهَا رَدًّا عَلَىٰ زَوْجَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَلُومُهُ عَلَىٰ كَرَمِهِ ، وَتَعِيبُ عَلَيْهِ قِصَرَ قَامَتِهِ ، وَضَآلَةَ جِسْمِهِ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ يَقُولُ :

وَعَـاذِلَـةٍ[1] هَبَّـتْ بِلَـيْلٍ تَـلُـومُـنِـي

وَلَـمْ يَغْـتَـمِـزْنِـي[2] قَـبْلَ ذَاكَ عَـذُولُ

تَقُولُ اتَّئِدْ[3] لَا يَدْعُكَ النَّاسُ مُمْلِقًا

وَتُزْرِي[4] بِمَنْ يَا ابْنَ الْكِرَامِ تَعُولُ

فَقُلْتُ: أَبَتْ نَفْسٌ عَلَيَّ كَرِيـمَـةٌ

وَطَـارِقُ لَـيْـلٍ عِـنْـدَ ذَاكَ يَـقُـولُ

أَلَـمْ تَعْلَمِي يَا عَمْرَكِ اللَّهُ[5] أَنَّنِي

كَـرِيـمٌ عَـلَـىٰ حِـينَ الْـكِـرَامُ قَـلِـيـلُ

وَأَنِّـيَ لَا أَخْـزَىٰ إِذَا قِـيـلَ مُـمْـلِـقٌ

سَـخِـيٌّ وَأَخْـزَىٰ أَنْ يُـقَـالَ بَـخِـيـلُ

إِذَا كُنْتُ فِي الْقَوْمِ الطِّوَالِ فَطُلْتُهُمْ

بِـعَـارِفَـةٍ[6] حَـتَّـىٰ يُـقَـالَ طَـوِيـلُ

وَلَا خَيْرَ فِي حُسْنِ الْجُسُومِ وَطُولِهَا *

إِذَا لَـمْ تَـزِنْ حُسْنَ الْـجُسُومِ عُقُولُ

فَـإِلَّا يَـكُـنْ جِـسْـمِـي طَـوِيـلًا فَـإِنَّـنِـي

لَـهُ بِـالْـفَـعَـالِ الـصَّـالِـحَـاتِ وَصُـولُ

---

(١) عاذِلة: لائمة.

(٢) يغتمزني: يجرؤ عليَّ ويلومني.

(٣) اتَّئِد: تمهل.

(٤) تزري: تقصر في الحق.

(٥) عَمْرك الله: الدعاء بطول العمر.

(٦) بعارفة: أي المعروف والجميل يقدم للناس.

وَلَـمْ أَرَ كَـالْـمَـعْـرُوفِ أَمَّـا مَـذَاقُـهُ

فَـحُـلْـوٌ، وَأَمَّـا وَجْـهُـهُ فَـجَـمِـيـلُ

◆ مَا أَرْوَعَ هَذَا الشِّعْرَ وَمَا أَجْمَلَهُ.

◇ إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً.

* * *

◆ أَبَتِ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَأْذَنُ؟.

◇ هَاتِهِ، هَاتِهِ يَا بُنَيَّ وَلَا تَتَحَرَّجْ.

◆ تَدُورُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ النَّاسِ كَلِمَتَا «الْهَرَجِ» وَ«الْمَرَجِ» فَيَقُولُونَ مَثَلًا: قَضَيْنَا لَيْلَتَنَا فِي هَرَجٍ وَمَرَجٍ... فَمَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ هَذَا؟.

◇ قَبْلَ أَنْ أُجِيبَكَ عَلَىٰ سُؤَالِكَ عَنْ مَعْنَىٰ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ لَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُصَحِّحَ لَكَ نُطْقَهُمَا.

◆ وَهَلْ فِي نُطْقِهِمَا خَطَأٌ؟!.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ، لَقَدْ قُلْتَ: هَرَجٌ وَمَرَجٌ بِفَتْحِ الرَّاءِ فِي كِلْتَيْهِمَا، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: هَرْجٌ وَمَرْجٌ بِسُكُونِ الرَّاءِ فِيهِمَا.

◆ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا.

◇ أَمَّا مَعْنَاهُمَا؛ ***فَالْهَرْج***: هُوَ الْفِتْنَةُ وَالِاخْتِلَاطُ وَالْقَتْلُ.

◆ الْفِتْنَةُ وَالِاخْتِلَاطُ وَالْقَتْلُ!!.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ.

◆ وَ *الْـمَرْجُ* ؟.

◇ وَ *الْـمَرْجُ* : مَعْنَاهُ الْقَلَقُ وَالِاضْطِرَابُ ، وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ : قَضَيْنَا لَيْلَتَنَا فِي *هَرْجٍ وَمَرْجٍ* أَيْ قَضَيْنَاهَا فِي فِتْنَةٍ وَقَتْلٍ ، وَقَلَقٍ وَاضْطِرَابٍ .

◆ وَلَكِنَّ الَّذِينَ يُطْلِقُونَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ يُرِيدُونَ غَيْرَ هَذَا .

◇ مَا لَنَا وَلِمَا يُرِيدُونَ ؟ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ شَيْئًا وَتُرِيدُ اللُّغَةُ شَيْئًا آخَرَ .

◆ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُعَبِّرُوا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ عَنِ الْفَرَحِ وَالطَّرَبِ .

◇ وَلَكِنَّ الْعِبَارَةَ لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الشَّرِّ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ أَلْفَ خَيْرٍ .

◇ لَكِنْ بَقِيَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ شَيْئًا .

◆ وَمَا هُوَ ؟ .

◇ بَقِيَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَصْلَ *الْـمَرَجِ* بِفَتْحِ الرَّاءِ ، غَيْرَ أَنَّهَا سُكِّنَتْ لِلْمُزَاوَجَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ *الْهَرْجِ* فَقِيلَ : الْهَرْجُ وَالْـمَرْجُ بَدَلًا مِنَ الْهَرَجِ وَالْمَرَجِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ أَرْجُو أَلَّا يَضِيعَ حَقِّي فِيهَا .

◇ لَنْ يَضِيعَ حَقٌّ وَرَاءَهُ مُطَالِبٌ ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ الْمُطَالِبُ أَنْتَ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِهَا ؛ زَادَكَ اللَّهُ فَضْلًا .

◇ دَخَلَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ الزُّبَيْدِيُّ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ،

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَخْبِرْنِي مَنْ أَجْبَنُ مَنْ لَقِيتَ وَمَنْ أَحْيَلُ[1] مَنْ لَقِيتَ ؟ .
قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَرَجْتُ مَرَّةً أُرِيدُ الْغَارَةَ ، فَبَيْنَمَا أَنَا سَائِرٌ إِذَا بِفَرَسٍ مَشْدُودٍ ، وَرُمْحٍ مَرْكُوزٍ[2] ، وَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ كَأَعْظَمِ مَا يَكُونُ الرِّجَالُ خَلْقًا ، وَهُوَ مُحْتَبٍ[3] بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ :
خُذْ حِذْرَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ .
فَقَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ .
قُلْتُ : أَنَا عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ الزَّبِيدِيُّ ؛ فَشَهِقَ شَهْقَةً فَمَاتَ .
فَهَذَا يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْبَنُ مَنْ رَأَيْتُ .
وَخَرَجْتُ مَرَّةً ؛ حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَىٰ حَيٍّ ... فَإِذَا أَنَا بِفَرَسٍ مَشْدُودٍ وَرُمْحٍ مَرْكُوزٍ ، وَإِذَا صَاحِبُهُ فِي وَهْدَةٍ[4] يَقْضِي حَاجَةً ، فَقُلْتُ :
خُذْ حِذْرَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ .
فَقَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ، فَأَعْلَمْتُهُ بِي ، فَقَالَ :
يَا أَبَا ثَوْرٍ ، مَا أَنْصَفْتَنِي ، أَنْتَ عَلَىٰ ظَهْرِ فَرَسِكَ وَأَنَا عَلَىٰ الْأَرْضِ ، فَأَعْطِنِي عَهْدًا أَنَّكَ لَا تَقْتُلُنِي حَتَّىٰ أَرْكَبَ فَرَسِي ؛ فَأَعْطَيْتُهُ عَهْدًا بِذَلِكَ ...
فَخَرَجَ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ ، وَاحْتَبَىٰ بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ وَجَلَسَ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟! فَقَالَ :
مَا أَنَا بِرَاكِبٍ فَرَسِي ، وَلَا بِمُقَاتِلِكَ ، فَإِنْ نَكَثْتَ[5] عَهْدَكَ فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِنَاكِثِ الْعَهْدِ ؛ فَتَرَكْتُهُ وَمَضَيْتُ .
فَهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَلُ مَنْ رَأَيْتُ .

* * *

---

(١) أحيل : أكثر حيلة .
(٢) مركوز : مغروز في الأرض .
(٣) محتب : متلفع .
(٤) الوهدة : المنخفض من الأرض .
(٥) نكثت عهدك : خنت العهد وأردت أن تغدر بي .

الْجَلْسَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُون

اللُّغَةُ وَكَيْفِيَّةِ تَقَبُّلِهَا لِأَلْفَاظِ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ ـ طَالَ بَقَاؤُكَ ـ حَدَّثْتَنِي فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ عَنِ الدَّخِيلِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ... ثُمَّ ضَاقَ بِنَا الْوَقْتُ عَنِ اسْتِكْمَالِ مَا بَدَأْنَاهُ .

◆ وَقَدْ أَثَارَ هَذَا الْمَبْحَثُ لَدَيَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ .

◇ لَقَدْ قَدَّرْتُ ذَلِكَ وَتَوَقَّعْتُهُ ... نَعَمْ لَقَدْ تَوَقَّعْتُهُ ...

◆ وَقَدْ وَعَدْتَ ـ دَامَ عِزُّكَ ـ أَنْ تَزِيدَ هَذَا الْأَمْرَ وُضُوحًا فِي جَلْسَتِنَا هَذِهِ .

◇ وَمَا أَزَالُ عِنْدَ وَعْدِي .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي كُلَّ خَيْرٍ .

◇ وَمَا هَذِهِ الْمُشْكِلَاتُ الَّتِي أَثَارَهَا هَذَا الْمَبْحَثُ فِي نَفْسِكَ ؟ .

◆ مِنْ هَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ مَا وَقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ كَثْرَةِ هَذَا الدَّخِيلِ ... فَلَقَدْ عَرَفْتُ مِنْكَ أَنَّ الْعَرَبَ وَضَعُوا لَهُ مُعْجَمَاتٍ خَاصَّةً بِهِ ؛ فَهُنَاكَ ـ كَمَا ذَكَرْتَ لِي ـ كِتَابُ « الْمُعَرَّبِ مِنَ الْكَلَامِ الْأَعْجَمِيِّ » لِلْجَوَالِيقِيِّ ، وَهُنَاكَ كِتَابٌ آخَرُ مَا عُدْتُ أَذْكُرُهُ .

◇ هُوَ كِتَابُ « شِفَاءُ الْغَلِيلِ فِيمَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنَ الْمُعَرَّبِ وَالدَّخِيلِ » لِلشِّهَابِ الْخَفَاجِيِّ .

◆ نَعَمْ ...

◇ وَلَكِنَّ هَذَا الْمُعَرَّبَ لَيْسَ كَثِيرًا إِلَىٰ الْمَدَىٰ الَّذِي خُيِّلَ إِلَيْكَ .

◆ إِذَنْ كَمْ تُقَدِّرُ عَدَدَ الْكَلِمَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ إِلَىٰ مَتْنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؟ .

◇ لَقَدْ أَحْصَىٰ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ؛ فَوَجَدُوهَا لَا تَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفِ كَلِمَةٍ .

◆ أَلْفُ كَلِمَةٍ فَقَطْ !!!.

◇ نَعَمْ أَلْفُ كَلِمَةٍ فَقَطْ ، دَخَلَتْ هَذِهِ اللُّغَةَ عَبْرَ تَارِيخِهَا الطَّوِيلِ ، وَخِلَالَ اخْتِلَاطِهَا بِالشُّعُوبِ الَّتِي أَسْلَمَتْ وَالَّتِي لَمْ تُسْلِمْ ، وَامْتِزَاجِهَا بِهَا عَنْ طَرِيقِ الْفَتْحِ ، وَالتَّزَاوُجِ ، وَالتَّسَرِّي[1] ، وَالْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ .

◆ نَعَمْ .

◇ وَمَاذَا تُسَاوِي أَلْفُ كَلِمَةٍ فِي لُغَةٍ اشْتَمَلَتْ مُعْجَمَاتُهَا عَلَىٰ ثَمَانِينَ أَلْفَ مَادَّةٍ ، وَانْضَوَىٰ تَحْتَ كُلِّ مَادَّةٍ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ عِشْرِينَ كَلِمَةً ؛ بَيْنَ قِيَاسِيَّةٍ

---

(١) التسري : اختيار أَمَةٍ من مِلْكِ اليمين لتكون محظية دون بقية الإماء .

وَسَمَاعِيَّةٍ[1]؟! .

◆ حَقًّا إِنَّ أَلْفَ كَلِمَةٍ لَيْسَتْ شَيْئًا يُذْكَرُ بِجَانِبِ هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي لَا سَاحِلَ لَهُ ... وَلَكِنْ مَتَىٰ بَدَأَ هَذَا الدَّخِيلُ يَتَسَرَّبُ إِلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ مُنْذُ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ .

◆ مُنْذُ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ !! .

◇ نَعَمْ مُنْذُ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ يَا بُنَيَّ .

◆ وَلَكِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ فِي عُزْلَةٍ عَنْ أُمَمِ الْأَرْضِ ، فَمِنْ أَيْنَ يَتَسَرَّبُ الدَّخِيلُ إِلَىٰ لُغَتِهِمْ ؟! .

◇ لَمْ يَكُنِ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ فِي عُزْلَةٍ عَنْ أُمَمِ الْأَرْضِ كَمَا خُيِّلَ إِلَيْكَ ، فَقَدْ كَانَتْ تُتَاخِمُ جَزِيرَتَهُمْ أُمَّتَانِ كَبِيرَتَانِ مِنْ أَعْظَمِ أُمَمِ الْأَرْضِ آنَذَاكَ ، لَقَدْ كَانَ « الرُّومُ » عَلَىٰ تُخُومِ « الشَّامِ » ، وَكَانَ « الْفُرْسُ » عَلَىٰ تُخُومِ « الْعِرَاقِ » ، وَكَانَ لِلْعَرَبِ مَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ صِلَاتٌ سِيَاسِيَّةٌ وَاقْتِصَادِيَّةٌ وَاجْتِمَاعِيَّةٌ أَيْضًا .

◆ نَعَمْ نَعَمْ .

◇ أَضِفْ إِلَىٰ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ ، أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ لَهَا رِحْلَتَانِ هُمَا رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَكَانَتْ فِي رِحْلَةِ الشِّتَاءِ تَذْهَبُ إِلَىٰ بِلَادِ « الْيَمَنِ » ، وَكَانَتْ فِي رِحْلَةِ الصَّيْفِ تَذْهَبُ إِلَىٰ بِلَادِ « الشَّامِ » ، وَكَانَتْ فِي رِحْلَتَيْهَا هَاتَيْنِ تَتَّصِلُ بِالْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ ، وَتَأْخُذُ مِنْهَا وَتُعْطِيهَا .

---

(١) الكلمة القياسية : هي التي تصاغ علىٰ قاعدة محددة وصنعها العلماء ليقاس عليها الاشتقاق . والسماعية : هي التي سمعت عن العرب القدماء ولم تكن لها قاعدة تسير عليها .

◆ نَعَمْ .

◇ وَلَمَّا بَزَغَ فَجْرُ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَحَمَلَ الْإِسْلَامُ الْعَرَبَ عَلَىٰ جَنَاحَيْهِ إِلَىٰ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَغَدَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْعَظِيمَةُ مَزِيجًا مِنَ الشُّعُوبِ وَاللُّغَاتِ وَالْأَقْوَامِ ، ازْدَادَ اخْتِلَاطُ الْعَرَبِ بِالْأَعَاجِمِ وَازْدَادَ تَأْثِيرُهُمْ فِيهِمْ وَتَأَثُّرُهُمْ بِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ ثَمَرَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ هَذِهِ الْأُلُفُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي دَخَلَتْ إِلَىٰ مَتْنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ وَلَكِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لَهَا حُرُوفُهَا ، وَقَوَانِينُهَا وَصِيَغُهَا ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَتَقَبَّلَ أَلْفَاظَ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ ؛ مَعَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ تِلْكَ اللُّغَاتِ مِنَ الْفُرُوقِ ؟ .

◇ سُؤَالٌ وَجِيهٌ ... وَإِشْكَالٌ فِي مَحَلِّهِ .

حَقًّا ، إِنَّ فِي الْكَلِمَاتِ الدَّخِيلَةِ عَلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَا يُلَائِمُ الصِّيَغَ الْعَرَبِيَّةَ ، بَلْ إِنَّ فِي بَعْضِهَا حُرُوفًا غَيْرَ مُسْتَعْمَلَةٍ فِي الْأَبْجَدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ كَالْفَاءِ " V " وَالْكَافِ " Q " ، وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْعَرَبَ حِينَ أَدْخَلُوا الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحُرُوفِ إِلَىٰ لُغَتِهِمْ غَيَّرُوا حُرُوفَهَا بِحُرُوفٍ مِنْ أَبْجَدِيَّتِهِمْ قَرِيبَةٍ مِنْهَا ، كَمَا غَيَّرُوا صِيَغَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي لَا تُلَائِمُ صِيَغَهُمُ الْعَرَبِيَّةَ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ خُذْ مَثَلًا كَلِمَةَ جَوْرَبٍ ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مُعَرَّبَةٌ ، أَصْلُهَا فِي الْفَارِسِيَّةِ « كَوْرَبْ » ، وَلَقَدْ حَوَّلُوا حَرْفَهَا الْأَوَّلَ الَّذِي يُنْطَقُ بَيْنَ الْجِيمِ وَالْكَافِ إِلَىٰ « جِيمٍ » ؛ فَقَالُوا : جَوْرَبٌ .

◆ نَعَمْ .

◇ ثُمَّ خُذْ مَثَلًا آخَرَ هُوَ كَلِمَةُ فِرِنْدٍ .

◆ وَمَا الْفِرِنْدُ ؟ .

◇ الْفِرِنْدُ : مَاءُ السَّيْفِ .

◆ قَاتَلَ اللَّهُ النِّسْيَانَ ! لَقَدْ مَرَّتْ بِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ أَنْسَاهَا .

◇ فَالْفِرِنْدُ كَلِمَةٌ مُعَرَّبَةٌ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ ، وَهِيَ تُنْطَقُ فِي لُغَةِ أَهْلِهَا بِحَرْفٍ بَيْنَ الْفَاءِ وَالْبَاءِ ، فَلَمَّا أَدْخَلَهَا الْعَرَبُ إِلَىٰ لُغَتِهِمْ جَعَلُوا حَرْفَهَا هَذَا « فَاءً » ، وَهَكَذَا ...

◆ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْكَلِمَاتِ ذَوَاتِ الْحُرُوفِ الَّتِي تُخَالِفُ الْحُرُوفَ الْعَرَبِيَّةَ ، فَمَا الَّذِي صَنَعُوهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الصِّيَغِ وَالأَوْزَانِ ؟! .

◇ إِذَا كَانَتِ الْكَلِمَةُ الدَّخِيلَةُ تُوَافِقُ وَزْنًا مِنَ الأَوْزَانِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ أَبْقَوْهَا عَلَىٰ حَالِهَا .

◆ وَ إِذَا كَانَتْ مُخَالِفَةً لِلأَوْزَانِ الْعَرَبِيَّةِ ؟! .

◇ وَ إِذَا كَانَتْ مُخَالِفَةً لِلأَوْزَانِ الْعَرَبِيَّةِ بَدَّلُوا فِيهَا ، وَعَدَّلُوا فِي أَصْوَاتِهَا وَحَرَكَاتِهَا ، حَتَّىٰ تُشَاكِلَ وَزْنًا مِنْ أَوْزَانِ الْعَرَبِ .

◆ مِنْ مِثْلِ مَاذَا ؟ .

◇ مِنْ مِثْلِ الْكَلِمَاتِ التَّالِيَةِ : الدِّرْهَمُ ، وَالْبَهْرَجُ ، وَالدِّينَارُ ، وَيَعْقُوبُ .

◆ وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ أَيْضًا دَخِيلَةٌ مُعَرَّبَةٌ ؟!! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ ، وَقَدْ كَانَتْ أُصُولُهَا الْفَارِسِيَّةُ عَلَىٰ أَوْزَانٍ تُغَايِرُ الْأَوْزَانَ الْعَرَبِيَّةَ ، فَلَمَّا أَدْخَلَهَا الْعَرَبُ إِلَىٰ لُغَتِهِمْ ؛ أَعْمَلُوا فِيهَا يَدَ التَّغْيِيرِ وَالتَّعْدِيلِ ... حَتَّىٰ جَعَلُوا كُلًّا مِنْهَا مُلَائِمًا لِصِيغَةٍ عَرَبِيَّةٍ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ لَقَدْ عَدَّلُوا كَلِمَةَ « بَهْرَجٍ » حَتَّىٰ أَلْحَقُوهَا بِكَلِمَةِ « سَلْهَبٍ » الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَلِمَةَ « دِينَارٍ » حَتَّىٰ أَلْحَقُوهَا « بِدِيمَاسٍ » ، وَكَلِمَةَ « يَعْقُوبَ » حَتَّىٰ أَلْحَقُوهَا بِكَلِمَةِ « يَرْبُوعٍ » ، وَهَكَذَا ...

◆ طَيِّبٌ .

◇ وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ هُوَ أَنَّ الْعَرَبَ حِينَ أَدْخَلُوا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْأَعْجَمِيَّةَ إِلَىٰ لُغَتِهِمْ ؛ بَدَّلُوا حُرُوفَهَا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ حُرُوفِهِمْ إِلَىٰ أَقْرَبِ حُرُوفِهِمْ مَخْرَجًا ، وَالصِّيَغَ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ أَوْزَانِهِمْ إِلَىٰ أَدْنَىٰ صِيَغِهِمْ وَزْنًا .

◆ وَنَحْنُ الْآنَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُدْخِلَ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ إِلَىٰ لُغَتِنَا ، أَفَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَنْقُلَهَا كَمَا جَاءَتْ فِي لُغَاتِهَا الْأَصْلِيَّةِ ، أَمْ مَاذَا ؟ .

◇ أَظُنُّ أَنَّ فِي كَلَامِي السَّابِقِ إِجَابَةً عَلَىٰ هَذَا السُّؤَالِ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ إِذَا كَانَتِ الْكَلِمَاتُ وَالْمُصْطَلَحَاتُ الَّتِي يُرَادُ إِدْخَالُهَا مِنَ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَأَلَّفُ مِنْ حُرُوفٍ لَهَا مَثِيلٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَتُبْنَىٰ عَلَىٰ أَوْزَانٍ لَهَا شَبِيهٌ فِي أَوْزَانِنَا ؛ أَخَذْنَاهَا كَمَا هِيَ ...

◆ وَإِلَّا ؟! ...

◇ وَإِلَّا تَكُنْ كَذَلِكَ ؛ فَعَلْنَا فِيهَا مَا فَعَلَ أَسْلَافُنَا ، وَذَلِكَ بِأَنْ نُبَدِّلَ حُرُوفَهَا إِلَىٰ أَقْرَبِ الْحُرُوفِ الْمَوْجُودَةِ لَدَيْنَا ، وَأَنْ نُحَوِّلَ أَوْزَانَهَا إِلَىٰ أَشْبَهِ الْأَوْزَانِ الَّتِي عِنْدَنَا .

◆ أَبَتِ ، مَا زَالَتْ لَدَيَّ بَعْضُ الْإِشْكَالَاتِ .

◇ دَعْهَا إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ ، فَحَسْبِي وَحَسْبُكَ مَا أَلْمَمْنَا بِهِ فِي هَذِهِ الْجَلْسَةِ .

◆ إِذَنْ إِلَىٰ الْجَلْسَةِ الْقَادِمَةِ .

◇ بِإِذْنِ اللَّهِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَهْمُوزَةً عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » ، وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ أَفَدْتَ مِنْهَا فِي تَقْوِيمِ لِسَانِكَ وَتَهْذِيبِ بَيَانِكَ .

◆ كُلَّ الْفَائِدَةِ بِحَمْدِ اللَّهِ ، كُلَّ الْفَائِدَةِ ... وَالْآنَ أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ أُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ : « مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ » مِنْ مُذَكِّرَاتِي ، أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِهَا ، وَلَكَ مِنِّي الشُّكْرُ ، وَمِنَ اللَّهِ الْمَثُوبَةُ .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَفْعَالِ مَهْمُوزًا عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » وَالْكَاتِبُونَ

يُخْطِئُونَ فِيهِ ؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهُ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلَهُمْ : طَلَّ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ بِمَعْنَىٰ أَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ عَلٍ وَهُوَ خَطَأٌ .

◆ وَمَا صَوَابُهُ ؟ .

◇ الصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَطَلَّ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ .

◆ وَصِيغَةُ « طَلَّ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ لَهَا مَعَانِيَ أُخْرَىٰ .

◆ وَمَا مَعَانِيهَا ؟ .

◇ يُقَالُ : طَلَّ الْمَدِينُ الدَّائِنَ أَيْ مَطَلَهُ ، وَنَقَصَهُ حَقَّهُ ، وَيُقَالُ أَيْضًا : طَلَّتِ السَّمَاءُ الْأَرْضَ أَيْ قَطَرَتْ عَلَيْهَا الطَّلَّ ، وَيُقَالُ أَيْضًا ...

◆ أَبَتِ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ يُتَاحَ لِي تَقْيِيدُ هَذِهِ الْفَوَائِدِ .

◇ حَاضِرٌ ... وَيُقَالُ أَيْضًا : طُلَّ الدَّمُ بِمَعْنَىٰ أُهْدِرَ وَلَمْ يُؤْخَذْ بِحَقِّهِ أَوْ يُثْأَرْ لَهُ ؛ فَهُوَ دَمٌ مَطْلُولٌ .

◆ إِذَنْ يُقَالُ : أَطَلَّ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ بِمَعْنَىٰ أَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَيُقَالُ : طَلَّ الْمَدِينُ الدَّائِنَ أَيْ مَطَلَهُ ، وَطَلَّتِ السَّمَاءُ الْأَرْضَ أَيْ قَطَرَتْ عَلَيْهَا الطَّلَّ ، وَطُلَّ دَمُ فُلَانٍ أَيْ هُدِرَ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ : غَارَ الْقَوْمُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ بِمَعْنَىٰ شَنُّوا عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ ، وَهُوَ خَطَأٌ .

◆ خَطَأٌ !! .

◇ نَعَمْ هُوَ خَطَأٌ يَا بُنَيَّ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَغَارَ الْقَوْمُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ .

◆ وَصِيغَةُ « غَارَ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟! .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ لَهَا مَعَانِيَ أُخْرَىٰ .

◆ وَمَا مَعَانِيهَا ؟ .

◇ تَقُولُ : غَارَ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ غَيْرَةً ، وَتَقُولُ : أَيْضًا غَارَتِ عَيْنُ الْمَاءِ بِمَعْنَىٰ نَضَبَتْ .

◆ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾[1] .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ... وَتَقُولُ : أَيْضًا غَارَ النَّهَارُ إِذَا اشْتَدَّ حَرُّهُ .

◆ إِذَنْ يُقَالُ : أَغَارَ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ بِمَعْنَىٰ شَنَّ عَلَيْهِ الْغَارَةَ ، وَيُقَالُ : غَارَ مَاءُ الْبِئْرِ ، وَغَارَ فُلَانٌ عَلَىٰ أَهْلِهِ ، وَغَارَ النَّهَارُ إِذَا اشْتَدَّ حَرُّهُ .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ ، إِنِّي لَفِي شَوْقٍ إِلَىٰ طِيبِ شَذَاهَا .

◇ مَا شَوْقُكَ إِلَيْهَا بِأَشَدَّ مِنْ شَوْقِي .

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي أَغْرَاكَ بِرَوْضِهِ ؟ .

◇ إِنَّهُ ابْنُ وَكِيعٍ التِّنِّيسِيُّ .

---

(١) سورة الملك الآية ٣٠.

◆ وَمَا اسْمُهُ وَأَيْنَ وُلِدَ وَنَشَأَ ؟ .

◇ اسْمُهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الضَّبِّيُّ التِّنِّيسِيُّ ، وُلِدَ وَتُوُفِّيَ فِي « تِنِّيسَ » ، وَ« تِنِّيسُ » بَلْدَةٌ مِنْ بُلْدَانِ الْوَجْهِ الْبَحَرِيِّ فِي الْقُطْرِ الْمِصْرِيِّ .

◆ يَبْدُو أَنَّهُ شَاعِرٌ مَغْمُورٌ مُقِلٌّ .

◇ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ مَعْرُوفٌ لَهُ دِيوَانٌ مَطْبُوعٌ ، وَقَدْ قَالَ عَنْهُ الثَّعَالِبِيُّ فِي كِتَابِهِ « يَتِيمَةُ الدَّهْرِ » ، قَالَ عَنْهُ : إِنَّهُ شَاعِرٌ بَارِعٌ ، وَعَالِمٌ جَامِعٌ ، قَدْ بَرَعَ فِي إِبَّانِهِ[1] عَلَىٰ أَهْلِ زَمَانِهِ ؛ فَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ أَحَدٌ فِي زَمَانِهِ ، وَلَهُ كُلُّ بَدِيعَةٍ تَسْحَرُ الأَوْهَامَ ، وَتَسْتَعْبِدُ الأَفْهَامَ .

◆ وَمَا الطَّاقَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ إِنَّهَا قَصِيدَةٌ قَالَهَا فِي وَصْفِ الرَّبِيعِ .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ يَقُولُ :

فُرِشَ الْفَضَاءُ بِأَحْمَرٍ وَبِأَصْفَرِ
وَبَدَتْ لَنَا حُلَلُ الرَّبِيعِ الْمُزْهِرِ

هَذِي الرِّيَاضُ كَأَنَّهُنَّ عَرَائِسٌ
يَخْتَلْنَ بَيْنَ تَمَايُلٍ وَتَبَخْتُرِ

وَالسَّرْوُ تَثْنِيهِ الرِّيَاحُ لَوَاعِبًا
مِنْ فَوْقِ جَدْوَلِ مَائِهِ الْمُتَفَجِّرِ

(١) في إبّانه : في وقته وعصره .

وَرْدٌ كَوَجْنَةِ كَاعِبٍ[1] قَدْ مُوزِحَتْ[2]

فَتَرَاجَعَتْ خَجْلَىٰ بِفَرْطِ تَحَيُّرِ

فَكَأَنَّمَا النَّارَنْجُ فِي أَغْصَانِهِ

أُكَرٌ خُرِطْنَ مِنَ الْعَقِيقِ الْأَحْمَرِ

وَكَأَنَّمَا الْأَتْرُجُّ[3] أَكْؤُسُ[4] عَسْجَدٍ

وَلَهَا مَقَابِضُ مِنْ حَرِيرٍ أَخْضَرِ

وَالنَّرْجِسُ الرَّيَّانُ بَيْنَ رِيَاضِهِ

يَرْنُو بِعَيْنِ الْبَاهِتِ الْمُتَحَيِّرِ

وَالْجُلَّنَارُ[5] يُرِيكَ فِي أَثْوَابِهِ

نَوْعَيْنِ بَيْنَ مُزَعْفَرٍ وَمُعَصْفَرِ

◆ لِلَّهِ هَذَا الرَّبِيعُ كَمْ أَوْحَىٰ لِلشُّعَرَاءِ مِنَ الرَّوَائِعِ .

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَأْذَنُ ؟ .

◇ هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

◆ يَدُورُ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ كَثِيرًا الْفِعْلُ « اسْتُشْهِدَ » فَيَرِدُ تَارَةً مَبْنِيًّا لِلْمَعْلُومِ ؛ فَيُقَالُ : « اسْتَشْهَدَ فُلَانٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، وَيَرِدُ تَارَةً أُخْرَىٰ مَبْنِيًّا لِلْمَجْهُولِ ؛ فَيُقَالُ :

---

(١) الكاعب : الصبية في أول عمر الشباب ، يقال : كعب نهدها أي استدار .

(٢) موزحت : أي مازحها رجل فاستحيت وتراجعت .

(٣) الأترج : نوع من الفاكهة .

(٤) أكؤس : كئوس .

(٥) الجلنار : زهر الرمان .

« اسْتُشْهِدَ فُلَانٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ؛ أَفَهُمَا لُغَتَانِ ، أَمْ إِنَّ إِحْدَاهُمَا صَوَابٌ وَالأُخْرَىٰ خَطَأٌ ؟ .

◇ مَا هُمَا بِلُغَتَيْنِ يَا بُنَيَّ ، وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ وَاحِدَةٌ لَا ثَانِيَ لَهَا ، فَقَدْ نَصَّتْ كُتُبُ اللُّغَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْفِعْلَ *اسْتُشْهِدَ* لَا يَأْتِي إِلَّا مَبْنِيًّا لِلْمَجْهُولِ ، حَيْثُ تَقُولُ : *اسْتُشْهِدَ* فُلَانٌ لَا غَيْرُ .

◆ وَمَنْ يَبْنِيهِ لِلْمَعْلُومِ ؟! .

◇ مَنْ يَبْنِيهِ لِلْمَعْلُومِ فَهُوَ مُخْطِئٌ .

◆ وَهَلْ هُنَاكَ أَفْعَالٌ أُخْرَىٰ تَلْزَمُ الْبِنَاءَ لِلْمَجْهُولِ غَيْرُ الْفِعْلِ *اسْتُشْهِدَ* ؟ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لَقَدْ أَوْرَدَ الْعُلَمَاءُ طَائِفَةً مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَلْزَمُ الْبِنَاءَ لِلْمَجْهُولِ وَنَبَّهُوا عَلَىٰ عَدَمِ جَوَازِ بِنَائِهَا لِلْمَعْلُومِ .

◆ وَمَا هَذِهِ الْأَفْعَالُ طَالَ بَقَاؤُكَ ؟ .

◇ مِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالِ يَا بُنَيَّ :
الْفِعْلُ **زُهِيَ** بِمَعْنَىٰ أُعْجِبَ ، حَيْثُ تَقُولُ : **زُهِيَ** فُلَانٌ بِنَفْسِهِ فَهُوَ **مَزْهُوٌّ** بِهَا أَيْ مُعْجَبٌ .
وَمِنْهَا الْفِعْلُ **عُنِيَ** بِمَعْنَىٰ اهْتَمَّ ، حَيْثُ تَقُولُ : **عُنِيَ** فُلَانٌ بِالْأَمْرِ أَيِ اهْتَمَّ بِهِ فَهُوَ **مَعْنِيٌّ** بِهِ .

◆ عَظِيمٌ .

◇ وَمِنْهَا الْفِعْلُ **بُهِتَ** ، حَيْثُ تَقُولُ : أَقَمْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ الْحُجَّةَ **فَبُهِتَ** وَلَمْ يُحِرْ جَوَابًا .

وَمِنْهَا الْفِعْلُ ***أُغْمِيَ***، حَيْثُ تَقُولُ: رَأَىٰ فُلَانٌ الْهَوْلَ ***فَأُغْمِيَ*** عَلَيْهِ.
وَمِنْهَا الْفِعْلُ ***أُرْتِجَ***[1]، حَيْثُ تَقُولُ: ***أُرْتِجَ*** عَلَىٰ الْخَطِيبِ فَلَمْ يَنْطِقْ بِبِنْتِ شَفَةٍ.
وَمِنْهَا الْفِعْلُ ***امْتُقِعَ*** وَ***أُسْقِطَ***، حَيْثُ تَقُولُ: وُوجِهَ فُلَانٌ بِفَعْلَتِهِ فَامْتُقِعَ لَوْنُهُ، وَأُسْقِطَ فِي يَدِهِ.

◆ وَلَكِنَّ صِيغَةَ امْتَقَعَ كَثِيرَةُ الدَّوَرَانِ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ !!.

◇ إِنَّ كَثْرَةَ دَوَرَانِ الْخَطَإِ عَلَىٰ الْأَلْسِنَةِ لَا تَجْعَلُ مِنْهُ صَوَابًا.

◆ وَلَكِنْ مَا رَأْيُكَ فِي الْكَلِمَةِ الَّتِي تَقُولُ:
خَطَأٌ مَشْهُورٌ، خَيْرٌ مِنْ صَوَابٍ مَهْجُورٍ.

◇ هَذَا كَلَامٌ يَقُولُهُ الْعَاجِزُونَ؛ لِيَسْتُرُوا بِهِ عَجْزَهُمْ، وَيَعْتَصِمُ بِهِ الْجَاهِلُونَ؛ لِيُغَطُّوا بِهِ جَهْلَهُمْ.

◆ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْجَهْلِ.

◇ وَأَخِيرًا، فَإِنَّ مِنْ أَشْهَرِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَلْزَمُ الْبِنَاءَ لِلْمَجْهُولِ الْفِعْلَ ***احْتُضِرَ*** بِمَعْنَىٰ دَخَلَ فِي النَّزْعِ، تَقُولُ: ***احْتُضِرَ*** فُلَانٌ ثُمَّ وَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ.

* * *

◆ أَبَتِ، وَطُرْفَةُ الْجَلْسَةِ، أَرْجُو أَلَّا تَكُونَ قَدْ نَسِيتَهَا.

◇ إِذَا نَسِيتُهَا أَنَا فَلَنْ تَنْسَاهَا أَنْتَ، وَعَلَىٰ أَيِّ حَالٍ فَأَنَا لَمْ أَنْسَهَا.

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِهَا.

---

(١) أُرْتِجَ: استغلق عليه الكلام فلم يقدر علىٰ النطق.

◇ تَقَدَّمَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَىٰ رَئِيسِ الرُّؤَسَاءِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ مَسْلَمَةَ كَبِيرِ وُزَرَاءِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، تَقَدَّمُوا إِلَيْهِ بِكِتَابٍ يَدَّعُونَ أَنَّهُ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ يَهُودِ خَيْبَرَ بِإِسْقَاطِ الْجِزْيَةِ عَنْهُمْ ، وَفِيهِ شَهَادَاتُ الصَّحَابَةِ ، وَادَّعَوْا أَنَّهُ بِخَطِّ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَعَرَضَهُ رَئِيسُ الرُّؤَسَاءِ عَلَىٰ الْعَالِمِ الْمُؤَرِّخِ الْمَعْرُوفِ بِالْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ ؛ فَمَا إِنْ نَظَرَ فِيهِ حَتَّىٰ قَالَ : إِنَّهُ مُزَوَّرٌ .

فَقِيلَ لَهُ : وَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ ؟! .

فَقَالَ : فِي الْكِتَابِ شَهَادَةُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَمُعَاوِيَةُ أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَيَوْمُ خَيْبَرَ كَانَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ أَيْ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ مُعَاوِيَةُ وَيَغْدُوَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِثَلَاثِ سَنَوَاتٍ .

ثُمَّ إِنَّ فِي الْكِتَابِ شَهَادَةَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ تُوُفِّيَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، وَيَوْمُ الْخَنْدَقِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ لِلْهِجْرَةِ أَيْ قَبْلَ صُدُورِ الْكِتَابِ الْمَزْعُومِ بِعَامَيْنِ .

فَاسْتُحْسِنَ ذَلِكَ مِنَ الْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ .

* وَرُدَّ طَلَبُ الْيَهُودِ .

* * *

الْجَلْسَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ

قُدْرَةُ اللُّغَةِ عَلَىٰ اسْتِيعَابِ مُسْتَحْدَثَاتِ الْحَيَاةِ الْمُتَطَوِّرَةِ

◆ أَبَتِ ، سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ .

◇ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَهُدَاهُ .

◆ أَبَتِ ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - حَدَّثْتَنِي فِي الْجَلْسَةِ السَّابِقَةِ عَنِ الدَّخِيلِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

◇ نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا بُنَيَّ .

◆ ثُمَّ إِنَّ الْوَقْتَ قَدْ ضَاقَ بِكَ عَنِ اسْتِكْمَالِ مَا بَدَأْتَهُ .

◇ نَعَمْ أَذْكُرُ ذَلِكَ ، نَعَمْ .

◆ وَقَدْ أَثَارَ هَذَا الْمَبْحَثُ لَدَيَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ .

◇ سَأَحُلُّهَا لَكَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .

◆ كَمَا عَوَّدْتَنِي دَائِمًا .

◇ وَلَكِنْ مَا الْمُشْكِلَاتُ الَّتِي بَقِيَتْ لَدَيْكَ وَلَمْ تُحَلَّ ؟ .

◆ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عَمَّا إِنْ كَانَتْ لُغَتُنَا قَدِ انْفَرَدَتْ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ الْأُخْرَىٰ بِوُجُودِ الدَّخِيلِ فِيهَا ؛ أَمْ إِنَّ ذَٰلِكَ أَمْرٌ عَامٌّ فِي سَائِرِ اللُّغَاتِ ؟ .

◇ بَلْ هُوَ نَامُوسٌ عَامٌّ مِنْ نَوَامِيسِ اللُّغَاتِ ، وَلَمْ تَشُذَّ عَنْهُ أَيَّةُ لُغَةٍ مِنْ لُغَاتِ الْأَرْضِ كَمَا يُقَرِّرُ الْعُلَمَاءُ ... وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُؤَكِّدَ لَكَ بِأَنَّ الدَّخِيلَ فِي لُغَتِنَا أَقَلُّ مِنْهُ فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ الْأُخْرَىٰ ؛ فَالْإِنْجِلِيزِيَّةُ أَخَذَتْ عَنِ النُّورْمَانْدِيَّةِ(١) مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ ، وَاللَّاتِينِيَّةُ أَخَذَتْ عَنِ الْإِغْرِيقِيَّةِ الْجَمَّ الْكَثِيرَ .
وَاللُّغَاتُ الْأُورُبِّيَّةُ عَامَّةً أَخَذَتْ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ كَثِيرًا جِدًّا مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَسْمَاءِ .

◆ وَمَتَىٰ تَمَّ هَذَا الْأَخْذُ ؟ .

◇ تَمَّ هَذَا الْأَخْذُ يَا بُنَيَّ ، إِبَّانَ حُكْمِ الْعَرَبِ لِلْأَنْدَلُسِ ، فَقَدْ فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ أَبْوَابَ مَدَارِسِهِمْ فِي وُجُوهِ أَبْنَاءِ « أُورُبَّا » ؛ فَجَعَلُوا يَفِدُونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ صَوْبٍ لِيَنْهَلُوا مِنْ مَوَارِدِهَا الصَّافِيَةِ ، وَيَتَزَوَّدُوا مِنْ مَعَارِفِهَا النَّافِعَةِ .

◆ سَقْيًا لِتِلْكَ الْعُهُودِ ، وَرَعْيًا لَهَا مِنْ عُهُودٍ .

◇ وَقَدْ نَقَلَ هَؤُلَاءِ الطُّلَّابُ الْأُورُبِّيُّونَ إِلَىٰ لُغَاتِهِمْ آلَافَ الْأَلْفَاظِ ، وَالْأَسْمَاءِ ، وَالْمُصْطَلَحَاتِ .

◆ نَعَمْ ، نَعَمْ .

◇ وَتَمَّ هَذَا الْأَخْذُ أَيْضًا زَمَنَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ ، وَإِقَامَةِ الْأُورُبِّيِّينَ فِي دِيَارِنَا مُدَّةَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ ... أَخَذَ خِلَالَهُ الْغُزَاةُ كَثِيرًا مِنْ أَلْفَاظِنَا الْحَضَارِيَّةِ ، وَنَقَلُوهَا إِلَىٰ لُغَاتِهِمْ .

---

(١) النورماندية : لغة منسوبة إلىٰ « نورمانديا » ، وهي مقاطعة علىٰ الأطلسي في شمال غربي « فرنسا » ، سكنها النورمان منذ أوائل القرن العاشر .

◆ أَبَتِ ، عَفْوَكَ ، أَرَانَا قَدِ ابْتَعَدْنَا عَنْ صُلْبِ الْمَوْضُوعِ .

◇ إِذَنْ فَلْنَعُدْ إِلَيْهِ بِسَلَامٍ .

◆ حَسَنٌ ... نَحْنُ الْيَوْمَ أُمَّةٌ مُتَخَلِّفَةٌ صِنَاعِيًّا وَعِلْمِيًّا .

◇ مَعَ شَدِيدِ الْأَسَفِ .

◆ وَ« أُورُبَّا » تُطَالِعُنَا كُلَّ صَبَاحٍ بِعَشَرَاتِ الْمُخْتَرَعَاتِ وَالْمُبْتَكَرَاتِ ، وَتَقْذِفُ إِلَيْنَا فِي كُلِّ آنٍ بِمُصْطَلَحَاتٍ جَدِيدَةٍ ، وَأَسْمَاءٍ لَا عَهْدَ لَنَا بِهَا مِنْ قَبْلُ .

◇ ذَلِكَ أَمْرٌ وَاقِعٌ لَا مِرْيَةَ فِيهِ .

◆ فَمَاذَا نَصْنَعُ ؟ ... أَنَفْتَحُ صُدُورَنَا لِهَذِهِ الْآلَافِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَنُدْخِلُهَا فِي لُغَتِنَا ، أَمْ نُغْضِي عَنْهَا وَنُدِيرُ لَهَا ظُهُورَنَا ؟ .

◇ إِنَّهُ لَسُؤَالٌ جَدِيرٌ بِالِاهْتِمَامِ ، وَمُشْكِلَةٌ تَفْرِضُهَا عَلَيْنَا طَبِيعَةُ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي تَمُرُّ بِهَا أُمَّتُنَا الْإِسْلَامِيَّةُ .

◆ وَكَيْفَ يُحَلُّ هَذَا الْإِشْكَالُ ؟ .

◇ أَوَّلًا : نَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُغْضِيَ عَنْ هَذِهِ الْحَضَارَةِ ، وَلَيْسَ فِي وُسْعِنَا ، وَلَا مِنْ مَصْلَحَتِنَا أَن نُدِيرَ لَهَا ظُهُورَنَا .

◆ وَ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ؛ كُتِبَ عَلَيْنَا التَّخَلُّفُ إِلَى الْأَبَدِ .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، لِذَا فَنَحْنُ مَدْعُوُّونَ لِلْإِفَادَةِ مِنَ التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ وَالصِّنَاعِيِّ الَّذِي حَقَّقَتْهُ « أُورُبَّا » ، وَمَدْعُوُّونَ أَيْضًا لِمُعَالَجَةِ الْمُشْكِلَةِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ .

◆ وَكَيْفَ ؟ .

◇ نُعَالِجُهَا كَمَا عَالَجَهَا أَسْلَافُنَا فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ مَثَلًا .

◆ وَهَلْ عَانَىٰ أَسْلَافُنَا مِثْلَ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ ؟! .

◇ نَعَمْ عَانَوْهَا ، وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهَا ، وَخَرَجُوا مِنَ الْمَعْرَكَةِ ظَافِرِينَ مُحْتَفِظِينَ بِصَفَاءِ لُغَتِهِمْ وَنَقَائِهَا ؛ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ .

◆ وَكَيْفَ ؟! .

◇ لَمَّا أَطَلَّ الْعَصْرُ الْعَبَّاسِيُّ كَانَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ قَدْ بَلَغَتْ شَأْوَهَا[1] فِي الْفَتْحِ وَأَخَذَتْ تَمِيلُ إِلَىٰ الِاسْتِقْرَارِ وَالْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْحَضَارَةِ ، وَهُنَا وَاجَهَتْهُمْ فَلْسَفَةُ « الْيُونَانِ » وَعُلُومُهُمْ وَطِبُّهُمْ ، وَحِكْمَةُ الْهُنُودِ وَأَدَبُهُمْ ، وَكَانَتْ كُلُّهَا مَكْتُوبَةً بِلُغَةٍ غَيْرِ لُغَتِهِمْ ، مُدَوَّنَةً بِمُصْطَلَحَاتٍ غَيْرِ مُصْطَلَحَاتِهِمْ .

◆ وَمَاذَا صَنَعُوا إِزَاءَ ذَلِكَ ؟ .

◇ أَوَّلًا : هُمْ لَمْ يُدِيرُوا ظُهُورَهُمْ لِهَذِهِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، وَلَوْ فَعَلُوا لَخَسِرَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ وَالْحَضَارَةُ خَسَارَةً لَا تُقَدَّرُ وَلَا تُعَوَّضُ .

◆ مَا فِي ذَلِكَ رَيْبٌ .

◇ وَإِنَّمَا أَقْبَلُوا عَلَىٰ هَذِهِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ إِقْبَالَ الظَّمْآنِ عَلَىٰ الْمَاءِ الزُّلَالِ .

◆ وَكَيْفَ حَلُّوا الْمُشْكِلَةَ اللُّغَوِيَّةَ ؟ .

◇ حَلُّوهَا - يَا بُنَيَّ - بِأَنْ رَجَعُوا إِلَىٰ لُغَتِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجُوا مَا فِيهَا مِنَ الطَّاقَاتِ

(١) شأوها : غايتها ، ومدىٰ ما يمكن الوصول إليه .

الْهَائِلَةِ الْقَادِرَةِ عَلَىٰ اسْتِيعَابِ جَمِيعِ شُئُونِ الْحَيَاةِ .

◆ نَعَمْ .

◇ وَلَقَدِ اسْتَعَانُوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِالثَّرْوَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَمْلِكُهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ .

◆ حَسَنٌ .

◇ وَاسْتَفَادُوا مِنْ خَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَىٰ سَائِرِ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ، فَوَلَّدُوا بِوَاسِطَتِهَا آلَافَ الْأَلْفَاظِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ .

◆ نَعَمْ .

◇ كَمَا اسْتَفَادُوا مِنْ خَاصَّةِ الْقِيَاسِ الَّذِي رَحَّبَ آفَاقَ اللُّغَةِ وَمَدَّ فِي طَاقَاتِهَا ، وَفِي الْحَالَاتِ الْقَلِيلَةِ النَّادِرَةِ الَّتِي لَمْ يَجِدُوا فِي مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ وَلَا فِي مُشْتَقَّاتِهَا وَلَا فِي قِيَاسِهَا مَا يَسُدُّ حَاجَتَهُمْ ... فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ الْقَلِيلَةِ ؛ لَجَئُوا إِلَىٰ الِاسْتِعَانَةِ بِالدَّخِيلِ عَنْ طَرِيقِ التَّعْرِيبِ .

◆ وَنَحْنُ مَاذَا نَصْنَعُ الْيَوْمَ ؟ .

◇ نَصْنَعُ كَمَا صَنَعُوا ... تَنْشَطُ مَجَامِعُنَا الْعِلْمِيَّةُ وَاللُّغَوِيَّةُ النَّشَاطَ الَّذِي كَانَ لَدَىٰ أَسْلَافِنَا ، وَيُبَادِرُ عُلَمَاؤُنَا لِكُلِّ مُسَمًّى جَدِيدٍ أَوْ مُصْطَلَحٍ طَارِئٍ ؛ فَيَبْحَثُونَ لَهُ فِي مُعْجَمَاتِنَا عَمَّا يَقُومُ بِهِ وَيُؤَدِّيهِ بَحْثًا جَادًّا مُخْلِصًا ، مُسْتَعِينِينَ بِخَاصَّتَيْ الِاشْتِقَاقِ وَالْقِيَاسِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ وَإِذَا لَمْ يَجِدُوا مُبْتَغَاهُمْ ؟ .

◇ عِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ وَالْمُصْطَلَحَاتِ مِنْ لُغَاتِهَا الْأَجْنَبِيَّةِ وَيُدْخِلُونَهَا إِلَىٰ صُلْبِ الْعَرَبِيَّةِ .

◆ حَسَنٌ .

◇ وَلَكِنْ بِشَرْطٍ .

◆ وَمَا هُوَ ؟ .

◇ بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَنْفِدُوا غَايَةَ جَهْدِهِمْ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْكَلِمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَصِيلَةِ ؛ قَبْلَ الْأَخْذِ بِالْكَلِمَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ الدَّخِيلَةِ .

◆ لَا ضَيْرَ فِي هَذَا الشَّرْطِ .

◇ بَلْ هُوَ شَرْطٌ لَازِبٌ[1] لَازِمٌ ؛ لَا بُدَّ مِنْ تَحْقِيقِهِ .

◆ نَعَمْ .

◇ وَبِشَرْطٍ آخَرَ .

◆ وَمَا هُوَ ؟ .

◇ أَنْ يُبَادِرُوا إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْأَسْمَاءِ الْجَدِيدَةِ مُنْذُ ظُهُورِ مُسَمَّيَاتِهَا إِلَى الْوُجُودِ ، وَأَلَّا يُؤَخِّرُوا ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَقِرَّ الْأَسْمَاءُ وَالْمُصْطَلَحَاتُ الْأَجْنَبِيَّةُ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ ؛ وَتَدُورَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَتَغْدُوَ جُزْءًا مِنْ مُعْجَمِهِمْ ... ثُمَّ يَأْتِيَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ لِيَقُولُوا لَهُمُ اتْرُكُوا مَا حَفِظْتُمُوهُ وَأَلِفْتُمُوهُ ، وَخُذُوا مَكَانَهُ هَذَا الْجَدِيدَ .

◆ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا مِرْيَةَ فِيهِ .

◇ ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ فِي مَكَانٍ ، فَكَثِيرًا مَا نَحْفَظُ بَعْضَ الْمُصْطَلَحَاتِ

(١) لازب : ثابت مؤكد .

وَالْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَنَسْتَعْمِلُهَا رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ يَقُومُ عَالِمٌ لُغَوِيٌّ أَوْ مَجْمَعٌ عِلْمِيٌّ فَيَقُولُ لِلنَّاسِ: اتْرُكُوا مَا حَفِظْتُمُوهُ وَخُذُوا هَذَا بَدَلًا عَنْهُ، فَلَا يَجِدُونَ سَمِيعًا مُجِيبًا.

◆ وَمَجَامِعُنَا اللُّغَوِيَّةُ!! أَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَوْقِفٌ مِنْ مُشْكِلَةِ التَّعْرِيبِ هَذِهِ؟.

◇ بَلَىٰ يَا بُنَيَّ بَلَىٰ... لَقَدْ عَالَجَ الْمَجْمَعُ اللُّغَوِيُّ فِي «الْقَاهِرَةِ» هَذِهِ الْمُشْكِلَةَ، وَاتَّخَذَ فِيهَا الْقَرَارَ التَّالِيَ: «يُجِيزُ الْمَجْمَعُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ بَعْضُ الْأَلْفَاظِ الْأَعْجَمِيَّةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ؛ وَذَلِكَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي تَعْرِيبِهِمْ».

◆ حَسَنٌ.

◇ وَقَدْ شَرَحَ هَذَا الْقَرَارَ الْعَالِمُ الْجَلِيلُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْإِسْكَنْدَرِيُّ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الرُّخْصَةَ قَدْ قُصِرَتْ عَلَىٰ حَالَاتِ الضَّرُورَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الرُّخْصَةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِي مَجَالِ الْأَلْفَاظِ الْفَنِّيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الرُّخْصَةَ لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي حَالِ الْعَجْزِ عَنْ إِيجَادِ اللَّفْظِ الْمُقَابِلِ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَىٰ.

* * *

◆ أَبَتِ، كُنْتَ - طَالَ بَقَاؤُكَ - قَدْ زَوَّدْتَنِي بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي جَاءَتْ عَنِ الْعَرَبِ مَهْمُوزَةً عَلَىٰ وَزْنِ «أَفْعَلْتُ»، وَالْكَاتِبُونَ يُخْطِئُونَ فِيهَا؛ فَيَسْتَعْمِلُونَهَا عَلَىٰ وَزْنِ «فَعَلْتُ» مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ.

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ.

◆ وَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَكْبَرُ الْأَثَرِ فِي تَقْوِيمِ لِسَانِي.

◇ الْحَمْدُ لِلَّهِ، ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ.

◆ وَالْآنَ، أَبَقِيَ فِي هَذَا الْبَابِ شَيْءٌ لِأُضِيفَهُ إِلَىٰ بَابِ: «مَا يُقَالُ وَمَا لَا يُقَالُ»

مِنْ مُذَكِّرَاتِي ، أَمْ إِنَّكَ أَعْدَدْتَ لِي شَيْئًا جَدِيدًا ؟ .

◇ بَلْ مَا يَزَالُ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْيَاءُ وَأَشْيَاءُ .

◆ إِذَنْ تَفَضَّلْ عَلَيَّ بِبَعْضِهَا زَادَكَ اللَّهُ فَضْلًا وَعِلْمًا .

◇ إِنَّ مِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَفْعَالِ مَهْمُوزًا عَلَىٰ وَزْنِ « أَفْعَلْتُ » ، وَتَعْثُرُ بِهِ الْأَقْلَامُ فَتُورِدُهُ عَلَىٰ وَزْنِ « فَعَلْتُ » قَوْلُهُمْ : ضِفْتُ فُلَانًا بِمَعْنَىٰ أَنْزَلْتُهُ عَلَيَّ ضَيْفًا ، وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَضَفْتُ فُلَانًا أُضِيفُهُ . وَكَذَلِكَ تَقُولُ : أَضَفْتُ فُلَانًا إِلَىٰ فُلَانٍ بِمَعْنَىٰ نَسَبْتُهُ إِلَيْهِ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « ضِفْتُ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ يَا بُنَيَّ ، وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ .

◆ وَمَا مَعْنَاهَا ؟ .

◇ تَقُولُ : ضِفْتُ فُلَانًا ؛ إِذَا نَزَلْتَ أَنْتَ عَلَيْهِ ضَيْفًا .

◆ عَظِيمٌ ... إِذَنْ أَقُولُ : أَضَفْتُ فُلَانًا إِذَا أَنْزَلْتُهُ عَلَيَّ ضَيْفًا ، وَضِفْتُ فُلَانًا إِذَا نَزَلْتُ أَنَا عَلَيْهِ ضَيْفًا .

◇ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

◆ وَأَيْضًا ؟ .

◇ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضًا قَوْلُهُمْ : رَاقَ الدَّمَ بِمَعْنَىٰ أَسَالَهُ وَهُوَ خَطَأٌ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ : أَرَاقَ الدَّمَ .

◆ وَمَاذَا عَنْ صِيغَةِ « رَاقَ » أَمَا لَهَا وُجُودٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؟ .

◇ بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنْ بِمَعْنًى آخَرَ.

◆ وَمَا مَعْنَاهَا؟.

◇ تَقُولُ: رَاقَنِي الشَّيْءُ يَرُوقُنِي بِمَعْنَىٰ أَعْجَبَنِي يُعْجِبُنِي.

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي كُلَّ خَيْرٍ.

◇ آمِينَ، اللَّهُمَّ آمِينَ.

* * *

◆ وَرَوْضَةُ الشِّعْرِ، مَاذَا عَنْ رَوْضَةِ الشِّعْرِ؟.

◇ إِنَّهَا نَدِيَّةٌ مِعْطَارٌ.

◆ وَمَنِ الشَّاعِرُ الَّذِي سَنُلِمُّ بِرَوْضِهِ؟.

◇ هُوَ مَجْدُ الدِّينِ الْإِرْبِلِيُّ.

◆ وَأَيْنَ وُلِدَ مَجْدُ الدِّينِ، وَفِي أَيِّ عَصْرٍ كَانَ؟.

◇ وُلِدَ مَجْدُ الدِّينِ - يَا بُنَيَّ - فِي مَدِينَةِ «إِرْبِلَ»(١) وَتَنَقَّلَ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْحَنِينِ إِلَىٰ «دِمَشْقَ»، فَمَا ابْتَعَدَ عَنْهَا مَرَّةً إِلَّا دَعَتْهُ دَوَاعِي الشَّوْقِ إِلَيْهَا؛ فَسَرْعَانَ مَا كَانَ يُلَبِّي النِّدَاءَ، وَقَدْ وُجِدَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهِجْرِيِّ.

◆ إِذَنْ هُوَ مِمَّنْ يَدْعُونَهُمْ بِشُعَرَاءِ عَصْرِ الِانْحِطَاطِ.

◇ إِنَّ فِي إِطْلَاقِ صِفَةِ الِانْحِطَاطِ عَلَىٰ هَذَا الْعَصْرِ لَظُلْمًا كَبِيرًا لِلْحَقِيقَةِ وَالتَّارِيخِ، فَقَدْ وُجِدَ فِي هَذَا الْعَصْرِ شُعَرَاءُ أَفْذَاذٌ كَمَجْدِ الدِّينِ الْإِرْبِلِيِّ،

---

(١) إربل: مدينة في شمال العراق.

وَوُجِدَ آخَرُونَ مُقَصِّرُونَ .

◆ وَمَا الْقَصِيدَةُ الَّتِي جَنَيْتَهَا مِنْ رَوْضِهِ ؟ .

◇ قِطْعَةٌ رَائِعَةٌ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ قَالَهَا يَتَشَوَّقُ فِيهَا إِلَىٰ « دِمَشْقَ » .

◆ وَمَاذَا يَقُولُ فِيهَا ؟ .

◇ يَقُولُ :

لَعَلَّ سَنَا بَرْقِ الْحِمَىٰ يَتَأَلَّقُ
عَلَىٰ النَّأْيِ أَوْ طَيْفًا لِأَسْمَاءَ يَطْرُقُ

وَعَلَّ الرِّيَاحَ الْهُوجَ تُهْدِي لِنَازِحٍ
عَنِ الشَّامِ عَرْفًا كَاللَّطِيمَةِ[1] يَعْبَقُ

دِيَارٌ قَضَيْنَا الْعَيْشَ فِيهَا مُنَعَّمًا[2]
وَأَيَّامُنَا تَحْنُو عَلَيْنَا وَتُشْفِقُ

رِيَاضٌ كَوَشْيِ الْبُرْدِ تَزْهُو بِحُسْنِهَا
جَدَاوِلُهَا وَالنَّوْرُ بِالْمَاءِ يُشْرِقُ

فَمِنْ نَرْجِسٍ يَخْشَىٰ فِرَاقَ رِيَاضِهِ
تَرَىٰ الدَّمْعَ فِي أَجْفَانِهِ يَتَرَقْرَقُ

كَأَنَّ قُدُودَ السَّرْوِ فِيهِ مُؤَانِسًا
قُدُودُ عَذَارَىٰ مَيْلُهَا مُتَرَفِّقُ

---

(١) اللطيمة : وعاء المسك .

(٢) مُنَعَّمًا : ذا نعيم ورفاهية وسعادة .

إِذَا مَا تَدَاعَتْ لِلتَّعَانُقِ ضدُّهَا

عُيُونٌ مِنَ النَّوْرِ الْمُفَتَّحِ تَرْمُقُ[1]

وَكَمْ جَدْوَلٍ جَارٍ يُطَارِدُ جَدْوَلًا

وَكَمْ جَوْسَقٍ[2] عَالٍ يُوَازِيهِ جَوْسَقُ

وَفِي الرَّبْوَةِ الشَّمَّاءِ لِلْقَلْبِ جَاذِبٌ

وَلِلْهَمِّ مَسْلَاةٌ وَلِلْعَيْنِ مَرْمَقُ

وَبِالْمِزَّةِ الْفَيْحَاءِ دَامَ نَعِيمُهَا

جِنَانٌ تَأَنَّى أَهْلُهَا وَتَأَنَّقُوا

حَدَائِقُهَا مِنْ رَيِّهَا ذَاتُ بَهْجَةٍ

بِهَا الرَّاحُ وَالرَّيْحَانُ وَالْوَرْدُ مُحْدِقُ

أَجِيرَانَنَا بِالْغُوطَتَيْنِ عَلَيْكُمُ

سَلَامُ مَشُوقٍ قَدْ بَرَاهُ التَّشَوُّقُ

* * *

◆ أَبَتِ ، لَدَيَّ سُؤَالٌ فَهَلْ تَأْذَنُ ؟ .

◇ هَاتِهِ هَاتِهِ ، فَأَسْئِلَتُكَ فِيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ .

◆ أَكْثَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْخَيْرَ وَمَتَّعَكَ بِالصِّحَّةِ .

◇ وَمَا سُؤَالُكَ ؟ .

◆ أَبَتِ ، يَقُولُ زُهَيْرٌ :

---

(١) ترمق : تنظر .

(٢) الجوسق : الحصن أو القصر الصغير .

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِيءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَىٰ عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

◇ نَعَمْ .

◆ فَمَا مَوْقِعُ «*مِنْ*» فِي قَوْلِهِ : «مِنْ خَلِيقَةٍ» ؟ .

◇ «*مِنْ*» هَذِهِ زَائِدَةٌ يَا بُنَيَّ .

◆ وَمَا الْغَرَضُ مِنَ الْإِتْيَانِ بِهَا إِذَا كَانَتْ زَائِدَةً ؟ .

◇ الْقَوْلُ بِزِيَادَةِ «*مِنْ*» لَا يَقْتَضِي أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ غَرَضٌ مِنْ إِيرَادِهَا ، وَإِنَّمَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ .

◆ وَمَا السِّرُّ فِي زِيَادَتِهَا ؟ .

◇ زِيَادَةُ «*مِنْ*» كَمَا فِي الْبَيْتِ الَّذِي أَوْرَدْتَهُ ، وَزِيَادَةُ «*الْبَاءِ*» كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿*وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ*﴾[1] إِنَّمَا هِيَ لِلتَّوْكِيدِ وَتَقْوِيَةِ الْكَلَامِ .

◆ لِلتَّوْكِيدِ وَتَقْوِيَةِ الْكَلَامِ !! .

◇ نَعَمْ يَا بُنَيَّ نَعَمْ ، أَلَا تَجِدُ فَرْقًا بَيْنَ قَوْلِي لَكَ :
أَنَا لَسْتُ *قَادِمًا* غَدًا ، وَبَيْنَ قَوْلِي : أَنَا لَسْتُ *بِقَادِمٍ* غَدًا ؟ .

◆ الْعِبَارَةُ الثَّانِيَةُ أَقْوَىٰ فِي نَفْيِ الْمَجِيءِ .

◇ وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ مِنَ الْحَرْفِ الزَّائِدِ الَّذِي هُوَ «*الْبَاءُ*» .

◆ وَمَتَىٰ تُزَادُ «*مِنْ*» فِي الْكَلَامِ ؟ .

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٦.

◇ تُزَادُ «مِنْ» فِي الْكَلَامِ بِعِدَّةِ شُرُوطٍ.

◆ وَمَا هِيَ ؟.

◇ أَوَّلُهَا : أَنْ يَتَقَدَّمَهَا نَفْيٌ نَحْوَ «مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ».

◆ وَثَانِيهَا ؟.

◇ وَثَانِيهَا : أَنْ يَتَقَدَّمَهَا نَهْيٌ نَحْوَ «لَا يَقُمْ مِنْ أَحَدٍ».

◆ وَثَالِثُهَا ؟.

◇ وَثَالِثُهَا : أَنْ يَتَقَدَّمَهَا اسْتِفْهَامٌ بِهَلْ نَحْوَ: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[1].

◆ وَالرَّابِعُ ؟.

◇ وَالرَّابِعُ : أَنْ يَتَقَدَّمَهَا شَرْطٌ كَمَا فِي قَوْلِ زُهَيْرٍ الَّذِي أَوْرَدْتُهُ.

◆ وَالْخَامِسُ ؟.

◇ وَالْخَامِسُ : أَنْ يَكُونَ الِاسْمُ الَّذِي تَدْخُلُ عَلَيْهِ نَكِرَةً كَمَا فِي الْأَمْثِلَةِ السَّابِقَةِ جَمِيعِهَا.

◆ وَلَكِنْ ...

◇ وَلَكِنْ مَاذَا ؟.

◆ وَلَكِنْ كَيْفَ نُفَرِّقُ بَيْنَ «مِنْ» الْأَصْلِيَّةِ وَ «مِنْ» الزَّائِدَةِ ؟.

---

(١) سورة فاطر الآية ٣.

◇ بِبَسَاطَةٍ بَالِغَةٍ ، فَعَلَامَةُ «مِنْ» الزَّائِدَةِ أَنَّكَ إِذَا أَسْقَطْتَهَا مِنَ الْكَلَامِ لَمْ يَخْتَلَّ مَعْنَاهُ .

◆ إِذَا أَسْقَطْتُهَا مِنَ الْكَلَامِ لَمْ يَخْتَلَّ مَعْنَاهُ ؟! .

◇ نَعَمْ ؛ فَفِي وُسْعِكَ أَنْ تَقُولَ : « لَا يَقُمْ أَحَدٌ » ، وَأَنْ تَقُولَ : « لَا يَقُمْ مِنْ أَحَدٍ » ... أَمَّا «مِنْ» الْأَصْلِيَّةِ ؛ فَلَا تَسْتَطِيعُ إِسْقَاطَهَا مِنَ الْكَلَامِ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي وُسْعِكَ أَنْ تَقُولَ : شَرِبْتُ الْبِئْرَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِكَ : شَرِبْتُ مِنَ الْبِئْرِ .

◆ جَزَاكَ اللَّهُ عَنِّي كُلَّ خَيْرٍ .

◇ آمِينَ .

* * *

◆ أَبَتِ ، وَمَاذَا عَنْ طُرْفَةِ الْجَلْسَةِ ؟ .

◇ كُلُّ خَيْرٍ ... كُلُّ خَيْرٍ يَا بُنَيَّ : جَاءَ فِي زَهْرِ الْآدَابِ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ أَشْعَبَ قَالَ لَهُ : لَوْ صِرْتَ إِلَيَّ نَسْمُرُ وَنُصِيبُ عِنْدَنَا طَعَامًا !! .

قَالَ : أَخَافُ أَنْ يُكَدِّرَ مَجْلِسَنَا ثَقِيلٌ .

قَالَ : لَيْسَ مَعَنَا ثَالِثٌ .

ثُمَّ مَضَيَا مَعًا ، حَتَّىٰ إِذَا صَارَا إِلَىٰ الْمَنْزِلِ وَاسْتَرَاحَا فِيهِ ، دَعَا صَاحِبُهُ بِالطَّعَامِ ، فَإِذَا طَارِقٌ يَطْرُقُ الْبَابَ ، فَقَالَ أَشْعَبُ : أَرَانَا صِرْنَا إِلَىٰ مَا نَكْرَهُ .

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ، إِنَّ الَّذِي بِالْبَابِ لَصَدِيقٌ ، وَإِنَّ فِيهِ عَشْرَ خِصَالٍ إِنْ كَرِهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ لَمْ آذَنْ لَهُ .

قَالَ : هَاتِ ...

فَقَالَ : أَوَّلُهَا أَنَّهُ صَائِمٌ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ .

فَقَالَ أَشْعَبُ : التِّسْعُ لَكَ ، قُلْ لَهُ يَدْخُلْ .

* * *

فهرس ألف بائي للألفاظ التي تلحن بها العامة

فهرس مسائل العربية

فهرس المعارف العامة

الفهرس

* * *

كتب للمؤلف

نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد

هذا الكتاب سلاح لمقاومة ما نتعرض له من غزو فكري ووجداني وحضاري.. ودرع واقٍ يقف في وجه التيار الجارف للمذاهب الأدبية المنبثقة عن نظرة أصحابها إلى الإنسان وما حوله.. لقد عرض المؤلف أهم المذاهب الأدبية وموقف الإسلام منها، وموقف الإسلام من الأدب بعامة ومن الشعر بخاصة، والخصائص العامة لهذا المذهب الأدبي الذي نسعى له.. وقد خلص المؤلف إلى رسم منهج لمذهب إسلامي في الأدب والنقد يُيَسِّر لنا وضع المعايير والمقاييس؛ لمعرفة الغث من الطيب.

* * *

شعر الدعوة في العصر النبوي

حظيت أغراض الشّعر العربيّ واتجاهاته بدراسات كثيرة وافرة؛ فتناول الدّارسون فيما تناولوه: المديح، والهجاء، والغزل، والخمر، والمجون، والنّقائض، والطّرد، وغير ذلك من الموضوعات. لكنّ شعر الدّعوة الإسلاميّة؛ الّذي اتّقدت شعلته منذ بزوغ فجر الإسلام إلىَ يومنا الحاضر؛ لم يلق شيئًا من العناية الّتي لقيتها أغراض الشّعر الأخرىَ.. وقد حدّد المؤلّف المراد بشعر الدّعوة بشكل عام، واعتنىَ به في العصر النّبويّ بشكل خاص.. حيث بَيّنَ مصادره، وتكلم عن ما أثير من شكوك في صحته.. إنّ هذا الكتاب بمثابة النّواة الحقيقيّة لموسوعة أدب الدّعوة الإسلاميّة؛ الّتي تبنتها كليّة اللّغة العربيّة بالرّياض؛ والّتي تمّت تحت إشرافه وتوجيهه.. فلم يكن لهذه الموسوعة الأثر الملموس في تغيير بعض المسلّمات الأدبيّة الخاطئة فحسب؛ بل إنّها قلبت تلك المسلّمات الأدبيّة قلبًا.

* * *

صور من حياة الصحابة - المجلد الأول والثاني

الطبعة الشرعية

يعرض صورًا من حياة مجموعة من نجوم الهداية التي نشأت في أحضان المدرسة المحمدية؛ بأسلوب جمع بين البلاغة الأدبية، والحقيقة التاريخية.. فيجد طالب الأسلوب الإنشائي في هذا الكتاب بغيته، وناشد الفن القصصي طُلْبَتَهُ، والساعي إلى التأسّي بالكرام ما يرضيه ويغنيه، والباحث عن الحقيقة التاريخية ما يفي بغرضه.

* * *

صور من حياة الصحابيات

هذا الكتاب يجوب بنا في رحاب حياة المرأة المسلمة التي عاشت في كنف الرّسول الكريم ﷺ من خلال صور واقعية؛ تعبر عن منهج الإسلام القويم الذي وضع الأسس لحقوق المرأة وواجباتها.. فَتَحْتَ ظِلِّهِ بايعت على ما بايع عليه الرجال، ورسمت أسمى

معاني البذل والعطاء في سبيل ذلك. ولم تقتصر خصائل المرأة المسلمة على أنها مؤمنة راسخة الإيمان، وزوجًا وأمًا من الطراز الأول، ربت فأحكمت وأُصيبت فاحتسبت.. بل كانت فوق ذلك كله مجاهدة في سبيل الله.. فخاضت المعارك وضمدت الجراح، وحملت الزاد وأصلحت السهام، وسكبت الماء في حلوق العطاش وهم يجودون بنفوسهم في سبيل الله.. إنها حياة المرأة المسلمة بكل ما فيها من سمو وفخار.

* * *

صور من حياة التابعين

طبعة جديدة منقحة

يعرض صورًا واقعية مشرقة من حياة مجموعة من أعلام التَّابعين الذين عاشوا قريبًا من عصر النبوة، وتتلمذوا على أيدي رجال المدرسة المحمدية الأولى.. فإذا هم صورة لصحابة رسول الله ﷺ في رسوخ الإيمان، والتعالي عن عَرَض الدنيا، والتفاني في مرضاة الله.. وكانوا حلقة مُحكمة مُؤثرة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم وجيل أئمة المذاهب ومَنْ جاء بعدهم. وقد قسمهم علماء الحديث إلى طبقات، أولهم مَنْ لَحِقَ العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم مَنْ لَقِيَ صغار الصَّحَابة أو مَنْ تأخرت وفاتهم.

* * *

العدوان على العربية عدوان على الإسلام

طبعة مزيدة ومنقحة

أَلْقَىٰ الأضواء علىٰ الحرب التي شنها الأعداء علىٰ لُغة القرآن؛ تارةً في السِّرِّ وأُخرىٰ في العَلَنِ.. وناقش الحُجَجَ التي أطلقها الخصوم تحت ستار التَجديد والإصلاح.. وَبَيَّنَ تَفَرُّد هذه اللُّغة وَتَمَيُّزها عن غيرها من لُغات الأرض، وقدرتها علىٰ الوفاء بمتطلبات الحياة، والنَهوض بأعباء الحضارة. كما وضَح الدّكتور الباشا حقَ أبنائنا علينا في الذَود عن لُغتهم، وصيانة فُصحاها من أن تمتدّ إليها يَدُ بالتّحريف والتّبديل.. وأن نجاهد من أجلهم كما جاهد آباؤنا من أجلنا.. لأنَ العدوان علىٰ هذه اللُّغة إنّما هو عدوان علىٰ الإسلام.

* * *

فن الامتحانات بين الطالب والمعلم

للامتحانات أهمية كبرى في مختلف المراحل التعليمية.. من هذا المنطلق أوضح المؤلف للمُعَلّم مهمة الامتحانات وأنواعها، ومكامن ضعفها، ومواضع صلاحها. كما وجه الطالب إلى الطريقة المثلى التي يعد بها العدة للامتحانات، بمختلف مراحله الدراسية.. بدءًا بالاستعداد للامتحانات، والذي يعتمد على كيفية جني ثمار ما قد بذله الطالب من جهد خلال عامه الدراسي، وانتهاءً بورقة الإجابة والعوامل المؤثرة في تقدير الدرجة، مما يمهد الطريق للنجاح.

* * *

فن الدراسة

إنَ تَعَلُّمنا كيف نَدرُس دراسةً فعالةً لأبعَدُ أثرًا وأعظم خطرًا من اكتساب المعلومات.. فالدّراسة فنٌ يَهْدِف إلى تعليم الطالب: كيف يفكر، ويناقش، ويلاحظ. وكيف يحلل، وينظم، ويركز. وكيف يستوعب، ويختزن، ويطبِّق. إن هذا الكتاب يُعَرِّف الطلاب الطريق الأمثل للنجاح والتفوق.. ويَرْسُمْ أمامهم السُّبلَ واضحةً؛ لينالوا حدًّا أعلى من الفائدة؛ ببذل حدّ أدنى من الجهد.

* * *

أرض البطولات

رواية تاريخية تعرض قصة من قصص كفاح أمتنا؛ كتبها شعبنا المؤمن بشفرات السيوف، وحَبَّرها بزكي الدماء ضد المستعمر.. فزمنها هو ربع القرن الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، ومكانها هو تلك الربوع الشامية، وأشخاصها مواطنون معروفون. وقد كُتِبَتْ هذه القصة بلغةٍ فصحى؛ ليكون في ذلك بلاغ لأولئك الذين يشيعون بين الناس أن هذا الفن من القول لا يسلس إلا للعامية، ولا يُؤَدَّى إلا بها.

* * *

الطريق إلى الأندلس [لمحات وقطوف]

لم يكتمل قرن واحد من الزمان بعد هجرة النبي ﷺ حتى أظلت رايات الإسلام أصقاعًا شاسعة من هذه الدنيا، وكان منها الأندلس.. لم يكن الطريق إلى الأندلس ممهدًا ولا سهلاً.. فقد سلكه المسلمون بتخطيط واعٍ، وإعداد جاد، وعمل دءوب.. وبذلوا في سبيله النفس والنفيس. لقد عرض المؤلف بأسلوبه القصصي الشيق أهم معالم هذا الطريق، بداية من حصار حصن بابليون في مصر، إلى أن عبروا مضيق جبل طارق، وما بين هذين المكانين من أحداث. لقد كان الطريق إلى الأندلس طريقًا إلى الله، ولله.. وقاده السابقون الأولون حقه، وتركوا للأجيال من بعدهم الأسوة والقدوة؛ لعلهم يقتدون.

* * *

البطولة

للبطولة مقوِّمات قد لا توجد عند كل شجاع.. وللشجاعة سمات قد يتحلى بها قُطّاع الطرق.. فهل البطولة هي الشجاعة؟!! وهل كل شجاع بطل؟!! إن هذا الكتاب محاولة واعية جادة لإبراز جلال معنى البطولة وسمو قيمتها، تبدأ بالنظرة اللغوية لتنتقل إلى النظرة الموسوعية. لقد حدد المؤلف للبطولة إطارًا أبرز من خلاله أهم معالمها، والبواعث التي تبعث عليها، وضرب لكل باعث منها قصة حقيقية واقعية من تاريخنا الثري الغني. إن هذا الكتاب قدوة في سلامة الفكر، واستقامة القصد، ونبل الغاية، وصفاء اللغة، وإيجاز العبارة، ووضوح التعبير.

* * *

حدث في رمضان

وقفات تاريخية بأسلوب قصصي ممتع، رصدت بعض الأحداث التي وقعت في شهر رمضان المبارك.. وشهد فيه العالم الإسلامي أيامًا متنوعةً.. منها الحزينة التي لا تذهب الأيام بمرارتها.. وأيامًا أعز الله فيها المسلمين من هوان، وقواهم من ضعف، وأعلى في هذا الشهر الكريم رايات الإسلام، ورفع في أيامه أعلام القران.. فحبذا رمضان، وحبذا أيامه الغر الميامين.

* * *

الدين القيم

أثار قضية من أهم القضايا المؤثرة في حياة البشرية ألا وهي المنهاج الذي يرسم الطريق لجوانب حياتها، ويوائم متطلبات جسدها ونوازع روحها.. وأنّ الإنسان بأهوائه وعلمه وعقله؛ عاجز كل العجز على أن يضع هذا المنهاج الشامل الذي يصلح للبشرية كلها في سائر أجيالها.. وقد حسم المؤلف هذه القضية بأن هذا المنهاج هو الدين بمنطق لا يحتمل الجدل. وتطرق في هذا الكتاب إلى أهم العلاقات الإنسانية المؤثرة في أي مجتمع كان، والتي نظّمها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا.. وبَيّنَ الفارق العظيم بين مدنية الإسلام التي فاضت بالخير والبر؛ حتى بلغت ترفًا، وبَيّنَ مبادئ الحضارة الغربية التي لا ينعم بها الملونون الغربيون أنفسهم..

* * *

من آثاره المترجمة إلى الإنجليزية:

كتاب "صور من حياة الصحابة" المجلد الأول = Portraits from the Lives of the Companions (3 Vol. Set)

Translator: Alexandra S. al-Osh — Editor: Osama Muhammad Raslan

كتاب "الدين القيم" = The True Religion

Translator: Dr. Sameh M. Asal — Editor: Reima Shakier

هذا الكتاب

للغة أهمية كبرى في تكوين الأمم وحفظ كيانها من الضياع؛ فهي الأساس الذي ترسى عليه دعائم وحدتها والمعالم الذي يحدد شخصيتها...

واللغة العربية بخاصة ليست قومية فحسب؛ وإنما هي لغة دينية أيضاً... فهي لغة قرآننا العظيم، ووعاء ديننا القويم، وخزانة تراثنا الروحي والعقلي... ذلك ما قد نبّه إليه الدكتور الباشا - رحمه الله - في كتابه هذا؛ مستنهضاً الهمم لإتقانها وسبر أغوارها.

حيث وازن بين اللغة العربية وغيرها من اللغات؛ مبرزاً ما امتازت به على سائر لغات الأرض من خصائص عبقرية تجعلها لغة المستقبل.

وقد أشار المؤلف - رحمه الله - إلى ما يقارب من المائتي لفظ يكثر فيها اللحن ويبين صوابها... كما أورد طائفة من الألفاظ التي تشهد لهذه اللغة بغنى مفرداتها ودقة أدائها؛ مما يجعل منها ثروة من المصطلحات للعلماء، وذخيرة للكاتبين والشعراء.

لقد ساق الدكتور الباشا - رحمه الله - ذلك كله في أسلوب حواري فريد؛ جمع العمق والدقة، إلى الوضوح والبساطة، مع الطرفة والملاحة...

فالكتاب في مجمله: بعث للتراث وتقويم للسان، وتعزيز للغة المستقبل.

يمان بن عبد الرحمن الباشا

